

الأعمال القصصيّة الكاملة

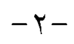
سعيد حورانيّة

سلسلة الأعمال الكاملة (١)

الأعمال القصصية الكاملة

سعيد حورانية

١٩٢٧ - ١٩٩٤



الأعمال القصصيّة الكاملة

سعيد حورانيّة

١٩٢٧ - ١٩٩٤

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م

صدرت الطبعة الأولى

عام ٢٠٠٥م

منشورات وزارة الثقافة

(سلسلة الأعمال الكاملة؛ ١)

الأعمال القصصية الكاملة / سعيد حورانية .- ط٢ .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م.- ٥٧٦ ص: مص ؛ ٢٤ سم.

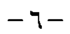
(الأعمال الكاملة؛ ١) . صدرت الطبعة الأولى ٢٠٠٥م

١- ٨١٣,٠٠٨ ح و ر أ ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ح و ر أ

٣- العنوان ٤- العنوان ٥- السلسلة

مكتبة الأسد





مقدمة

١٩٢٧ - ١٩٩٤

«قد تكون مصلحتكم في أن تكونوا أسيادنا... ولكن كيف يمكن أن تكون مصلحتنا في أن نكون عبيدكم؟».

توكيديس

- ١ -

... وتجرؤ على أن تكتب قصصًا قصيرة؟

ما قرأت كتابًا لسعيد حورانية، ثم ما رأيته مرة بعد أن تعرفت إليه، إلا وتذكرت هذه العبارة من حوار، أو من حادثة جرت معي:

كنت في الصف الثاني من قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، وقد تعرفت إلى زميل كان يهوى المطالعة، ويكتب القصة القصيرة، وذات يوم، في مقصف الجامعة، سألني هذا الزميل:

– وأنت... ألا تكتب؟

متلعثمًا وخجلاً أجبته:

– أكتب...

وبالطبع خجلت أن أقول ماذا أكتب، ولكن الزميل تابع سؤاله:

- ماذا تكتب؟!

- أكتب... أكتب... قصة قصيرة...

صمت الزميل القصاص، برهة، وكان قد نشر في مجلات معروفة آنذاك منها «الأسبوع العربي» و «المضحك والمبكي» ثم سألني فجأة؟

- قل قرأت قصص سعيد حورانية؟

كانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها باسم سعيد حورانية، نظرت إلى الأرض، وقد ازداد ارتباكي وخجلي أمام زميل يفوقني في التجربة والثقافة والمعرفة، فقد كنت شابًا ريفيًا آتيًا من مدينة صغيرة، بينما كان زميلي شابًا من مدينة كبيرة، وكما هو الوضع الآن بالضبط، فأنت لا تستطيع أن تجد في «طرطوس» الكتب التي تجدها في دمشق.

أجبت زميلي:

- لا... لم أقرأها. وبحدة فيها مزيج من الدعابة والقسوة، بل والعتب، ومع ابتسامة ما أزال أذكر منها ملامح الإشفاق واللوم معًا، قال الزميل:

- لم تقرأ قصص سعيد حورانية، وتجرؤ على أن تكتب قصة قصيرة؟!

صمت لحظة، وأذكر أنه قطب ما بين حاجبيه، ثم انفرجت أساريره وقال:

- قم ... تعال معي إلى البيت... خذ قصص سعيد حورانية... اقرأها... ثم أكتب قصة قصيرة.

قرأت مجموعتي قصص سعيد حورانية «شتاء قاس آخر» و «سنتان وتحترق الغابة» في ذاك اليوم الذي حدثت معي الحادثة التي رويتها لكم، وبعدها، في أواسط السبعينات، تعرفت على سعيد حورانية، وربما أستطيع أن أدعي أننا كنا في مرحلة أصدقاء، لكنني بقيت، وبعد أن قرأت قصصه، بل

وكلما قابلته، أشعر بشيء من الارتباك والخجل اللذين شعرت بهما عندما «قرَّ عني» زميلي عام ١٩٦٨، بل أنني أقول لنفسي بين حين وآخر، وربما كلما كتبت قصة قصيرة:

«قرأت قصص سعيد حورانية وقصص زكريا تامر ويوسف إدريس وتشيخوف وموباسان وهمنغواي وكاترين مانسفيلد وإيتالو كالفينو وبورخيس ومحمد خضير، وتجرؤ على كتابة قصة قصيرة ؟!».

سعيد حورانية وزكريا تامر شكَّلا، بالنسبة لجيلي، الأستاذين اللذين كانا علينا أن نكتب القصة وطيفهما حائم فوق مخيلتنا وأقلامنا، فإما أن نفعل شيئًا يليق بالأستاذين، أو أن لا نكتب. كان سعيد حورانية قادمًا من اندفاعة الخمسينيات والتي كانت ردًا مجتمعيًا على هزيمة الـــ ٤٨، وكان جيلنا قادمًا في السبعينيات ردًا مجتمعيًا آخر على على هزيمة الـــ ٧٦، وربما كان هذا مما جمعنا به أدبًا وأفكارًا ونمط حياة، أما زكريا تامر فقد كان آتيًا من الحساسية والأوضاع الجديدة التي تشكلت في الستينيات، والتي أعقبت اندفاعة الخمسينيات وفورتها، وبداية ظهور أنظمة التسلط والقمع وحكم الأجهزة المخابراتية مع تجربة الوحدة المجهضة، كان سعيد حورانية بحادثته المركزة ولغته الواضحة واندفاعات سرده، قمة لا يمكن أن تجارى، وكان زكريا تامر بمخيلته الشاعرية، قمة أخرى، وكان علينا أن نسبح في الوادي بينهما.

لكن ماذا من قصص سعيد حورانية وعالمه القصصي؟!

- ٢ -

أعلنت مجموعة سعيد حورانية الأولى «وفي الناس المسرة – ١٩٥٢» أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، ميلاد كاتب وعالم قصصي جديد، وذلك بإعلانها أن الجيل في المجتمع العربي- في سورية – قد بدأ الانفصال

عن الجيل القديم، لكن هذا الانفصال عند سعيد حورانية لم يأخذ شكل «صراع أجيال»، كما يمكن أن يقال لدى التحليل السريع، بل إن هذا الصراع فهم على حقيقته «صراع أفكار ورؤىً»، وبمعنىٍ أكثر تحديدًا «صراع طبقـــات». فالصراع الفكري أحد مظاهر، أو أحد أبعاد الصراع الاجتماعي. ومن هنا نفهم لماذا يترك «حامد» في قصة «سريري الذي لا يئن» أهله ليعيش وحيدًا: إن الفكر الجديد، ممثل القوى الشعبية الجديدة، والتي بدأت تعي نفسها حديثًا، أي بعد الخروج العسكري والإداري للفرنسيين، إن هذا الفكر بدأ يعبر عن نفسه، وعن وضع القوى الجديدة التي يمثل: عن رفض هذه القوى للواقع، الذي هو استمرار للماضي.

لقد تمرد حامد على أفكار أسرته، وانفصل عنها، وعلى الرغم من مشهد الفراق العاطفي فإن حامدًا لم ينثن عن قراره، بل إنَّ حامدًا وجد ذاته الحقيقية في انفصاله عن أسرته، أي عن نمط الأخلاق، وعن المجتمع القديمين. إن انفصال حامد لم يكن مجرد تمرد شاب، بل كان انفصالاً فكريًا، «انفصالاً طبقيًا» بالضبط. - وهذا ما عرفناه في سعيد حورانية عند تشاركنا وإياه عيش نمط حياة جديدة فيما بعد - يفكر حامد في غرفته - حياته - الجديدة: «... أشعر أنني قوي رغم كل شيء... وأنني وجدت ذاتي التي أضعتها منذ وقت طويل». وكما هو معروف، فإن إضاعة الذات هي «الاغتراب»، والعكس صحيح.

هذا الصراع بين حامد وأهله، بين الشباب والشيوخ، بين الحاضر والماضي، بين الجديد والقديم، سوف يأخذ صورته وبعده الاجتماعي الواضح في مجموعتي سعيد حورانية التاليتين: «شتاء قاس آخر»، و «سنتان وتحترق الغابة». وفي هاته المجموعات الثلاث يكتمل رسم عالم قصص جديد تمامًا، ومغاير لعالم العجيلي السابق، فإذا كان عالم العجيلي القصصي هو عالم – مجتمع – القدر، والمصادفة، والثبات، فإن عالم – مجتمع – سعيد حورانية

القصصي هو عالم الكفاح والتغيير والأمل، عالم قصصي لن يدرك كنهه تمامًا إلا بالرجوع إلي مرحلة الخمسينيات وديناميكيتها، مرحلة الكفاح الاجتماعي – الوطني الفكري الذي شهدته الساحة العربية، والسورية خصوصًا. فهذا الصراع، الذي قامت به القوى الشعبية وأفكارها، التي بدأت تعي نفسها وقوتها حديثًا – آنذاك – تبدى جليًا في العالم القصصي لسعيد حورانية. وكما كان الصراع واضحًا على أرض الواقع، فقد كان واضحًا في أرض العالم القصصي لسعيد حورانية حيث ينتهي الصراع في هذا العالم القصصي بانتصار القوى الشعبية، ذلك أن سعيد حورانية يضيف إلى عالمه القصصي رؤيته الفكرية لحركة التاريخ: الإيمان بالإنسان والمستقبل. هذا ما رآه الكاتب، فأضافه إلى الواقع القصصي. وبهذا فإن العالم القصصي لهذا القاص لا يقف عند حدود مرحلة الخمسينيات، بل ينفذ خارجها باتجاه المستقبل كما يراه أو يريده الكاتب، وبمثل هذا العالم القصصي نقول: إن الواقعية ليست نقلاً «ميكانيكيًا» للواقع. إن الواقعية هي رؤية لحركة الواقع واتجاه هذه الحركة.

يقوم الصراع في عالم سعيد حورانية القصصي بين قوتين تتصارعان في الطبيعة، وككاتب واقعي أصيل، فإن هذا الصراع بين «قوتين في الطبيعة» يتجسد ويتعين، واقعيًا – اجتماعيًا، على الشكل التالي:

١ – القوة الأولى:

تتجسد هذه القوة، في القوى المسيطرة والظالمة في المجتمع، وبكل أنواع السيطرة والظلم: العسكر والدرك الذين ينفذون قانونًا جائرًا: الأهل الذين يمثلون قيمًا اجتماعية – أخلاقية قديمة: الإقطاعيون والحكومة والمستعمرون. وهناك البوم والغربان كرمز لهذه القوى، وإذا استخدمنا اللغة الفلسفية نقول : هناك في جانب واحد قوى الشر مجتمعة، لكنها تظهر في هذا العالم القصصي مجسدة. واقعية، بشرية.

٢ – القوة الثانية:

هي القوة النقيض للقوة الأولى والتي تتعرض لعسفها وظلمها، فتتحرك مكافحة هذا العسف. تتجسد هذه القوة في عالم سعيد حورانية القصصي عبر شخصيات الشباب الثائر على أخلاقيات الأهل، والبدوي الفقير المدافع عن شرفه، والفلاحين المدافعين عن أراضيهم، والعمال المتظاهرين والمسجونين والمناضلين ضد الاستعمار والإقطاع، تتجسد هذه القوى في الفقراء عمومًا. وكرمز، يستخدم سعيد حورانية الطيور الجميلة. فلسفيًا، يمكن تسمية هذه القوى بقوة الخير، لكنها قوى مجسدة، واقعية، بشرية، وهنا نضيف : إنسانية.

٣ – الطبيعة – المكان:

من خلال الصراع بين هاتين القوتين ينبني العالم القصصي لسعيد حورانية، تمامًا مثلما ينبني العالم الواقعي من خلال الصراع بين هاتين القوتين إياهما. وإذا كانت هاتان القوتان مجسدتين بشريًا، عيانيًا، فإن الطبيعة، مكان الصراع، مجسدة أيضًا، عيانيًا، جغرافيا. إن مكان الصراع هو الأرض التي تعيش عليها هاتان القوتان، وهو في عالم سعيد حورانية القصصي، الأرض العربية في «سورية» من السويداء إلى القامشلي، من جبال السويداء بثلوجها وأشجارها، إلى سهوب الجزيرة بوحلها، وإقطاعها، وفلاحيها. ولهذا فإن الصراع في هذا العالم القصصي يتجلى عيانيًا في حياة الناس العاديين اليومية، البطولية، في كفاح هؤلاء الأبطال ضد كل ما ومن يضطهدهم. ومن هنا فإن الصراع يأخذ في عالم سعيد حورانية القصصي شكلاً وبعدًا إنسانيًا– اجتماعيًا – فكريًا محددًا، أي أن الصراع يظهر في هذا العالم القصصي كما يبدو بالنسبة للكاتب في الواقع : صراع بين الظالم والمظلوم، صراع بين قوى تريد إدامة ذل الإنسان وبؤسه وجوعه، وبين قوة تريد رفع سيطرة وظلم

القوى الأولى. تأخذ القوى الأولى في الواقع والعالم القصصي، معًا، شكل الأخلاق القديمة وعسكر الاستعمار والإقطاع والحكومة، بينما تأخذ شخصيات الشباب المتمرد - في الواقع والعالم القصصي- والثوار ضد الاستعمار والحكومة، وشخصيات العمال والفلاحين، شكل القوة الثانية، أي أن هذه هي قوة: الشعب والخير والتقدم. وإذا كان الصراع في الواقع هكذا، حقًا، فإن سعيد حورانية يضيف إليه شيئًا هامًا، هو عماد عالمه القصصي؛ إنه، كما تقدم : المستقبل، مستقبل الشعب. الإنسان . الخير ...

إن إضافة «المستقبل»، أي رؤية حركة الصراع ككل، لا الاقتصار على جزئها الذي يراه الكاتب في حياته الشخصية، أو واقعه المحلي، أعطى سعيد حورانية بعدًا واقعيًا إنسانيًا، كونيًا، شاملاً، وجعل هذا العالم القصصي يخرج عن أن يكون مجرد «عكس» لمرحلة الخمسينيات زمنيًا، أو لواقع الصراع الطبقي في سورية، مكانيًا. إن سعيد حورانية لم يقتصر على أن يرى ببصره مرحلة الخمسينيات في سورية، بل رأى ببصيرته «مرحلة الصراع الإنساني» ككل، وكما يريد لها أن تكون وأن تنتهي. وبهذا كان عالمه القصصي رؤية تاريخية قد تكون أكثر صدقًا من عوالم قصصية أخرى اقتصرت علي رؤية مرحلة زمنية معينة، «جزء من الحركة»، فعممت هذا الجزء على الكل، فكان عالمها القصصي، عالمًا كاذبًا، علي الرغم من أنه يبدو للنظرة الأولى واقعيًا، صادقًا. قد تكون هذه الرؤية «ميكانيكية» أو قل «مانوية» إلى حدٍ ما، وقد تكون ساذجة، لكن ما ينقذها - فنيًا هو موهبة الكاتب وقدرته القصصية على السرد.

في محاولات سعيد حورانية، للالتصاق بالقوة الثانية، ومعانقة روحها - قوة الشعب - اضطر الكاتب، سواء في فن القصص عمومًا، أو في اللغة

القصصية، للتبسيط، وللاقتراب – أحيانًا – من اللهجة العامية. أما من حيث الشكل، ككل، فقد أدخل سعيد حورانية– وربما كان من أوائل من فعل هذا– تقنية قريبة من التكنيك السينمائي، فقد استخدم سعيد حورانية، وببراعة، ما يسمى «المونتاج المتوازي» حيث يتوازى حدثان مترابطان، ليقدما حدثًا واحدًا جامعًا للحدثين، يستخلص دلالة القصة ككل «قصة قيامة العازر». كما أن سعيد حورانية استخدم أحيانًا، وبشكل واعٍ و «ناضج »، عملية الترميز، حيث يجد الكاتب في رمز ما معادلاً لوضع واقعي – كما يراه – ولكن الترميز عند سعيد حورانية لا ينحل إلى مجرد علاقة – وجه شبه – بين المشبه والمشبه به، بل إنَّ قيمة عملية الترميز عند هذا الكاتب تكمن في أن الرمز يستخلص دلالة الواقع وأعماقه وبهذا لا يكون لرمز مصورًا أو «عاكسًا» للواقع – فوتوغرافيًا– بل لدلالة الواقع ومعناه وروحه، كما يرى الكاتب.

إلى جانب عملية الترميز في القصص، قدم سعيد حورانية قصصًا تكمن قوتها في مباشرتها وشدة ملاصقتها للواقع، حتى أنَّ القارئ لا يستطيع التمييز أحيانًا: هل الواقع فن، أم الفن واقع؟ هل ما يقرأ هو قصة ذكية أم هي «عريظة استرحام» يرفعها فلاحو قرية مضطهدة؟ إن ارتفاع قيمة عملية الترميز وارتفاع قيمة عملية« ملاصقة الواقع بدون رمز» في عالم سعيد حورانية القصصي يثبت حقيقة أدبية وهي أن الشكل بذاته لا يعني دائمًا الكثير، كما لا يعني «المضمون» بحد ذاته الكثير . فقصة «عاد المدمن» مغرقة في الرمزية، بينما قصة «عريظة استرحام» مغرقة في الواقعية، لكن القصتين ترتفعان معًا إلى أعلى ذرى الفن القصصي، بل إلى أعلى درجات التكنيك المختلف، وهما في الوقت نفسه تقفان موقفًا فكريًا واحدًا لم يتغير سواء في الرمزية أم الواقعية.

تقديرًا لفن القصة القصيرة في سورية، وتقديرًا لأحد رواده، في ذكرى وفاته العاشرة، تقدم وزارة الثقافة الأعمال القصصية الكاملة لسعيد حورانية:

١ - وفي الناس المسرة - ١٩٥٢.

٢ - سنتان وتحترق الغابة - ١٩٦٤.

٣ - شتاء قاسٍ آخر - ١٩٦٤.

إضافةً إلى حوار مهم يقدم فيه سعيد حورانية نفسه خير تقديم، ضمن مشروع وزارة الثقافة لإعادة نشر الأعمال الكاملة للكتاب السوريين المؤسسين، أو مختارات من أعمالهم.

محمد كامل الخطيب

٢٠٠٤

«أشهد أني قد عشت»(*)

مقابلـة

لم يكن لدينا، حينما حملنا أوراقنا وذهبنا للقاء كاتبنا الكبير سعيد حورانية، سوى بضعة أسئلة، أدبية حصرًا، كنا نتوقع، إذا ما تفرع الحديث، أن يتفرع منها ليعود إليها. ولكن، بعدما طرحنا سؤالنا الأول، وبدأ الكلام يتدفق من فم الأستاذ سعيد، على طريقته الشيقة الآسرة، وراح يحدثنا عن ذكريات الطفولة والشباب والضربتين: الإجبارية والطوعية، طوينا صفحة الأسئلة، وتحولنا، بسرور بالغ، من محاورين إلى مستمعين مأخوذين بما يرويه.

وبهذا فإن ما نضعه الآن بين يدي القارئ ليس حوارًا في الأدب ولا في السياسة، وليس سيرة ذاتية، وإنما هو مزيج من هذا كله، ولكنه مزيج يرسم لوحة بانورامية حية وشاملة لحياة المجتمع السوري عبر أربعة عقود من الزمن .

نعتقد أن هذه اللوحة ستكون مثار اهتمام ومصدر متعة لكل من يقرؤها.

حسن. م. يوسف

محمود عبد الواحد

(*) عنوان لمذكرات نيرودا استخدمه سعيد حورانية في مقال له عنها. وقد رأت مديرية التأليف والترجمة أن هذه المقابلة هي خير تقديم لأعمال الكاتب، تنشر الوزارة هذه الطبعة الكاملة للأعمال القصصية لسعيد حورانية بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته عام ١٩٩٤.

- نشأت في بيئة ميدانية دمشقية محافظة، ما هي النزعات التي تجاذبت وعيك وصياغته؟

وكيف انعكس ذلك على علاقتك بالأسرة والبيئة والمجتمع؟

البيئة التي نشأت فيها ليست «محافظة» بالمعنى الدقيق للكلمة، فالبيئة «المحافظة» لها مهادها الطبقي الطويل العريض. أنا من بيئة ذات تركيبة دينية وأبي شيخ مهم كان يحل ويربط. أذكر عندما كنت طفلاً أن بيتنا لم يخل لحظة من الضيوف، وضيوفنا لم يكونوا ضيوفًا بالمعنى الدقيق للكلمة بل ناس أصحاب مشاكل كانوا يقصدون أبي ليحلها لهم. وقد كانت كلمته هي الفصل في مثل هذه الأمور .

وبيئتي رغم تركيبتها الدينية لم تكن «محافظة» كانت بيئة دينية ثورية. كان بيتنا لا يبعد عن بيت الأشمر أكثر من خمسين مترًا وكان أبي من أركان حربه - إن صح التعبير- صحيح أن أبي لم يحارب لكنه كان بمثابة مستشار للأشمر يجمع له التبرعات أثناء الثورة ويرسلها إلى الثوار. كما أن جدّي أعدم شنقًا أيام العثمانيين، وقد ظل بيتنا دائمًا على علاقة بهاتين الناحيتين: حل المشاكل وتجمعات ثورية من نوع ما، ومن الطرائف المتصلة بهذا الموضوع هو أنني عندما تعلمت وصرت أعرف الخطابة (في الصف السابع أو الثامن) كان الأشمر يرسل في طلبي عندما كان يأتيه وفد من الشام باعتبار أن حي الميدان كان ضيعة من الشام آنذاك، وبما أنه لا يوجد من يستطيع الرد على الوفد كنت أقف وأخطب رغم أني ولدت بعد الثورة: «مرحبًا أيها الضيوف الكرام.. شرفتم هذه المنطقة التي اشتهرت أيام الفرنسيين بقوتها ونضالها ضد الاستعمار.. وكذا.. وكذا..».

كان صوتي رفيعًا وكنت ولداً أخطب برجال كل واحد له شارب يقف عليه الصقر ولا أعرف بأي منطق كان كلامي مقبولاً!

لو فعلتها الآن يمكن أن يكسروا رقبتي ويقولون حل عنا «شو جايب أولاد» ! لكن هــذا كان مقبولاً بشكل ما آنذاك ربما لأنهم كانوا يعتبرون أني أمثل أبي.. أو أمثل جوًا معينًا.

– قصدنا «بيئة محافظة» اجتماعيًا.. وهذا لا يعني أنها بيئة غير وطنية!

– قصة الاصطلاحات باللغة العربية قصة..! لغتنا ساءت .. لم يعد أحد يعرف معنى كلمة من كلمة..! فعلاً، ما اهترأت لغة في العالم مثل لغتنا! ؛كل يوم نسمع تعابير تتكرر في المجلات والصحف والإذاعة والتلفزيون» «إقبال جماهيري منقطع النظير»!.. وثيقة فريدة بالغة الأهمية. ماذا تعني هذه الكليشيهات بالنسبة للناس؟ لا شيء على الإطلاق ! لهذا عندما تقول بيئة محافظة يمكن أن أفهم كلامك بعشرين معنى. هناك بيئة محافظة سياسيًا؟ وبيئة محافظة اجتماعيًا وبيئة محافظة دينيًا وبيئة محافظة يساريًا!! كما أن هذه التعابير يختلف معناها من مكان لآخر فهي في الميدان تعني شيئًا وفي السلمية تعني شيئًا ثانيًا، في حين تعني في جبل العرب شيئًا آخر مختلفًا تمامًا! هناك قوى محافظة عملت مع الثورة وقوى محافظة ذبحت الثورة.

– طيب . وصّف بيئتك كما تشاء وحدثنا عن تأثيرها عليك؟

– تقدر أن تقول أنني عشت في بيئة تقليدية.. الميدان بوجه عام منطقة غنية بالتأثير. لأنها كانت تتكون من قسمين: طبقة فقيرة جدًا كما في منطقة الساحة والقاعة وغيرها من المناطق، وطبقة غنية جدًا وتتكون من تجار حبوب تنهب فلاحي حوران. كانت منطقتنا تمسك البوايكه– البوايكة جمع بايكة وهي مخزن الحبوب – وهي تمتد من أول رأس الميدان إلى آخره حيث كنت تجد البايكه بجانب البايكه.

إلى جانب هؤلاء كان الميدان يضم أكبر عدد من المهاجرين.. من الحجاز وجبل العرب وغيرهما.. قد شكّل هؤلاء المهاجرون فئات اجتماعية

متميزة منغلقة على نفسها. لذلك من الصعب القول إنه حي مستقر مرتب له حياته الاقتصادية الخاصة المنضبطة..

- في أي من هذين القسمين عشت؟

- عشت في الاثنين معًا، فأسرتنا من أصل بدوي قدمت إلى الشام من حوران فاستقرت عند أطرافها وصارت إحدى الأسر التي تتحرك بين الشام وحوران وتعمل بتجارة الحبوب.. تديِّن الفلاحين بالفائدة فيجلبون لها محاصيلهم.. وعلى هذا الأساس أصابها الغنى.. وهي لم تكن غنية أساسًا.

لكن اشتعال الحرب العالمية الثانية وإنشاء ما يسمى بالميرة التي حصرت بيع وشراء الحبوب بيد الدولة، جعل أسرتنا تبحث عن عمل جديد، فجمعت أموالها واشتغلت بها في البورصة . وبما أنهم كانوا لا يفهمون أصل الشغل فقد هبطوا دفعة واحدة . وفلس أبي نهائيًا وتحول إخوتي إلى كتبة عند تجار سوق الهال.

صحيح أن الأسرة انهارت انهيارًا تامًا لكن بقي لها بيتها وبقايا من هنا وهناك. وهكذا عشت حياة الغنى الشديد وحياة الفقر الشديد أيضًا . ففي الكفاءة كنت ألبس بنطلونًا عسكريًا مرقعًا من البالة العسكرية وقد بقيت ألبس ذلك البنطلون إياه حتى نلت البكلوريا!

الطرافة، إنه في الفترة التي كنا فيها مرفهين كنت متدينًا، درست عن مشايخ جامع الدقاق وكنت تلميذًا لحسن حبنكه وحتى الكفاءة والبكالوريا نلتهما بفضل الجامع؛ كنت أدرس في الجامع وأنام فيه، هنالك غرف للطلاب عادة، وكان لي شيخ يساعدني باللغة والألحان.. وهكذا تعلمت الغناء والألحان وسمعت أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب مع المشايخ المتعصبين لأن هؤلاء كان لهم علاقة طيبة بالغناء! ونمت حياتي الأدبية والفكرية والروحية في الجامع.

لكنني كنت أقرأ كثيرًا، مما لا يخطر على بال أبناء هذا الجيل، ففي الصف السادس الابتدائي قرأت كتاب الأغاني للأصفهاني لأن أخي كان طالب

بكلوريا في اللاييك (معهد الحرية الآن) وكانت «الأغاني» من مراجعهم إضافة لمجموعة من كتب التراث الكبيرة مثل «خزانة الأدب »، فتعلمت القراءة الصعبة بسرعة وقد ساعدني على ذلك كوني سجلت في الكتَّاب وأنا في الخامسة من العمر وحفظت جزء عمَّ وعمري سبع سنين.. فبدأت أقرأ بـــل أحببت القراءة بجنون ! قرأت كل ما في مكتبة أخي: من كتب التراث إلى روايات الجيب، وكانت روايات الجيب في عز قوتها، حتى عرفت في المدرسة. وكانت مدرستنا هي «المدرسة التجارية العلمية الوطنية ».

- لاحظ هذا الاسم الجميل! - وكان مقرها قصر الخضراء لمعاوية بن أبي سفيان، الذي أصبح الآن للاجئين من القنيطرة، مع أنه كان مقرًا لمدرسة مهمة. تقدم سيدي تقدم إلى الأمام. المهم، أيامها كان هناك ترام وكان الوالد يعطي الواحد منا قرشاً أو قرشاً ونصف ليركب بالترام. لكني كنت أذهب مشيًا إلى« المدرسة، من راس الميدان إلى القيمرية عند مقهى النوفرة، لأوفر ذلك القرش لأستأجر به رواية جيب من المسكية مما جعل قراءاتي متنوعة بكل معنى الكلمة وأثَّر كثيرًا علَّي حتى كنت متديناً شكليًا.

- ما معنى متدين شكليًا؟

- معناها أنني لم أحس يومًا في حياتي أنني أريد قتل إنسان لأنه ضدي بالدين.. كنت أصوم وأصلي .. وأحيان كنت أتظاهر بالصيام، فأفطر سرًا على خيارة أو شقفة مخلل فيأتي أبي ويفحصني.. لذا أستطيع القول أن التدين لم يكن عميقًا في نفسي بقدر ما كان انفتاحًا على التراث . فأنا أحببت التراث.. أحببته كثيرًا وكنت أقرأ الكتب القديمة بنهم..

- سؤالنا كان عن النزاعات التي تجاذبت وعيك.. فماذاعن مراحل تحولك من إنسان متدين إلى ما صرت إليه؟

- لاحظوا أولاً جو الميدان. حالات غنى وحالات فقر فظيع . ونحن عشنا طفولة مرفهة ثم أصبنا بالإفلاس فجأة . فصار هناك انقلاب أساسي في

حياتي . في صف الكفاءة لم يعد أبي قادرًا على تسديد أقساط مدرستي. فاشتغلت في معمل دياب للكبريت، وهو لا يزال في مكانه بالميدان حتى الآن، وكان شيئًا عظيمًا آنذاك.. عملت في الصيفية لمدة سنتين بتعبئة علب الكبريت. وكانت التعبئة تحتاج إلى تدريب طويل حتى تتمرن أصابع المرء على قبضة صحيحة – حوالي ٤٠ عودًا – فإن زادت وقعت على الأرض أو انتفخت العلبة، وإن نقصت خشخشت عند هزها، وفي كلتا الحالتين أنت الخاسر لأن المراقب لك بالمرصاد.

في اليوم الأول ملأت طرحة كبريت مع أن بعض العمال يملؤن ٢٣ طرحة! ومع الأيام وصلت إلى ١٠ طرحات.

وقد نمى لدي عملي المبكر إحساسًا بالأخوة مع العمال وعدم الخجل من العمل،رغم أنه كان من المخجل أن يعمل الطالب آنذاك.. خاصة في دمشق.

تعرفون ساحة الأشمر بالبوابة، بعدها يوجد تقاطع سكة حديد . هناك يقع المعمل ولا يزال موجودًا حتى الآن. وقد كنا نمشي، أخي الأكبر مني وأنا، من المعمل إلى بيتنا عند جامع مازي، بالقمباز القذر ذي المنظر الفظيع ولم نكن نحس بالخجل من ذلك أبدًا . وكان أبي يقول عندما يرانا:

– أهلاً بالعمال! الله يعطيكم العافية.

مما شجعنا على عدم الخجل من العمل، وقد كانت تلك بداية للتفكير بآلية الحياة: كيف كنا نعمل ونحن نشعر بالجوع والمراقب يضطهدنا والناس من حولنا يتساءلون : البارحة كانوا يأكلون بملعقة من ذهب، فما القصة؟

كانت البداية في البحث عن العدالة الإلهية، فمع أنني كنت متديناً وفي وسط متدين إلا أنني لم أستطع منع نفسي من التساؤل: لماذا يعمل الله هكذا بالبشر ؟ ولم الدنيا بهذا الشكل؟ وقد أوصلتني التساؤلات والأسئلة إلى الشك بمنطقية الأشياء. وقد كانت هذه المسألة مطروحة في كتب العقاد وطه حسين

وغيرهما من كتاب عصر التنوير وخاصة العقاد . فقد كانت له مجموعات كاملة من الردود على من لا يعتقدون بوجود الله.

كنت أدرس في الجامع وكان عندي كراس طريف من نوعه جمعت فيه الأدلة على وجود الله، وقد جمعت سبعة عشرة دليلاً على وجود الله من كتب العقاد، ففي معرض الرد على من لا يعتقدون بوجود الله طبعًا، وقد كنت أقارن وأوازن بين هذه الكفة وتلك. وهذا بحد ذاته يشكل دليلاً على وجود اضطراب حقيقي في الأعماق. لأن الحياة ليست معقولة ولا منطقية هكذا.

– هل قلبت الأسئلة وجهة نظرك؟

– لا، أبدًا فأنا لم أكن قادرًا على أن أكون لا متدينًا آنذاك. بالعكس صرت من الأشخاص العنيفين، لكن ذلك العنف لم يكن ينبع من اعتقاد وإيمان داخليين بقدر ما كان ينبع من البيئة المحيطة بي، وقد وصل بي الأمر حد الانضمام في عام ١٩٤٧ – أي في سنة البكالوريا– إلى جمعية إرهابية متدينة لا علاقة لها بالإخوان المسلمين.

– ما أهداف تلك الجمعية؟

* أهدافها تدمير الممتلكات العامة لأن الأمة كافرة ولأن الحكام سلموا فلسطين لليهود. ولتدمير الممتلكات العامة مرنوني على البارودة /٣٦/ وعلى إلقاء القنابل وكلفوني بمهمة الذهاب إلى مجمع الترامويات بالقابون لأضع قنبلة تحت أحد الترامات وأفجره..

– وهل فجرت الترام ؟ !

* لم أعرف كيف أستعمل القنبلة، فتحتها ورميتها تحت الترام فلم تنفجر.. ربما بسبب الرطوبة.. فبهدلوني..

– هل تذكر اللحظة التي أحسست فيها لأول مرة أنك تفارق عالمًا قديمًا وتستشرف عالمًا آخر؟ وهل هذه اللحظة مرتبطة في ذهنك بحدث محدد؟

* القصة معقدة فعلاً.. مثل هذا الكشف قد يحدث ..لكنه لابد أن يكون مؤسسًا على جملة عوامل .. وقد كتبت عن إرهاصات ذلك في قصة اسمها «مشروع إنسان » بطل تلك القصة إنسان متدين عايش الطبقة الفقيرة ثم رآها يومًا تخرج في مظاهرة فوجد نفسه موزعًا بين الانصياع للرأي العام المتدين، ممثلاً بأبيه، الذي يقف ضد هذه المظاهرة وبين دعوة رفاقه للمشاركة، فيقف أمام دكان الخضري ويشعر بأنه معزول،، فهو يخاف أن يضربه والده إن شارك في حين يشعر أن الحق مع هؤلاء..يومها كنت لا أزال أتساءل عن العدالة وعن كيفية بناء الكون لكنني لم أكن قد وجدت جوابًا حقيقيًا على أسئلتي.

– صحيح أن التحول يأتي نتيجة تراكم الخبرات، لكن ثمة لحظة يحس فيها الإنسان إحساسًا واعدًا أن شيئًا محددًا قد أضاء حياته كالبرق. متى وكيف وجدت الجواب الحقيقي الذي أضاء حياتك ؟

* ستضحك..! وجدت هذا الجواب في كتاب! هل ينقلب إنسان من قراءة كتاب؟ أنا قرأت كتابًا فحدث انقلاب جذري في داخلي. اسم الكتاب: أسس اللينينية» لستالين وهو كتاب تعليمي بسيط وعميق مكتوب للناس الذين لا يعرفون الماركسية أبدًا . يرد على أسئلة.. كأن أطفالاً يسألونه وهو يجيب.

– متى حدث ذلك؟

* كنت في السنة الأولى من الجامعة وكنت صديقًا لزعماء المتدينين وكانوا يجتمعون عندي في البيت لتدارس قضية الثقافة الإسلامية ونشرها وسط الجو السياسي المشحون الذي تلا نكبة فلسطين وصعود حسني الزعيم. وكنت أخفي خنجرًا على وسطي بشكل دائم وكنت مستعدًا لأن أخيف به من يصرخ ضد الدين.. اسألوا أحد أصدقائي الذي أصبح الآن مدرسًا للفلسفة. ولا داعي لذكر اسمه فقد سحبت الخنجر عليه داخل الصف عندما شكك بالإسلام أثناء درس الدكتور سلطان أستاذ الأدب العربي آنذاك، وكادوا يطردونني لو لم يتوسط لي الدكتور سلطان نفسه.

وفي ذلك الوقت ووسط هذه الظروف وقع هذا الكتاب بين يدي:

- من أين جاءك هذا الكتاب؟

* في تلك الفترة أعلن قرار التقسيم ووقف الحزب الشيوعي مع التقسيم وكذلك الاتحاد السوفييتي. فصارت مظاهرة طويلة عريضة وهجوم على مكتب الحزب الشيوعي نجم عنه سقوط قتيل .. فنهبت مكتبة الحزب. نهبها واحد اسمه زهير الشاويش وهو من زعماء المتدينين حاليًا ومركزه في السعودية. وكان صاحبي وصديقي. فجاءني بتلك المكتبة وقال: لا أحد يقرأ هكذا وباء بين إخواننا المتدينين غير سعيد حورانية، وهكذا وقع ذلك الكتاب بين يدي، قلبته فرأيت فيه أجوبة الأسئلة التي كانت تتبلور في نفسي منذ وقت طويل وقد كانت أجوبة مفحمة حقًا. ولأن عقلي كان فيه شيء دياليكتيكي وفكري يبحث عن منطقية الأشياء فقد أفحمت.

إلى جانب ذلك كان في الجامعة آنذاك مجموعة من اليساريين بهيين وجميلين ومتميزين عن «الطَّرْشْ» الذي كان في الجامعة وقتها وقد أثرت نقاشاتهم فينا كثيرًا.. نايف بلوز وكذلك فؤاد أيوب وآخرون.

في فترة الانتقال صرت نهلستيًا.. أي لا يوجد شيء صحيح.. وكل حياتنا وتفكيرنا بلا معنى لأنهما لا يجيبان على شيء.. وقد كانت في الجامعة آنذاك مجموعة أخرى جميلة من النهلستيين مثل علي الجندي ومحمد حيدر. ملأوا الجامعة نهلستية. ويظهر أنهم ما زالوا كذلك رغم أنهم انتسبوا إلى أحزاب وحكموا.. وقد تحدثت عن هذه الفترة من الخمسينات في مقال لي بعنوان «جيل الخمسينات والبحث عن زهرة في قلب الشوك» نشر في ملحق الثورة الثقافي.

المهم، لم يجر إشراق من الدين إلى الماركسية.. إنما تزعزعت الأسس أولاً.. ثم صرت نهلستيًا.. وبعد أن قرأت.. «أسس اللينينية» سكرت لأول

مرة في حياتي سكرة قاتولية وحملت إلى بيتنا حيث أكلت قتلة غير معقولة من أبي.. سكرت ! البارحة كنت رجل دين وأجتمع مع كبار رجال الأحزاب الدينية واليوم أجيء سكرانًا إلى البيت!.

بكيت.. أغلقت الباب على نفسي ولم أخرج من البيت. فجلب أبي عددًا من المشايخ ليضربوا لي مندلاً علهم يعرفون ماذا حـــلَّ بالصبي! هل أصابت عقله لوثة؟ أو ماذا؟ إلا أن ذلك لم يأت من فراغ.. كنت أحفظ آلاف الأبيات من الشعر القديم والحديث، من أبي نواس إلى نزار قباني، مما ليس له علاقة بالدين. مما يدل على وجود حس جمالي. والحس الجمالي يقود أكثر من غيره، فقد كنت أتساءل باستمرار لماذا يتجمع كل شيء غليظ في هذا الجانب وكل شيء حلو في ذلك الجانب!

بعدئذ رأيت نايف بلوز أو غيره لا أذكر، فسألته عن ذاك الكتاب فقال لي: «أف، ألم تقرأه حتى الآن!».

فاعتبرت نفسي متخلفًا. أكان يجب أن أقرأ الكتاب قبل أن يؤلف بأربعين سنة! وهكذا تناقشنا فصرت ألف حول هؤلاء الجماعة. كان الشيوعيون آنذاك متميزين.. نظفاء..منطقيين.. هادئين.. وكان الحزب. في ذلك الوقت مدهشاً يجمع كل من عنده عقل في سورية.. فتركت الصيام وصرت صديقًا للشيوعيين. وعندما سمع «الإخوان» بالأمر. جاء إلي أحدهم (أصبح أستاذًا في الجامعة فيما بعد . فقال لي: «يا سعيد صحيح أنك كذا وكذا» قلت له نعم فبصق في وجهي فنعرته وقلت له : هذه البصقة تنظفني تمامًا من كل أفكاركم .. إنها حمَّام ! والتفت إلى الجهة الأخرى.

أيامها كنت قد بدأت الكتابة فشاركت في عدة مسابقات، نلت الجوائز الأولى فيها مثل مسابقة النقاد وعصا الجنة، وغيرها.. فصرت معروفاً. وفي يوم نشرت لي قصة، لم أعد أذكر عنوانها تدور أحداثها بين عامل ورب عمل وتنتهي بأن يموت العامل بالسل، فاتصل بي حنا مينه وقد كان صحفيًا معروفًا

ورئيسًا لتحرير الإنشاء آنذاك، فقال لي أن القصة قد أعجبته.. وهكذا بدأت أكتب قصصًا طبقية ونشرت في مجلة الجامعة عدة قصص من هذا النوع.. وهكذا انتقلت من الدينية إلى الطبقية.. لكن، حتى في الدين، توجد الطبقية.

في تلك الفترة فرح بي الشيوعيون، فصاروا يحكون لي عن الرفيق خالد بكداش وعن جو الحزب فزرت بيته في الأكراد.. بيت مثل المعبد.. وتعرفت على أمه.. وهي سيدة شجاعة من أخطر النساء. لها مضافتها حيث المنقل والقهوة المرة.. وكانت تلعب دور السكرتيرة لابنها المتخفي.. في تلك الفترة ماتت أم الرفيق خالد فصارت لها جنازة خطيرة تحولت إلى تظاهرة مهمة جدًا حضرها ناس من لبنان وممثلين عن الأحزاب الشيوعية العربية. فجاء نايف بلوز وشخص آخر وسألني: ما رأيك أن تلقي كلمة في الجنازة باسم طلاب الجامعة فوافقت. وقد ألقى كلمة الرفاق اللبنانيين فرج الله الحلو أو أبو عزة نقولا شاوي.. لا أذكر. المهم، ألقينا الكلمات وعندما نزلنا من المقبرة ووصلنا إلى الشارع التحتاني كمشوني جماعة المكتب الثاني، فأطعموني قتله بعمري ما ذقت مثلها. وفي اليوم التالي قالوا لي: أبوك فلان وأخوك فلان فما الذي جاء بك إلى هنا؟! ثم أفرجوا عني. وهكذا عُمِّدت بقتلة مرتبة استفدت منها في قصة «جرح في الجبين».

آنذاك درسني الشيوعيون بشكل لا بأس به.. فاكتشفوا أنني لا أصلح لأن أكون حزبيًا، لأني فوضوي، فقد أفيدهم أكثر وأنا خارج الحزب. ومازال الرأي كذلك حتى الآن. مرة سألت الرفيق خالد بكداش: متى ستدخلوني إلى الحزب؟ فقال لي: «خليك برا. فأنت تنفعنا برا أكثر مما تنفعنا جوا».

أنا وشوقي بغدادي تطورنا معًا في نفس الفترة. لكن أكثر أصحاب شوقي كانوا من القوميين السوريين، في الجامعة.. كان صديقًا لميشيل أديب ولأدونيس ولنذير العظمة، ثم انتقلنا معًا وفي نفس الفترة إلى الفكر اليساري.

وقتها كانت هناك ليبرالية في التفكير .. فازداد تقبل النهلستيين لنا باعتبار أنه صار عندنا فكر بعيد عن الدين. آنذاك كان عنوان رفض الانسان للمجتمع هو أن يسكر ويشتم ولا تزال القصة على حالها حتى الآن على ما يبدو! فبدأنا نعمل أنفسنا نهلستيين بالمزيد من الشراب!

- في حوار مع مجلة «دراسات اشتراكية» قال شوقي بغدادي: «كنا ماركسيين نظريًا، في مناقشاتنا ومواقفنا الوطنية. غير أننا لم نكن في الكتابة أكثر من شباب رومانسيين وطنيين لهم عالمهم الذاتي الخاص الذي يطلون منه بين حين وآخر على قضايا أمتهم ومجتمعهم. هل يَمَسُّك هذا الكلام أيضًا باعتبارك واحدًا من ذلك الجيل ورفيقًا لشوقي؟

* طبعًا يمسني، وهو صحيح. فالجو الذي وصفته يستحيل أن يخرِّج ماركسيًا صحيحًا. فنحن، بعدئذ، لم ندرس الماركسية دراسة منهجية صحيحية، وفي ذلك الوقت لم يكن مترجمًا غير البيان الشيوعي الذي ترجمه خالد بكداش سنة ١٩٣٧ إضافة لعدة كتب أخرى في الفكر الماركسي. أما باقي الترجمات فقد كانت أعمالاً أدبية سوفييتية وروسية.

بعد انتصار الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية، أو أثناء ذلك، انطلقت موجة هائلة من الترجمة قادتها دار اليقظة وقد أثرت تلك الموجة في الفكر العربي كله.. تُرْجِمَت رواية الأم لغوركي فبيعت منها خمسةآلاف نسخة للعراق فقط!.. وفي سورية قرأ الكثير من الشبان «الأم» ولم يقرأها أحد دون أن يتغير ! والرومانسية الثورية تأتي من الأدب. حتى الحزب نفسه لم تكن له دراسات نظرية حقيقية. كانت له مواقف ضمن الأحداث الجارية، والتثقيف الماركسي كان ضعيفاً جدًا في الحزب، وبما أننا لم نكن حزبيين فقد اطلعنا على الماركسية مما كان يصلنا من كتب ومن الأدب. ورومانسيتنا جاءت من أن نظرتنا للعالم كانت مبنية على مقولة الغني والفقير لا على أسس حقيقية، لكن كل واحد منا اكتشف نفسه شيئًا فشيئًا، ما جمعنا آنذاك، كما قال شوقي،

هو حب العدالة والبحث عنها والرغبة في إقامة مجتمع عادل، أما كيفية تحقيق ذلك، فقد كنا مختلفين حولها، بمعنى أنه كان لكل واحد منا أسلوبه الخاص به.

الرومانسية الثورية بشر بها حنا مينة فأثر بنا. لأنه كان أكبر منا.. قرأ أكثر منا.. وناضل.. ودخل السجون. وكنا معجبين به كإنسان ظريف، فهيم، عنده ذكريات لها أول وليس لها آخر يحكي عنها بطرافة لا مثيل لها . كان يقول لي دائمًا: غوركي رومانسي ثوري.

فما قاله شوقي عن تلك الأيام صحيح، لم يكن بالإمكان أحسن مما كان، لعدم وجود تقاليد أدبية لغير الأدب الرومانسي. كان الجابري والمنفلوطي- الذي أثر بنا كثيرًا - وجبران.. كانوا ملوك الساحة ولم يكن هناك غير ليبرالية طه حسين وسفسطة العقاد التي تبدو ليبرالية وتلاميذهما.

فكيف بوسعك أن تجعل الرومانسية ثورية؟ بأن تحكي عن قضايا المجتمع والتفاوت بين الطبقات وحس العدالة المطلوب وقد تجمعنا لشعورنا بأننا لن نستطيع التأثير في الحياة الثقافية إن لم نكن كتلة، لأن كل واحد منا كان يكتب في جهة، وقد كان المحرك الفعلي الذي لعب الدور الأساسي في تجميعنا هو حنا مينه.

- لماذا اخترت القصة بالرغم من أنها فن جديد في بلدنا لا جذور له بالمعنى الحديث لكلمة قصة؟

* هذا سؤال تصعب الإجابة عليه إلى حد ما . في البداية كتبت شعرًا، ربما بتأثير شوقي بغدادي، ونشرت شعري بالنقاد والرسالة والأديب.. لكنه كان شعرًا رديئًا باعتبار أنه وسط. أما القصة فصداقتي بها ترجع لما قبل ذلك.. فجذوري في البيت كانت جذورًا قصصية بالأساس. ففي كل أسبوع كان يجتمع في بيتنا عدد من المسنين والمشايخ وكنت أدعى لأقرأ لهم سيرة

عنترة وتصورني ذلك الولد الصغير الحجم، الضئيل الجسم، الرقيق الصوت أدعى لأقرأ سيرة عنترة! بل كنت القارئ الرسمي منذ السرتفيكه إلى الكفاءة، وعندما كان يأتي دور عنترة في الكلام كان أبي يقول لي: «ضخم صوتك يا ابني ضخم!».

كان الجو طريفًا وكنت أنا أتفرج على حركاتهم فأرى مدى تأثير القصاص على أناس يكبرونه سنًا، فرغم أن بعضهم كان قد تجاوز الستين، كنت أشعر أنني قادر على« التلاعب بهم.. أستطيع أن أحييهم هنا وأن أميتهم هناك من خلال تقوية أو تضعيف لهجة الإلقاء . فألغوا الاجتماعات عند الآخرين وصارت كلها تقام في بيت أبي، وأصبحت أنا القارئ الرسمي! أُخِذْتُ بهذه الأجواء الساحرة وبتأثير القصاص على الناس ونتيجة لإدماني على قراءة التراث الشعبي القصصي فقد ارتكبت أفظع خطيئة في عمري.. وما أعدتها بفضل القتلة التي أكلتها من أبي.

فذات يوم وجدت ثمانين ليرة على الكنبية تصور ما معنى هذا في ذلك اليوم،، ثروة حقيقية فأخذتها كلها ونزلت إلى شارع النصر وكان بولفارًا آنذاك. شارع على اليمين وآخر على اليسار وبين الاثنين بحرات عديدة كان بائعو الكتب القديمة يبسّطون عليها، فاشتريت بالمبلغ كله كتبًا من حمزة البهلوان والملك سيف إلى سيرة الظاهر مرورًا بالأميرة ذات الهمة وتغريبة بني هلال وألف ليلة وليلة..الخ. وبما أنني لم أستطع حمل الكتب كلها فقد نقلتها على دفعات وخبأتها عند رفيق لي من بيت الشربجي، حتى لا يكتشف أهلي السرقة.لكنهم اكتشفوها. وعندما أقررت بفعلتي أخذوا الكتب ليرجعوها للبائع فوجدوا أنه لم يعد يبسط في تلك المنطقة فأعادوها إلى البيت، فحرثتها حرثًا وغرقت في عوالمها الخيالية ومغامراتها المشوقة. وأنا بطبيعة الحال كنت مجنونًا بالقصص منذ صغري. ثم كلفت بقراءة القصص عند ضيوف أبي وقد كانوا جميعًا من محبي عنترة فإذا قرأنا سيرة عنترة أكثر من مرة

قبلوا مني قراءة الملك الظاهر باعتبار أنه طرد الكفرة الصليبيين. أو التغريبة أو قصة الملك سيف أما ألف ليلة وليلة فما كانوا يقبلونها لوجود أشياء جنسية فيها.

في ضوء هذا يمكنك أن ترى أنني لم أختر القصة بل وظفت كقصاص منذ صغري.. والأطرف من ذلك هو أنني بدأت بكتابة الرواية وليس بكتابة القصة. فعندما كنت في الكفاءة كتبت من مجموعة الروايات. رواية من ثلاثمئة صفحة فيها حوالي أربعمئة قتيل! لا يلحقني بالقتل فيها ولا أي فيلم كاوبوي في العالم! بعد ذلك بدأت كتابة القصة.

– هل احتفظت بأصل تلك الرواية؟

* يجب أن يكون أصلها موجودًا في مكان ما، لكنني سأكون شاطرًا إذا استطعت قراءتها الآن. فهي مليئة بالقنابل اللغوية.. لا مقامات الحريري ولا طلت طلايلها..! كانت الشطارة في ذلك الوقت أن يأتي الكاتب بكلمات صعبة لا يفهمها أحد ويشرحها بأسفل الصفحة ولهذا أفرغت القاموس كله في تلك الرواية. كان بوسعك أن تتعلم اللغة العربية وتحفظ القاموس من خلال ترجمة حافظ إبراهيم لرواية «البؤساء». هكذا كانت الموضة.. وكان يهمني أن أظهر فهيمًا باللغة.

– من هم القصاصون المعاصرون لك الذين حفزوك وتركوا ظلاً على أسلوبك؟

* أثناء الدراسة الثانوية كتبت بعض القصص المتدينة نشرتها في «المنار» ونشرت مسرحيتين في مجلة الجامعة. لكن أول قصة كتبتها من الاتجاه الجديد كانت «الصندوق النحاسي». وقد شاركت بها في مسابقة النقاد فسطلتهم وأنا انسطلت لانسطالهم! كان المحكمون في تلك المسابقة هم : نزيه الحكيم وشاكر مصطفى وعبد السلام العجيلي وفؤاد الشايب. وقد شارك في تلك المسابقة أدباء سورية من الجيل السابق ومن جيلي وبإجماع الأصوات

منحت قصتي الجائزة الأولى ولكنها ويا للعجب - حجبت عني .. أتتصورون السبب؟

جاء في تقرير اللجنة: نرجو من تشيخوف - وكان ذلك هو اسمي المستعار الذي وقعت به - أن يدلنا على المكان الذي سرق منه القصة. وقد اعتبروا القصة مسروقة لأن مستواها وتركيبتها فوق مستوى طالب جامعة..! والأطرف من ذلك هو أن يطلبوا من الكاتب، وهم المثقفون الذين قرأوا كثيرًا من التراث العالمي بلغته الأصلية، أن يدلهم من أين لطش قصته!، انظر إلى هذا المنطق المضحك.

يومذاك كنت لا أزال ولدًا في الجامعة. فرددت عليهم في «النقاد» قائلاً: «لا، أيها السادة، أتحداكم جميعًا.. وأنا عندما كتبت القصة كنت في بلودان وكان يجلس بجانبي عبد المطلب الأمين، وكان صاحبي، قلت له فكرة القصة وهي قصة أمي، لكنني خلطت معها أشياء أخرى. أرسلت الرد ونشره سعيد الجزائري فأحدث ضجة.. فإما أن يقول السادة الحكام من أين سرقت القصة وإما أن يتبهدلوا. وعندما لم يردوا شفت حالي فوق الريح وصرت أنزل إلى قهوة البرازيل واتبختر قال لي نزيه الحكيم، وكان هو الذي كتب تقرير اللجنة وكان آنذاك من كبار المثقفين السوريين، قام بترجمة «الباب الضيق» لاندريه جيد فقدم لها طه حسين، ترجمة في غاية الجمال.. مترجم مهم.. الحاصل قال لي يا سعيد أنت ابن حارتي حدثني عن نفسك وبعد حديث طويل قال لفؤاد الشايب: «سعيد هو كاتب القصة فعلاً . لكن إذا اعترفنا .. تبهدلنا».

وقد ظل فؤاد الشايب يقول لي: «والله يا أستاذ سعيد إن في النفس منها شيئًا» كان الأستاذ فؤاد يترك مسافة بينه وبين محدثه بأن يعامله باحترام - أستاذ سعيد - رغم طراوة عودي آنذاك، وقد مات دون أن يصدق أنني كاتب تلك القصة!

قلت له بعد ذلك بمدة طويلة: ما بك يا أستاذ فؤاد.. ترى إنني شاركت في عدة مسابقات ونلت أربع جوائز..

فرد علي قائلاً: «على رأسي. أخذت جوائز صحيح وأنت كاتب موهوب صحيح. أما هذه القصة بالذات فوالله إن في النفس منها شيئًا»!

- مالذي جعله يتمسك بهذا الموقف من قصتك؟

* في القصة أجواء غريبة وفيها تعابير، لقطتها من قراءاتي، وتلك جعلته يتوهم أنها قصة مترجمة، ففيها مثلاً جاء ذكر الكتاب المقدس بدلاً من القرآن لأنني كنت أعتبر هذا التعبير أجمل! فظل يسألني كيف تكتب «الكتاب المقدس» ولماذا لم تسم القرآن باسمه؟

المهم لقد بدأت كاتب قصة، تاريخيًا وتكوينيًا، وليس هناك كتاب قصصي أو روائي صدر في تلك الفترة إلا قرأته.

- ما دور رابطة الكتاب السوريين في صقل شخصيتك وموهبتك وما دورك أنت في صقل هذه الرابطة؟

* الواقع أن الرابطة كانت تجمعًا سياسيًا أكثر منها تجمعًا أدبيًا. وهذا الرأي يخالف آراء بعض رفاقي الذين تحدثوا عن الرابطة قبلي. ودليلي على ذلك وجود مجموعة من الناس من غير الأدباء. حتى الاثني عشر شخصًا الذين أسسوا الرابطة كان بينهم مترجمون وباحثون. الأدباء الفعليون الذين كانوا يمارسون كتابة القصة والشعر كان بينهم مواهب كيالي، حسيب كيالي، شوقي بغدادي، حنا مينه، صلاح دهني وأنا. حتى صلاح دهني لم يكن كاتب قصة محترف يومئذ. كان عائدًا من فرنسا قبل سنتين أو أكثر حيث درس التصوير السينمائي.

لذا أقول أن التجمع كان سياسيًا أكثر منه أدبيًا. ولو كان التجمع أدبيًا لتم اختيار الناس على أساس كتاباتهم. لكن الجو العام وقتئذ كان يتطلب تكوين

قوة سياسية وفكرية وأدبية وكل من كان معنا في هذا الموضع قلنا له أهلا وسهلاً. فثابت مدلجي لم يكن أديبًا بمعنى هذه الكلمة بل كان محاميًا لامعًا من حلب له كتابات، وعبد الرزاق جعفر كان عائدًا لتوه من فرنسا، شابًا متفتحًا جيدًا يتكلم بالماركسية بشكل مرتب.. وهكذا ترى أننا دخلنا إلى الرابطة وكل واحد منا يحمل تاريخه الأدبي الخاص به. وطوال عمر الرابطة لم نجتمع لنتحدث بالايديولوجيا بالمعنى التام للكلمة. كنا نتساءل ببساطة: ماذا سنعمل؟ نحن أناس تقدميون ولنا مصلحة بالتقدم، كيف نستطيع تأليف جمعية ترفد الجو الأدبي بأفكار تقدمية.

- ألم يكن للرابطة شعار أو برنامج؟

* نعم شعارها التقدم والحرية والسلام. وكان لها بيان تأسيس كتبه شوقي بغدادي وشخص آخر لا أذكره الآن وناقشناه جميعًا في بيت مواهب كيالي بالقبو ووافقنا عليه ونشر.

- هل كان هناك أي تجمع للكتاب قبل الرابطة؟

* قبلنا كانت هناك رابطة تسمي نفسها «عصبة الساخرين» ألفها سعيد الضماني وسعيد الجزائري وعبد السلام العجيلي وكان فيها مواهب كيالي. وقد كانت تلك العصبة تبهدل الذين يحاولون التسلق إلى عالم الكلمة من غير الموهوبين. وعندما انحاز مواهب إلينا إثر صدور بيان الرابطة كتب مقالاً تبرأ فيه من تلك العصبة بعنوان» «لسنا ساخرين بل معنيين» قال فيه: تجمد البسمة على شفاهنا عندما نرى الأطفال في كوريا وفيتنام يقتلون. أيامها كانت المعارك بين الشمال والجنوب ومعركة ديان بيان فو- وأي ساخر في العالم يتمتع بحس أدبي لا يجوز له أن يسخر من كاتب آخر إلا بطريقة واحدة فقط عندما يكون لهذا الشـــخص موقف ما من الحياة والمجتمع والعالم، وعصبة الساخرين كانت عصبة لبهدلة المتسلقين من غير الموهوبين. وهذا لا يرضي

طموحنا في الوقت الذي يوجد فيه من يسعى لقيام حركة حقيقية وطريق ما للكتاب والأدباء كي يبرهنوا عن أنفسهم بطروحات سياسية محلية وعالمية.

- ما دورك أنت في تأسيس الرابطة؟

* كان دوري أساسيًا فعندما توسعت الرابطة وصار اسمها رابطة الكتاب العرب صرت رئيس الفرع السوري فيها. لكن المؤسس الحقيقي للرابطة هو حنا مينه. وحنا شخص عنده حس تاريخي أكثر منا لأنه ابن الطبقة العاملة، عانى الكثير وسجن وله قضية.

فذات يوم دعانا إلى بيته فذهبنا شوقي وأنا وكنا متخذين موقفًا مفاده أن الأدب للأدب والفن للفن فما هذا «الفن للمجتمع» كنا نعد أنفسنا موهوبين وكنا نرى أن الموهبة فوق المجتمع والناس، وذلك لعدم وجود أية نظرية أدبية مطروحة على الساحة سوى الفن للفن أو الفن للمجتمع أما ما هي الواقعية الاشتراكية. فلم يكن يوجد شيء من هذا القبيل. نحن الذين نظرنا بعد ذلك وتكلمنا عما يسمى بالواقعية الاشتراكية وخبصنا فيها تخبيصًا أكثر من تخبيص السوفييت أنفسهم في وقت كان فيه كثير مما حولنا معاديًا من صحف ومجلات وإذاعة..لكنه يحترم الموهبة.. الموهبة كانت هي الأساس، وعلى هذا الأساس غزونا الجرائد والمجلات لأنه قد أصبح لنا قراء يطالبون بنا، ولأن كثيرًا من الليبراليين وأولهم سعيد الجزائري فتح باب النقاد أمام الموهوبين. كان مواهب يكتب الافتتاحية في أكثر الصحف محافظة في البلد وكان قراء تلك الصحيفة يتخاطفونها بفضل اسمه.وكان التلاوي صاحب الجريدة يقول: «إذا ترك مواهب فسينخفض تيراج جريدتي!».

فما معنى ذلك؟ معناه أن الجو كان معبأ تعبئة هائلة بهذه الأفكار. الرجعية لم تكن تستطيع طرح أفكارها إلا مموهة وعلى استحياء، بينما كنا نحن نطرح أفكارنا في كل الصحف على اختلاف انتماءاتها باسم الموهبة

والدليل على ذلك أن يأتي بعدنا شخص مثل محي الدين صبحي أو مطاع الصفدي أو غيرهما.. فيتحدث عن «الإرهاب الأحمر»!

إرهاب أحمر!.. كيف يصبح الحديث عن «إرهاب أحمر» دون وجود سلطة حمراء ! المهم كانت الصحف تطلبنا والناس يقرؤوننا ورغم أن الصحف كانت مرتبطة، في معظمها، بالبرجوازية السورية إلا أن أصحابها كانوا يأتون إلى بيوتنا لكي نكتب عندهم.

ورغم أن الكتابة في الصحف كانت مجانية آنذاك إلا أن أصحاب تلك الصحف كانوا يكرموننا على طريقتهم: دعوة.. سكرة. وأحياناً نقود.. كانت فترة جميلة!

- لماذا اختلط السياسي بالأدبي في الرابطة، برأيك؟

* كان المطلوب آنذاك هو إقامة تجمع فكري لأن الشارع كان يغلي بالأفكار التقدمية. وقد اختلط السياسي بالأدبي لأن الطروحات آنذاك كانت بسيطة وساذجة. فإما التقدم أو الرجعية.. وكانت هناك وجوه قديمة تنتظر من يحركها. مثل اليان ديراني. هل تعرف أن اليان ديراني من مؤسسي القصة السورية، من جيل فؤاد الشايب تقريبًا، وطرح أمور الصراع الطبقي ببساطتها التلقائية في الوقت التي لم تكن فيه طبقة عاملة بالمعنى الدقيق للكلمة. وظهر معه الناقد شحادة الخوري الذي كان أحد المؤسسين.

بعد صدور بيان التأسيس اتفقنا على أن نصدر «كتاب الرابطة» فبدأنا بمجموعة قصص شركة لعدد من كتاب الرابطة، لي فيها قصتان، بعنوان «درب إلى القمة» من كتابها حسيب ومواهب ومصطفى الحلاج وشوقي وصلاح.. ثم اتبعناها بمجموعة مواهب كيالي القصصية «المناديل البيض» فمجموعتي القصصية «في الناس المسرة».

المهم، صار لنا وجود حقيقي في البلد. وكنا نتابع باهتمام شديد ما يجري على الساحة العربية.. وقد أسهمنا في معركة الشعر الحر الجديد وبدر

شاكر السياب، فراسلني السياب وأهداني كراسه الموسى العمياء كما أرسل لي عيسى الصقر مجموعته «مجرمون طيبون»- كيف تم تحويل رابطة الكتاب السورين إلى رابطة للكتاب العرب؟

* عندما تأسست الرابطة قمنا بتوجيه رسائل إلى صوت تقدمي على امتداد الوطن العربي فردوا علينا، وكانت هناك تجمعات مشابهة عندهم. ففي مصر كان هناك تجمع لا أذكر اسمه. وفي لبنان. كان تجمع «من وحي القلم» فقوينا علاقاتنا معهم ونشرنا نتاجنا عن طريقهم حتى صرنا معروفين عربيًا وقد كبرت الرابطة مع توسع دورها فصار كل من ينشر كتابًا من أعضائها يضع على غلافه «من رابطة الكتاب السوريين» وما لفت الأنظار أكثر هو أن الكتب لم تكن خفيفة بل كانت كتبًا لها أهميتها.

وبعد حوالي سنة ونصف من تأسيس الرابطة اقترح الكتاب اللبنانيون وعلى رأسهم حسين مروة ومحمد دكروب إقامة رابطة للكتاب العرب، فجاءا إلى سورية وحكينا. رحبنا بالفكرة ووضعنا قائمة بأسماء الذين سندعوهم إلى الرابطة. وقتئذ لم يكن هناك كاتب رجعي له قيمة شعبية، فإذا ظهر كاتب غير معني بالوضع العام كان يهمل، كان الوضع عجيبًا.. مثل عشرينات ثورة اكتوبر. عهد صعود المد الشعبي وازدهار الأفكار الماركسية وقوة شعبية الحزب الشيوعي عهد أنتج البعث والوحدة وعبد الناصر.. مجموعة أفكار متضاربة، لكنها كانت يسارية. اليمين متراجع يدافع وظهره إلى الحائط. والمشروعات اليمينية تلهث من النقطة الرابعة إلى حلف بغداد إلى الشرق الأوسط. نحن أولاد تلك المرحلة.. لم نأخذها بالنضال - لو ناضلنا من أجلها كان أعظم بعشرات المرات - لكننا كنا أولادها. وقد سادت تلك المرحلة حركة تحررية امتدت من مصر والسودان إلى المغرب وسورية. والوطن العربي لا يريد الاستعمار يريد البترول للعرب والوحدة لكل العرب، رغم أنه لم يكن يعرف كيف جمعًا تكون.. أو ثنائية، يريد الاشتراكية بشكل ما من

الأشكال. ونحن كنا نعبر عن هذه المشاعر بطريقة أدبية ولهذا لم نوجه رسالة إلى أحد إلا وتلقينا عليها الجواب بالإيجاب.

المهم صار المؤتمر ودعونا لإقامة رابطة للكتاب العرب ينتسب إليها الكتاب التقدميون في كل مكان فكان التجاوب كبيرًا من العراق حضر غائب طعمة فرمان ومحمد غني حكمة - وهو الآن أهم مثال هناك - ووصلتنا رسالة من بدر شاكر السياب الذي لم يتمكن من الحضور مع رسائل أخرى من البياتي والصكار وغيرهما.

ومن لبنان، حيث كان التجاوب الأكبر، حضر وفد من عدة أدباء أظنهم عشرة على رأسهم الشيخ أحمد عارف الزين والشيخ عبد الله العلايلي- وكان نجمًا ألقى كلمة رائعة - وحسين مروة ومحمد دكروب وأحمد سويد وحبيب صادق ومحمد عيتاني.. الخ.

ومن مصر جاء يوسف إدريس فألقى قصة رائعة حبس على أثرها عندما عاد إلى مصر، وهي من أجمل قصصه، يؤسس بها للأدب الرمزي السياسي الجميل واسمها «الطابور» كتبها وهو قاعد إلى الطاولة في المؤتمر كان عريف الحفل - المؤتمر: صلاح دهني. وقبل الختام انتخب شوقي بغدادي أمينًا عامًا لرابطة الكتاب العرب وانتخب سعيد حورانية أمينًا للقطر السوري وألقى داعيكم تقرير المؤتمر.

رابطة الكتاب العرب كانت شغلة كبيرة، فقد عملت تكتلاً قويًا ومفاجئًا في العالم العربي، إذ أننا اتفقنا أن كل من يصدر كتابًا منا يكتب عليه «من رابطة الكتاب العرب» وقد صدرت عدة كتب عليها ذلك الشعار من العراق ومصر ولبنان منها مجموعة ليوسف إدريس.

بعد ذلك توسعنا في سورية فأنشأنا فرعًا للرابطة في حمص ضم أبناء فاخوري الثلاثة وعبد السلام عيون السود. وأنشأنا فرعًا في حلب. إضافة

لفرع دمشق الذي ضم إلى جنابنا عادل أبو شنب وصميم الشريف وفاتح المدرس وغيرهم، وكان في دمشق رابطة «أصدقاء القلم» أو «وحي القلم» لا أعرف، وكان فيها الانسان الرائع سعيد مراد ونصر الدين البحرة ومحمد المصري وغيرهم وقد شكلت هذه الرابطة كتنظيم موازٍ لرابطتنا.

وبعد هذا التوسع استأجرنا مقرًا في المزرعة وتوالت الكتب التي تحمل توقيع «من رابطة الكتاب العرب» في أكثر من بلد عربي وكانت مجلة «الثقافة الوطنية» التي كان يشرف عليها حسين مروة وإبراهيم دكروب لسان حال الرابطة تقريبًا وظلت هذه الفترة الذهبية أربع سنوات حتى رأينا أنفسنا في سجن السراج أيام الوحدة، وأشياء المقر الثمينة ورثها الاتحاد النسائي في كفرسوسه.

- ما الطابع الذي كان غالبًا على قصصك في تلك المرحلة؟

* ربما كنت واحدًا من أكثر القصاصين السوريين كتابة عن حيه وبيته. فقد كتبت مجموعتي الأولى «وفي الناس المسرة» عن علاقتي مع عائلتي بالذات.. عن ثورتي عليها .. وأول اهتدائي للأفكار المخالفة لأفكارها.. وصراعي معها.. والصراع بين العاطفة العائلية في مجتمع متخلف، التي قد يموت الإنسان دونها. أما أنا فقد طردني أهلي وعشت أربع سنوات خارج بيتنا وأسرتنا.

كنا، كما قلت، أغنياء وافتقرنا . ولكن إخوتي كانوا متمرسين بالتجارة وبعضهم يتقن لغات أجنبية (كأخي عادل مثلاً الذي درس في اللاييك)، ولهذا أخذهم التجار ليعملوا عندهم كتبة أو رؤساء محل وفي الاستيراد والتصدير، لأن التجار لم يكونوا يتقنون لغة أجنبية. وبعد ذلك لقط أخوتي تجارة الحديد، فاشتغل اثنان منهم وعمي بها.

أخي الذي يكبرني اشتغل عتالاً عند أخي الأكبر . وذات يوم سقطت حزمة طويلة عريضة من الحديد على جبينه، فأرسل إلى بيروت، وأجريت له

عملية أذكر، كنا جالسين على العشاء في رمضان، فسألت: «من سيدفع له؟» فقال أخي: (يقول عمي أن أجرة العملية ليست علينا، نعطيه إكراميةً؟! الشرع فيه حديث واحد عن العامل يقول «اعطِ العامل أجره قبل أن يجف عرقه. ولا ينص على أكثر من ذلك) عندها ثرت وقلت له : أنتم أناس مستغلون تتسترون بالدين..» إلى آخر هذا الكلام. أبي الذي افتقر وصار بحاجة لأخي الكبير وقف معه. فشعرت أن الأرض قد انزاحت من تحتي نهائيًا، فشتمت وكانت سمعتي قد صارت زفت في نظر المتدينين ورفاق أبي في الميدن فما كان منهم إلا أن قطعوا لي ورقة وطردوني من البيت فاستأجرت غرفة في زقاق الصخر حيث كان يسكن أبو الشوق،

* معه؟

– لا .. شوقي كان ساكنًا مع أهله هناك ولكني دبرت غرفة بالقرب منه إذ كان في ذلك الحين أهم شخص في حياتي. وكتبت قصة عن ذلك اسمها «سريري الذي لا يئن» وانقطع الحبل بيني وبين أهلي حتى تخرجت بعد أربع سنين.

المجموعة الأولى تعكس بالضبط تلك الأجواء العائلية الاجتماعية التي اصطدمت بها فصورت صراعي معها. صراع رجل مع مفاهيم لم يعد يؤمن بها وخروجه من عائلته. وكان هذا في ذلك الوقت، شيئًا ثوريًا ثم إنني كما قلت قبل قليل كنت أجهر بآرائي بين شباب حيي مما أثار المشايخ.

فقد رحت أسخر من ذلك النوع من العدالة المستكينة التي يبشرون بها وبأن الماركسية هي مفتاح العدالة وبدأت أفكاري تنتشر في الحي وتؤثر في شبابه.

لا تنس أنني كنت مستندًا في خروجي هذا على ذلك المعاش المتوسط الذي تقدمه لي دراستي في دار المعلمين العليا. لقد جعلني الاستقلال المادي

أكثر جرأة. سكنت في زقاق «الصخر» كما قلت، وعشت هناك قصة حب كتبتها في «سريري الذي لا يئن» وفي قصة ثانية اسمها «الريح الشمالية» ولم أعد إلى البيت إلا بعد أن تخرجت، وصار لي معاش وأصبح بإمكاني أن أدفع لأبي قسمًا من مصروف البيت، وكان إخوتي ما عدا العامل قد خرجوا من البيت الكبير وأسسوا لهم بيوتًا فلم يبق لأبي إلا أن يقسم البيت ويؤجر جزءًا منه دون أن يمد يده إلى أحد.

والطرافة في الموضوع أنه كان يرفض أن يأخذ شيئًا من أخي الذي كان أحد الأسباب في طردي. وإنما صار يأخذ مني أنا المطرود العائد لأنه كان يحترمني لقد بدأ تأثير أفكاري في البيت يتعاظم لدرجة أن أبي، وهو الشيخ حلال المشاكل . انتخب خالد بكداش في أول انتخابات شبه نزيهة نجح بها نائبًا عن دمشق وعلق قائلاً: دعهم يتقاتلون في البرلمان. وليكن فيه صوت معارض جدًا.. لا نريد أن يكون الجميع متشابهين».

* في قصصك تنوع جميل. هل هذاعائد لتجوالك في سورية كمعلم، أم هو عائد لشغفك بالتنويع؟

– لأ طبعًا.. كان هذا مفروضًا علي. إذ من كان يستطيع، في ذلك الوقت، أن يتجول على كيفه؟ لقد تعرضت لسلسلة من التنقلات القسرية.. عندما تخرجت عينت في السويداء. كان ذلك عام ١٩٥٣. وآخر أيام الشيشكلي. وقد مررت وقتها بقصة طريفة للغاية. فقد قررنا نحن وبعض الرفاق البعثيين إذ كنا نؤلف في ذلك الوقت جبهة. اذكر منهم منصور الأطرش ابن سلطان باشا وكان يدرس في بيروت ويحضر إلى الجبل بين حين وآخر، وسلامة عبيد وذوقان قرقوط وصياح أبو عسلي ونايف جربوع، الوزير الذي مات وصميم الشريف وعدنان البني وزهير كتبي الأساتذة الذين عينوا من دمشق وعدد آخر من الشباب، قررنا أن نبشر بثورة على الشيشكلي. ولكن كيف؟ قال سلامة عبيد: يجب أن نكتشف اللجاة التي أضاع

فيها إبراهيم باشا ٦٠ ألفًا من جنوده في معاركة لإخضاع الجبل ولجأ إلى تسميم الآبار فخرج الثوار وصاروا يموتون على الطرقات . فذهبنا لنكتشف «ملجأ الثورة».

* ذهبتم لتسمموا الشيشكلي؟!

- ذهبنا لاستطلاع اللجاة كي نجد ملجأ للثائرين لا تطاله يد السلطة فقد رأى أحدنا أن بإمكان الثوار ونحن من بينهم أو على رأسهم طبعًا أن نقاوم هناك سنوات. أتعرف ما هي اللجاة؟ إنها مجموعة من الصخور البركانية الضخمة المتشققة.. ويمكن أن يختبىء تحت كل صخرة ما بين (٢٠-٥٠) رجل من دون أن تصيبهم الطائرات. بمعنى أنها كانت مركزًا هائلاً لحرب العصابات يا سيدي أحلام الشباب، لو سمعها غيفارا لابتسم في جبال الأنديز.. المهم هكذا كانت الروح.. تعرف اللجاة؟

* أنا أعرفها، ولكنها أرض شبه مقفرة.

- نعم، وليس فيها سوى قليل جدًا من البدو ويشقها طريق روماني من داما للمسمية. المهم أخذنا سيارتين إلى حدود الصفا وهي موازية للجاة، ثم ترجلنا وسرنا طوال بعد الظهر وحتى الليل، وصلنا إلى «داما». وهكذا التقينا بواحد من بيت قنطار- قنطار فعلاً.

كل واحد منهم طوله مترين - كان راكبًا على حمار وقدماه تكنسان الأرض. قال: منين الشباب؟ قلنا له، نحن من مدرسة السويداء صاح: يا هلا.. يا هلا. ثم نزل وأمسك خروفًا كان يسير مع القطيع وراءه وذبحه.. وكانت ليلة رائعة نمنا فيها على فرشة على الأرض على أنصع بياض لحف شاهدتها في حياتي في هذه القرية النائية.. النظافة كانت قضية شرف تذكر بلوركا والأدب الاسباني، نصاعة البياض وخاصة الفراش، تعني العفة والكرم معًا.

بعد الاستطراد نتابع الكلام كنا نحضر الثورة! كنا نقول ما دام جبل الدروز كان مهد الثورة السورية الكبرى، فلماذا لا نهيئ نحن الثورة ضد

الشيشكلي، خاصة وأن الجبل مهيأ، وكنا قد مررنا بطريقنا على من يسمون هناك بالزعماء الشعبيين، وهم من العائلات الخمس المعروفة - كبيت أبو عسلي وبيت الحلبي وبيت عزام وبيت الهنيدي الخ.. يمكن أني أخلط، لم أعد أتذكر. المهم مررنا عليهم جميعًا، ومررنا على حمد عزام بضيعته التي كان اسمها «العاهرة» (أصبح اسمها الآن «العريقة»)، وقمنا بمشاورات معهم من أجل الثورة. أليس ذلك شيئًا مضحكًا؟ إنها قصة تمثل جيلنا. وتدارسنا معهم إمكانيات الثورة، وعدد الجنود الذين يستطيعون إيواءهم وإطعامهم. وكنا نردد أن سوريا كلها جاهزة (هذا برأينا طبعًا، ونحن قاعدون أين؟ بالسويداء!).

المهم، شجعنا أولئك الزعماء بشكل بدا لنا معه أن الثورة ستقوم غدًا لا محالة. وبعد ذلك وصلنا إلى حدود اللجاة ونمنا عند قنطار المذكور. ثم بحثنا عن الدرب الروماني فوجدناه.. مشينا عليه ساعتين وضعنا! ولكننا كنا نحمل بنادق صيد. وكنا قد اتفقنا أن من يضيع يقوص. وهكذا، وبعد أن سرنا على ذلك الطريق أقل من كيلو متر ونصف. بدأت الطلقات تتعالى من كل جانب.

* ألم تسيروا معًا؟

- نعم سيدي سرنا معًا، ولكن في الوقت نفسه كان كل منا - كثوري مهم - يستكشف المكان. كنا نبحث عن المواقع «الاستراتيجية» التي سيختبئ الثوار فيها، أثناء الثورة المرتقبة. أي كنا نقوم بمسح طوبوغرافي عسكري! ما شاء الله- ولكن أي إصرار كان لدينا وعزيمة!!

المهم ضعنا وبقيت أنا وذوقان قرقوط وسلامة عبيد على ما أذكر. ضربت كل ما معي من فشك ولكن أحدًا لم يرد. ونفذ منا الماء وكدنا نموت من العطش. كما أن حذائي اهترأ نعله تمامًا فخلعت قميصي، وشققته وربطت به قدمي. فالأرض هناك كلها مغطاة بأحجار مسننة يرفض الصرصور المشي عليها ثم التقينا في الرابعة بعد الظهر (كنا قد خرجنا في الفجر) حدث ذلك عندما أطلق مَعَزَّى أبو الفضل (هو مهندس زراعي)، عدة طلقات،

فركضنا نحوه كلنا، ورأيناه واقفًا مع أحد الرعاة. كان لدى الراعي شنينة. فظللنا نشرب من هذه الشنينة حتى انفلقنا. ثم أرشدنا الراعي، على طريقة البدو، إلي الدرب المؤدي للمسمية. وضعنا، أيضًا، خمس ساعات. المهم عثرنا على الضيعة المنشودة أخيرًا، فدخلناها، نحن الثوار العظماء، وألسنتنا تكاد تصل إلى ركبنا من العطش والتعب! فاستقبلنا مختارها مقطبًا متأففًا، لا ندري لماذا، وانقسمنا إلى قسمين وكنا من نصيب المختار وأطعمنا برغلاً مسلوقًا بالماء، ولم يكن فيه قطرة زيت أو سمن. المهم أكلنا من دون أن نسأل عن الأسباب الاقتصادية وغير الاقتصادية لهذه الحفاوة الغريبة، أما القسم الآخر فأخبرونا أنهم أكلوا «لزاقيات» فحسدناهم، ثم اتصلنا بواسطة المخفر بالسويداء، فأرسلوا لنا سيارة أخذتنا إلى السويداء إلى بيوتنا وهكذا انتهت هذه الثورة العظيمة بأن عاد كل منا إلى الغرفة التي يستأجرها أو يسكنها، حافيًا أو شبه حاف وفي اليوم التالي نزلت بالشحاطة لأشتري حذاء أكبر بنمرتين لأن رجلي المتورمة لم تدخل في حذاء من قياس رجلي.

* نعود إلى التنوع البيئي في قصصك.. فأنت..

– أوه شردنا: معك حق، الذكريات هي التي تعلم الثرثرة، أهو السن؟ المهم.. من الأفكار التي كانت تشغل بالنا وقتها فكرة أنه من الضروري أن تشعر كل طائفة من طوائف بلدنا أو كل قومية منها بأن هذا هو وطنها، ولهذا ينبغي أن نذهب إليها ونكتب عنها. كتبت عن السويداء قصتين، وبعد ذلك، حينما التحقت بالعسكرية، ذهبت إلى الجزيرة وكتبت عنها، وكتبت عن جبل العرب عدة ريبورتاجات نشرت في مجلة «الجندي» وكانت ناجحة لدرجة أن الأخوان قالوا: ابعثوا لنا هذا الشامي كي يكتب عن جبلنا إذا لم يستطع أي منا أن يكتب عنا مثله!

المهم، بعد تلك الثورة العظيمة التي كنا نخطط للقيام بها، اضطربت أحوال البلد وتأزم الوضع بالجبل واضطرب الطلاب وهاجموا السرايا بالسويداء، وألقى بعضهم خطبًا ضد الديكتاتورية الشيشكلية تبين فيها أسلوبنا ونفسنا . فكتب أحد المدراء تقريرًا بنا وأرسله إلى الشام، فوزعونا في كل مكان. أرسلت أنا ونايف جربوع، الذي أصبح وزيرًا فيما بعد، إلى دير الزور، وأرسل ذوقان قرقوط إلى إدلب وفارس الجغامي لا أعرف إلى أين.. المهم وغيره وغيره.. كان ذلك تطورًا أساسيًا في التعرف على وجه السلطة الديكتاتورية القبيح.

انتقلنا إلى دير الزور يا سيدي الكريم في عز الشتاء والبرد، ولم يكن هنا؛ وقتها لا «كرنك» ولا نصار ولا قطار، وإنما باصات هوب هوب قديمة مكركبة ليس فيها شباك سليم واحد. اتجهت إلى هناك حاملاً مدفأتي وخمسين ليرة سورية فقط. وصلت إلى حلب وروحي تكاد تطلع، وانتظرت هناك، في الكراج، باص الدير، ولكنه تعطل، ولم يكن ما معي يكفي للنزول في فندق معقول. رآني صاحب الكراج واقفًا أرتجف من البرد فأشفق علي وسألني: ماذا تشتغل يا أستاذ؟ فقلت: أستاذ! فقال: إذا كنت خائفًا على أغراضك اتركها عندي ودبر لنفسك فندقًا . دبرت لنفسي فندقًا اسمه «منظر الجميل» (وليس «المنظر الجميل» كما قد تظن) و«منظر الجميل هذا واقع في حدود بحسيتا»!

دخلته وقلت لصاحبه أريد أن أنام . فرحب بي متهللاً وأعطاني فراشًا وأشار إلى باب قائلاً: تفضل . فتحت الباب الذي أشار عليه، فوجدت نفسي في فناء دار يتسع لأربعمئة نفس. قال لي صاحب الفندق: جد لنفسك مطرحًا وافرش فراشك فيه. وعندما أقنعته بأنني لست متعودًا على النوم تحت السماء مباشرة، اقتادني عن طيب خاطر إلى غرفة تفوح عفونة ورطوبة وحركة هوام، وفرشت فراشي فيها. ولكنني لم أنم طيلة الليل. لأن كل شخرة من

شخرات صاحب الفندق الذي كانت غرفته مفتوحة على غرفتي كانت كافية لإيقاظ تركيا وفي اليوم التالي جلست في باص دير الزور فاهمًا معنى النفي إلى سيبيريا، فسار بي إلى ذلك البلد الذي أعزني وأكرمني بما لم يعزني أو يكرمني أي بلد آخر .

فتنتني دير الزور بفراتها العظيم كان أكبر نهر رأيته هو العاصي وبردى عند التكية فتصوروا دهشتي لرؤية الفرات.. وكنت لا أمل من الجلوس مع الأصدقاء في (الشرداقات) وهي مقاهي بسقوف من القش على الشاطىء، وتعجبت عندما رأيت المقاهي العديدة داخل المدينة، أكثر من دمشق والقمار المتفشي بها. وتساءلت: ألا يعمل هؤلاء الناس، وعرفت بعدها أنهم يعيشون على موسم الحبوب الذي يأخذونه من (الشوايا) البدو الذين صاروا فلاحين، بفوائد ديونهم أثناء الصيف وفي الشتاء يلعبون الورق.

كنت في صحبة طيبة هناك، كان معنا الأخوان إبراهيم وإسماعيل الصالح، وجمعة الساغي وأبو السوري وياسين جعفر وكثير من التقدميين هناك، وكانت في الدير حلقة ماركسية على رأسها الرجل الأسطوري أبو زهير (ثابت عزاوي) الذي ترجم ناظم حكمت عن التركية والذي حبس معنا مع كبر سنه في المزة أيام الوحدة، قرأ رأس المال بالتركية في الثلاثينات فتصوروا . وكان رئيسًا لغرفة تجارة دير الزور ولكنه افتقر وهو يلحق بماركسية طوباوية وكان يلعب الشطرنج على الطريقة العربية القديمة، الخلاصة رجل رائع بكل معنى الكلمة. كانت دير الزور معقلاً للبعث وللإخوان - ولكن العلاقات العشائرية هي التي تحكم- ولذلك كانت الاضطرابات الطلابية أواخر عهد الشيشكلي عنيفة، ولم أكد أباشر التدريس شهرًا وأسبوعًا حتى اضطربت المدارس ضد الشيشكلي ٥٤ يومًا وأثناء ذلك ثار (الطوز) والطوز يا رعاك الله عاصفة من رمل وتراب يومين ونصف فكدنا نهلك ونحن نضع الشاشات المبللة على أنوفنا فلا تمضي بضع دقائق

حتى نغسلها من الطين، ومات عدة أطفال وشيوخ دون أن يستطيع أحد إسعافهم وبعدها خطب أحد المشايخ في صلاة الجمعة، انظروا إن الله نفسه ضد الشيشكلي، فسأله أحدهم ولماذا لم يرسل سبحانه الطوز على قصر الشيشكلي بالشام فرد قائلاً دير الزور أكفر من دمشق وأفسق.. ذوقوا إذن.

جرت معي حادثة ريفية هناك: في أحد الدروس أغاظني أحد الطلاب لغبائه الشديد وتعصبه، فثار غضبي ولعنت دينه، وبعد أسبوعين استدعاني المدير الصديق علوان وقال لي ما فعلت؟ قلت خير . قال تلفنوا لي من حلب بأن لجنة تحقيق في طريقها إلى المدرسة لأنك أهنت الدين وتريد إجراء تحقيق معك قلت أهلاً وسهلاً..لاحقتنا المتاعب أينما ذهبنا.

جاءت اللجنة، فوجئت بأن على رأسها، مظفر سلطان، أحد رواد القصة السورية والذي يسكن حلب، المهم مثلت أمام اللجنة فابتسم مظفر وقال يا أستاذ سعيد احك لنا كيف لعنت دين الصبي حتى لا نلعن دينك، وفرطنا من الضحك ثم سألني أين سنسكر الليلة؟

قبل رحيل الشيشكلي إلى الجحيم بأسبوع صدر قرار من دمشق بنقلي إلى الحسكة بحجة التحريض على الاضطرابات والاشتراك بها ،. لم تكن تهمة وإنما كانت صحيحة، وعيون عسس الدكتاتور كانت ترى رغم (الطوز) وعلي ذكر الطوز أصبت في الدير من الحرارة والغبار بالرمد الربيعي الذي لازمني سنوات طوالاً وما شفاني منه إلا برد موسكو المبارك.المهم وأنا أهيئ نفسي للتوجه إلى الحسكة سقط الشيشكلي إلى الجحيم فظللنا نمرح أسبوعً ونهنىء أنفسنا ثم توجهنا وفدًا إلى (القرية) لتهنئة سلطان الأطرش كما أسلفت وهكذا، ودعنا هذا البلد الجميل وأهله العجيبين المنقسمين بين لعب الورق والنضال السياسي وطعم مناسف ثرود الباميه لا يزال بين أسناننا.

يا سيدي إلى الحسكة إذن.. ذهبت إلى الحسكة مرتين، في المرة الأولى كمدرس، وفي المرة الثانية بقيت سنة وشهر أقضي الخدمة الإلزامية كمرشح

في المرة الأولى سنة ٥٤ وفي الثانية سنة الـــ ٥٦، ما بينهما ذهبت إلى فرصوفيا ضمن المهرجان العالمي للشباب والطـــلاب للسلم والصداقـــة بين الشـــعوب، وهذه قصة أخرى غنيـــة جدًا فـــتحت عيوني على العالم .. لن أفصل فيها وضعتها في كتابي «سلامًا يا فرصوفيا» الذي صدر بعد مجموعتي الأولى «وفي الناس المسرة» سنة ٥٥.

المهم الحسكة يا سيدي.. من لا يعرف الانقلاب الكبير الذي حصل بالجزيرة بعد الاستقلال وفي الخمسينيات لا يعرف سوريا.. المنطقة منطقة عشاير أهمها شمر وجبور وطي والبقارة والشرابيين.. وكانت هذه العشاير تعيش على الرعي سوى بعض الأشرطة على شواطئ الأنهر حيث يسكن الآشوريون، وكانت شمر ساطية على العشاير وتأخذ «خوة» منها.. فوضى ورثناها عن الفرنسيين.. يعني تقريبًا ما في حكومة .. نزاعات دموية بين البدو . وكان هناك فصيلة عسكرية من الهجانة لضبط المنطقة، وفجأة (اكتشفت) الزراعة في أرض لم تزرع منذ قرون، وهجمت التراكتورات، وتأسست الشركات أهمها «أصفر ونجار» واشتريت الأراضي من البدو.. ولكن هؤلاء عرفوا قيمة الزراعة فحاولوا المحافظة على ما تبقى من أراضيهم، وبما أنهم لم يعرفوا كيف يديرون أراضيهم افسحوا المجال أمام مئات بل آلاف من المغامرين والمتعهدين واللصوص .. وقوّت الحكومة مركزها فاغتنى الرقباء والدرك.. تقول أمريكا وقت اكتشاف الذهب.. فيلم.. عرف المشايخ كيف يشترون الحكومة تذكروا قصتي و«أنقذنا هيبة الحكومة» عندما كنت مرشحًا هنا؛..أتذكر حادثة غريبة تدل على ضعف الحكومة المركزية.. أحبت بنت أحد المشايخ صباب القهوة عند أبيها، وكان كرديًا وســـيمًا فهربا معًا.. فلما كان الصباح وانتشر الخبر، لبست نســـاء القبيلة الســـواد ولطخن وجوههن بالطين وصاروا يهينون رجال القبيلـــة ويرمونهم بالوحل، فتشكلت قوة خياله وطورد المسكينان العاشقان فإلى أين يهربا؟ لجئا

إلى القامشلي وسلما نفسيهما للمخفر، المخفر من خوفه من القوة القاضية المتقدمة حبسهما في السجن، حوصر السجن، وأطلقت عليه النيران عندها عقدت هدنة واجتماع، وصار الاتفاق أن يسلم العاشقان إلى القبيلة على أن لا يقتلهما الشيخ وأقسم على القرآن وعلى الشـــرف العشائري وأخذ (المجرمان) وحبسا في مضرب من المضارب.. وجلس الشيخ مع مستشاريه لا يعرف كيف يتصرف.. وفي هدأة الليل سمعت طلقة ثم طلقتان ثلاث.. أربع .. خمس.. مئة.. ألف.. كان كل فرد في القبيلة حتى النساء يمر أمام الخيمة ببندقية ويطلق طلقة.. وهكذا حفظ الشرف العشائري.. وبـــر زعيم القبيلة قسمه فهو لم يقتلهما بيديه كما وعد وضاع دم المسكينين بين جميع أفراد العشيرة.ألهمتني الحياة في الدير والجزيرة قصص «وأنقذنا هيبة الحكومة» و«محطة السبعا وأربعين» و «عريظة استرحام» و «قيامة العازار» ورواية طويلة هي «بنادق تحت القش» صادرتها مني مع قصص كثيرة شرطة بيروت عندما سجنت هناك ستة أيام «الهروب» إلى لبنان.

سنة الـــ ٥٧ استدعيت إلى دمشق لأكمل خدمتي العسكرية في مجلة الجندي - جيش الشعب حاليًا- حيث كان لأستاذنا الجواهري غرفة خاصة وحيث كان شوقي يؤدي خدمته أيضًا .. قدر.. درسنا الثانوية معًا وخدمنا العسكرية معًا وحبسنا في قاووش واحد معًا وهربنا إلى لبنان معًا. وسجنا أيام الانفصال معًا، ولم تفرقنا الأيام إلا عند ذهابه كأستاذ معار إلى الجزائر وعودتي أنا إلى لبنان كمدير للدروس العربية في فرير صيدا ثم سفري بعد ذلك إلى موسكو.في تلك السنوات السعيدة العاصفة حسب تعبير ايزنشتاين وحبيبي سعيد مراد كانت دمشق ملجأ للكتاب من كل أنحاء الوطن العربي من العراقيين كان الجواهري والبياتي وسعدي يوسف ورشيد ياسين وغيرهم فكانت شلة رائعة، وكانت الرابطة قد استأجرت مقرًا وافتتحت موسم المحاضرات والأمسيات الشعرية والقصصية وفي تلك الأثناء سرحنا من العسكرية وعدنا شوقي وأنا للتدريس وقامت الوحدة..

عندما بدأت اعتقالات الشيوعيين واليساريين فوجئت أثناء انصراف المدرسة برجال المخابرات يقتحمون المدرسة ويحاولون اعتقالي، خفت أن لا يعلم أهلي بالاعتقال فتصايحنا ولفتنا نظر الطلاب فتجمهروا بل حاول بعضهم الدفاع عني وتمسكت بحديد النافذة – المهم كانت معركة غير متكافئة جروني إلى السيارة وهناك سألتهم بلغة قانونية أريد هوياتكم لأعرف من أنتم فأجابني أحدهم بلكمة جعلتني أفضل الصمت.

وهنا لن أفصل في وصف هذه الفترة فهي تحتاج كتابًا كاملاً.. ألهمتني قصة المهجع الرابع ومسرحية طويلة نشرتها في مجلة الأخبار في بيروت وعنوانها «رجل اسمه فرج الله الحلو».

* أمضيت في حياتك سنوات طويلة من التغرب، ويلاحظ المتتبع أنك لم تصدر خلالها أو بعدها أية مجموعة قصصية، ما هو تعليقك على ذلك؟

– هذا السؤال خاطئ لأنني أصدرت مجموعتين وأنا في الغربة، في لبنان. وسنتحدث عن هذا، ولكن لنعد الآن إلى الفترة التي تلت خروجنا من سجن السراج أثناء الوحدة.

عندما خرجنا مررنا بظروف نفسية صعبة وضاقت الدنيا في وجهنا تمامًا كنا نعتقد أن الناس ينتظروننا كأبطال، وكنا نؤمن أنهم يعيشون في أشد درجات البؤس والإذلال والكذب الإعلامي، وقد جرى لنا في تلك الفترة بعض الأحداث المغامرة. فبعد عصابات الإرهاب القديمة التي حدثتكم عنها وأنا بعد غلام، شكلنا عصابة أدبية كانت حياتها قصيرة هي الوحيدة من نوعها الطريف في تاريخ سورية. وقتها كان هناك مسرح بدائى كان يقع في طلعة البحصة مواجه صالة الطفل حاليًا أي إلى جانب المحافظة. وقد أعلن أنه سيعرض مسرحية من تأليف الصديق وليد مدفعي – أرجو أن يكون الآن قد غفر لي هذا الفعل. كانت الدنيا كلها مخنوقة، أما عنوان المسرحية فكان فيه شيء من السعادة، واستفزنا ذلك حتى العظم.

فقررنا كتم أنفاس هذه المسرحية. كنت أنا رئيس العصابة. وكان من أعضائها عبد الله عويشق، والسيناتور الحالي نصر الدين البحرة، ومحمد المصري وكان ساعدي الأيمن المخرج التلفزيوني حاليًا رياض ديار بكرلي. محمد المصري ونصر الدين البحرة قالا: نحن سننتظركم في «الهافانا» وإذا حدث أي طارئ نعطيكم إشارة. المهم، تسللنا إلى المسرح في حوالي العاشرة مساءًا، كان عبد الله في لباس الخدمة العسكرية فلم يشتبه الحارس، ومزقنا الستارة بشفرة كنا نحملها (كانت ستارة من المخمل الأحمر الثقيل، وقد استأجرها أصحاب المسرح من عبد اللطيف فتحي على ما أظن) وقلبنا الكراسي، ونزعنا اللمبات الكبيرة وأخذناها. بل وصل الإغراء بأحدهم أن أقترح : ما رأيكم في أن نحرق المسرح؟!

له يا زلمي، وراءه كل سوق ساروجا القديم، كانت مصيبة.

باختصار أصبح من المستحيل إجراء أي عرض (كانت الصحف قد أعلنت أن العرض سيبدأ في اليوم التالي). وبعد ذلك ذهبنا، معنا اللمبات، إلى مقهى «الهافانا» وكان المصري والبحرة جالسين مصفرين من الخوف، وعندما أبصرانا تهللا وفرحا، وأخذ كل منا لمبة كبيرة وذهب إلى بيته! وفي اليوم التالي طلعت علينا الصحف بمانشيت يقول: «عصابات شيكاغو في دمشق». وقد ألصق مخرج المسرحية (لا أذكر من هو) التهمة بمخرج آخر أو منتج، أو ممثل لم أعد أذكر أيضًا كان قد تشاجر معه بسبب المسرحية، فأخذوه يا سيدي وهات يا تحقيق وضرب وقتل، يا حرام! لقد حز هذا في نفسي لدرجة أنني كنت سأعترف على طريقـــة جان فالجان. ولكن أحدًا لم يعرف بهذه القصة إلا بعد مرور مدة طويلـــة إذ كانت العصابة فرطت بعد هروبي إلى لبنان إلا كنكته أدبية بعد حدوث الهزيمة ورجوعي إلى الوطن.

قصة مثل هذه لا يمكن أن تظل سرًا وخاصة وأبطالها ليسوا معروفين بقصر اللسان، وكتم الأسرار، وكلما أرى الصديق وليد مدفعي يرحب بي

دائمًا بنفس اللهفة أشعر إما أنه فهم ما كان يدفعنا أو أنه اعتبرنا فلته حضارية كخناقات باريس الأدبية أو مبارزات رسامي المكسيك بالمسدسات.

المهم، مرة عاشرة، كله مهم، بعد خروجنا من السجن ضاقت الأحوال بنا كما قلت، فقررنا، أنا وثلاثة آخرون أن نهرب من البلاد. وكان الجلاد عبد الوهاب الخطيب قد أنذرنا إنذارًا رسميًا وحاسمًا بأنه إذا قبض علينا عند الحدود فسوف يقتلنا حرس الحدود ويقول بأنه قد ظننا عصابة مهربين . كنا نريد أيضًا أن نعزي أنفسنا وأننا نهرب لسبب وجيه وثوري وهو أن نبلغ الرفاق في لبنان بأن فرج الله الحلو قد قتل قتلاً رهيبًا هنا وأن جثته قد ذوبت بالأسيد وانحدرت إلى بلاليع الحمام بعد أن أخفيت بمكان ما في عدرا . سامي جمعة هو الذي روى لنا القصة بالتفصيل. رواها لنا في «المسلخ» (حيث كانوا يعذبون السجناء، في الطلياني). ولست أدري إلى الآن لماذا رواها لنا. ربما كان يريد التأكيد على أنه لا يد له فيها وأن الدنيا ستنقلب.

* سامي جمعة؟

– سامي جمعة كان ملك المخابرات في دمشق. وقال لنا أن أبو أحمد الجحش الذي يعذب المساجين هو المسؤول عن مقتل فرج الله الحلو . كانوا خائفين للغاية من هذه القصة، عبد الناصر سئل رسميًا في زيارة له للهند عن مصير هذا القائد الشيوعي الكبير. فأجاب بأنه لا أحد لدينا يدعى فرج الله الحلو، وإنما ألقي القبض على رجل اسمه سامي منصور أو اسم آخر لا أذكر، لأنه دخل سورية بدون جواز سفر. وقد أصبحت هذه القصة معروفة بين الشيوعيين، لأنه كان هناك أربعة أو خمسة أشخاص قد شهدوا تعذيبه وموته وكان منهم: عبد الكريم محملي وجورج أبو شعر . هذا الأخير كان شاهدًا مهمًا، وبعد ذلك لا أعرف بماذا أعترف، فأنا أروي ما قيل لي ووضعوه في زنزانة في المزة، فلم يكن يدعنا ننام الليل وهو يضرب نفسه ويصرخ شاتمًا نفسه، وقد حاول الانتحار بقطع وريده بالشفرة، وأفرجوا عنه

أخيرًا، وهو بين الحياة والموت. وقد رأيناه في لبنان بعد هروبنا يستعيد توازنه بمساعدة رفاقه، نعود إلى حديثنا، معرفتنا لهذه التفاصيل كلها دفعتنا لأن نحاول أن نكتب عن الحادثة كما وقعت، وأن نبحث عن وسيلة لإيصال ما نعرفه إلى الإعلام الشيوعي والتقدمي اللبناني، كي يعرف العالم كله بالموضوع على حقيقته.

المهم اتفقنا شوقي بغدادي وعبد الكريم محملي وعبد الباقي الجمالي وأنا على الهرب إلى لبنان. وقبل يوم واحد من السفر اعتذر عبد الباقي. وقتها كانت سورية تمر بأزمة اقتصادية طاحنة، وكانت مجموعات كبيرة من الناس (حوارنة وأكراد بشكل أساسي) يهربون عبر النهر الكبير (بعد العريضة) إلى لبنان كي يعملوا هناك، ولهذا وضعت هناك نقاط حراسة، فكان الحرس يقبضون على الهاربين، ويضعونهم شهرًا في السجن ثم يعيدونهم إلى سورية. وهكذا، ورغم أن المنطقة غير أمينة، ورغم أنني لا أعرف السباحة، وأن الوقت ليس صيفًا والنهر عالي الموج فقد قررنا أن نجرب حظنا.

استأجرنا سيارة نحن الثلاثة، وكنت أنا قد حصلت على مسدس و ٥٠ أو ٦٠ طلقة وقررنا يا قاتل يا مقتول.

وصلنا إلى العريضة ودخلنا المنطقة اللبنانية، فسألت السائق: يعني هون لبنان؟ قال : طبعًا.. من هون بيهربوا الناس على بيروت. نظرنا إلى بعضنا وقلنا معًا: وقّف ! وفتحنا باب السيارة ويا إيدكم.. وبدأنا نركض والسائق ينظر إلينا بذهول.

ظللنا نسير على غير هدى، خائفين (كان هناك اتفاق سوري لبناني على إعادة أي سياسي سوري هارب) حتى وصلنا إلى ضيعة ونحن نكاد نموت من العطش. رأينا امرأة تخرج ماء من بئر فانقضضنا عليها انقضاض الصاعقة ونحن نردد: «يا خالتي، يا خالتي»، فارتعبت وقالت : «خير، شوفي؟». فقلنا «عطشانين». وبعد أن سقتنا سألناها، «يا خالتي دخيلك هي لبنانية ولاّ

سورية؟» فأجابت: «يقطع سورية وأهل سورية، هي لبنان يا عمي» فهوينا على الأرض جميعًا نقبّلها بتأثر شديد. كان يجب أن يطلع خلقنا بعد هذه البهدلة، ولكننا في تلك الحالة وما يسمى سوريا تلاحقنا.. بلعناها ثم أرشدتنا، بعد أن عرفت ما نريد، إلى ضيعة أخرى، وقالت أن فيها رجلاً اسمه أبو طنوس ينقل الناس إلى طرابلس. الطريف في الموضوع هو أنني كنت متوفزًا طوال الوقت بانتظار أن نصطدم برجال الشرطة أو الجمارك، وأن نتبادل وإياهم إطلاق النار. وكانت يدي على مسدسي. ولكنني أصبت بخيبة أمل عندما لم يطاردنا ولم يقوص علينا أحد، فأخرجت المسدس وأفرغت الطلقات المعبأة كلها في حفرة في الأرض..

وصلنا للضيعة المذكورة بعد منتصف الليل، ولم نصادف أحدًا نسأله عن بيت طنوس. سمعنا صراخًا وزعيقًا آتيًا من أحد البيوت فاتجهنا نحوه وقرعنا الباب، فزعق أحدهم من الداخل بنا: «انقلع يا..» كلمة بذيئة من القاموس اللبناني اليومي، فدرنا حول البيت ونظرنا من أحد الشبابيك.. وإذا بنا برجال شرطة في الداخل يسكرون. لقد قرعنا باب مخفر للشرطة! وولينا الأدبار. تصور، هؤلاء الشرطة، هم المكلفون باعتقالنا!! أخيرًا عثرنا على من أرشدنا إلى بيت أبو طنوس، فقرعنا بابه في الثانية صباحًا، فأتتنا من الداخل صرخة أرعبتنا، ثم فتح الباب وخرج لنا رجل يلبس شورتًا ويحمل جفتًا، وصوبه نحونا، فقلنا له: نحن سوريين يابوطنوس وبدنا نوصل لطرابلس، فقال: أهلاً وسهلاً.. ثم دخل وارتدى ثيابه وعاد إلينا وأعطيناه مئة ليرة زيادة عما طلب. سألنا:معكم سلاح؟ فقد كانت الدوريات منتشرة على الطريق. قلت: لا.. ما معنا سلاح. كان معي مسدس تشيكي ممتاز، ولن أقول ممن أخذته لأن هذا سر .. وهو سر عاطفي أيضًا، طلب منا ألا ننطق بكلمة إذا ما صادفتنا دورية لأن لهجتنا السورية تفضحنا، المهم وصلنا إلى طرابلس بسلام، عند الفجر، وذهبنا إلى بيت رياض بيضون ابن خالة شوقي وزوج أخته، كنا

متفقين على ذلك، فنحن لم نغادر الشام إلا بعد أن جاءتنا إشارة من بيروت بذلك، استقبلونا بالقبلات، واستمعوا إلى مغامرتنا مندهشين. وقال أبو رياض: «لازم يكون فيه ٤٠ عقدة حظ انحلت لحالها حتى وصلتوا لهون، فالدوريات رايحة جاية وبأمر من سورية». وبعد ساعات قليلة أتانا من بيروت شاب أرمني رائع اسمه «أبو علي» مبعوثًا من قبل الحزب الشيوعي اللبناني، ومعه سيارة، فأركبنا فيها، بعد أن أخذ المسدس العتيد مني، وأخذنا إلى بيروت (للأسف هذا الشاب استشهد في الحرب اللبنانية).

في بيروت بدأت الغربة التي كنت تسأل عنها . لقد عشنا سنة كاملة تقريبًا في الظلام. كنا ننتقل بين بيوت سرية، وبعد ذلك انفرجت الأزمة قليلاً، فصرنا نتجول في الحي. وبعدها بدأنا ندخل ونخرج متى نشاء. كان حنا مينه قد هرب وقتها بطريقة ما من سورية، وسكن عند أقرباء له في الأشرفية. وعندما نقلونا إلى الأشرفية صرنا نزوره، وبعد ذلك ذهب شوقي ليسكن عند أعمام له بصبرا، فبقيت أنا وحدي.

ثم عشت بعد ذلك أنا وسليم قندلفت في غرفة واحدة بعد أن طلبت ذلك برمًا بالوحدة المميتة ولولا سليم العجيب ولولا النقود التي يرسلها له أهله من سوريا لمتنا جوعًا. وقد قضى سليم غربته بالبيجاما وهو يقرأ رأس المال بالفرنسية في السرير. وقتها كتبت مسرحية طويلة اسمها «إنسان اسمه فرج الله الحلو». أهمية هذه المسرحية تكمن في وثائقيتها، وفي وصفها الدقيق لموت فرج الله الحلو وتعذيبه والحوارات التي جرت بينه وبين معذبيه المأخوذة من المصادر الأصلية وأهمها عبد الكريم محملي. فنشرت على أربعة أعـــداد بجريدة «الأخبار» (كان هناك «النداء» و «الأخبار» وكانت الأخبار هي الجريدة الأسبوعية المهمة). أما شـــوقي فكتب ونشر خواطر وقصصًا باسم (فؤاد الشامي).

أما أنا فقد كتبت باسم (سهيل صالحاني) وبعدها كتبت «المهجع الرابع».

بعد ذلك تعرفت على المكتبة اليعازرية هناك. كان لديهم شخص سوري اسمه من بيت اليازجي(هو الآن موظف كبير في التبغ والتنباك)، فقال لي تعال.. أنا أبحث بالسراج والفتيلة عن واحد مثلك فهيم باللغة العربية.

في لبنان لا يوجد كتاب مدرسي رسمي، وإنما كانت كل مدرسة أو عدة مدارس تعتمد مؤلفًا ما، وتستخدم كتبه، وكان لهذه المكتبة علاقات قوية بـــ «افرير مارسيت» (الأخوة المريميين)، طلب مني اليازجي أن أؤلف سلسلة كتب للإبتدائي في كل شيء فقلت: ما عدا الحساب والرياضيات. وألفت يا سيدي الكريم خمسة أجزاء لغة عربية،و خمسة أجزاء ديانة مسيحية، وخمسة أجزاء جغرافيا، وخمسة أجزاء تاريخ، للإبتدائي كلها، ووقعتها باسم مسيحي مستعار، وعُمِّمت على مدارس «الفرير». كان لا بد من هذا كي أستطيع العيش . فمعاشي من الحزب كان ٣٠ ليرة، وهي لا تكفي لأكل الفلافل.

بعد ذلك تعرفت على مدير «الفرير» فطلب مني أن أُعلِّم العربية لطلاب «الفرير» التابعة لصيدا. كانت «الفرير» و «المقاصد» في صيدا تقيمان مباريات دائمة في اللغة العربية بين طلابهما. فأكلتها «الفرير» عشر مرات. وهكذا وقعت معهم عقدًا وانتقلت إلى صيدا حيث أعطوني غرفة وسلموني صف «الكفاءة».وكرست الأشهر المتبقية حتى الامتحان لتنجير الطلاب في اللغة العربية. كانت مدرسة مختلطة: شيعة وسنة ومسيحية.. وفاز طلاب «الفرير» في تلك السنة على «طلاب المقاصد» وربحوا الجائزة، مما متن مكانتي في المدرسة.

وقتها حدث الانفصال، فعدنا أنا وشوقي إلى سورية. كنا نظن أنهم سيستقبلوننا على الحدود بالأحضان، ولكن أحد رجال المخابرات استقبلني بصفعة مدوية. المهم أبعده عني أحد الملازمين وقال لي باحترام وتهذيب: «يا أستاذ سعيد ويا أستاذ شوقي.. هلق بدكم تقلبوا الدنيا بالشام على خطابات وكتابة.. راح نحطكم هلق شوية سجن احترازي وبعدين بنشوف شـــو بدو

يصير». وأخذونا إلى غرفة توقيف الجديدة، كانت نظارة عارية تمامًا وبـــاردة تمامًا، وفي صباح اليوم التالي أخذونا إلى مقر الشرطة العسكرية المواجهة للجامعة القديمة، حيث أمضينا ٥٢ نهارًا.

الطريف في الموضوع أنه كان معي بضعة أشياء كنت أكتبها، منها قصتي التي أعتبرها من أهم ما كتبت وهي «قيامة اليعازر» إنها عن بطل من أصل جزائري. وقصة هذه القصة بدأت عندما كنت في الحسكة أودي الخدمة العسكرية. لقد فلقوا رؤوسنا وقتها برجل اسمه عبد الله الصغير . كان قد اختفى ولا أحد يعرف مصيره، وكان مطلوبًا البحث عنه، وصار له إضبارة ضخمة. وقد حصلت على هذه الإضبارة. كان رجلاً مهمًا وبطلاً، وقد حصل على وسام من الحكومة السورية. وعندما أخذونا إلى الشرطة العسكرية كانت الإضبارة معي، فحسبوها «أسرارًا عسكرية» وصفعني واحد منهم أربع خمس كفوف على كيفك. المهم، شرحت للضباط المسألة وأفهمتهم أن هذه ليست سوى قصة أقوم بكتابتها فاقتنعوا، وبعد ذلك نقلنا إلى المزة وقبعنا هناك تسعين يومًا.

وعندما خرجنا قدمنا طلبًا لإعادتنا إلى التدريس، فقُبل طلب شوقي وطلبي تأخر، ولست أدري لماذا، فراسلت «الفرير» مجددًا عارضًا استعدادي للعودة إليهم والتدريس في مدرستهم. فأتاني الرد بالموافقة.

أمضيت هناك ثلاث سنوات (من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٥)، وطبعت : «شتاء قاس آخر» و«سنتان وتحترق الغابة» على حسابي، وطبعت رواية حنا مينه «الشراع والعاصفة». كان وقتها في الصين، فأرسلها لي، فكتبت لها مقدمة ونشرتها. وهناك أيضًا عملت في روايتي: «بنادق تحت القش»، وكنت قد نشرت منها فصلين في «الثقافة الوطنية»، وكانت هي مجله «رابطة الكتاب العرب»، وفيها كان ينشر سعدي يوسف وعبد الوهاب البياتي ويوسف إدريس وكل كتاب الرابطة. وفيها نشرت مسرحيتي «صياح الديكة»، وقد لاقت

صدى واسعًا ومثلت فيما بعد، تدور الرواية عن قرية بدير الزور اسمها «الموحسن» حدث صراع فيها بين أهلها والإقطاعيين، وانتصر الأهالي، وأنشؤوا كومونة بشكل من الأشكال وقد اطلعت عليها عندما كنت بالدير، وظل بذهني أن أكتب عنها رواية. وكتبت مجموعة من القصص القصيرة التي كنت اعتبرها شيئًا مهما في ذلك الوقت.

من الذكريات الطريفة عن تلك المرحلة الحادثة التالية، كنت أعمل في لبنان باسم مستعار وأحمل هوية لبنانية باسم «نايف بيطار؟» على اعتبار أنني كاثوليكي من بعلبك. وكنت أدرِّس في «الفرير » على هذا الأساس، ولم يكن أحد يعرف بذلك سوى المدير. وكان في تلك المنطقة جمعية أدبية، وقد قررت هذه الجمعية عرض «صياح الديكة» ودعوني لحضورها على أساس أنني (نايف بيطار)، ودعوا أيضًا حسين مروة ومحمد دكروب. وهكذا جلست أتفرج على مسرحيتي من دون أن يحق لي أن أعترض أو أفرح. لم أكن، في ذلك الوقت، منقطعًا عن سورية، وإنما كنت أسافر إليها وأعود. وكان لي سلطة إلى حد ما على أساتذة «الفرير» باعتباري مديرًا للدروس العربية فيها، اكتشفت ذات يوم أن اثنين من المدرسين (وهما أخوان من عمشيت) كانا يعطيان دروسًا خصوصية، أثناء الفرص، لأولاد الأغنياء، ويساعدانهم على النجاح في آخر السنة. أي كانا يمارسان نوعًا من الابتزاز، فقدمت تقريرًا بهما للمدير . ولكي ينتقما مني قدما تقديرًا إلى العميد كرم مدير الأمن العام اللبناني بتهمة أنني رجل سوري مشبوه. وذات يوم، وأنا أزور أقرباء حنا في الأشرفية، وإذا بدورية تحيط بي وتلقي القبض علي. وتبين أنهم قد دخلوا غرفتي في «الفرير» وفتشوا أمتعتي، وعثروا على الهوية اللبنانية المزورة، كما عثروا أيضًا على كتاب كان قد أرسله لي ضابط مُسرَّح من ضباط المغاوير (اسمه مضر مارتيني). وقد تعذب هذا الضابط كثيرًا أيام عبد الناصر، وقد اجتمعت به في السجن، أثناء الانفصال، وروى لي قصصًا من

أبدع ما يمكن أن تسمعه. وهذا الكتاب هو عبارة عن رسائل سياسية ناقدة موجهة لعبد الناصر وقد طلب مني الضابط المذكور أن أنشره في لبنان إذا كان هذا ممكناً، وهو كتاب ليس له قيمة سياسية كبرى وإنما هو مجرد رسائل ساذجة. وقد اعتبروا أنني أنا مؤلف هذا الكتاب لأن اسم الرجل لم يكن مكتوبًا عليه. المهم أجروا معي تحقيقًا ثم أحالوني للمحكمة العسكرية الجنائية. وطالت قضيتي . وعرف الكتاب السوريون بالأمر، فطلعت مجموعة من العرائض وقع عليها تقريبًا كل أدباء سوريا المعروفين وكانت موجهة لحكومة لبنان، كما أن اجتماع كتاب آسيا وأفريقيا الذي كان منعقدًا في لبنان، طلع هو أيضًا بتوصية بشأني وأرسل برقية، بعد ذلك ذهب مجموعة من الرفاق اللبنانيين إلى وزير داخلية لبنان. أتعرف من كان وزير الداخلية وقتها؟ إنه كمال جنبلاط! فقال لهم أن القضية متعلقة بمن هو أعلى منه، وإنه لا يستطيع حلها. وبعد ذلك فهمنا ما القصة. إنها قصة من أطرف القصص.

كان ابن الشاعر الكبير أمين نخلة معتقلاً في سورية بتهمة التجسس لصالح اسرائيل، وكانت لبنان تريد إطلاق سراحه لأن المسألة فيها موت. فاكتشفوا بعدما جاءتهم برقيات من سورية بشأني أنني رجل مهم، ولهذا عرضوا أن يبادلوني به. طبعًا سورية قالت لهم: إلى جهنم أنتم وهذه الشخصية!

استمرت المحاكمة تسعة أشهر، وكنت موقوفًا خلال هذه الفترة في النظارة أولاً وثم في سجن الرمل. وهناك اكتشفوا أني مثقف، فشغلوني في حسابات مطبخهم. وسمحوا بالتنفس نصف ساعة زيادة.

قال لي العقيد الذي حاكمني (وهو ابن عم لوليد غلمية الموسيقي)، ما تهمتك يا إبني، فنطقت بالعربية الفصحى قائلاً: «يا سيدي الكريم إن كذا وكذا..»، وبعدما حكيت حوالي عشر دقائق حدّق في وقال: «شوها الكلام اللي عم تحكيه؟ ما فهمت ولا حرف.. احكي بالكلام البشري اللي بيحكوه كل

الناس». تطوع للدفاع عني أربعة محامين كبار هم : نخلة مطران وادمون عون وباسم الجسر (ابن الشيخ عبد الله الجسر الذي استلم رئاسة جمهورية لبنان عدة أشهر قبل الاستقلال؛ وأحمد سويد كاتب القصة.

اتهمني القاضي بأنني أرسل أناسًا ضد الرئيس جمال عبد الناصر، وحكم بسجني ثلاث سنوات، ثم خفف الحكم إلى سنة واحدة نظرًا لأنه لم يكن لديّ سوابق . وكان قد مضى من السنة ٧ أشهر وأنا في السجن وقد احتسبت لي. وهكذا بقي لي في السجن خمسة أشهر، وهنا بدأ سجن الرمل العجيب الذي يضم ما هب ودب، من النشال القاتل إلى مدمن الكوكائين والمورفين وإلى ذلك الرجل الذي افترس ابنته.. ثم علمت أن رجال الشرطة، عندما اقتحموا غرفتي في «الفرير» أخذوا منها ٥٢ قصة قصيرة ورواية «بنادق تحت القش»، وأن الحكم قد صدر بإتلافها أيضًا، وقد أحرقت جميعها، وكان هذا أفظع شيء حدث في حياتي على الإطلاق تصوروا أن شرطيًا صغيرًا يمكنه أن يمحو لك جهد سنوات.

* كم بقيت دون أن تكتب بعد هذه الحادثة؟

- طويلاً . لقد أحدث هذا صدمة في حياتي، حتى بدأت أشك في جدوى الكتابة. شوقي يعرف هذه الناحية جيدًا، وقد كتبت له رسائل طويلة من السجن وربما ما تزال لديه.

بعد انتهاء مدة السنة خرجت وعدت إلى سورية بعد أن كتبت، أو أجبروني على كتابة تعهد بألا أعود إلى لبنان إلا «تحت طائلة العقوبة».

عدت إلى سورية ودَّرست في مدارس خاصة، ثم أصبحت مدير للمركز الثقافي السوفييتي، وإلى غير ذلك من التفاصيل التي لا يتسع المجال لذكرها هنا. عدت لأجد أن الجو الأدبي قد أصبح غريبًا إلى حد ما. فالقصة القومية التي ازدهرت بشكل ما في أعوام ٥٨ و ٥٩، وكان مطاع صفدي من أبرز

ممثليها، قد بدأت تنحسر. وتعرفت على مجموعة جديدة من الشباب الموهوبين الذين يكتبون بطريقة تختلف عن طريقتنا.

هكذا برز ما يسمى بجيل الستينات. وأنا أرى أن هذه التسميات مضحكة لأن الأدب لا يقسم بالسنين، شوقي بغدادي أصدر مجموعة من الخمسينات، وها هو يصدر مجموعة ممتازة في الثمانينات فالأمور كلها متشابكة ولا يمكن أن تقاس بالمسطرة. المهم برز اتجاه جديد خاص بجيل الستينات، وكان يقوده زكريا تامر.

* لقد نشأ هذا الاتجاه وازدهر أثناء غيابكم، فما هو تفسيرك لهذا؟

- لست أدري سنتكلم عن التفسير فيما بعد، أما الآن فسأحدثكم كيف تعرفت. على زكريا.

عندما عدت أقامت لي الأوساط الأدبية احتفالاً لا بأس به، ودعيت إلى أمسية قصصية وألقيت قصة «عاد المدمن» بعدها اتصل بي صلاح دهني وقال لي أنه هناك قصّاص ينبغي علي أن أتعرف عليه، واسمه زكريا تامر. وفعلاً تعرفت عليه في مقهى الهافانا وأعطاني مجموعته «صهيل الحصان الأبيض» وقرأتها بتمعن، وأعجبت بها كلغة وكجو غريب، ولكنني شعرت في النهاية أن هذا الاتجاه وحيد وضيق وليس باتساع الحياة. وقلت لزكريا: «يا زكريا أنت ناي ولست أوركسترا. لقد وهبت صوتًا جميلاً ولكنه صوت ناي، بمعنى أنه صوت وحيد الجانب، وليس صوت أوركسترا تجسد الحياة على حقيقتها» وقد دهشت عندما عرفت أنه كان عاملاً، وأن هذا العامل بالذات قد أصبح يمثل في الأدب نوعًا من المطالبة الوحيدة بالحرية الشخصية، ويعتبر أن الحرية الشخصية هي أهم ما يجب على الأديب بالذات أن يطالب به. ولكن الحرية الشخصية بأي معنى ولمن؟ للشعب كله أم لنخبة ممتازة من «المثقفين»؟ أعتقد أن لا أحد غيره كان يمثل هذا الاتجاه، لأن الذين كتبوا بهذا الاتجاه غيره لم يحالفهم النجاح.

* جورج سالم مثلاً؟

– لا .. جورج سالم مختلف تمامًا، فهو ابن الثقافة الفرنسية الوجودية، ابن القلق الوجودي وأسئلة الحياة والموت.

* ولكنه هو أيضًا يكتب قصة ذهنية.

– نعم، ولكن زكريا لا يكتب قصة ذهنية، وإنما، بالعكس. يكتب قصة رمزية، وأحيانًا شعبية، وله الفضل في تطوير الأحداث والشخصيات الشعبية البسيطة ورفعها إلى مرتبة قصة مركبة.. القبضاي والطفل..الخ.. إنه يلتقط من المحيط أشياء شعبية حقًا ثم يرفعها لمرتبة الرمز. بمعنى أنه عندما يقرؤها إنسان شعبي فإنه لا يجد فيها نفسه، وعندما يقرؤها شخص مثقف يجد أن ما يقال عن الشيء الشعبي جميل. ولكنه ليس الشعبي نفسه. سؤال وحيد يقلق زكريا: لماذا نحن لسنا أحرارًا، لماذا نحن جائعون أو عراة أو جهلة أو متخلفون أو مضطهدون ؟، وله عليه جواب وحيد: لأن البراءة مقتولة، والطفولة، مقتولة والشجاعة مقتولة.. بمعنى عام حلول مثالية ليست مبنية على فهم راسخ للحياة ونظرية طبقية، وهذا لا يتعلق بالموهبة، فموهبة زكريا كبيرة، ولكنها لم تجد الطريق الأساسي لها. وفي رأيي أن زكريا كان يكتب من قراءاته وتأثراته – تأثر بكافكا كثيرًا أكثر مما يكتب عن تلك الحالة الشرطية المكرورة فإنه يفتقر الحياة نفسها. لقد كان يحتقر الواقع اليومي، ولكنه استمد منه بعض رموزه، وهذه الرموز لم تستطع أن تشكل تيارًا عريضًا. لقد شكل تيارًا لفظيًا، أو تيارًا أسلوبيًا، ولكنه ليس تيارًا مكرسًا لفهم الحياة وإنما للاحتجاج ضدها ولهذا فأن جميع الذين قلدوه فشلوا.

إضافة إلى ذلك يبدو أنه كان ثمة ضرورة لضرب التيار الذي ظهر في الخمسينات، لأنه وصل للناس وصار له تأثير ما، وهكذا، وبعد سقوط التيار القومي، برز هذا التيار المتأنق الجميل ذو اللقطة الجميلة والصورة الرائعة، والذي «لا يفسد للود قضية»، وإنما يتوجه إلى مجموعة، من نخبة النخبة.

وقد لاقى هذا التيار تشجيعًا رسميًا وتشجيعًا من النقاد وأبرز على أنه «انقلاب تام في عالم القصة» وأن القصة الحقيقية قد ولدت من جديد على يديه. طبعًا هذا كله أثر في الأجيال الجديدة. فظنت أن القصة لا تكتب إلا هكذا، وهكذا تعرض المد الواقعي لانحسار مرحلي.

دهشت حقيقة عندما قرأت مجموعة كبيرة من القصص للشباب.. عن ماذا يتحدثون؟ فقد تحول الواقع الخارج الصلب والذي هو أقوى من أي أديب أو فنان إلى حالة والحالة صارت هي القصة، وليس المضمون الواقعي الموجود في الحياة. وبدأ القصاص يعتقد أنه عندنا يمثل حالته الخاصة من حزن أو فرح فإنه يمثل بذلك الحياة كلها. وهكذا بدلاً من أن تندغم ذات الكاتب بالحياة العامة، أصبحت الحياة مجرد انتشار يبهر ولكنه لا يكتشف بثورة ومحرق لذات الكاتب، وبالتالي لم يعد فهم الحياة مهمًا. لقد كان شكلاً من أشكال إخصاء هذا الغنى الهائل للحياة. لقد كتبت، مرة، مقالة أقول فيها ما معناه: والله لن تفهموا الحياة إلا إذا درستم فهيمة العرجاء وصلاح السمان وأبو علي البوسطجي الذين يسكنون إلى جواركم.. إنكم تتكلمون عن العالم ككل وعن البشر ككل وعن المأساة ككل، ولكنكم لا تعرفون ما اسم جاركم وكيف يعيش، بل وتعتقدون أنكم تهينون الأدب، إذا ما تطرقتم إلى هذا الموضوع».

من أين يأخذ الكاتب مادته إذن؟ فالقصة موضوعها الواقع والحياة والبشر وهذه هي خصوصية القصة التي تميزها عن الشعر . جانب الذات في الشعر هو الصوت الأقوى أما جانب «الآخر في القصة أقوى».

ولهذا لا يكتب الروائي أحيانًا رواية جيدة إلا بعد أن يتجاوز الأربعين، وذلك بعد أن يكون قد جرب الحياة وخبرها، أما الشاعر فيمكنه أن يكتب شعرًا يطير العقول وهو في السادسة عشرة من عمره كما فعل رامبو – مثلاً. قد تقول لي أن شولوخوف طبع الجزء الأول من رائعته الدون الهادئ وهو

في العشرين، أقول هذا استثناء ثم لا تنس أنه خاض الحرب الأهلية كلها وهذه بحد ذاتها تجربة التجارب، نحن أمسكنا بجزء من الواقعية وعبّرنا عنه بشكل ما. وكان في هذا الجزء كثير من الحماس، وكثير من طغيان الايديولوجيا وزوغان البصر، ولكن فيه أيضًا كثير من الحياة، وربما لن يبقى بعد موتنا طويلاً، ولكن الناس يتذكروننا ونحن أحياء، أما ذلك التيار السابق الذي تحدثت عنه فسيرى موته وهو حي، وهنا تكمن دراميته الفظيعة.

ولكن ينبغي أن ننظر إلى ناحية ثانية، وهي أن اللغة التي كتب بها زكريا قد أبدت تأثيرًا إيجابيًا على لغة القصة وأغنتها. واكتست بمزيد من الصور، وبدأ الاندغام بين الصورة وما تمثله في الحياة الواقعية يكتسب عناية أكبر . ولمكنها تركت أثرًا سلبيًا أيضًا، فقد فهم عديد من الكتاب الذين ساروا على خطا زكريا، أن القصة هي تحديدًا اللعبة اللفظية الجملية الغنائية، واعتبروا أنه ينبغي أن تكتب قصة من ١٠ أسطر وفي كل سطر ١٤ صورة، وكل صورة متداخلة مجانيــة، مجانية، ولا علاقة لها بالحدث.

وقد كتبت مرة مقالة في جريدة البعث عن الفرق بين الشاعرية والغنائية. فالشاعرية موقف تجاه الحياة، أما الغنائية فهي نوع من اللعب اللفظي الذي يبحث عن قطعة تعطيه جرسًا أكثر مما تعكس واقع الحياة وتغنيه.

لقد أثر زكريا في مجموعة كبيرة من القصاصين غير الموهوبين، وقد عرفت الساحة السورية الأدبية عددًا كبيرًا منهم.

اللغة، حتى اللغة الشعرية، ذات دلالة دائمًا، صحيح أن الكلمة الشعرية تضرب أحيانًا دلالتها العادية المألوفة، ولكنها تعطيك بالمقابل مساحة أكبر من الضوء للواقع. أما عندما تدور الكلمة في الفراغ، وتبتعد عن عكس موضوعها، فستجد أنك قد غُششت، وبُهرت، وأن هذا الابهار قد أغلق عينيك. في حين أن الكلمة الشعرية الحقيقية تزيد من حدة بصرك فترى ما

وراءها. أذكر أنني في جلسة مع زكريا (حدث هذا في ٦٨ أو ٦٩ وكان معنا عدد كبير من الأدباء والمثقفين منهم سعيد مراد وهند ميداني وعلاء الدين كوكش وغيرهم)، مدحت محمود درويش، وكان ما يزال في الأرض المحتلة، لأن لشعره نكهة مختلفة. فقد كان ينطلق من أرضه، بعكس الشعراء الفلسطينيين الآخرين الذين كانوا في المنفى، ويعبرون بشكل مختلف. فرد زكريا بأن الكاتب هو الكاتب الموهوب لا علاقة له بأرضه. وبأنه ملك العالم . سألته : كيف؟ فقال إنه إذا جاء همنغواي أو فولكنر مثلاً إلى سورية فإنهم سيكتبون عنها بأفضل مما يكتب عنها أي كاتب سوري. وضرب مثلاً على ذلك رواية لكاتب فرنسي اسمها «جنة على نهر العاصي»، وغيره من الكتاب الذين كتبوا عن مناطق أخرى بأفضل مما كتب أهلها، كان حديثه ساذجًا وفيه شيء من الجهل.

صحيح أن الموهبة العظيمة. إذا ما عاشت في بلد آخر غير بلدها، قادرة على أن تكتب عنه بشكل جيد. أما أن أكتب عن أمريكا اللاتينية وأنا في سوريا كتابًا عظيمًا، وأحسن مما هم يكتبون فهذا ما لا أتصوره.

الموهبة ليست شيئًا هلاميًا كالمغناطيس الأثيري الذي يلتقط كل ما يدور في العالم.

ولكنني فوجئت أن أكثر الحاضرين (وعددهم كان ٢٥ شخصًا على ما أذكر) كان مع زكريا. عندها أحسست بالذعر . فهذا يعني أن الأمر قد ذهب بعيدًا.

ثم إن ضحالة النقد في البلد وركوب النقاد للموجة قد لعب أثرًا سيئًا في تطور الأدب لدينا. وبرأيي أن كتابات محيي الدين صبحي وخلدون الشمعة إلى جانب الإذاعة التي كانت تطبل وتزمر قد تركت أسوأ الأثر.

من ناحية ثانية اعتبر أن ثمة كتّاب قد تأثروا بزكريا وتجاوزوه، لأنهم مسلحون بنظرية كمحمود مثلاً، محمود متأثر بزكريا، بقصة «الضيف»

خاصة، متأثر باستعمال الجملة الشعرية، واستعمال اللقطة، ولكنه أعطاها مضمونًا داخليًا مختلفًا.

إذن لزكريا فضل كبير في إخراج القصة من لغتها العادية ، وأنا أيضًا قد جربت كثيرًا قبله، بل وكنت أكثر من جرب بين أبناء جيلي . فقد كتبت القصة الرمزية قبل ظهور زكريا: «شتاء قاس آخر» وهي قصةرمزية شعرية، وكتبت قصة وثائقية» «حمد الذياب»،«عاد المدمن»، «عريظة استرحام» والتجربة المعقدة وتقطيع الزمن قي «قيامة اليعازار».

* أذكر كتأكيد على كلامك قصة «الطفل يصرخ في الظلام».

– هذه كانت في حينها قصة عجيبة، كانت قصة نفسية معمقة، أوحت لي بها حياة سعيد الجزائري وهي من أولى تجاربي من قصص التحليل النفسي. لقد تأثرت بقراءاتي كثيرًا، وكانت حياتي غنية لحسن حظي والظروف سعيدة، كنت أحاول دائمًا أن أجرب كي أعثر على أسلوبي. ولكنني أعتقد بأنني لم أبعثر أعماقي.

في سنة ١٩٦٩ سافرت إلى الاتحاد السوفييتي للعمل في مجلة أنباء موسكو كخبير لغوي. وهنا سأجيبك عن سؤالك المتعلق بالغربة، أي الغربة كسبب من أسباب توقفي عن الكتابة.

لقد ذهبت إلى هناك بعد أن مرت عليّ كثير من التجارب، وقرأت الماركسية بشكل لا بأس به، لكنني عندما أصبحت في موسكو أصبت بخيبة أمل شديدة. لقد أحسست أن كل شيء مخروش : العدالة، الاشتراكية، العالم الاشتراكي، العلاقات الاشتراكية.صحيح أن الأمور تسير ولكنها مخروشة. ألا أقصد النواقص فقط. فقد كان هناك، إضافة إلى النواقص، نقاط ضعف قاتلة. والبيريستوريكا التي تدور الآن كنت أحس بضرورتها منذ الأيام الأولى وكان لي مناقشات هناك خلقت لي الكثير الكثير من العداوات بين «حملة

الناموس» من عرب وسوفييت. لقد فقدت صوابي وقتها وأحسست بالكساح ولهذا لم تكن فترة إقامتي في الاتحاد السوفييتي وقتًا منتجًا، ولكنها كانت مرحلة مفيدة جدًا، تعمقت فيها نظرتي للحياة، وشعرت بالفارق الكبير بين طموحاتنا وقراءاتنا وبين الواقع.

من ناحية أخرى، وللحقيقة أقول، فإن الحياة الاجتماعية السوفييتية منفتحة ومتطورة جدًا، والشعب طيب ومضياف وكريم، وقد غرقت في هذه الحياة تمامًا، لقد عشت في الاتحاد السوفييتي أسعد أيام حياتي، وقد أثر هذا إيجابيًا على تكويني. عشنا حياة بوهيمية إلى حد ما، أصبنا بكسل روحي، أضف إلى ذلك خيبة الأمل تلك التي أحسست بها، فكنت أكتب قليلاً. ولكنني كنت أقرأ. كانت تلك الفترة عصر قراءة بالنسبة لي. باختصار لقد عشت هناك حياة جميلة ولكنها استنفذت طاقتها فغرقت في اليومي وقررت العودة.

أنا لا أنصح أحدًا بالغربة. لقد كانت غربتي في لبنان منتجة لأنها فرضت علي فرضًا، أما غربتي في الاتحاد السوفييتي فقد اخترتها بنفسي طائعًا ولهذا كانت غير منتجة. إذ لم أكتب فيها سوى عدة مقالات نقدية وقصة نشرتها جميعًا في «الطليعة» وترجمة «فلنمثل سترندبيرغ» لدورنيمات، ربما لو أنني اخترت مكانًا آخر، فرنسا مثلاً، لاختلف الأمر ربما..هذا هو ما حدث في الغرب، فهل أجبت على سؤالك؟

* تقريبًا..

– هناك نوع آخر من الغربة. مثلاً غائب طعمة فرمان كتب أفضل رواياته في الغربة. ولكن مع ذلك إنك لا تحس فيها بطعم الحياة الحقيقية، وإنما تحس بأن الذاكرة هي التي تتكلم. وهذا بعكس روايته الأولى «النخلة والجيران». التي تحس فيها بنكهة العراق، هذه النكهة التي ستبدأ بالتلاشي في الغربة حتى تصل إلى أسوأ رواياته «المرتجى والمؤمل» التي يتحدث فيها

عن تفسخ المثقفين في الغربة. ربما كان بمقدور هذه الرواية أن تجيبك على سؤالك بأفضل مما أجبت أنا.

* عندما عدت من الإتحاد السوفييتي، كان في سوريا جيل أو جيلان يغطيان الساحة الأدبية، وكنت أنت وغيرك ممن أسس القصة الواقعية مغيبين عن هذه الساحة. أنا شخصيًا تعرفت عليك كشخص قبل أن أتعرف عليك ككاتب، هذا شيء غريب فعلاً، فقد كنت قنبلة متحركة في الخمسينيات. كيف تنظر الآن إلى واقع القصة في سورية؟

- عندما عدت من موسكو في ٤٧٩١، بقيت سنتين من دون عمل . وقد قرأت في هاتين السنتين كل ما فاتني من الإنتاج الأدبي السوري. وقد لعب سعيد مراد وملحق الثورة الثقافي دورًا هامًا في تعريفي على الأسماء الأدبية الجديدة. كما واشتركت أنا وزكريا تامر في لجنة التحكيم التي أشرفت على مسابقة «البعث» كنت محكمًا - معك ومع يوسف داوود- مسابقة الجامعة للقصة القصيرة وغيرها.. وهكذا استطعت التعرف على الكتّاب الجدد الشباب.

ومن خلال الإطلاع على القصص المشاركة في المشاركة المذكورة استطعت أن أميز اتجاهين رئيسيين: الاتجاه المتأثر بزكريا، وهو الاتجاه الطاغي، ولكنه لم ينجح، ولأنه كان يمثل الجانب الرديء من مدرسة زكريا، ولأنه كان يفهم القصة، كما أسلفت، على أنها صور مركبة متتابعة لا تشكل انعكاسًا للواقع الفعلي.

أما الاتجاه الثاني فهو يجسد صحوة الواقعية. لقد لمست فيه شيئًا جديدًا. وقد كان يمثله مجموعة من الشباب التقدميين الذين يريدون التعبير عن واقعهم ولكن ليس بأسلوبنا وإنما بأسلوبهم الخاص، وقد تحمست لهذا الاتجاه. وبدأت أتفاءل. تفاءلت لكما أنتما الإثنان: حسن م. يوسف ومحمود عبد الواحد، وتفاءلت بمحمد كامل الخطيب. وكان وقتها قد أصدر مجموعته الأولى

«الأزمنة الحديثة». وتفاءلت بجميل حتمل، وكان وقتها شابًا صغيرًا، ولكنني اكتشفت فيما بعد أن تفاؤلي لم يكن في محله. لقد تفاءلت بأسلوبكما في الكتابة، فأولاً أنت يا حسن أعطيت نكهة جديدة للواقعية، الواقعية التي نحبها نحن، والتي كان حسيب كيالي من مؤسسيها. ولكنك طورتها، وقد تجلى هذا خاصة في قصتك «ثالاسيميا عظمى»، ومحمود بـــــ «الضيف». لقد كنتما مختلفين في الأسلوب ولكنكما متفقان في النظرة. وأنا كنت دائمًا أقول أن لا حدود للواقعية، سأصرح لك تصريحًا قد تستغربه، فبرأيي لا يوجد شيء اسمه الواقعية الاشتراكية. إذا أخذنا الرومانسية نجد أن لها أسسًا ومواصفات معينة. وكذلك السريالية والدادائية وغيرها.. فما هي أسس ومواصفات الواقعية الاشتراكية؟وبرأيي أنه حتى الواقعية الانتقادية.

* عفوًا لمقاطعتك ولكن مصطلح «الواقعية الانتقادية» ولد مع ولادة «الواقعية الاشتراكية»..

- طبعًا، كي يميزوا بينهما. أما الواقعية بحد ذاتها فهي نهر لا ينتهي. وأنت إذا قرأت دوبرولوبوف أو بيلينسكي تحس وكأنه يكتب الآن، وكما يكتب كتاب الواقعية الاشتراكية. فعلى أي أساس يجري التمييز بينهم؟ ترى ألم يكن واقعيو القرن التاسع عشر العظام ثائرين على مجتمعهم وواقعهم؟ ألم تكن أفكارهم وأعمالهم خطوة على طريق الوعي الإنساني؟ إن جميع الكتاب الكبار الذين نمجدهم الآن، ينضوون تحت لواء الواقعية، كتيار يقف ضد النزعة الذاتية التي تنفي الواقع لحسابها الخاص. وهذا التيار، أي الواقعية، موجود برأيي منذ بداية التاريخ البشري وحتى الآن. وإذا كان هذا التيار مستمرًا كوعي فما أهمية الأشكال؟ لقد فلقوا رؤوسنا بلعبة الحداثة، ولكن الحداثة تظل حركة في الشكل وليس في الوعي.

* بل يمكن القول إنها حركة في تقنية الكتابة ولم ترتق بعد لتصبح حركة في الشكل.

– لقد دوخونا بهذه اللعبة وداخوا هم أنفسهم، لتكتشف بعد هذا أنهم لا يريدون أن يمدونا بوعي جديد، وإنما يريدون أن يظهروا لنا ذاتيتهم المتضخمة. أي يريدون نفي الواقع ونفي العلم ونفي الوعي لحساب الذات. وبرأيي أن مفهوم الحداثة الذي تصطدم به كلما فتحت مجلة أو جريدة عربية، لا يعبر إلا عن فقدان الصلة بالناس، وعجز الكاتب عن إيصال وعيهم لهم.

* هذا إذا كان لديه وعي أساسًا.

– طبعًا. ولهذا انظروا للحداثة ما استطعتم فستظلون خارج التاريخ.

لقد كان الأدب دائمًا فاعلاً في التاريخ، فأين فاعليته الآن؟ ترى الواحد الآن يقرأ على الناس قصيدة مدتها ساعتين، ولا يحفظ السامعون بيتًا منها. فما هي هذه الحداثة التي لا تؤثر في أحد؟ الحداثة التي ينظرون لها ليست سوى بالون ملون جميل، ويرتفع باستمرار، يرتفع لأنه إذا سقط بين الناس فسينفجر.

والأسوأ من تيار الحداثة في الشعر والقصة تيار «البنيوية» في النقد. تقرأ لناقد بنيوي نصًا طويلاً، فتراه غائصًا في علاقات الألفاظ ببعضها وعلاقات الألفاظ بالمعاني... إلخ ويفضل أهم ما في الأدب، يفضل علاقات الحقيقية بالحياة والواقع الذي يصدر عنه، وبرأيي أن السلطات العربية تدعم مثل هذه الاتجاهات لأنها مع التيارات الشكلية رغم كل صراخها الشعاراتي العلني.

مسألة التوصيل هي مشكلة الحداثة. ثمة مواهب كبيرة تنضوي تحت لواء الحداثة وهي تعزف على مقولة: أيها القارىء ينبغي أن تتعب كي تصل إليّ.

صحيح أن الكاتب يتعب في صنع عمله، ولهذا على المتلقي أن يبذل جهدًا في استيعاب ما يقوله الكاتب. فالأدب الطليعي، بما يحمله من وعي جديد وأفكار جديدة، لا يمنح نفسه بسهولة، والعلاقة بين الكاتب والمتلقي مسألة قديمة ومعروفة، منذ أيام أبي تمام حين قال له أحدهم : لماذا لا تقول

ما يُفهم ؟ فأجابه: ولماذا لا تفهم ما يقال: هذا صحيح كله، ولكنه لا يعني أن تتحول العلاقة بين الكاتب والمتلقي إلى ما يشبه حلقة صوفية باطنية، حافلة بالشطحات النورانية، والرموز المبهمة، التي يصبها شيخ الطريقة في أسماع مريديه، فيقضي هؤلاء عمرهم وهم يفكون ألغازها.

عمومًا أرى أن مأزق الحضارة الإنسانية يكمن في أن كافة العلوم قد تقدمت بشكل مذهل، و لكن الإنسان لم يتقدم داخليًا. نحن مصابون بنوع من العلم اللاغائي واللاأخلاقي. فالعالم الذري يخترع ويصنع قنبلة ذرية وهو يعرف أن بإمكانها أن تدمر الكرة الأرضية. لقد كان العلم دائمًا خادمًا للإنسان، أما الآن فقد أفلت من يديه وأصبح سيدًا لصانعه. نحن إذن في مأزق، والأدب يلعب دورًا هامًا في محاولتنا الخروج من هذا المأزق، أقصد هنا الأدب الواعي الذي يصور هذا المأزق على حقيقته ويعمق وعينا به. وعلى هذا الأدب برأيي، ضمن الظروف العالمية الحالية، أن يلعب دورًا مزدوجًا: فعليه من ناحية أن يلعب دوره في الصراعات الطبقية الاجتماعية المحلية، وعليه من ناحية أخرى أن يلعب دورًا إنسانيًا عامًا من أجل الحفاظ على وجود البشرية واستمراريتها وأمنها، تجاه الخطر النووي الذي يهددها. لقد أصبحت حياتنا أكثر تعقيدًا مما كانت عليه قبل بدء العصر الذري. وإذا كان السؤال المطروح سابقًا هو: إما هؤلاء وإما هؤلاء.. فإن السؤال المطروح الآن هو: إما البشرية وإما الفناء.. طبعًا هذا لا ينفي الصراع الطبقي ولا يلغيه. ولكن المسألة الأساسية أصبحت الآن مسألة وجود الإنسانية ككل أو عدم وجودها.

لقد استطردت قليلاً، والآن فلنعد إلى حديثنا.

إذن لقد تفاءلت بهذه الصحوة الواقعية الجديدة، ولكنني من جهة أخرى، تشاءمت لدى اطلاعي على الآثار السيئة لذلك الاتجاه الذي ساد في الستينات، والتي ألحقها بالأدب الجديد، ولكنني لاحظت أن هذا الاتجاه قد بدأ ينحسر في

الآونة الأخيرة. فبعد الهزات والنكسات القومية التي تعرضنا لها بدأت القصة القومية والرواية القومية والشعر القومي تحل بالتدريج محل ذلك الاتجاه المغرق في الذاتية. ولكن هذا الأدب القومي، خلصنا من مشكلة وأوقعنا في مشكلة أخرى فالشعر مثلاً، والذي كانت ساحته دائمًا هي العالم بأسره انهمك في التفجع القومي، ولا أقول الهم القومي وأغرقنا في نوبات لا تنتهي من البكاء على الأطلال. إنك تحس نفسك في كابوس لا نهاية له ولا أمل في الخروج منه.

وبرأيي أن مصيبة هؤلاء الكتاب تكمن في أنهم نسجوا في ذواتهم ومن ذواتهم صورة معينة للأمة العربية، وعندما هوت هذه الصورة. هوت الأمة بالنسبة لهم، وتحول العالم إلى خراب، وتكمن أيضًا في أنهم نظروا إلى مشاكلنا القومية على أنها مشاكل خاصة بنا فقط فتقوقعوا وقوقعوا الأدب معهم عليها. في حين أن الأدب يموت إذا ما تقوقع. إنه ينطلق إلى العالم بأسره مهما كانت الخصوصية المحلية التي ينطلق منها. وأفضل مثال على ذلك روايات ماركيز و «مائة عام من العزلة» بشكل خاص.

* لقد تحدثنا عن قصة الستينات، وقلنا أنها اتخذت منحى في الكتابة مختلفًا عن منحاكم، وإنها قدمت بعض الإضافات على صعيد اللغة. فهل قدمت إضافات مماثلة على صعيد تقنية القص وبناء الحديث والشخصيات إلخ..؟

- بل تراجعت. فالشخصيات مثلاً، بالنسبة لقصة الستينات، تظل مجموعة من الرموز لأفكار أو حالات. إذا كان الواحد الآن يكتب قصة من خمسة عشر سطرًا ويتحدث فيها عن العالم كله وليس عن إنسان فرد محدد، فكيف تريده أن يبني شخصية؟ ومن أين له الوقت. لذلك ضمن هذا الاكتظاظ السكاني المخيف!!؟

ولا أخفي أن مسألة بناء الشخصية، هذه المسألة الهامة في القصة والرواية، كانت مشكلة بالنسبة لنا، نحن جيل الخمسينيات، وكانت شيئًا جديدًا

علينا. إذ ليس من السهل أن تبني شخصية مقنعة تقطر حياة، شخصية لا تستطيع أن تستبدلها متى شئت بشخصية أخرى ويمشي الحال. لقد بدأنا هنا الاتجاه، اتجاه بناء الشخصية، متلمسين، ولكنه طُمس للأسف فيما بعد، لحساب الرموز والحالات والعموميات.

* لقد تعرضت القصة السورية لتقلبات عديدة منذ الخمسينيات وحتى الآن. ففي الخمسينيات ولد تيار واقعي وفي الستينات ظهر تيار مغاير، وفي السبعينيات برزت توجهات أخرى، وفي الثمانينات ساد ما يشبه العقم في القصة. ويلاحظ المتتبع أن هذه التقلبات على صعيد القصة كانت مواكبة لتقلبات أخرى تجري على صعيد السياسة والاقتصاد. إذا كنت توافقني على هذا الرأي فكيف يمكن تبرير هذا التأثر الشديد للقصة بالتقلبات الاجتماعية والسياسية؟ هل هذا عائد إلى كوننا لا نملك جذورًا وتقاليد عريقة في فن القصة، أم هو عائد إلى هشاشة الكتَّاب أنفسهم؟

- هذا صحيح. نحن فعلاً لا نملك أسسًا. أضف إلى هذا اختلاط المفاهيم النقدية، وعدم الفهم لآلية العمل الأدبي، فترى أحدهم متحمسًا حتى الموت لهذه القصة أو تلك الرواية، وترى بالمقابل شخصًا آخر ضد هذه القصة أو الرواية نفسها حتى الموت. في حين أن البيئة الأدبية الناضجة، والذوق الأدبي السليم يفترضان نوعًا من الاعتدال حتى في اختلاف الآراء. وكل هذا عائد إلى غياب الأصول. وفي رأيي أننا في الخمسينيات قد بدأنا بوضع أصول معينة ولكن هذه الأصول خُرِّبت. وليست التقلبات السياسية فقط هي التي خربت هذه الأصول، وإنما كان هناك أيضًا خطة مقصودة لتخريبها.

ولكن يظل المؤثر الأهم هو غياب التقاليد. مثلاً فؤاد الشايب، متى قرأ الناس قصصه! لقد قرؤوا نقده. أما قصصه فأنا واثق من أنه لم يقرأها سوى خمسة بالمئة من الكتاب، قبل أن تصدرها وزارة الثقافة. ثم جاد بعده شاكر مصطفى أيضًا ناقد ألمعي لم يقرؤوه أيضًا.

ثم هناك ليان ديراني، وكانوا يعتبرونه ممثلاً للواقعية الاشتراكية، ولكن قصصه كانت مسطحة، وهناك أيضًا شكيب الجابري، ممثل التيار الرومانسي، ولكن أدب هذا الكاتب ليس له علاقة حميمية بسورية، فمعظم قصصه تتحدث عن حياته في ألمانيا. فعلاً لم يكن هناك تقاليد وقد نشأنا في شبه فراغ.. فراغ سوري طبعًا وليس فراغًا عربيًا، فقد كنا نقرأ كل ما يصدر . ففي مصر، قرأنا تيمور وتوفيق الحكيم ويحيى حقي في «قنديل أم هاشم»، وهو واحد من الكتب المهمة التي تؤثر فيمن يقرؤها.

لماذا لم يحدث انقطاع في تطور القصة المصرية كما حدث لدينا؟ لأنه كان فيها تيار مؤسس أصلاً، فمحمود تيمور أسس القصة وحسين هيكل أسس الرواية وتلا ذلك تطور متواصل، يغني فيه السابق اللاحق، ويستقي اللاحق من تجربة من سبقوه. ثم أن في مصر تقاليد نقدية راسخة، المازني والعقاد وطه حسين ومبارك ومندور وعشرات غيرهم من النقاد في كل ضروب الثقافة والفن أما عندنا فخواء. ولم تستطع التقلبات السياسية أن تقطع خط التطور الأدبي فظل تطورًا متواصلاً، حتى في أيـــام عبد الناصر، عندما حدث قمع لبعض الاتجاهات السياسية ظلت القصة مستمرة في نضجها وتبلورها. أما نحن فلم تتح لنا الفرصة لوضع ما يشبه تلك الأصول. فالفترة الزمنية التي أتيحت لنا لا تتعدى ٨ سنوات، من ١٩٥٠- ١٩٥٨، وبعد ذلك زُجَّ بنا في السجون، وشُرِدّنا جميعًا،. ولم يبق أحد منا في مكانه. أما من بقي فقد صُنِّف في خانة معينة حتى أن أسماءنا منعت من الصحف والإذاعة، وهكذا غُيِّبت أسماؤنا، وباتت الأجيال اللاحقة لا تعرفنا، أهذا معقول؟ أمعقول أن حسن م . يوسف لم يتعرف عليّ ككاتب إلا بعد أن تعرف عليّ كشخص؟

* هذا مع أنهم يقولون عني أنني وريثك!

- ألم يقولوا لك أيضًا أنني لا أملك قرشًا واحدًا ترثه؟!

* هناك أجناس في القصة السورية ولدت في الخمسينيات، ثم لم نعد نرى لها أثرًا بعد ذلك. القصة الساخرة مثلاً...

- أنت تقصد حسيب كيالي. برأيي أن حسيب كاتب مهم. لقد بدأ بداية رائدة في القصة السورية، ولو عمقها لأنتج أدبًا عظيمًا. ولكننا في ذلك الوقــت لم نفهمه بشكل صحيح . بل واضطهدناه. فقد كنا نبحث عن أدب ثوري لا يبقي ولا يذر. أما حسيب فكان يتابع تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة بحثًا عن النكتة. وكنا نرى فيما يكتبه قصصًا ظريفة لطيفة لا أكثر، أما هدفنا الأعلى فقد كان: قصة ثورية مدمرة تزن أربعة قنابل ذرية! ثم إن بعضهم أطلق على حسيب لقب «تشيخوف سوريا» وعندما قارنا بين قصص تشيخوف الهائلة بعمقها الاجتماعي والإنساني، وبين قصص حسيب، لم تكن المقارنة لصالح حسيب وباختصار لقد ظلمنا حسيبًا وقتها ولم نفهمه كما ينبغي، ولم نرّ فيه مؤسسًا لأدب سوري خاص.

* بالمناسبة، تشيخوف بدأ بداية مشابهة تمامًا لبداية حسيب.- أعرف . فقد كتب تشيخوف في بداياته قصصًا مشابهة. وتحت اسم مستعار تارة كان «انطوشا تشيخونته» وتارة «رجل بلا طحال».

* برأيك هل ظُلم فارس زرزور أيضًا؟

- فارس لم يُظلم، فقد نشرت كتبه في كل العهود. بل قوبلت كتاباته بحفاوة، فهو لم يكن حادًا ولا حارًا. لا أقصد في كتاباته، وإنما في مواقفه السياسية، ولهذا فلم تضطهد كتاباته.

لقد كتب فارس عدة روايات هامة ولكن مرضه قطعها، إنه متأثر في رواياته بالطريقة التي يتحدث بها، فهو يتحدث عن أكثر الأمور جدية بكاريكاتورية مفرطة. فهو مثلاً يصف في إحدى رواياته صلاة استسقاء. إنه يصفها بشكل جميل، ولكن عقله الكاريكاتوري لا يستطيع إلا أن يدخل

تفاصيل عبثية مضحكة هنا وهناك، ثم تنتهي صلاة الاستسقاء بأن يقفز حمار على حمارة و..إنها صورة جميلة طبعًا ولكنها خارجة عن سياق الحدث ككل.

وبرأيي أن فارس يظل أثرًا تاريخيًا مهمًا في الأدب السوري في فترة من فترات مجتمعنا، وقد مهد بجرأة لنشوء رواية واقعية سورية.

لنعد إلى حسيب والأدب الساخر الذي سألتني عنه. بعد حسيب لم يعدأحد يتعاطى هذا النوع من الأدب، إلى أن تعرفنا على السيد حسن م . يوسف وقد فتنني بالقصص التي كان يرويها لي عن حياته، وكنت أدفعه دفعًا إلى أن يكتبها في قصص. وبدأ بعضها يظهر مؤخرًا. ولكن ليس كما سمعتها على ما أعتقد. أستثني من هذا قصة أو قصتين فقط. وأنا أخشى أن يقع في المطب نفسه الذي وقع فيه حسيب، أي الجري وراء النكتة من أجل النكتة نراه يضحي أحيانًا بالشخصيات، كما حدث في أحد أقسام «حماريات». عمومًا أعتقد أن هذا الرجل مؤهل لتعميق هذا النوع من الأدب الذي اختطه حسيب، ولتجاوزه.

ثم هناك أيضًا، ضمن هذا الخط أيضًا، خطيب بدلة. ولكن خطيب برأيي متأثر بأميل حبيبي أسلوبيًا وبحسيب كطريقة قص. وهو برأيي شاب موهوب.

وهناك شاب جديد اسمه حاتم علي. لقد قرأت له مجموعة ما تزال مخطوطة. وهي تضم قصصًا ممتازة.

* لقد تحدثنا عن الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، فماذا عن الثمانينات؟

- لقد أصبت، بعدما صمتما أنتما الإثنان فترة طويلة، بما يشبه اليأس من ولادة شيء جديد. إضافة إلى هذه فقد عاد ذلك النوع من الكتابة الإنشائية الرمزية لكي يطغى مجددًا. إنني أتابع معظم ما ينشر، وأستطيع أن أقول عن هذا الجيل الجديد الذي يكتب إنه جيل فقير بالتجربة الحياتية. وتحس من

كتاباته أن لديه توقًا لأن يكتب القصة ولكن من دون أن يعيشها. ولكن الآن، بعدما عدتما إلى الكتابة، وقرأت للكاتبين الذين أشرن إليهما أي خطيب بدلة وحاتم علي، إضافة إلى كاتب آخر نسيت أن أشير إليه وهو دريد يحيى الخواجة، وهو برأيي شاب موهوب، وكاتب جديد بدأ ينشر مؤخرًا اسمه حسن صقر، وهو قصاص يملك عالمًا خاصًا به، وآخرون على الطريق، أقول بعد هذا كله بدأت القصة تخرج من جمودها، وأتمنى أن تفتح لنا آفاق جديدة.

١٩٨٨

* * *

صياح الديكة

مسرحية ساخرة لفصل واحد

أشخاص المسرحية ؟!

أفراد مخفر (...) في بادية الرقة	فلاحون:
رئيس المخفر	حاتم منصور
الدركي الأول	قاسم الأسعد
الدركي الثاني	يونس السجاع

ملازم المقاومة الشعبية

ممدوح الفلواتي: قروي يخدم المخفر

فلاحون من مختلف الأعمار – جندي

في سنة ١٩٥٧ حتى الوحدة، وقعت سورية تحت ضغوط عربية وأجنبية لإدخالها في حلف بغداد الاستعماري، فحشدت تركيا فرقًا عسكرية هجومية على طول حدودها الشمالية مهددة باجتياحها، فهبت سورية من أقصاها إلى أقصاها واستعدت لرد العدوان وتألفت في كل مكان فصائل شعبية للمقاومة ووزع السلاح على المقاومين.

استغل بعض صغار النفوس من الأجهزة الفاسدة جهل الفلاحين، وأوهموهم بإجبارية التجنيد، وأخذوا منهم الرشاوى، وهذه المسرحية وصف واقعي لإحدى هذه الألاعيب التي انكشف أمرها فيما بعد وأوقف أبطالها. وقد ساهمت المسرحية، بعد الضجة التي أثارتها، في تشكيل لجان التفتيش التي فضحت كل شيء.

المنظر:

(غرفة في مخفر درك (...) في الجزيرة، الباب مفتوح على أرض مفلوحة تدخل منه الشمس طاولتان قديمتان جدًا تحتلان زاويتي الغرفة، على إحداهما بقايا طعام فوق بعض السجلات والصحف يرجع تاريخها إلى ما قبل أسابيع وآلة تليفون قديمة ذات سماعتين.. على الحائط الشمالي الطيني توجد كوة متسعة غطيت بزجاج مكسور وملصوق بالورق وفي أعلى الحائط صورة رئيس الجمهورية وقائد الدرك العام وعلى الحائط الشرقي بضع بواريد معلقة وخوذات علاها الغبار وجنادات فشك، أما الحائط الغربي فمليء بصور ممثلات شبه عاريات مع لوحتين معلقتين فوق باب يؤدي إلى غرفة داخلية، تمثلان أبا زيد الهلالي بشوارب هائلة، والثانية تمثل الإمام علي وهو يقطع بسيفه ذي الرأسين رجل عمرو بن ود العامري والدماء تسيل مثل نهر أسود يمتد من أصل الفخذ حتى يملأ أرض الصورة. ثلاثة كراسٍ وضع على أحدها سلة بيض وبجانبها إبريق الشاي الحار، أما الكرسيان الآخران فقد شغلهما دركيان: واحد صنف أول، ربعة، ضيق الجبهة، ملبد الشعر، ذو أنف صغير جدًا، وعينين زرقاوين واسعتين لا ينقصهما الجمال، وعلى شفته العليا في منتصفهما تمامًا، ثؤلولة تبدو كحمصة غامقة. وقد علق عليها بعض صفار البيض الذي كان يملأ فمه منذ لحظات. أما الدركي الثاني فطويل جدًا ونحيف جدًا جدًا، ذو هيئة دونكيشوتية بعصاه التي يحملها دومًا «كالسيف له وجه

بيضوي وله طابع في أسفل ذقنه يسع حبة عنب، ذقنه لم تحلق منذ أيام، وشعره ذو طرة إلى الأمام يحاول دومًا أن يمليها إلى جبينه تشبهًا بهتلر.. له تفاحة آدم منفرة بعض الشيء وعيناه صغيرتان عكرتان فيها دهشة دائمة تجاه كل شيء يحيط به.. حركات يديه تنبيء عن عصبية مستعدة في كل لحظة للظهور . ثيابه واسعة عليه ومتهدلة ولكنها رغم ذلك قصيرة.

(الزمان : الساعة التاسعة صباحًا)

(يرفع الستار: الدركيان في وضع مريح يرتشفان الشاي بصوت مسموع).

الدركي الأول : بقي شاي؟

الدركي الثاني: حصتك خلصت.

الدركي الأول: كذب كم قدحًا شربت؟

الدركي الثاني: شربت أنت أربعة أقداح واستنفدت عشر ملاعق سكر أما أنا فالذي بيدي الثالث..

وبقي في الإبريق نصف قدح فقط.

الدركي الأول: اسمع.. دعني أنظر.. أنا لم أشرب سوى قدحين على ما أذكر، بينما أنت تفتح بالوعتك وتصب، دون أن تخشى أن يحترق زلعومك.. قل لي راصف بلعومك ببلاط؟ (يفتح الإبريق) فيه أكثر من قدح يا كلحوس.

الدركي الثاني: (يغطي الإبريق) لا تراوغ.. بشرفي لن تأخذ قطرة واحدة.

الدركي الأول: خسيس (يتنهد) اسمع.. أنا دايمًا مساير (يقف ويتمطى ويتثاءب) كم الساعة؟

الدركي الثاني: (ينظر في ساعته) تسعة وسبعة. ألا تظن أن الرقيب غاب طويلاً ؟

الدركي الأول: اسمع (يتلفت حوله) أنا لا أثق به.. إنه لص عريق وبطرون قديم ومخاتل (ينظر ناحية الغرفة الثانية) كم أتمنى أن يتاح لي يومًا إن أفتح خزانته.

الدركي الثاني: (يهز عصاه ويضحك) قه قه.. نحن أشراف هاه؟.. نحن أشراف حقًا.. هيء هيء.

الدركي الأول: أعني.. اسمع.. على الأقل لم نحاول خداعه.. تذكر أننا دومًا كنا نقسم ما يأتينا بالتساوي ولو في حال غيابه.. زما هو ..

الدركي الثاني: شي راح ومضى.

الدركي الأول: (بغضب) أنت جبان وذليل.. نسيت بسرعة ؟ .. كم أخذ من شيخ العكيدات لما زور له سند التمليك؟

الدركي الثاني: ألف..

الدركي الأول: ماذا كان نصيبنا؟

الدركي الثاني: خمسين..

الدركي الأول: ومن فخري بك.. لما طردنا الفلاحين من المحضر الشمالي وبيتناهم ليلتين بالمخفر بدون أكل؟

الدركي الثاني: سبعمية.

الدركي الأول: أخذنا منهم خمسين.

الدركي الثاني: لكن لا تنسَ أنه صاحب الفضل بتعريفنا على فخري بك.. لولاه.. لكنا في السجن منذ سنة..

الدركي الأول: يا سيدي.. فخري بك ولا غيره.. فيه ألف كلب بيحميك.. الدنيا تبادل مصالح .. اخدمني اخدمك.

الدركي الثاني: بشرفي إنك ناكر للجميل.. نسيت وقت خطفت المرأة الكردية من زوجها.. مين خلصك وتوسط لك بالشام؟

الدركي الأول: أنا لا أقول..

الدركي الثاني: ونسيت وقت مخصصات الزراعة ومكافحة دودة القطن لـــما انكشفت الحسابات وجاءت لجنة تحقيق.. مين عزم اللجنة وصرفها.. بدنا بالحكي.. لولا فخري بك كانت حالتنا بالويل.

الدركي الأول: اسمع.. الدنيا تبادل مصالح.. كم مرة خدمناه.. بواسطتنا خلص الفلاحين عشرة آلاف دونم أرض.. ما في منية كل واحد منا عمل واجبه.

الدركي الثاني: صحيح كل واحد عمل واجبه.. هيء هيء هيء.. قه قه..

الدركي الأول: اسمع .. (يلتفت ناحية الخزانة) أتمنى يومًا أن أفتح هذه الخزانة..

الدركي الثاني: وماذا سترى؟ برغل وسمن وعسل وباكيتات دخان وعرق وخلافه.. لا تنس أنه (يؤشر بيديه في استهانة، يطقطق بلسانه) رئيس مخفر .،. رقيب..

(يسمع وقع أقدام تتقدم)

الدركي الثاني: لقد جاء .. هاه؟

الدركي الأول: (ينظر ناحية الباب) جاء يا سيدي .. عجيبة.. جاء وحده لم يأت معه بفلاح واحد.

.. غبي.. مترفع.

(يدخل من الباب رئيس المخفر.. قصير.. ضيق الجبهة ثقيل الخطوات، في عينيه الشهلاوين احمرار من هو معتاد الغضب السريع وشرب الخمرة بكثرة.. في وجهه خبث ريفي لا يعمر طويلاً.. يخدع المتفحص في مقدار ذكائه، الدركيان يقفان بدون احترام).

الدركي الأول: هيه.. وحدك؟ أين الفلاحون؟

رئيس المخفر: ....

الدركي الأول: لم يتنازل بالمشي معهم.

الدركي الثاني: ألم أقل لك؟

رئيس المخفر: فكرت أنه يجب أن لا أدور من بيت إلى بيت، أحثهم على إعطائي.. قلت يجب أن أبلغهم الموضوع بصرامة كأنه أمر.. وعند ذلك يخافون، ويعطون كل شيء مقابل ألا يذهبوا إلى آخر الدنيا.

الدركي الأول: لكن نحن مستعجلون.. لقد أخبرتك أن ضابط المقاومة سيصل بين لحظة وأخرى..

رئيس المخفر: (يضيق عينيه ويبتسم) أنتما غبيان.. ما في ذلك ريب ولا شبهة.. هه.. تظنون إسماعيل رئيس مخفركم شخصًا لا يحسب لكل شيء حسابه.. وضعت على الطريق برأس التل ممدوح الفلواتي وسيرجع سريعًا ويخبرني إذا شاهد سيارة. الدركيان معًا: فظيع..

رئيس المخفر: (بارتياح وهو يخلع عمرته ويعلقها فوق مسمار طويل على الحائط) وفوق ذلك تركت للإشاعات أن تفعل فعلها.. البلد كلها الآن مطبلة مزمرة .. تظن أننا سنجندها وسنبعث بها إلى الحدود.. إسماعيل يعرف كيف يشتغل.. هاه؟

الدركيان معًا : عظيم..

رئيس المخفر: وعندما يأتون – لقد أخبرتهم أن يأتوا في التاسعة والنصف لتسجيل أسمائهم – سنعرف كيف نتكلم هاه؟

الدركيان معًا : جهنمي..

رئيس المخفر: بقي أن تنظفوا هذه القذارات.. (ينظر إلى الإبريق) فيه شاي؟
الدركي الأول: اسمع.. أخوك علي –كعادته – نسفه كله.. وفوق..
الدركي الثاني: (مقاطعًا) كذب.. الأخ الكريم أخذ – كعادته..
رئيس المخفر: (مقاطعًا) أدخل سلة البيض يا علي إلى الغرفة الأخرى .. وأنت يا محمود.. خلصني من هذا القشر والقذر، من يرى المخفر الآن يظنه بيت فلاح.. حظيرة خنازير.. (يتأفف) العمى.. (يراقبهما وهما يعملان) ضعوا السجلات على الطاولة، وهيء أوراق الضبط يا محمود.. سنحتاج إليها.. (يفرك يديه) يوم مبارك (ينظر من الباب) يا فتاح يا عليم الزبون الأول.. قاسم الأسعد (يتابع فرك يديه) عنده ديكا حبش ظريفان جدًا ..قه..قه..قه.. والآن استعدوا..

يجلس رئيس المخفر وراء طاولته بعظمة بعد أن يلبس عمرته، ويجلس في طرف الطاولة الدركي الأول بعد أن يفتح السجل ويمسك بالقلم مستعدًا.. أما الدركي الثاني فيقف عند الباب وهو يهز عصاه.

(يدخل من الباب قاسم الأسعد مترددًا خائفًا، فلاح في الأربعين، قوي، تبدو على وجهه إمارات الطيبة التي تصل إلى حد السذاجة عيناه زئبقيتان رجراجتان صغيرتان).

قاسم : تسمحون لي حضرة الشاويش؟ .. يصبحكم الله بالخير.
رئيس المخفر: (بخطورة): ادخل (يتشاغل بالنظر إلى السجلات) قاسم الأسعد.. قاسم الأسعد.. أف.. إلى تركيا رأسًا..
قاسم : (بذعر شديد) داخل على حريمك يا حضرة الشاويش.. أم الأولاد حبلى.. والمحصول بالأرض مين يلمه؟.. لي ستة أولاد مين يشيل حملهم غيري؟

الدركي الأول: (بقسوة) لماذا؟ نحن محكمة؟.. الأوامر هي الأوامر..

الدركي الثاني: (يهز بعصا مهددًا) – تيس..

قاسم : لكن يا حضرة الشاويش . أنت لو قلت للحكومة عني.. ووصفت لهم حالتي..

رئيس المخفر: أنا خادم أبيك يا قاسم الأسعد هاه؟ (يحتقن وجهه من الغضب) أنا أقول للحكومة عن حالتك هاه؟ (يقف ويتقدم من وراء الطاولة نحوه) أنا ليس لي شغلة وعملة سوى مشاكلك يا قاسم الأسعد هاه؟..

قاسم : (وهو يتراجع حتى يلتصق بالحائط) – أنا داخل على عرضك.. أنا طول عمري وطني.. سنة الخمس وأربعين.. تعرف الحكومة أني هجمت على الفرنسويين.. لكن الآن.. وين أروح.. وأترك أرضي وأولادي وأم الأولاد؟ لـو صارت حرب – لا سمح الله ولا قدر– كنت أول واحد شايل البارودة وهاجم.. أما الآن لماذا أذهب عسكري؟ من جمعة زمان كنت في الدير ما شفت في أحد لابس عسكري سوى المطلوبين.. وكل رفاقي بأشغالهم وأعمالهم.

الدركي الأول: (بقلق) يعني أنت يا قاسم الأسعد تعترض على أوامر الحكومة؟

الدركي الثاني: (يهز عصاته بغضب) – جاوب.

قاسم : أنا أعوذ بالله..

رئيس المخفر:(يعود إلى طاولته)– رح ولم ثيابك واستعد للذهاب إلى حدود تركيا في شمال حلب.

قاسم : (يرخي يديه مستسلمً)– أمري لواحد أحد.. أمهلني كام يوم يا حضرة الشاويش .. (يتحول ليخرج).

(رئيس المخفر والدركيان ينظر بعضهم إلى بعض ويشير رئيس المخفر بيده).

الثلاثة معًا : إلى أين؟

قاسم : (يلتفت بدهشة) – رايح أودع أهلي (يضرب كفًا بكف في أسى) .

الدركي الأول: (يتنحنح) والله حالته صعبة..

قاسم : (ينظر إلى رئيس المخفر بضراعة)..

الدركي الثاني: عنده امرأة وأولاد .. ظلم.. حرام

رئيس المخفر: (بأسف)– أنا طول عمري مع الفلاحين.. لكن ماذا باليد؟ الأوامر هي الأوامر..

قاسم : دبرها يا بيك.. دبرها الله يسترك ويخليك..

الدركي الثاني: ممكن حضرة الرقيب حذف اسمه من السجلات؟

رئيس المخفر: (يقفز غاضبًا) تريد أن أعلق مع الجيش هاه؟ تريد طردي وسجني هاه؟ تريد شنقي،... قاسم: يا ستار.

الدركي الأول: لكن إنسانيتك يا حضرة الرقيب لا تسمح أن يذهب واحد مسكين مثل قاسم الأسعد إلى آخر معمر الله..

رئيس المخفر: وماذا أفعل؟ اسمه وارد بالقائمة..

الدركي الثاني: نقول عنه مريض.

الدركي الأول: نقول عنه مسافر.

قاسم : قولوا عني مت.

الدركي الأول: أنت أخرس.

قاسم : خرست..

(لحظة صمت.. رئيس المخفر يسير في الغرفة)

رئيس المخفر: طيب نقول عنه مات.

قاسم : لكم طول البقاء.

رئيس المخفر: لكن.

قاسم : يا ساتر.

رئيس المخفر: طيب.. من أجلكم لكن إياك يا قاسم أن تفتح فمك وإلا..

قاسم : أبدًا .. أنا مت صحيح.. أروح؟

الدركي الأول : تروح روحك.. اسمع .. نريد حلوتها..

قاسم : (يتعمد عدم الفهم) حلوتها؟

الدركي الثاني: حلوة موتك.

قاسم : آه.

الدركي الأول: (بهمس) عندك ديكان من الحبش.

قاسم : (يهمس أيضًا) الإثنين؟

الدركي الأول: واحد.

قاسم : واحد.

الدركي الأول: اسمع.. ليك الجحش.. أقول لك الاثنين.

قاسم : طيب الاثنين (بأسى) أمري لله (للكل) بخاطركم، سأرجع بعد قليل (يخرج)

(لحظة صمت)

الدركي الثاني: أفكر أنه لو انكشفت اللعبة..

الدركي الأول: اسمع.. لا تفسد الموضوع.. من سيعلم؟

رئيس المخفر: بداية طيبة.

الدركي الثاني: إني أريد أن أرى منظر ضابط المقاومة الشعبيةعندما نقول له لم يقيد أحد نفسه في هذه البلد سيدي .. وطنية ميتة.. لا يخافون إلا بعيونهم.

رئيس المخفر: تظن؟ سنقيد بعض الأشخاص الفقراء جدًا.. كل الناس عندهم ديوك حبش أو برغل أو سمن؟

الدركي الأول: (للثاني)- غبي..

الدركي الثاني: (باستهزاء) ولكنك يا حضرة الرقيب نسيت شيئًا مهمًا!!

رئيس المخفر: وما هو ؟

الدركي الثاني: ماذا سيكون شعور أصحاب الهدايا (يضحك) عندما يرون أن المقاومة الشعبية معناها أن تستلم بارودة وتقعد في بيتك بانتظار أن يداهمك الخطر.

رئيس المخفر: سندبرها.. ماهذا؟

(ضجة في الخارج . الدركي الأول يذهب ناحية الباب)

الدركي الثاني: لقد أتوا.. (ترتفع الضجة) المختار ليس معهم.. هذا أحسن.. الشيخ محمود الرافد رأس الكل يمشط لحيته.. يا رب اجعل ضابط المقاومة يتأخر أو تتعطل سيارته.

(يجلس رئيس المخفر بسرعة وراء طاولته ويفتح السجل ويركب على وجهه نظرة عابسة خطيرة، بينما يأخذ الدركي الأول مكانه، ويظل الدركي الثاني واقفًا يلوح بعصاه).

(الضجة تتضح وأصوات من الخارج).

صوت : ليس هذا عدلاً. لاتدفعني هكذا يا بو محمود يرحم أبوك..

صوت : بكرة تصير القرية صبة نار .. الأتراك هه.. أتى يومهم.

صوت : قال يسلمون بواريد للقرى ويجعلونها تحرس نفسها بنفسها.. أريد بارودة ومئة فشكة.

صوت : الوطن على رأسي .. لكن الأولاد..

صوت : عيب يا رجل.. الموت في سبيل الله واجب.

صوت : تعرفون يا شباب.. حكومتنا زينة..

(يدخلون ويحيون.. فلاحون من مختلف الأعمار والهيئات فيهم التسعيني وابن الخامسة عشرة، يسلمون وهم يتابعون لغطهم)

الدركي الثاني: بس.. العمى.. أنتم في مخفر ولا خان (هدوء نسبي).

رئيس المخفر: (للدركي الأول بهمس) قوم احكي كلمة..

الدركي الأول: أنا ما أعرف غير باسم الله الرحمن الرحيم.. دبرها بمعرفتك.

رئيس المخفر: جحش.. صالح فقط للحش والنهش.

الدركي الأول : (بغضب) وسعادتك لأي شيء تصلح؟

فلاح مسن : حضرة الشاويش داعيك مريض جدًا..

الدركي الثاني: هيك الوطنية؟ شباب وفرسان الواحد منكم يشيل حمل ثور.. وبعد ذلك تخافون كالنسوان؟

الفلاح المسن: طول عمرنا ما خفنا يا أخي .. لكن لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.. أنا وحدي بالبيت لاولد ولا تلد مع بنت الحلال.

فلاح آخر مسن جدًا: عمري تسعون، لي أربعة أولاد بالجيش واحد منهم بنجمتين.. ومع ذلك أنا مستعد.

رئيس المخفر: عفوًا جنابك حاتم المنصور؟

المسن جدًا : نعم – الداعي حاتم المنصور؟

رئيس المخفر: (يبتسم بلطف) ما عرفتك.. أنت معفو يا شيخ حاتم.. جاء أمر خاص بشأنك..

الرجل المسن جدًا: لكن يا ابني أنا مستعد في سبيل الله.

رئيس المخفر: (يعبس قليلاً) لا يمكن يا شيخ حاتم الأوامر هي الأوامر.

(يهز الرجل المسن جدًا رأسه بأسف ويخرج)

الدركي الثاني: (مقتربًا) من الطاولة بهمس) بداية لعينة.

رئيس المخفر: يأخذه الطاعون (يرفع صوته) والآن لنبدأ..

فلاح شاب : (يتقدم بحماسة) أنا أول من يقيد اسمه.

الدركي الثاني: (بهمس) ليك الخنزير(يرفع صوته) عظيم .. هيك الوطنية لازم تخجلوا من أنفسكم..

رئيس المخفر: (ينظر بحقد ناحية الفلاح) اسمك؟

الفلاح الشاب: محمود الراعي.

الدركي الأول: (بسخرية) تشرفنا

رئيس المخفر: (ينظر في السجل) محمود الراعي.. هذا هو .. مكانك على الحدود اليهودية.

(الفلاحون يصفرون ثم يسكتون بوجوم)

رئيس المخفر: ستذهب إلى هناك يا محمود الراعي؟

الفلاح : (يتردد) أذهب..

فلاح : ولكن قالوا لنا أننا سنأخذ بواريد ونقاتل هنا في القرية.

رئيس المخفر: (وهو يقف في غضب) ومين الذي قال لك؟ أي ديوس؟

الفلاح : (خائفًا) يونس السجاع قال لي.

يونس : هيك يفعلون في الشام وفي الدير..

رئيس المخفر: عال.. عال جدًا هيء ضبطًا يا علي.. الولد يكذب على الحكومة..

يونس : ابن عمي بعث لي مكتوبًا من الشام كتب فيه (يخرج المكتوب من جيبه)

رئيس المخفر: (ينقض على المكتوب ويمزقه) ابن عمك خرفان.. تسمع؟ خرفان.. كل الدنيا قايمة قاعدة وأنت تقول لي.. اسمعوا سأبعث بكم كلكم إلى جهنم..

(يرجع إلى كرسيه)

الفلاحون : روق بالك يا حضرة الشاويش.. هذا ولد جاهل

يونس : قصدي..

الدركي الثاني: (يضربه بالعصا) اخرس.. لا تفتح فمك بعد الآن.

يونس : أمرك.

الدركي الثاني: ولا كلمة.

يونس : أمرك.

فلاح : اذن سنذهب كل واحد في ديرة مثل العسكر.

رئيس المخفر: تمامًا.

فلاح : وكيف أترك البيدر مكومًا؟

رئيس المخفر: هذا تعرفه أنت أكثر من غيرك ولا علاقة لنا به.

فلاح : وأنا كيف أذهب وأترك أولادي الصغار وامرأتي ؟ من الذي يطعمهم؟ الحكومة؟

رئيس المخفر: الحكومة ليست فاضية لك ولأمثالك.

أصوات قليلة : نروح حتى لآخر الدنيا.. الجهاد واجب . أعطونا كام يوم حتى نهيء أنفسنا.

رئيس المخفر : ولا دقيقة.. سأسفركم اليوم..

(همهمة بين الفلاحين وأصوات هامسة)

فلاح : لم يقولوا لنا هكذا..

فلاح : خربت القرية..

فلاح : الحكومة لو تعرف حالتنا ما كانت رضيت بذهابنا

يونس : والله يا جماعة بالدير والشام الناس ليسوا عساكر إجباري يظلون.. وحق المصطفى ابن عمي كتب لي من..

فلاح : يا جماعة ما في حرب .. عند الحرب يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.. نروح بدقيقة، أما الآن !!

فلاح : تعرف يا أبو ماجد.. المسألة غريبة جدًا.

الدركي الثاني: نظام يا إخوان نظام.

رئيس المخفر: نرجع إلى الموضوع.. أنت يا محمود الراعي متى ستذهب؟

محمود : الآن!!

الدركي الأول: (بهمس) كلب (يرفع صوته) يا حضرة الرقيب أنا أعرف الولد.. أمه ليس لها غيره وستموت حتمًا إذا ذهب.

الفلاحون : صحيح.

رئيس المخفر: (بغضب مفتعل) يعني.

الدركي الأول: يعني إذا ممكن حضرتك تحذف اسمه.

الفلاحون : إذا أمرت قيده بالقرية.

رئيس المخفر: ليس هناك ولا واحد في القرية، أسماؤكم كلها بره على الحدود.. الأسماء أوامر آتية من الشام رأسًا.

فلاح : احنا نروح ما في مانع أما هو (رئيس المخفر يقف ثم يمشي في الغرفة جيئة وذهابًا يفكر ثم يقف محدقًا بالفلاحين).

رئيس المخفر: صحيح أنني أستطيع أن أحذف اسمه.. صحيح أنني أستطيع أن أحذف أسماؤكم كلكم.. ولكن المسألة خطرة وكلها مسؤولية.

فلاح : احنا ندبر أنفسنا، سنذهب جميعًا خدمة الوطن شرف.

الدركي الأول: (بحقد) مغرور.

رئيس المخفر : (يعود إلى ذرع الغرفة) والخلاصة أنني ونظرًا لأن قلبي طيب..

فلاح : الله يديمك.

فلاح آخر : الله يعلي جاهك.

رئيس المخفر: نظرًا لأن قلبي طيب.. ولأن أكثركم أصحاب عيال وتنتظرون الموسم.. فسأتحمل مسؤولية الأمر.. هذا إذا .. هذا إذا.

فلاح : لا تجعلنا نسافر .. سنعطيك كل ما تريد.

رئيس المخفر: (متصنعًا الاستنكار) ماذا قلت؟

الفلاح : قصدي.. قصدي.

الدركي الثاني: قصده شريف يا حضرة الرقيب.. إن كل واحد سيقدم لكم هدية بسيطة عرفانً بالجميل.

(الفلاحون ينظر بعضهم إلى بعض)

رئيس المخفر: (مخاطبًا الدركي الثاني) يعني رأيك نحذف أسماؤهم كلهم من السجل؟

الدركي الثاني: بالضبط؟

رئيس المخفر: صعبة!!.

الدركي الأول: قلبك طيب يا حضرة الرقيب..

رئيس المخفر: ولكن..

الدركي الثاني: (بهمس) لفها (يرفع صوته) إذا أمرتم سيدي..لن ينسوها لك مطلقًا، وسيقدمون دومًا الخدمات الإعانات للمخفر عرفانًا بالجميل (يلتفت إلى الفلاحين) أليس كذلك؟

أصوات مترددة: طبعًا .. طبعًا

رئيس المخفر: أنتم تعلمون كم الأمر فظيع!! يترك الرجل أهله وعياله ويذهب إلى آخر الدنيا.. أنا أدرك حالتكم تمام الإدراك.. هذا ظلم آباوكم كلهم مسنون لا يمكنهم حفر الخنادق وحمل التراب وجر العربات.. و ..

(ضجة.. صوت سيارة تقف.. الفلاحون يفسحون الطريق لملازم المقاومة الشعبية باحترام وخوف، يدخل شاب أسمر عصبي سريع الحركات طلق الوجه.. رئيس المخفر والدركيان يأخذون التحية العسكرية باضطراب ويقفون مصعوقين كالأصنام).

الملازم : (بألفة) مرحبًا يا شباب (ينظر إلى الفلاحين ويبتسم بمحبة) أهلاً .. أهلاً بالأبطال.

الفلاحون : أهلاً بيك.

فلاح : (يهمس) لطيف جدًا.

فلاح آخر : شهم.

الملازم : (لرئيس المخفر) هل سجلت أحدًا ؟ أرى أن الإقبال هنا ممتاز.

رئيس المخفر: (يبتلع ريقه) نعم سيدي.

الملازم : أترى .. شعبنا متحمس.. هه.. شيء رائع.. (يفرك يديه) أعطيتهم فكرة عن المقاومة الشعبية؟

رئيس المخفر: فكرة صغيرة.. كنت أتكلم لما دخلت .. أعني.

الملازم : احسبني غير موجود.. أتم كلامك..

رئيس المخفر: (بارتباك) أتم كلامي؟ (ينظر إلى الدركيين مستنجدًا) طيب كنا نقول يا أخوان (يتنحنح) نعم لقد كنا نقول ونكرر فنقول، أعطني كأسًا من الماء يا علي (يسعل) أشعر بالمرض اليوم.. يا للحر الفظيع.. كنا نقول ونؤكد لكم أن الشعب هو الحكومة، والحكومة هي الشعب، والشعب والحكومة لا فرق بينهما كما وأن الحكومة والشعب إخوان.. (الفلاحون يتبادلون نظرات الدهشة بينما يشرب رئيس المخفر من الكأس الذي قدمه له علي) ابعدوا قليلاً عن الباب حتى يدخل الهواء.. إذن يا إخوتي.. تعلمون أن الأتراك على الحدود يريدون أن يقتلونا.. ولكن بهمة الحكومة والجيش والشعب.. فإنكم تعلمون أن الحكومة هي الشعب، وأن الشعب..

(صوت خطوات والفلاحون يفسحون الطريق لممدوح الفلواتي الذي يدخل بعجلة وهو يلهث وتكاد أنفاسه تتقطع)

ممدوح الفلواتي: حضرة الشاويش.. سيارة كانت.. (يلمح فجأة ملازم المقاومة فيسكت) يعني.. أعني.. أن سعادة الملازم.

رئيس المخفر: اذهب من وجهي يا لعين.. هذا وقت جنونك.

ممدوح : ولكن أنت قلت لي.. إذا رأيت..

الدركي الثاني: اخرس واطلع بره (ضربه بالعصا ويدفعه إلى الخارج)

الملازم : (عابسًا) لا تضربوا أحدًا.. (يهمس للدركي الثاني) عيب.. ارم العصا..

الدركي الثاني: أمرك (يرمي العصا وينظر ناحية الفلاحين بخجل).

الملازم : ماذا كان يريد أن يقول.

رئيس المخفر: إنه مجنون سيدي الملازم.

فلاح : (باستغراب) مجنون؟

رئيس المخفر: إذن نتابع حديثنا.. ماذا كنا نقول؟ لقد تحدثنا طويلاً.. يجب اذن أن تسجلوا أسماءكم عندنا في السجل لأجل أن نعطي كل واحد منكم بارودة ثم تتدربون..

فلاح : نسجل؟ أسماءنا مسجلة كما قلتم..

رئيس المخفر: نعم، أسماءكم.. أعني أسماءكم (يسعل بشدة)

فلاح : ولكن، أعطونا بعض الوقت.

الملازم : (يتدخل بلطف) وقت؟ لماذا؟

الفلاح : حتى نصر أغراضنا ونودع أهلنا..

رئيس المخفر: ابعدوا عن الباب .. بعض الهواء.. املأ الكأس ثانية يا علي.

الملازم : ولماذا تصرون أغراضكم وتودعون أهلكم؟

الفلاح : ألن نذهب إلى الجبهة.

رئيس المخفر: إنه مغص فظيع هذا الذي يعصر على بطني.

الملازم : ومن قال لكم أنكم ستذهبون إلى الجبهة؟

(رئيس المخفر يكاد يغمى عليه. يدخل جندي ويؤدي التحية العسكرية للملازم).

الجندي : وصلت السيارة سيدي الملازم.

الملازم : آه.. عال جدًا لنر ماذا أرسلوا لنا (يخرج بسرعة).

رئيس المخفر: (صارخًا بغضب جنوني) الله يأخذ روحكم ما أكثر أسئلتكم (يقلد صوت الفلاح) أعطونا بعض الوقت.. ألن نذهب إلى الجبهة؟ لماذا كل هذ الأسئلة يا ملعون الوالدين أريد أن أفهم؟

الفلاح : (بذعر) والله يا حضرة الشاويش..

رئيس المخفر: (بحرقة) لك آه!!. الله يملكني حكم هالبلد يومين .. لك ساعتين بس.. حتى العن دين أبو جد..

فلاح : (بجرأة) أنت قلت لنا أننا سنذهب إلى الجبهة.

رئيس المخفر: (باندفاع) يعني وإذا قلت؟ كلامي قرآن؟ (ينتبه) أنا قلت يا ملعون يا مطعون؟

(يتقدم من الفلاح مشرعًا قبضته) أنا قلت ؟ أنا قلت؟

الدركي الأول : اسمع.. حضرة الرقيب قال لكم قبل الأمر الجديد.

رئيس المخفر: (يتوقف ببلاهة) أي نعم قبل الأمر الجديد(ينتبه) الأمر الجديد؟ أي أمر جديد؟

الدركي الأول : ألم ترني وأنا أتكلم مع الملازم؟

رئيس المخفر: (بنفس وضعيته السابقة) أيوه!..

الدركي الأول : تغيرت الأوامر .. وكل قرية تبقى بقريتها.

رئيس المخفر: آه (يجلس على الكرسي مسترخيًا).

(همهمة استحسان وتعجب بين الفلاحين)

فلاح : الله يطول عمر الحكومة.. حكومة زينة.

فلاح آخر : هذا هو العدل .. العدل أساس الملك يا جماعة الخير.

فلاح آخر : والله ياسيدي شوف (مخاطبًا الدركي الثاني الذي يهز رأسه بغيظ) كل الوطن أرض واحدة.. وأكثر من هيك شوف.. بلاد كل العرب واحدة.. لكن يا سيدي لولا، مثل ما تعرف، هالولاد لكان المسألة لا تفرق.. القرية ولاّ الواق الواق..

فلاح : (همسًا لزميله) أصدقت الدركي؟

الآخر : ولا كلمة.

الفلاح : لماذا يكذب؟.

الآخر : القصد المونة (يضحكان).

(الدركي الأول والدركي الثاني يتهامسان ثم يقتربان من رئيس المخفر االذي يظل على جلسته الأولى).

الدركي الأول : (بهمس) يجب أن نستفيد من الخطة الجديدة.

رئيس المخفر: أنا أنفض يدي من القضية، تبعدلنا اليوم على التمام.

الدركي الثاني: شد حيلك وهنيهم بتغيير الأوامر واترك الباقي لي.

يونس : ما قلت لكم يا جماعة؟ القضية فيها شيء.. ابن عمي كتب لي من..

الدركي الثاني: ليك زنخ الأصل ليك.. (يأخذ العصا) أنا قلت لك أنك إذا فتحت فمك..

يتهيأ لضربه بينما يقوم رئيس المخفر ليلقي تهنئته.. يدخل في تلك اللحظة ملازم المقاومة الشعبية.. الدركي الثاني يتشاغل بأنه يحك ظهره بالعصا ولكنه يضعها على الأرض بارتباك حينما تلتقي عيناه بعيني الملازم).

الملازم : هيه .. خلصت الخطبة؟

رئيس المخفر: كنت أحاول.. كنت أريد أن أهنىء.. أعني أن أختمها بكلمة مناسبة (يستدير إلى الفلاحين) وهكذا ترون يا اخواني يا أصحاب الحمية .. والنجدة.. والمروءة والنخوة.. والمعروف.

فلاح : (بسخرية) الله يحفظكم سيدي.. بتكفي واحدة.

(الفلاحون والملازم يبتسمون بينما يسكت رئيس المخفر وينظر إلى الفلاح بحقد. الدركي الثاني يسترق النظر إلى العصا في حرقة).

رئيس المخفر: وهكذا ترون .. إن الوطنية قد رضعت لبانكم.. أعني.. الواقع.. كما ترون.. لست خطيبًا.. نحن رجال السلاح نتعلم على الأعمال لا على الأقوال.. ونحن طبعًا فخورون جدًا بحضور الملازم إلى مخفرنا ونأمل أن يأخذ فكرة طيبة عن البلد كرما وسخاء وحمية (ينظر إلى الفلاح الساخر).. الخ.. وأنا بشخصيتي الشخصية لم أعرف عنكم إلا كل خير.. كما وأنتم تعرفون إننا كنا دومًا في خدمة الحكومة والقانون.. (ضجة وأصوات ديك يصيح مع صوت قاسم).

قاسم : العمى.. كلكم ضربتكم الوطنية.. ابعدوا.. كل واحد ينفد بريشه يا جماعة.. كيس حنطة. مد برغل.

(يدخل قاسم وبيديه الإثنتين ديكا حبش وهما يصيحان.. الفلاحون يفهمون ويبتسمون ويلغطون. رئيس المخفر والدركيان مصعوقون تمامًا. الملازم يدير عينيه بين وجوه الفلاحين الساخرة الباسمة وبين وجوه الدرك الجامدة والديكين اللذين لا يزالان يصيحان باحتجاج صارخ، وظهر إنه بدأ يفهم شيئًا، قاسم يصاب بالذهول عندما يرى الملازم).

قاسم : (لرئيس المخفر في يأس) ما مشي الحال؟

رئيس المخفر:......

قاسم : (بنفس اللهجة) تأخرت؟ .. أم الولاد ما رضيت، قالت روح لآخر الدنيا.. ومع ستين صرماية لكن اترك الديكين.

الملازم : ما هي القصة؟

قاسم : يا سيدي القصة..

رئيس المخفر: (يقعد على الكرسي دون أن يراعي واجب الاحترام العسكري وهو يرتجف) أكاد أموت من الحر.

فلاح : هاتوا هواية لحضرة الرقيب..

قاسم : يا سيدي القصة...

رئيس المخفر: آه..

الملازم : (لرئيس المخفر عابسًا) – مريض؟

رئيس المخفر: مريض ؟ أكاد أموت.

فلاح : (هامسًا لزميله) مرضة أبدية (يضحكان)

قاسم : يا سيدي القصة إنه...

الدركي الثاني: اذهب.. لا نريد أن نشتري شيئًا.

قاسم : (ببلاهة) تشترون؟

الدركي الأول : اسمع .. هذا وقت البيع والشراء ؟ أنت ترى يا حمار أن حضرة الملازم هنا.. ومع ذلك.

قاسم : ولكن يا جماعة..

رئيس المخفر: (ترتد إليه روحه ويحدق في قاسم بشكل مخيف يصرخ)..لا نريد أن نشتري.. أنت ترى أن حضرة الملازم.. (الديكان يصيحان)

قاسم : لا أفهم شيئًا .. تأخرت ؟ طيب..

رئيس المخفر: (ينتفض واقفًا) لعنة الله على فصلك ووصلك أقول لك لا نريد اليوم أن نشتري شيئًا.

(الدركي الثاني يشير بيديه إلى قاسم من وراء الملازم إشارات خاصة لكي يجعله يسكت ويذهب. الفلاحون يبتسمون. الملازم يشتد عبوسه ويطرق إلى الأرض).

قاسم : (للدركي الثاني) ارفع صوتك.. ما فهمت شيئًا..

رئيس المخفر: (بثورة) العمى.. أنت بشر أم حجر .. ليس عندنا الآن وقت نضيعه في هذا العلك؟ (يصرخ) ما بدنا دجاج.. ما بدنا دجاج..

الدركي الثاني: اطلع بره.

قاسم : (بذعر) – أمركم .. أمركم.

(يخرج وصياح الديكين يتباعد)

رئيس المخفر: (بعد صمت) تفضل.. واجلس سيدي الملازم.

الملازم : (بجفاء شديد) مكاني مليح.

(يسكت الملازم قليلاً ثم يرفع رأسه وينظر إلى الفلاحين معطيًا ظهره إلى الدرك الذين ينظر بعضهم إلى بعض نظرات الخوف).

الملازم : (أيها الإخوان.. القضية لا تحتاج إلى خطب.. فأنتم متحمسون ومخلصون أكثر من .. أكثر من بعض الناس(ينظر بجانب عينه إلى رئيس المخفر الذي يطرق برأسه) ستستلمون السلاح وتحمون به بيوتكم ..تحمون به أرضكم وعرضكم.. الأعداء على حدودنا يستعدون.. ولكنكم ستردونهم.. أنا أعرف تمامًا إنكم ستردونهم.. نحن نؤمن بكم .. ليرزقنا الله طيبة وشجاعة كشجاعتكم (الفلاحون يتأثرون جدًا بينما تدمع عينا أحدهم فيمسحا بيديه المتشققتين) المسألة يا إخواننا ليست مسألة بسيطة.. نحن ندرك تفاصيلها ولكنكم .. في أعماقكم تعرفونها.. تعرفون ما هو خطأ وما هو صواب.. لم تلوثكم القذارات (ينظر مرة ثانية ناحية الدرك) وتعرفون إن المسألة الآن مسألة وطن.. مسألة عرض.. مسألة كرامة ومروءة. أنتم

تعرفون كيف تدافعون عن كل هذا (نشيج يرتفع من بين الفلاحين.. الملازم يكتم تأثره ويتهدج صوته) اخرجوا أيها الأخوان.. اخرجوا كلكم وكل منكم سيستلم بارودة سيعرف كيف يستعملها عند الخطر .. السلاح في الخارج.. سيارة كاملة في انتظاركم.. سيسلمكم الجندي في الخارج كل شيء.

(الفلاحون يندفعون إلى الخارج وهم يصفـــقـــون ويهزجون.. المخفر فارغ إلا من الدركيين الثلاثة والملازم .. صمت عميق يظهر فيه الملازم وهو يكبت لسانه).

رئيس المخفر: (وهو يلهث) إن خطابك رائع يا سيدي الملازم لقد كدت أبكي.

الدركي الأول : مدهش.

الدركي الثاني: أما أنا فقد بكيت.. لأني لم أسمع بحياتي.

رئيس المخفر: هذا الخطاب الفظيع يا سيدي..

الملازم : (مقاطعًا في صرامة) بس.. بدون تدجيل (يتحول ليخرج) يجب أن يتخلص الشعب من أمثالكم.. أنتم وأسيادكم العراقيل الحقيقية في الداخل.. (يرفع يده مهددًا) لن أترك هذا الأمر وستصلكم غدًا لجنة تحقيق.. وسأكون بينها (يصل إلى الباب) الناس يموتون على الحدود وأنتم تتاجرون بدماء الفلاحين (يبصق باشمئزاز) لصوص (وهو يخرج) خونة.

(رئيس المخفر والدركي الأول يتهالكان على الكرسيين بينما يستند الدركي الثاني على الحائط. تنحسر الشمس عن الباب فتتوشح الجدران ببعض العتمة.. الدرك الثلاثة على وضعيتهم مصفري الوجوه مهدمين مظلمي العيون.. أصوات أهازيج فرحة وطلقات رصاص خارج المخفر، ثم تبتعد الضجة ويسود الهدوء).

رئيس المخفر: (قافزًا نحو التليفون) فخري بك.

الدركيان معاً : ما في غيره (ينتعشان).

رئيس المخفر: (يدور يد آلة التليفون بعنف) ألو مخفر الزيدي .. ألو يا زنخ يا واطي (يدور يد التليفون بعنف واستمرار) ألو يا زيدي.. ألو يا زيدي ألو ألو ألو .. زيدي؟ مين يحكي.. مرحبًا أبو فارس هون إسماعيل.. ميت هلا .. من فضلك أبعت لي على فخري بك.. أي فخري بك.. ماذا ؟ .. ماذا تقول؟ شو؟ متى؟ من يومين؟ (ينزل السماعة ببطء) بينما ظل صوت واضح يتكلم من الزيدي حتى يضع رئيس المخفر السماعة).

رئيس المخفر: (يسعل بتهدم وهو يجلس على الكرسي) انتهى أمرنا.

الدركي الأول: فخري بك.

رئيس المخفر: (بهدوء يائس) لا بك ولا ما يحزنون فخري بك اعتقل منذ يومين هو وجماعة من شيوخ البدو.. ورجعت الفلاليح لأراضيها..

الدركي الثاني: دنيا مقلوبة..

الدركي الأول: لنهيئ أنفسنا لنومة نظيفة في السجن.

(فترة صمت)

(صياح ديك ورأس قاسم يطل من الباب)

قاسم : تسمحوا (الديكان يصيحان) ينظر إليه الدرك بحقد وتعب ولا يجيبون.

قاسم : (يدخل) يصبحكم الله بالخير..

الدرك : ...

قاسم : (بصوت يفهم منه إنه قد عرف اللعبة) تغيرت الأوامر؟

الدرك : ...

قاسم : أريد بارودة.. انتهى التوزيع وأنا راجع إلي البيت، خفت أصل البيت وأضع الديكين وينتهي التوزيع فأسرعت بالرجوع ولكن بدون فائدة.

الدرك : ...

قاسم : (ينظر حواليه فتقع عينه على بارودة معلقة) بالله يا حضرة الشاويش أعطني هذه البارودة.. ستفيدني أنا .. ما نفعها بالنسبة لك؟.. إذا أتى.. يا ستار.. الحقوني.

(رئيس المخفر يتقدم نحوه وقد جحظت عيناه وأشرع يديه، بينما أمسك الدركي الأول بأبريق الشاي وألقى الدركي الثاني عليه العصا بقوة).

قاسم : (يفلت الديكين ينطان في جوانب المخفر وعلى الرفوف وهما يصيحان) أخ الحقوني.. مت انذبحت (ينزل الستار ببطء على المعركة الدائرة ويبقى مدة تنبعث من ورائه صرخات قاسم وقعقعة الأواني وصياح الديكين).

ســـتار

عند منعطف الجسر

عندما وصلا إلى نهاية الجسر وشرعا بالدخول في الغابة.. قرر الكلب أخيرًا أنه لا خير فيهما. لقد تبعهما من ساحة الشحاذين، ولم يهتم بالفضلات المتناثرة هنا وهناك، فهو يعرف أن فصيلته من بني الإنسان قد اتخذت من خير ما فيها مازة لسكرة البارحة، ولم يبق فيها إلا أوراق الخس الذابلة، وقشور الكرنب المالحـــة، مما يأنف حتى من النظر إليها، ويشعر بامتيازه عندما يرى بعض الصبية يجمعونها فكأنها العظام العجيبة.. وعندما مرا بجانب كاتدرائية العذراء سيدة أمستردام، لم يأبه للرنين المدوي جعل أذنيه تنتصبان وعجب لهذا النشاز الإيقاعي المخالف للذوق. وعندما وقف الصبي الأبيض الوجه الأسود العينين، ذو الشعر المفلفل اللذيذ، وأفلت يده من يد الرجل الأسمر الطويل، ورسم علامة الصليب ثلاثًا بخشوع شديد.. هز الكلب ذيله بفرح، وعيناه لا تتزحزحان عن الكيس الورقي الذي يحمله الرجل والذي تنبعث منه رائحة مثيرة.. فالصبي التقى علامة طيبة للكلاب الجائعة.. وسار وراءهما بثبات دون أن يزعجهما. فقد بدا له أن الصبي قد لاحظه، ورمقه بنظرة طويلة محبة من عينيه الواسعتين، وانتقلت نظرته إلى الكيس الذي يحمله أبوه، ثم إلى عيني أبيه الذي نظر إليه بانتباه... ثم انتقلت نظرة الأب إلى الكلب.. ثم إلى الصبي.. ثم إلى الكلب.. ثم إلى الكيس.. ثم إلى الصبي.. وهوى قلب الكلب إلى قائمته الخلفية اليسرى حين أحس بمغزى نظرة الأب الحائرة التي لا تفهم. وكانوا قد وصلوا إلي نهاية الجسر، عندما اتـــخذ الكلب

قراره بالعودة. وعندما أراد أن يعبِّر عن احتقاره بنبحة مزدرية، منعه شيء ما في نظرة الصبي وهو يلتفت إليه وكأنه يعتذر . كانت في عينيه دمعة لا يراها سوى الكلاب وسوى فصيلة الناس التي تشبه الكلاب. عندها هز الكلب رأسه بوقار متعاطف، وأقعى يودع الصبي حتى غاب مع أبيه وراء الأشجار الظليلة. وشعر بشفقة عليه حتى تندت عيناه. فالتفت حواليه بحذر لكي لا يلحقه أحد فيتهمه، وهو الكهل الناضج الحكيم، بالرومنسية وربض يتأمل أحوال الدنيا، ثم راح في إغفاءة عميقة.

كان الأب يمسك بقبضة ابنه الصغيرة الحارة وكأنه يستمد منها الحياة وكان قلبه يخفق بعنف، ولكنه يتماسك حتى لا يخيف الصبي بجيشان عواطفه. وكان الصبي يحس بارتعاشات كف والده، ويقرأ في عينيه حبًا (مجنونًا) أكبر من قلبه الصغير .. أخذ يخشى أن يضمه إليه بقوة مؤلمة كما حدث عند اللقاء الأول هذا اليوم.. قفزت أمه إلى الباب، وارتمت بين ذراعي رجل أسمر كأنه عطيل في الفيلم الذي رآه منذ يومين. وراح الرجل يهمس بكلمة واحدة يعيدها ويعيدها: هيلدا.. هيلدا.. أوه هيلدا. وفجأة، لحظه المارد ذو الشعر الفاحم ففتح عينيه على سعتهما، وتخلص من أمه.. ووقف يتأمله وكأنه يتأمل معجزة.. قالت أمه وهي تندفع إليه وتدفعه بلطف نحو المارد.

- عمر حبيبي .. هذا هو أبوك.

لم يستطع المارد الإنتظار، خطا خطوتين أدهشتا الصبي، وخطفه كالريشة، وقذفه كالطابة، ثم ضمه إليه بقوة ووخز خديه الطريين بشوك لحيته حتى هطلت الدموع من عينيه، وحاول أن يتخلص برفق.. فأحس المارد بالإرتباك ووضعه على الأرض وكأنه حلية زجاجية هشة، وأخذ يأكله ويشربه بعينيه.. يا للعجب إنه يبكي كعطيل أيضًا.

قال الأب بلغته الحلقية غير المفهومة:

- هنا قرب النهر.. مكان مناسب للغداء يا صغيري.

ونظر الصبي إلى شفتي أبيه بحيرة.. وقرر أن يجيبه لكي لا يجرح عواطفه،، فقال بصوت منغم موسيقي بتلك اللغة التي لا يعرف منها الأب إلا كلمة (دنكي فل) شكرًا:

- أبدًا.. أبدًا لست متعبًا.

فقال الأب بمرح:

- موافق إذن؟ (دنكي فل)

وفهم الصبي مغزى كلام الأب وهو يراه يمد منديله ليجلس على العشب.. فأسرع يجلس قربه وقد تذكر كلمات أمه:

- سيقوم أبوك بنزهة معك حتى أعود من العمل.. كن لطيفًا معه فهو يحبك كثيرًا.. لا تقم بأي تصرف يجعلني أخجل منك.

قال الأب بصوت متهدج وهو يتطلع حوله:

- يا إلهي .. الحلم نفسه الذي رأيته.. الغابة.. النهر.. وأمك.. وأنت سبع سنوات وأنا في الظلام أحلم بهذا اليوم.. بسيران دمشقي في هولندا.

وهز الصبي رأسه بتفهم:

- نعم ما أجمل زقزقة العصافير كما تقول يا بابا.. لقد جئت وكارل في السنة الماضية إلى هذا المكان، وصرنا نصطاد السمك الصغير بالسلة، وكان يقفز في قعر السلة برعب مما جعلني أعيده إلي النهر رغم احتجاج كارل.. ما أقسى قلب كارل.. لم أعد أتنزه معه بعد ذلك أبدًا.

وكانت الجملة من الطول بحيث كاد عقل الأب يطير من الفرح، فهو لم يسمع منه منذ أربعة أيام سوى نعم.. لا .. شكرًا. وتحرك في عينيه الشوق وتحرك يريد ضم ولده، ولكن الصبي أتى بحركة طفيفة جدًا.. جعلت الأب

ينكمش ويرخي يدين ميتتين، مما أصاب قلب الصغير بطعنة.. جاهد لكي لا يبكي وأخيرًا سأل أباه بحزن:

- هل آلمتك يا بابا؟

- تمامًا كما تقول يا حبيبي.. لقد استطعت العيش لأراك وأمك وأعود بكما إلى الوطن..لولاكما لاستسلمت للموت منذ زمن طويل، لقد كنت أحدثكما كل يوم، ألم تكن تسمعني في أحلامك؟

وفهم الصبي من لهجة الأب أن سؤالاً ما قد طرح عليه، ففكر قليلاً ثم قال:

- لست جائعًا تمامًا.. ولكن إذا كنت تريد ..وهز الصبي رأسه موافقًا.

- إحساسي لا يخونني.. لقد كنت أعرف أنك تحلم بي، وكنت تكلمني كما أكلمك.. إنك تفهمني يا صغيري.. تفهمني.

- طيب.. سآتي بالطعام، إذ كنت تريد ذلك.

ومد يده إلى الكيس فغاص قلب الأب في صدره. شعر فجأة بالهوة العميقة التي تفصل بينهما، وارتعشت يداه على ركبتيه، ولكنه حاول أن يبتسم، وهز رأسه قائلاً:

- اغفر لي يا صغيري المسكين.. أنت جائع وأنا أثرثر.. يا لي من غبي.

وأخرج من الكيس شطيرة، وقدمها إلى الصبي وقد غامت عيناه، وأخرج ثانية من الشطائر الأربع، وأخذ يأكل دون شهية، كان حزنه يطفح من كل مسام جسده، وراقبه الصبي وأرسل تنهدة، ثم أخذ يأكل وكأنه جرذ صغير يقضم قطعة من الخبز اليابس.

قال الأب:

- أنت لا تأكل.. لا تحب المرتديلا.. يا لسخفي.. كان يجب أن أسألك قبل أن أشتريها.

- نعم إنها لذيذة جدًا . شكرًا يا بابا.

- وتشكرني أيضًا؟ يا لي من تيس . كان يجب أن أترك هيلدا تهيء الشطائر، فهي أعرف مني بما تحبه.

- نعم تمامًا.. في الساعة الثانية تعود من العمل.

وغرقا في صمت عميق.. أحس الأب أن بؤسه يفيض ويفيض حتى يغرق العالم كله، وتأمل النهر وحسد في أعماقه السمك الذي يتفاهم بطريقة ما.

وكان الصبي يتأمل وجه أبيه وقد تغضن جبينه من محاولة التذكر ..هل قام بحركة أو تصرف أو إشارة أزعجت أباه؟ وماذا ستقول أمه إذا عرفت بالأمر؟ إذا أنبته فسيترك البيت ويذهب إلى جدته في الريف.

نهض بتردد، ثم مضى صامتًا صوب الشطيرة .. لمها بعناية، ثم فتتها قطعًا صغيرة ورماها في النهر وأخذ يدعو السمك بلغته الطفلية التي تشبه لغة العصافير.

راقب الأب وجه ابنه المستغرق في هذا العمل الجاد الذي انصرف بكليته إليه وتنهد.

نهض الصبي ونظر إلى أبيه نظرة مواربة وقال بلهجة مصالحة:

- لست جائعًا يا بابا؟ وأنا كذلك.

وأعاد ما تبقى من شطيرته إلى الكيس.

ولأول مرة لم يرد الأب.. خاف من أن يقول جملة ما يفهمها الصبي بشكل آخر فآثر الصمت. واستمر الصمت يكبر ويكبر.. غطى الشجر.. والنهر.. والعشب.. حتى لقد خاف كل منهما من وحدته.

وقف الأب.. وقف الابن.. سار الأب.. سار الإبن.اتخذا طريق العودة.مد الأب يده اليمنى ليمسك بكف الصبي، ثم ارتخت أصابعه.. كان

الصبي يحمل الكيس بيده اليسرى. سارا متجاورين. الغابة تتنفس عطرًا والطيور تتحاور سكرى فرحة بالصحو. ولكنهما كانا يسمعان صوت الدود المتلوي على الأرض كشاحنة ثقيلة.. وها هما يودعان الشجر ويلتفان صوب الجسر.

بدت خطوات الصبي قلقة.. شعر الأب بنظرات ابنه العصبية فقرر ألا يتدخل في شؤونه.

أسرع الصبي وهو يكبح جماح نفسه.. أسرع الأب وقد تعلقت عيناه بقدمي ولده. وقف الصبي وأطلق صيحة فرح سمع جوابًا لها . نباحًا مرحًا.. وقف الأب وقد دبت الحياة في عروقه. رفع رأسه فالتقت عيناه بعيني كلب أصهب يلوح بذيله مرحبًا. رمقه الكلب بنظرة طويلة.. رمق الابن أباه بنظرة طويلة. وبحركة مترددة أخرج شطيرة ووضعها أمام الكلب.. الكلب لا يزال ينظر إلى الأب.. الأب يتحول إلى كتلة من الرجاء الصامت.

بكل كيانه أخذ يرجو الكلب أن يأكل.. بدأ الكلب يأكل.. امتدت يد الأب بعصبية.

خطف الكيس من الصبي فأخرج ما فيه ووضعه بابتهال أمام الكلب كما توضع ذبيحة القربان على عتبات الهيكل، نظر الابن إلى أبيه بعينين مفعمتين بالعرفان.. أخذ الأب يبكي وينظر إلى ابنه نظرة مستغفرة . عندها قفز الصبي وعانق أباه، وأخذ يقبله.. ويقبله.. ويقبله.

* * *

الثلاثة

ذعر الغلام وقفز، ولكنه نسي قدمه المشوهة فسقط سقطة أليمة، شهق مرسلاً صوتًا حيوانيًا، ثم رف بعينين دون أهداب ونظر بدهشة إلى الثلاثة. رمقوه بسرور وفضول.. ومد أحدهم مظلته فسحب رجله السليمة.

- وقف يا ولي الله.. الأطفال ملائكة.

وطار عود كبريت ثان مشتعل فأصاب الرأس بدقة فهب مجنونًا ولكن المظلة الممسكة بقدمه أوقعته مرة أخرى، وامتدت إليه مرة ثالثة كحربة.

- قلت لك وقف يا ولي الله.. قول الله...

على رصيف القهوة الذي يعج بالناس أجال عينيه الهلعتين وأرسل الصوت الحيواني مرة أخرى...

هذه مملكته.. عشر سنوات يتسكع حول قهوة المرجة، أحلط، أملط، أخرس، رجله ثقيلة كخف البعير ولم يمر مرة إلا والنداءات تتدفق عليه.

- كأس شاي للمبروك.. خذ لك ها الفرنكين..

تحمس أحد الجالسين وقال بصوت ضعيف:

- حرام يا إخوان.. عطيل وصغير وعايف ربه .. حلوا عنه.

ونظر إليه أحد الثلاثة:

- اسكت انعل أبوك.

واللهجة الغريبة بعثت الرعب في القلوب، وصبي القهوة وزع إشارات اللاسلكي المحذرة إلى العيون المتسائلة برفع الحواجب والغمز.. وسكت الجميع وتحدثت الأراكيل.

وعندما رأى الغلام العاجز قد تغير رغم أن الساعة هي الثانية عشرة ليلاً، والقهوة هي القهوة، وصبي القهوة الذي يصاحبه دائمًا في الساعة الثالثة ويسلمه لزبون سكران لا يدري الطيخ من البطيخ يتجاهله.. وعندما رأى أن عودا «ثالثا» يشتعل.. زحف مبتعدًا مرسلاً ذلك الصوت العجيب الذي كان يثير فضول الثلاثة وسرورهم، قال صاحب المظلة.

- ولى الله يزحف... هذه معجزة.

- لقد عشت ورأيت الزحف المقدس.

- هذه معجزة شعبية حقيقية.. النصر للشعوب.

وزحف الغلام غير بعيد واستند إلى جدار القهوة وأقعي يحلم في سكون الليل بعينين مفتوحتين.. وسدر على نقطة مضيئة واحدة تبدو بعيدة.. وكان من الصعب أن تعرف أنه نائم أو صاح (بعض الحيوانات تنام مفتوحة العيون) لم تطرف عيناه، لم تعبرا عن شيء..

ومل الثلاثة وصرخ أحدهم:- الشاي يا حلو.

- بتأمروا أمر. وصار بلا أجنحة كلاعب سيرك يحمل صينية تتراقص بمهارة.

- فنجان مرة.

- على راسي.

وفي مواجهتهم كان بناء ضخم مظلم تضيء منه عدة نوافذ تغبش زجاجها.

- ماذا يفعلون هناك؟

- يقرؤون أشعار الجواهري.

- قلب العروبة النابض كرخانة كبيرة.

ودق برأس مظلته ثقبًا في حرف الرصيف.

للسماء هنا معنى آخر .. لا زرقة تفترس العين، ولا غيوم تضغط على القلب.. إنها سماء حقيقية.. واسعة... ليست مرسومة بين قضبان وليست شهية وبعيدة كامرأة جاره.

وحفظ له المستمعون الجميل وتركوا مكانًا فارغًا بجلبته التاريخية الثقيلة وآمنوا بأنه سيبعث ذات يوم ويقوم من بين الأموات ومن القهوة بالذات.

وعندما ينتهي وقت الخمارات ويلوح الحراس بعصيهم المهذبة ويتنحون ناظرين بحذر وخوف إلى السكارى الذين يعتبرون - شأنهم في ذلك شأن العلماء والشعراء والإسكندر ونابليون - يعتبرون التفكير بالوقت مضيعة للوقت.. يقطع الطريق إلى القهوة في الشوارع المظلمة.. إن سلوى ستنتظره دون ريب شأنها كل ليلة وهو لا يريد أن يصل إليها سكران .. سيشرب الشاي والقهوة المرة مع الهيل ليصحو وليثبت لها أنه فحل من الفحول، وأن الرجولة لم تغادر نصفه الأسفل على الأقل. تقول له بحيرة: اسكر معي.. أن الويسكي المعتق عندي أفضل من عرقك الوطني اللعين، لم يبق لك من الوطنية إلا الإخلاص للصناعة الوطنية.. كيف تفهم أنه يريد أن يسكر مع الآخر ذلك الذي كتب معه ذات ليلة فاوستية عقدًا أكثر إحكامًا من الزواج الكاثوليكي؟.. ميزته العظيمة أنه من المستمعين العظام وحينما يثرثر كان الآخر يجيب بحاجبيه وحركات وجهه استنكارًا أو تذكيرًا. إلى الجحيم بكل المرايا، المرئية، واللامرئية. وكان الشيء الوحيد الذي يقهره به هو أنه دومًا يدفع الحساب.. وكان الآخر يصمت ويحدق فيه بعينين زجاجيتين.

لقد مرت سنوات ضوئية.. منذ كان يضع أمامه كأس العرق ويتأمل الحبيبات الحليبية بنوع من الوجد. كل قطرة كوكب مليء بالأسرار يدور

حول سعد الحياة ودفئها وعنفوانها. كانت الطقوس في إخلاصها أشبه بدين بدائي تدور حول بركان مشتعل، وكان الرفاق حوله، وكانت الدنيا حوله تضرب كأسها بكأسه في رنين أشبه بأجراس ترويكا روسية تنطلق في سهوب ثلجية عاقدة حولها هالة من البخار وزخم افتراس الطبيعة وفتوة الرواد.

وكان الكأس تتويجًا وتوافقًا وسلامًا مع الذات وكانت الجلسة كلها ريشة ملونة في قوادم الكون.. كان الشجر شجرة الأرض التي يضرب قدمه عليها أرضه وأرض الآخرين يحس بصلابتها جزءًا من أضلاعه، وبامتدادها امتدادًا لجسده، كان قانونًا يلذ له أن يكتشف كل يوم سرًا من أسراره المستغلة .. آه يا زمان الصبا الروحي!!

هوت مطرقة فوق سندان لم يصهر ولم ينق من الشائب فتفتحت.. أصبح الكأس حمامًا تركيًا بخاره يغطي ولكنه لا يدفيء، كل الطرق تؤدي إلى روما، وكل جرعة تقود إلى الهاوية. وهو يستعجلها ويستعجلها ويدفع العربة التي ضلت الطريق بخيلها المذعورة المجنونة والعيون، ولكن النهاية تأتي بلا أي مجد، كل القوى تتصاعد من بئر الذات العكرة آخذة مواقفها القتالية دون قفازات، وعندما تأكل بعضها باحثة عن الآخرين، من أين هذا الشعور الطافح بالبغضاء والحقد والندم وحب الإيذاء؟

وحين يدلف الحارس بعصاه المهذبة ونظرته الحذرة الخائفة كانت الجثة المنتفخة من لسع السموم تسير وهي تمسح الأرض، لوقع أقدامها صوت أصم كصوت سقوط ثمرة نخرها الدود على أرض رملية..

ويدلف إلى القهوة متظاهرًا بالتواضع، ويجلس على كرسي منعزل، وينتظر الصوت الرحب المبالغ في التوجيب كما ينتظر بالضبط شهقة سلوى في نرفانا لذتها:

- كأس شاي ثقيل للأستاذ.. أهلاً أستاذنا.

- الحفاظ على مكتسبات الشعب.

ولكن لا من يسمع ولا من يدري لمين تشتغل؟

- سيصحو هذا الشعب يومًا.

- بعد هزيمة أخرى.

- هذا الشعب ما زال لا يركض إلا على مدفع رمضان.

- سيف الحجاج ورمح السفاح.

- الثورة لا تعمد إلا بالدم.

- كنت في الاجتماع اليوم؟

- اطمئن لفلف الأمر ومرت الحادثة بسلام.

- طبعًا هل تأكل الطليعة أولادها كالقطط؟

- ومن أثار الموضوع؟

- تعرف وتتجاهل ؟ إياه.

- سيأتي يوم يبكي بعضه على بعضه.

- كما في الموحش.

- الشاي يا حلو.

- بتأمروا أسيادي.

عندما كان جسم سلوى يتكسر ويرتعش بين يديه ثم ينطفىء كموشورات البيرة في الزجاجة جارحة إثر جارحة، أيقن أن هذا الجسد قد اجتاحته عواصف أخرى حينما كان حبيس القمقم، ولم يسأل رغم أن من حقة أن يسأل.. أليس فارس الأفكار التقدمية؟ وانكمش في عناد داخل قوقعة كبرياء مهلهل، لم يبال حتى بمعرفة الشخص.. تمدد ممتقعًا.. هذا زمن الخيانة فلماذا لا تخون؟ والوحدة قتل مضن كعذاب الزنزانة.. ولكن جسدها كان أمامه

حقيقة مجسمة.. كان جسد امرأة دافئًا بكل ما فيه من خصوصية وإلفة، واشتعل فيه الغضب حتى رؤوس أظافره، لقد كان ضياع هذا الجسد كضياع المبدأ، لم يعد مصنوعًا لأجل النور بل لليل.

- هل كانت المرأة الأولى التي عرفتها عاهرة؟

- ......

- بما شعرت بعد ذلك؟

- بالفخر.

- بأنك رجل.

- بأنني لست امرأة.... ولكن بأي حق يتهم؟ ومن هو في نهاية المطاف؟ أنه ما صنعه فحسب مجرد متخاذل.. أي عقل مسيحي اخترع هذه الكلمة الرخوة؟ فليغض النظر عن أمجاد الرجولة، ليجد له ملجأ في ملكوت الليل الذي لا يرحم عند شخص ليست في عينيه تلك النظرة التي يطالعه بها وجهه كل صباح.. ولكن.. ولكن لم يكن قد حدث شيء بعد.. لم يكن قد حدث شيء بعد .. عندما كانت...

عندما أرادت أن تقبله انتفض.. لم تكن تلك عادتها حينما ينطفئان ترى هل أحست بشيء؟ إن كل خليه من جسد المرأة تملك شكًا وحذرًا محققًا ممارسًا، إنها تمتص الإحساس بمجرد الملامسة كتلك النباتات الإستوائية اللدنة.. أدار فمه ناحية الجدار وأطبق شفتيه بعزم، كل ما تبقى من قوته مجمع في هاتين الشفتين المزمومتين، وعندما كان جسمه يتهالك، كان فمه مستعدًا لأن يبصق لعنة، إنه يدرك بشكل ما أن حباته وخلاصه متعلقان بهذا الفم، بهذا الفم فقط الذي يمكنه أن يكفّر، ولكن أين الكلمات؟ أين الكلمات يا يوحنا فم الذهب؟ كيف يمكن أن تتحول كل كلمة إلى تابوت يضم جثث الأفكار القتيلة؟

عندما جاءه صوتها في التلفون فكر بذعر : حتى أنها لم تدهش، لم تستغرب.. كأنها تنتظر هذه المخابرة على موعد، وكأننا افترقنا البارحة على أمل اللقاء في الغد وكأنه لم يخطف منذ سنتين أمام عينيها بالذات ويحمل كتلة دامية:

- أهلاً.. كيف الصحة.. مشتاقة كثيرًا.. انتظرك مساء .. يا حبيبي.

هل يمكن أن يتوقف الزمن؟ حمد لها إنها لم تسأل.. لقد شبع من الاستجواب، ولو رأى في وجهها أية بارقة تشير إلى المعاني الممنوعة للبس معطفه بهدوء وغادرها إلى الأبد. جلسا يتحدثان في الحديقة الصغيرة وكانت الأفكار تتطاير ثم تحط أشلاء كالفراش على ضوء المصباح الشاعري.

تأوهت وهي تذكر أحد الرفاق المقتولين.. تدحرجت من عينيه الدموع ثم نشج كطفل. على هذه الصخرة أبني كنيستي ثم قتلوه في روما وذهب الزلزال بالصخرة.. ولكنها سترسو، ولكنها سترسو في مكان ما وستبنى عليها القلعة.. أتتصورين؟ وغص، أتتصورين.. البارحـــة في طلعة الجسر التقيت بـــ (...) وحينما رآني.. وحينما رآني.. نظر في كل الاتجاهات وقد أصبح كتلة من الحذر، ثم استدار وأسرع بخطوات مضطربة، ثم ركض .. نعم ركض واختفى في أعماق الليل. كيف يمكن أن يصبح الدم والتاريخ لحظة والإنسان ربانا؟ أرجوك يا حبيبي.. كفانا عذابًا!! ونظر إليها بوحشية كأنه يستشف النفاق في وجهها، ولكن وجهها كان صادقًا إلى أعمق بحيراته.. كفانا عذابًا قالت.. لم تقل كفاك عذابًا، وارتاح ولكنه فكر بتبرير أليم إنه ليس حزن شخص هوى .. إنه حزن جماهير يتحدث الأوصياء الأوغاد باسمها كل يوم.. جماهير .. يا دوامة الحزن العظيم لفيني بردائك المخملي الأسود.. جماهير .. جماهير...

يا جماهير شعبنا المناضل.

والتفت كالملسوع وأمده اليأس بغضب مستميت وصاح بصبي القهوة:

- قل للممحون ابن الممحون أن يخفف راديو الترانزيستور ويسمع وحده.. والتفت نحو الثلاثة، والتقت عيناه بست عيون تقذف الشرر.

أسرع خطوة فأسرعت الخطوات وراءه، تذكر الرعب الأسود نفسه منذ سنتين، هل سيضربونه الآن وفي الشارع؟ ليحذر الأزقة المظلمة فقد تشق صدره موسى مرهفة، ولن تبلغ صرخاته البيوت النائمة ولن تضاء نافذة واحدة من أجله ولن يطيل رأس. وحتى الحراس تعلموا ألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم.. في الشوارع العريضة المضاءة يستطيع أن يلم السابلة وأن يصنع فضيحة، لو أمكنه أن يصل إلى أي تلفون ويتصل بسلوى، ولكن أية دكان لا تزال مفتوحة؟ نام الجميع نومًا ثقيلاً ما عدا مخافر الشرطة وأقبية المباحث وسجون الدولة وسلوى.

سمع الصوت الحيواني مرة أخرى هل يلحق به الغلام العطيل أيضًا؟ إنه لفأل سيء، لقد مسح بيده على رأسه وهو يغادر المقهى ونفحه بليرة.. أهو تعويض عن قسوة القدر أم لؤم البشر؟ وحدقت فيه العينان ولكنه لم ير فيهما معنى للشكر وإنما للذعر. ولماذا يصرخ؟ هل ضربه الثلاثة؟ هل خلصوه الليرة؟ ترى هل ارتكب بعمله هذا غلطة مجهولة؟

أسرع من جديد فأسرعت الخطوات وراءه في جلبة. ماذا ينتظرون؟ هناك رجلان قادمان فليلتجئ إليهما. معكم كبريت يا إخوان. نحن لا ندخن يا أخ. الطقس حلو وبديع با إخوان!! والعرق لذيذ يا أخ، لنتمش معًا ونتحدث يا إخوان!! هذا شرف عظيم ولكننا ذاهبون للشغل.. بخاطرك يا أخ.. كأن التكسيات قد انعطفت، طول عمرها أكثر من الهم على القلب ولكن الشارع لا يطالعـــه بأي ضوء سيارة..

الشارع العريض كان ينتهي ولا بد له من أن ينحرف إلى اليسار ويدخل الزقاق المظلم.

ماذا يجري لو أنه عاد أدراجه وظل يتسكع في الشارع حتى انبلاج النهار؟ الساعة الآن الثالثة. ساعة، ونصف وتمتلئ الشوارع بالعمال والباعة إنه لا يخشى الاعتقال ولكنه يخشى الغدر، وسيروح رخيصًا دون فائدة، وسينتهي خبرًا في الجريدة: تعرض جماعة من الأشقياء للأستاذ فلان. أو جريمة أخلاقية غامضة.. اللعنة، لماذا يلحق به الغلام؟

يجب أن يلتجئ إلى حارس ولكن أين الحارس؟ هناك كوخ في منتصف الزقاق فإذا استطاع بلوغه نجا. بدأت خطواته تقفز ثم بدأ يركض وأنفاسه تتلاحق . أصبح في الزقاق الآن.. مئة متر وسيصل إلى الحارس ويطلب حمايته.. قفزت الخطوات من ورائه وسمع الصوت الحيواني وبدأت المطاردة.. وصاحت أصوات: وقف يا ابن الشرموطة. أصبحت كل قوته في قدميه، وأخذ يجري. وها هو الكوخ ولكن أين الحارس؟ وهنت قواه عندما رأى القفل على الباب....

الحارس في جولته الليلية المعتادة لعله يشرب الشاي في مكان ما أو يسترق النظر من خصائص النوافذ المضاءة؟ وسمع من ورائه صفارة فاستغرب.. هل يطارده الحارس أيضًا؟ وجاوبت الصفير صفارات أخرى.. صفير من كل مكان مأروع التنظيم.. وكان قد انقطع نفسه عندما وقعت على رأسه خبطة، وتدفقت الدماء في فمه وغامت عيناه وسمع أصواتًا من هنا وهناك، وامتدت إليه أيد كأنما لتعانقه وشعر بها تتحسس جيوبه وبدنه وأحس بأنه ينتفخ كالبالون. كان يتداول من يد إلى أخرى ويحك كعملة زائفة. وعندما احتج أسكتته أصوات غاضبة ولوحت القبضات أمام وجهه وسمره الحارس من يده بحركة مزرية وأمسكه آخر من الثانية. واطمأن.. ماذا فعل في نهاية

الأمر ؟ سيعرف ضابط القسم تفاهة المسألة وظلمها عندما يرى هوية الثلاثة. هذه ليست المرة الأولى التي يقبضون بها على الناس بطريقة مزاجية.ولكن ماذا لو قالوا أنه يوزع مناشير؟ وسيمدون أيديهم إلى جيوبهم ويسحبون منشورًا مهيأ لمثل هذه المناسبات. أو لعلهم دسوا شيئًا في جيوبه؟ لو يخفف هذا الحارس العملاق من قبضته،. إنه يعصر بيده كما لو كانت ليمونة قاسية.. عند ذلك لن يفعل ضابط القسم شيئًا، وإنما يرفع سماعة التليفون بذعر ويدير رقمًا خاصًا أمامه دومًا عين ساهرة. الاسم فلان.. وتتسع عيناه عندما يسمع رد الفعل.. مفهوم سيدي، نعم فلان، توزيع مناشير، حالاً سيدي لا ليس معه سلاح.. الآن فورًا.. احترامي.. ويقف ويتحسس مسدسه فالأمر خطير . والدولة بحالها تهتم بهذا الصعلوك الضئيل الجرم الذي يقف ساكنًا كأنه لا يعرف ماذا ينتظره.

لم يعد يسمع صوت الغلام، هل شل وهرب عندما رأى المعمعة؟ وتمنى أن يرى هاتين العينين اللتين تجمد فيهما الذعر مرة أخرى . إذن لما أحس بهذا الثقل المرهق الذي يسحق جسده كله. وأصاخ ولكنه لم يسمع إلا اللغة الغريبة والسباب الحانق.

وفكر أن سلوى ستنتظره اليوم وغداً وبعد غد. وبعد أن تذرف الدموع سيطالب جسدها الغارب بمن يخفف عنه الوحدة ويبعد عنه شبح اليأس.قال له أبوه: كأننا يا بدر لا رحنا ولاجينا مكتوب على ورق الخيار نصحو بالليل وننام بالنهار . وكيف سيستقبله الرفاق بعدما تركهم وتخاذل؟ عندها يبدأ السجن الحقيقي.. السجن الرهيب.. السجن الذي...

ودفع دفعة كادت تطيح به لولا أنه أدرك مسند كرسي فتشبث به، كانت يده تعود إليه ويجري دمها في الأوردة والشرايين كنهر حطم مساربه، ومددها على ذراع المقعد كجثة وسمع الحارس يقول:

- أنا بذاتي ما رأيته لكن الأخوان..

وركز فكره متناسيًا الألم.. عم يدور الحديث؟ ولكن الأشياء أخذت تتراقص، كان أثر الخبطة لا يزال يدوي بين صدغيه ويحرك فيها أبخرة العرق.. حاول يجلس، والتوت قدماه وتخاذلتا وهو يتهاوى على المقعد، ولكن ضجة عظيمة أيقظته ومسكته أيد عنيفة حاقدة وأسندته، وضربت قدم الكرسي بعنف كأنها تضرب كرسي المشنقة. والكاريكاتور ليس ضحكًا خالصًا ولا مأساة قاطعة ونظر أمامه إلى الضابط.. يا الله ما أصغره، منذ عشر سنوات على الأقل كان تلاميذه أصغر منه.. وجه حليق رغم منتصف الليل كأنه يتهيأ لليلة حب. كيف يمكن لهذه الأصابع الرقيقة أصابع عازف البيانو هذه أن تمتد لتضرب إنسانًا؟ ابتسم له فتحولت السحنة الناعمة إلى وجه مفترس .. لن تخيف أحدًا يا طفلي، ولكن كيف أمكنك أن تحول كل هذا الجمال إلى هذه البشاعة؟ كان الضابط النازي يعزف على البيانو وهو يأمر بحرق الناس.. لا بأس.. ولكن ماذا يقول هذا الحارس إله القوة هذا؟

- لأجل الشرف سيدي أنا بذاتي ما رأيته ولكن الأخوان..

أسكته أحد الثلاثة وتقدم من الحطام الواقف ونظر إليه نظرة مواربة، وبحركة مسرحية مد يده إلى جيوبه وألقى على الكرسي بشيء ثم بآخر، وتوالى التفتيش وتكدست الأشياء.

- انظر أي أفندي رائع .. لص جوارب.

- على حبل غسيل..

وأعادته الدهشة تمامًا إلى الواقع وفتح عيونه على سعتهما.. أزواج رطبة من الجوارب ثياب وبياضات انتزعت من حبل غسيل في شرفة بيت ..شيء في معدته أخذ يصعد إلى حلقة قوة لا تدفع أخذت تهز كيانه كله (رأينا الواطي يقفز إلى الشرفة) القوة تتصاعد (صرخت المرأة حرامي) وصلت إلى أقصى الفم (قفز وأخذ يجري) انطلقت لا تقفها سدود وضحك وضحك وضحك فأخذت الضربات تنهال عليه.. ومن خلال دموعه فكر وهو يهوي في الظلام:

- إذن ليست جريمة سياسية.. بسيطة إذن.. بسيطة.

وفي تلك اللحظة، سمع الصوت الحيواني مرة أخرى يعوي ويعوي، كأن أحدًا ينتزع أمعاء بطنه.

* * *

وفي الناس المسرّة

قدم له: حَنّا مينَه

مقدمة

... وفي الناس المسرة!

ليس هذا بالعنوان الضخم... إنه بسيط كالناس الطيبين، إلا أنه انتزع إعجابي كدت أقول تصفيقي.

يقولون: «إن من البيان لسحرًا»، فلا بأس أن نضيف: إن من البساطة لسحرًا. تلقيت ذات يوم رسالة من جارة فقيرة، تقول فيها على السطر: «لحضرة الخواجه حنا من أم بولص».

أعتقد أن هذه الكلمات الساذجة ستحيا معي ما حييت، لأنها صدرت، ببساطتها المتناهية، عن واقع الحي الذي نشأت فيه، والأكواخ التي لعبت في ظلالها، والأحلام التي داعبت مخيلات أهلي وجيراني، عندما كانوا يتحلقون حول مواقد الطين... فتنبعث، مع نارها، ذكريات شقائهم وأضواء رجائهم... إنها تحمل إلي، أبدًا رائحة التراب.

على أنني، ويجب أن أقرر هذه الحقيقة، لم أتمثل عبارة «... وفي الناس المسرة» تمثلاً منفصلاً لسببين:إيماني بارتباط الأشياء وتفاعلها، ومعرفتي السابقة، بأن عبارة «على الأرض السلام» سبقت «وفي الناس المسرة» .

السلام والمسرة...

لا أستطيع أن أصف الاطمئنان الذي تبعثه هاتان الكلمتان في نفسي. إن لهما وقعًا عجيبًا، دافئًا، مشرقًا، أحس به يدًا رفيقة، يدًا قدسية، تمتد بعزم

وتصميم. فتزيح السجف السوداء عن مستقبل حياتي وحياة الناس، وتضعنا من الزمان والمكان حيث يجب أن نكون أمام الشرفة المطلة على عالم الغد... لنستقبل الفجر الجديد القريب الذي نحن معه على موعد.

أخي سعيد!

عفوك عني، كدت أنساق مع عاطفتي، فأدعك وأتحدث عن نفسي، ولكن في الحقيقة، من هو سعيد، ومن هو حنا، بل من هو شوقي ومواهب وصلاح وحسيب ونبيه وغسان... من هم هؤلاء الذين اجتمعوا على أنبل ما يمكن أن يجتمع الناس عليه:السلم والحرية؟

يجب أن أقول أن عنوان كتابك حملني على أجنحة غير منظورة انتشلني من حاضري ونقلني إلى مستقبلي، ثم أوقفني في دائرة ضوئية، تحت حزمة وهاجة من نور الفكر الإنساني، الفكر الذي كانت له تراثه، ضل طريقه الطويلة الممعنة في الصعود نحو قمة المجد، هذا الإرث من بطولات النضال، وهذا الكنز العظيم من الأفكار، والحصيلة الكبيرة من النجاحات.. ومن الأمل الذي لا يتزعزع بانتصار الحرية والسلام وفي كل مكان.

أما قصص الكتاب فلست أحب الحكم عليها، سأترك هذه المهمة إلى القراء، مع التأكيد أنك تثب، في مضمار القصة العربية الصحيحة، الناجحة، وثبًا، وتجتهد لإبراز الشكل والمحتوى في كل واحد.

إن في هذه القصص انعطافًا واضحًا نحو الاستمداد من المجتمع، من الحياة، بكل ما فيها من آلام وآمال وعواطف ونوازع، وإنني لألمح، من وراء السطور، موهبة قصصية مباركة وألمس روحًا إنسانية صافية، رقراقة حينًا، صاخبة حينًا آخر، تستطيع أن تعكس بصدق، آمال شعبنا، وصور حياتنا، ولوحات مجتمعنا بأسلوب جزل لا تكلف فيه ولا زخرفة لفظية.

إن الإيمان بالإنسان، وبقدرة الخير على هزم الشر، مهما كانت المصاعب والعقبات، يتلاحمان في قصة «سريري الذي لا يئن» ومن هذه

النقطة، في الفهم الصحيح العميق، يمكن أن ننطلق بعيدًا إلى حيث نشاء، آخذين في حسابنا دائمًا، وكما فعلت أنت، قضية إيثار أفكارنا على عافيتنا في جميع مراحل الطريق.

لقد جاء في بيان «رابطة الكتاب السوريين» هذا المقطع:

«نحن كتاب تقدميون بكل ما في الكلمة من خصب. تقدميون لأننا نستهدف أبدًا أن نمشي إلى أمام، حيث يتلامح هدفنا.أننا نؤمن بأمتنا، ونؤمن بأننا نستطيع خدمتها، وأننا لن نكون كتابـــــاً إذا لم نعش حياة أمتنا. إن هدفنا هو أن نعمل للشعب لأننا منه، ولأن الفن الصحيح هو الفن الذي ينبع من حياة المجموع. إن الآثار العظيمة الباقية هي الآثار التي غيرت وجه الحياة فأغنتها وأكسبتها أشياء صالحة جديدة. لم يعد هناك - كما يقول بعضهم: «من فن للفن » ولا من زهر للزهر. إن الفن هو للناس».

وفي قصص الكتاب قد لا تبرز جميع خصائص هذا الدستور الأدبي، إلا أن فيها انعطافًا أكيدًا نحوه، إن فيها نموذجًا للإنسان الذي نريد أن نتكلم عنه ونضـــع فننا في خدمته، وهذا ما يصح قوله بالنسبة لسائر أعضاء الرابطة في إنتاجهم الجديد.

كان بودي أن أتحدث عنك شخصيًا، أن أصف أثرك في نفسي ونفوس إخوانك أعضاء الرابطة، أن أتحدث قليلاً عن محتوى كتابك إلى القراء، إلا أنني أدع ذلك إلى قصصك، فهي قادرة وأنا عاجز...

حنا مينه

الطفل يصرخ في الظلام

نالت هذه القصة الجائزة الثانية في
مسابقة مجلة النقاد عام ١٩٥٣

-١-

في نفس الوقت تمامًا، وساعة محطة الحجاز الحديدية تدق الثالثة بعد منتصف الليل، فيصل إليها مكبوتًا كأنين هادئ حزين...

كان يتمدد إلى جانبها في إعياءه ينفخ كنور مجهد، وجسدها يتضمر وينكمش في تقزز، وحينما كانت تدير وجهها إلى الحائط، الذي تنبعث منه رائحة الدهان الجديد هاربة من أنفاسه الملوثة، كانت تحاول خنق حقدها الحار، وتحس أنه إلى جانبها كحقيقة فظيعة مرهقة، وجسده الممدد، يبعث إلى ظهرها دفئًا قويًا... وتسمع أنفاسه تتحبس مثلما تتحبس أنفاسها، ويرين صمت، ثم تنطلق أنفاسها في تقطع لتختلط مع أنفاسه المتقطعة.

لقد كان هو الأخير، في الجانب الآخر من الفراش، يفكر، وكانت تشعر شعورًا حادًا بأنه يفكر بما تفكر فيه، وتنطلق منه سعلة متسللة في السكون ببطء، كانت تصل إليها مع موجة من رائحة العرق فتنبئها بارتباكه، وبثقل الصمت العميق حولهما، حتى إذا تحركت حركة بسيطة، وطقطق السرير العريض تحتهما، أحست أنها أجابته إجابة تعرف يقينًا أنه هناك، في الطرف الآخر، يفهمها جيدًا.

هذا الجسد المتمدد... بعيدًا عنها كأنه ينفصل عنها مئات الأميال... كان يشع نورًا باهتًا لا يلامس كيانها، إنه عود جاف في شجرة لا تزال منشبكة تقاوم بعناد، ولكنها فقدت جاذبيتها. وحتى الطيور الهلكى التي تترنح تعبًا، كانت تمر بها دون أن تشعر بوجودها... إن خشبها تابوت..

لقد كان يستطيع أن يكون لحمًا ودمًا لو أنه... وفكرت وهي تختنق تحت اللحاف السميك،أنها لا تستطيع أن تنفصل عنه، ولقد ربطت إلى عجلته التي تدور ببلاهة، ورتابة ميئسة.

ووصلت إلى سمعها سعلة اخترقت السكون، وفاجأت أنفها رائحة العرق البغيضة من جديد، فحبست أنفاسها، وسمعته يشهق بتقطع، لقد شرب الليلة كثيرًا.. أكثر من المعتاد. - ما جد!! وخيّل إليها أن صوتها قد بدا واخزًا كحشره ليلة، وانقطعت الأنفاس فجأة، وانقضت مدة طويلة قبل أن تسمع صوته الثخين الذي تشوبه بحة المدمنين على الشراب والتدخين يقول بهدوء:

- نعم...

وبدت الكلمات مرة في فمها:

- هل أنت بخير؟... أعني.. هل تحتاج شيئًا؟

- وانتظرت إجابته في الظلام وصوت صفير قطار بعيد يملأ الهواء وهي تحترق تحت الغطاء.

- إنني بخير.. لا أحتاج شيئًا...

نفس السخرية التي تنبعث عن إحساس أليم، ورفعت يدها تمسح عرقها، وتنزل اللحاف قليلاً عن عنقها، وصوته ينبعث هادئًا مسرًا:

- شكرًا على اهتمامك..

وانخفضت المخدة تحت رأسها قليلاً، وطقطق السرير وهو يدير ظهره، فتنهدت بعمق، ومدت رجليها اللتين قلصتهما رغم الحر الشديد.

في هذه اللحظات كانت تشعر أنه مسكين يحتاج إلى الشفقة، وأنه مدين بحظه التعس لهذه الأقدار التي ترمي الزهر في استرخاء بقرة تقضم رسنها، ولكنها عندما تفكر أنه كان باستطاعته، هو بالذات، أن يسير حياتها، كانت هذه الجمرة الضئيلة كيراعة، تغطس في بركة ماء.

تتوى لو أنه الآن... ولكن هذا مستحيل، لقد انقطع، انقطع منذ زمن بعيد، نفس الفراش، نفس الغرفة. سوى الدهان الجديد، الذي لا تزال رائحته تختلط مع أنفاسها، وهي واجفة صامته. تبكي بحرقة، لم تكن وقتها تشعر بحقد ما، لم يكن يستحق الحقد هذا المخلوق الذي أعلن الأمر في خبث الثعبان وهدوئه.

لو أنه علم أية فظاعة نطق بها، إذن لخفف عنها ذلك قليلاً، ولكن أمام هذا الصمت العميق، ومحاولة استئناف حياتهما الأولى في دؤوب النملة متناسيًا تلك الهوة الشائكة... فأمر كان يحيل أنفاسها إلى مثل حرارة جهنم.

إنه رجل ككل الرجال، ليست تستطيع أبدًا أن تجد فيه عيبًا، بل بالعكس كان (أحسن ما يمكن الحصول عليه) كما قالت أمها ذات يوم، لقد كان هادئًا حقًا ولكنها كتبت في مذكراتها في الأيام الأولى (إنه يحبني حبًا لا شك فيه ولكنه يتحكم في عواطفه بسهولة) ولكنه، مع ذلك، مجرد دمية تسيرها غرائز دائبة.

بعد تلك الليلة أحست فجأة بالبرودة، وأخذت تشعر أن هذا الشيء الحار المتمدد هناك ينفخ في وجهها وهو يضمر رجليه كما تنام صغار القطط، والذي يعلو تنفسه الحيواني الرتيب... قد خرج من حياتها، تاركًا فيها نفايات لزجة قذرة كانت أبدًا تتعذب لها. لقد حاول كثيرًا أن يعود إلى سابق عهده، وكان يعرف أنه يستطيع بكل سهولة أن ينال ما يريد، ولكنه كان دائمًا ذلك اللغز الصامت، لقد حاول مرة، ولكن البرود الذي قابلته به كاد يقتله.

كان يمكن أن تكون مجرد الرعشة الجسدية بين شابين مشتعلين، صلة حيوانية قوية ولكنها كانت عذابًا من جانب واحد... فلم يكرر المحاولة وهي

تعترف أنها لم تفهم هذه الخطوة منه مطلقًا، ترى هل شعر بمقدار الهوة؟ لماذا فعل ذلك؟ لقد كان يستطيع أن يفعل ما يريد، وهي تحس أنه يتعذب، وأن صمته يخفي أشياء كانت تلامسها ملامسة خفيفة.

نفس الغرفة، والفراش، وكانت مرحة تهتف وتضحك وتتكلم لقد قالت أشياء كثيرة، وكان وجهها يبدو سعيدًا على الضوء الصغير الأحمر المثبت فوق سريرها. لقد تحدثت عن الحياة طويلاً، وعن أطفالهما المنتظرين، وعن، وعن زيارة لبنان، وعن أشياء كثيرة...وكان صامتًا على غير عادته، وكان لضحكته نفسها لون التفكير العميق.. وفجأة انبعث صوته هادئًا فيه بحة خفيفة.

يا عزيزتي... هل تهتمين حقًا بالأولاد؟

فضحكت، ضحكت طويلاً... بالطبع يا عزيزي، سوف نلبسه الحرير، ونعلمه وسيكون جميلاً له لون عيوني، وله رزانتك ولطفك، ما بك صامتًا؟ لقد قلت شيئًا سخيفًا.. إنك تمزح دون شك.

لدينا وقت طويل.. نفكر فيه بأنفسنا قبل التفكير بالأولاد. وتابع، وقد خيل إليها أن وجهه يبدو شاحبـــــاً من خلال الضوء الأحمر.

قد يأتون... وقد لا يأتون...

هل هو مجنون؟ لقد قال لها الدكتور شوكت اليوم، إن سبب هذا التعب العميق الذي تحسه قد يكون أولى علامات الحمل، وعندما خرجت مع زوجها كان صامتًا في الطريق فسألته:

ماجد.. ماذا قال لك الدكتور في هذه الفترة الطويلة التي اختليتما بها؟ فشحب وجهه وقال بشيء من القوة:

لا شيء ذا أهمية... لا شيء مطلقًا.. لقد كان يوصيني بزيادة الاعتناء بك. والتفتت إليه، والسرير يئن تحتهما، والضوء الأحمر يرسل نوره الباهت، وهي تجاهد لتنظر إلى وجهه بإمعان.

ماذا تقول يا ماجد؟ إنك تحيرني، الطفل هنا في قلبي... إني أحس به يتحرك.

يا حبيبتي العزيزة، يا صديقتي... لن تري الأولاد مطلقًا..

إنك تقول شيئًا مخيفًا... إنك تقتلني.

فاستدار إليها ولمحت الدموع في عينيه فجاهدت حتى لا تصرخ:

هل تعني.. أن الطبيب...

لا أمل يا حبيبتي فقد حرمنا من الأولاد...

وتوقف قلبها عن الخفقان وصمتت طويلاً وسمعته يقول: لا ضرر من ذلك كبير... على كل حال نرتاح من الواع والويع والمرض والهم.. سنعيش لبعضنا، نحن سعداء، أليس كذلك فما حاجتنا إلى الأولاد؟

وأمسك كتفيها وضمها إلى صدره.

لم نخسر شيئًا كبيرًا. لم نخسر شيئًا.

وراعه صمتها، فتحسس وجهها بيديه، لقد كان باردًا برود الموت.

سنقوم في العطلة القادمة للجريدة بالرحلة المنتظرة إلى لبنان وسنسعد ونلهو جيدًا. ووصل إليه صوتها كأنما أضعفته المسافات.

ماجد.

نعم يا حبيبتي.

وانقطع صوت نافورة الجامع القريب وساد سكون مربك.

عدم مجيء الأولاد... مني... أم منك.

وسمعت شهقته واضحة، وأدار وجهه للجهة المقابلة:

وهل يهمك هذا كثيرًا... النتيجة واحدة على كل حال.

أخبرني يا ماجد، إن لم أعلم فسأموت...مني؟

وانقطعت أنفاسها بانتظار النتيجة ومضت مدة طويلة.. طويلة جدًا حتى تسرب صوته هادئًا.

مني يا عزيزتي.. ولكن يجب أن نأمل فالطب يتقدم، سأعرض نفسي على غيره من الأطباء.. سأدخل الجامعة الأميركية في بيروت وساد السكون من جديد، وامتد طويلاً،وسمعت أنفاسه تتردد ببطء، فأخذت تتأمل وجهه على الضوء الأحمر الباهت.هذا الفم الملم الصغير، وهذا الأنف الذي يبرز بعض الشيء وهذا الشعر اللامع المصقول.. لقد أحست في تلك اللحظة..

وامتدت يدها بصلابة وأطفأت الضوء الأحمر الباهت الذي ظل يتألق منذ تمددت لأول مرة إلى جانبه في الفراش.

-٢-

سنوات خمس، قطعتها في هذه الغرفة تنتظر... أي حادث جديد، أي معجزة، أي حجر يلقى في البركة الراكدة الآسنة، ولكن البعوض يفرخ، ورائحة الطحالب تخنق أنفاسها. لم يطرأ شيء جديد سوى ذلك الصمت العميق الذي التزمه كلاهما حيال الآخر، صمت فيه لا مبالاة وحبه جلاد، وهي تتذكر بعد تلك الليلة حديثًا مهمًّا تبادلاه، بل كانت الأحاديث تسير حول توافه الحياة، وكانت تمتد لحظات من الصمت، كان كل منهما يشعر خلالها بالآخر شعورًا حارًا، وكان يقطع الصمت سائلاً أيها بحذر فيما تفكر فتجيبه دائمًا: وأنت بماذا تفكر، فإذا بوغت وأجابها: لا أفكر بشيء، أسرعت تقول: وأنا يا زوجي العزيز لا أفكر بشيء.

حتى الضوء الأحمر الذي أضأته تلك الليلة، أصبح جامدًا لا يرسل النور وعندما سألها في الليلة الثانية عن سبب إطفائه، احتجت بأنه يضايقها، ولتعترف أنه لم يحاول مرة أن يتثبت بشيء لا تريده بل كان ينظر إلى وجهها بإمعان ثم يدير وجهه.. ويصمت.

لو تستطيع أن تصل إلى أعماق هذه العلبة الغريبة التي يسميها دماغه، إن سلوكه يحيرها، فهو أبدًا دائم التهذيب والحذر، حتى في ثوراتها لأشياء تافهة، كان يقابلها بصمت، فيمضي في تصفح جريدته، أو يحاول أن يمسح نظارته برباط عنقه (فما عني يومًا أن يمسحها بمنديله) وعندما تبلغ ثورتها أقصاها وتنسبها دائمًا بأن تكسر ما يقع تحت يديها من أوان، كان يفعل إذ ذاك شيئًا: يصرخ للخادمة، ويأمرها برفق رفع الحطام، ثم يوصيها بأن تذكره بأن يشتري آنية جديدة.

ترى هل يفهمها؟ هل يشعر بحقدها عليه وكرهها إياه، يخيل إليها بعض الأحيان أنه لا يشعر بوجودها، وأن تهذيبه المفرط في محادثتها يخفي في حناياه احتقارًا لا حد له، لو أنه يغضب، لو أنه يتحمس لشيء، هذا البرود المترفع يكاد يقتلها، وعندما تقترح شيئًا تعرف يقينًا أنه يضايقه، كانت تتأمل وجهه وتترقب أترى انطباعًا إنسانيًا على الوجه البارد، ولكنه كان يقول بسرعة:

كما تريدين يا زوجتي العزيزة.

كانت تقضي الوقت طول النهار بالزيارات، أو بإصدار أوامر سريعة إلى الخادمة التي لا ينقطع صراخ طفلها، أو الدوران في أروقة البيت الكبير، ترتب بعض الأواني والتحف بأن ترفعها ثم تعيدها إلى موضعها، وكانت تعتكف في غرفتها ساعات كاملة، ثم تخرج منفوشة الشعر، مسهدة العينين، فترجو الخادمة، وتأمرها أن تسكت ولدها... حتى أن الخادمة ذات يوم قالت لزوجها وهي تتلفت قلقة نحو الرواق، بأنها لا تعرف لماذا تلح سيدتها. بالاحتفاظ بها ما دامت تكرهها.. ثم اختفت بسرعة عندما سمعت وقع قدم خفيفة على الحصباء الغناء. وكانت يقينًا تكره الخادمة، تكرهها وهي ترفع وجهها الساذج المدور كله إليها وتحدق فيها دون أن يطرف لها جفن وتقول بصوت مبحوح. هل تريد سيدتي شيئًا؟.. كانت تشعر أنها تخافها، وأن لها

سطوة خاصة، وكانت تكره مشاهدتها وهي تدني ثديها البشع، إلى هذا الولد العادي دائمًا، والذي تتدلى خرقه القذرة على جسده الأسمر، ولكنها ذات يوم، والخادمة غائبة تشتري شيئًا، سمعت بكاءه، فحملته بين ذراعيها، وكانت الرائحة التي تنبعث منه تثيرها، وحدقت فيه فابتسم لها، ولطى في حضنها وقد انطبقت عيناه، وكانت تتحرك برفق حتى لا توقظه وهي تحس بملمس لحمه اللزج على ساعديها، وتروح تتأمله وهو يتنفس بهدوء، فتغمض عينيها وتضع شفتيها على خده وتحس المذاق المالح وهي تقبله طعمًا لذيذًا... حتى إذا ما فاجأتها الخادمة، التي ارتفع حاجباها الداكنان الملتصقان، واتسع فمها الكبير... أسرعت بأن أعطتها إياه واختفت بسرعة في منعرج الفناء، دون أن تترك الخادمة تلحظ أن في عينيها دموعًا حقيقية.

لقد كانت هذه الخادمة مصدر شقاء لها، ولكنها مع ذلك كانت لا تريد طردها. وهي - إلى الآن - تأسف بتلك الغضبة الطارئة التي نقدتها إياها... وكانت تقول: إن حركاتها أصبحت ثقيلة كسكار الدببة... ثم تلتفت صوب الغرفة التي كانت تجلس فيها الخادمة، وتقول لزوجها وهي تنظر إلى البرك الصغيرة التي تركها المطر.. وإلى السماء المغبرة المنعكسة فيها:

إنها تأكل كثيرًا ولا تشتغل، هل قدر علينا أن نطعم الناس؟ حتى كان ذلك اليوم الذي فاجأتها فيه جالسة مستريحة فأمرتها أن تسارع إلى مسح الصالة ناعتة إياها كالعادة بالكسل، وفوجئت حينما نهضت الخادمة بحمد وهي تقول باستحياء:

يا سيدتي... إنني... حبلى...

والخادمة إلى الآن تروي قصتها إلى أمها وزوجها وجارتها، ولا تستطيع أن تعلل كيف انقلب وجه سيدتها، فتخدر وابيض وكيف أذهلت أولاً دقيقة، ثم اندفعت في غضبة كان عنفها يزيدها قوة ثم أشارت إلى الباب وتركتها وهي تشهق من الدهشة والألم.

وبانصراف الخادمة لم يبق لها شيء في البيت يثير انتباهها... سوى زوجها الذي يذهب إلى عمله الصحفي صباحًا ثم يأتي في الواحدة كالمعتاد فيأكل ويتمدد ساعتين، ثم يقوم إلى عمله في تكاسل وكانت تعرف من الأخبار التي تقرأها في الصحف الكثيرة، التي كانت ترد إلى البيت... أن لزوجها مكانة كبيرة، وأن صحيفته مضرب المثل، في القوة والجرأة والفهم العميق لمشاكل السياسة، وكانت تأبى أن تدع مثل هذا المجد البعيد يمسها... كان إشعاعه باردًا كإشعاع القمر وزوجها بالذات لم يحاول يومًا بعد تلك الليلة أن يحدثها عن نفسه شيئًا... ما فائدة كل هذا المجد وهذه الشهرة، إذا كان لا يستطيع أن يعطيها هذا الشيء الصغير ذا الرائحة المثيرة.

حتى أنها ذات ليلة هادئة مقمرة، كانت وحيدة تقف على النافذة المطلة على الشارع، تتأمل أشجار الكينا الضخمة، وهي تنافس أشجار الزنزلخت الناعمة،التي هدلت أوراقها في بؤس القمر يتخللها ويمسح عليها، وثمة ضحكة عالية لفتاة بعيدة، وسعلة رجل في الجوار. وكانت تنظر إلى البيوت المتراصة التي يقع عليها نظرها، وتعد بملل النوافذ المضيئة التي تتناثر على واجهات العمارات المتواضعة وكانت تلهو بأن تلاحظ الأضواء التي تطفأ. ثم أخذت تحدس ما يجري في هذه الغرفة المطفأة التي يلمسها القمر بشعاعه البليد. وظهر على فكها ارتخاء آلي وسرحت عيناها في الأفق... وكانت تتساءل: أيكون القمر هو الذي يعطي للكون مثل هذا السكون... فبالرغم من عواء الكلاب من بعيد، كانت تحس بعمق الصمت المخيم.. وفكرت بيأس، فإنها وحيدة في مثل هذه الليلة المثيرة، وأن مثل هذه الليالي قد وجدت لتعذيب من عليهم بأن يظلوا وحيدين... ونظرت من جديد إلى النوافذ المطفأة، كم من أجساد تتلاصق في هذه العتمة، وأذرع تشد على صدور، وأفواه تزجو في صوت يقطعه تراخي النوم، طفلاً يبكي في زاوية الغرفة... ولن يستطيع أحد أن يعرف في هذه المرأة الواقفة على النافذة، والساكنة سكون أشجار الزنزلخت، إن قلبها هنا يدق برتابة، مؤديًا ضريبة الحياة.

كان في عينيها دمعة جلية، لا تنبع من إحساس باطني، وكانت لا مبالاة الجو حولها تتسلمها إلى نوع من الحذر... وكان رجل يمر تحت أنوار الطريق، يتبعه ظلان أسودان، وثمة صدى شاحب لأغنية شاعت أخيرًا في الشمال، وبكاء طفل من بيت قريب. وصعدت رغبة ماسة على أهدابها، حتى لقد فكرت بدون أن تشعر بذلك السر الذي يلهب الوجه، وبدون أن تفكر في المستقبل أن تنفخ هذا البطن الضامر من أي رجل.

هل تستطيع أن تجد ذلك الرجل الحقيقي... الرجل الذي يدفع في جسدها ألا يخرج بذلك عن صمته المعهود فيثور ويصخب؟.. إنها لتتمنى أن ترى هذا الوجه المدور الشاحب، وهو ينقص من الغضب... تتمنى أن ترى الدماء فيه ساخنة حارة، لا زرقاء شاحبة.. ولكن هل يثور حقـــاً وما هو مدى مكانتها عنده...هل يشعر بوجودها قبله خيانتها، على أنها لا تستطيع أن تقول أنه لا يشعر بها.. ولن تستطيع أبدًا أن تبعد عن ذهنها تلك الليلة التي تكاد تصرخ كلما تذكرتها، والتي خرج بها عن حديثه المعهود، وهي تعترف أنها – على الأقل – قد شعرت بالشفقة عليه تلك الليلة ببعض الارتياح.

كان جالسًا في غرفته يقرأ وربما كان نائمًا كعادته في مثل تلك الساعة، عندما جاءت أمها... وجلستا تتحدثان معًا في الفناء والشمس الغاربة تزحف على الحيطان في تشبث، وزئيط السنونو يملأ السماء ونسيمات حارة شرقية تضرب وجهيهما المتلاصقين.. وكانتا تتمتمان وتهزان رأسيهما وكان الرأس الشائب، مرتفع دائمًا معارضًا أما هي فقد كانت تنظر إلى غرفته في حقد وتحدث أمها... وكان وجه أمها يكتنز، ويتجعد، ويشعب، كقطعة مهترئة من الخيش وكانت تقول بحزم وهي تفرك يديها..

سأتخلص سريعًا.. يجب وضع حد.. كلمة أنت..

وكانت أمها تغمغم بكلمات غير مفهومة تدل على السخط..

لا أستطيع أن أصبر بعد الآن يومًا واحدًا..

وماذا نفعل يا ابنتي؟. هذا حكم اللّه..

لا أعترف بحكم أحد.. أستطيع أن أغيره.. أريد أن أتحرر.

وأمها تغمغم من جديد في سخط، وهي تعلن في تصميم.

إلى متى صوتك يا ابنتي.

يجب أن تفعلي شيئًا.. اطلبي منه أن يطلقني.

وهي تذكر وجه أمها وهو يمتقع، وتذكر تلك اللحظة التي التفتت فيها فجأة نحو الممر، فرأت شبحًا منتصبًا في النافذة أخذ يبتعد ببطء، ثم رأته وهو يمر أمامها فيحيي أمها باضطراب، ثم يعتذر ببعض الأعمال ويتركها بعد أن يغلق الباب بصوت لا يكاد يسمع.

وفي المساء بدا متعبًا صامتًا لم يتعش بحجة عدم الشهية.. وتمدد باكرًا، وكانت تلاحظه كما تلاحظ صيوانًا أعد للتجربة، وتتعرف في هذا الكائن الذي تكاد تسمع وجيب قلبه، والذي كان يقطع السكون بسعال متقطع.. صورة زوجها البارد المترفع.

وسمعت صوته أخيرًا، لم يكن هادئًا، واثقًا من نفسه كما كان من قبل.. بل كانت فيه بحة خفيفة ورجفة طبيعية:

أريد أن أحدثك بأمر..

وحبست أنفاسها حتى لا تشعر بشيء، وانتظرت، وهي تكاد تصرخ لكنه لم يقل شيئًا آخر بل صمت طويلاً، وخيل إليها أنه يعاني أزمة صعبة.. وكانت أنفاسه متقطعة مجهدة ثم قال أخيرًا وهو يمسح جبينه الملتهب:

إنني... أنت... لا فائدة.

ثم أعاد وهو يدير ظهره ويزفر.

لا فائدة مطلقًا..

وبذلت جهدًا كبيرًا حتى لا تطلب منه أن يقول ما يريد، وروضت نفسها على عدم الإجابة، وإن ظلت، الليلة، ساهرة حتى الصباح.

ينفخ ومنذ تلك الليلة كانت ثلاث دقات تحدد موعد مجيئه فيتمدد كثور مجهد تفوح مع سعلاته رائحة العرق.

-٣-

أخذت ترقبه وهو يدلف بهدوء، فيخلع معطفه الرمادي الثقيل ثم يتمدد على كرسي الرواق متعبـــــاً... وأخذت تتأمل بخجل...الشعيرات البيض التي كانت تنتشر بين شعره الغزير الذي كان يسرحه بعناية، ثم تشاغلت بتقليب مفتاح صغير، بينما كان هو يمسح نظارتيه.

لا تستطيع الآن أن تقول له كل شيء... يا لعذابه الطويل المجفى ولكنها أخذت تطرد هذه الفكرة من دماغها بقوة:

لقد صنعت لك اليوم عشاء شهيًا..

وراقها أن يرفع بصره في دهشة أخذ يحاول إخفاءها.

آه عشاء شهي من الألوان التي تحبها.

آه .

سرها أن يرتبك أمامها لتخفي هي هذه الانفعالات التي تعصف بها كان يخفي وجهه وراء صحيفة وكانت لا تتحرك. قرأت مقالتك الأخيرة..

لقد اهتز حقًا.. ارتجفت الصحيفة في يده، ثم ظهر وجهه الحبيب من ورائها، ففرحت لانتصارها، ولم يستطع هذه المرة أن يخفي دهشته، وشعرت به وهو ينظر إليها في قلق، ماذا تبيت له من متربة جديدة.. آه يـــا زوجي العزيز.. يا مسكين.

هل قرأتها حقًا؟

لقد استعاد نفسه بسرعة... لذا يريد أن يسخر منها؟.. لو يعلم أنها تتألم.. لو يعلم أنها تريد أن تقول له أشياء بسيطة كثيرة.. يجب أن تسير الأمور بشكل حلو... يجب أن يعلم أنها صادقة. ولكن ما الفائدة؟..

ماجد... هل تذكر الإجازة التي وعدتني بها؟.. يجب أن نستغلها..

لماذا يفعل ذلك.. إنه إذا استمر في التحديق في وجهها بهذا الشكل فسيجعلها تجن ولا ريب، لشد ما تغير هذا الوجه، منذ خمس سنوات كان لطيفًا، وهو الآن قاس دهش... لقد أثارته حقًا، إنه يرتجف ويمسح النظارة ناسيًا أنه نظفها قبل دقيقتين.. ويسعل في خفوت، وخيل إليها أن شرايينها تتسع في جسمها وهي تقول في عنف مكبوت:

لنذهب من هنا، لنذهب إلى لبنان.

يجب أن يلقي سلاحه، أن يخلع عن وجهه هذا القناع لماذا يدهش؟ لماذا يقلق، يجب أن يفهم سريعًا، يجب أن تعود الأمور إلى شكلها الأول... ولكن خمس سنوات... من العذاب... دهر طويل... ألا تسمعني؟..

قالتها في شبه صبيحة، فرمى الجريدة جانبًا وقال بتلعثم:

ولكنك قد لا تعلمين يا عزيزتي أن العمل..

ما أكثر بلاهة هذا الرد.. لماذا لا يريد أن يفهم، وأن يحس؟.حتى كان يفكر بالعمل؟. يا زوجي المسكين.. يا أنبل الرجال دونك من العمل، يجب أن تستريح، أنت مرهق... تعمل دائمًا دون إجازة.

هل سافرت أمك؟. إذا كنت تريدين فسافري: يا للمسكين من حقه أن يقول كذلك. إنه يظن أنني أسافر من أجل أمي.. يظن أنني أطلب الهرب منه.

دعك من أمي.. سنذهب معًا.. وحدنا فقط..

حك أنفه بقلق، وبدأ يزرع الرواق بخطواته، كان حذاؤه المغبر، يطرق الرخام بضربات مهموسة.. إنه يدرك أن شيئًا جديدًا يحدث.. شيئًا غامضًا.. حجرًا في المستنقع الآسن.

كانت ترتجف، وتتخيل لها كل انتصاراتها السابقة أوهامـــــًا جوفاء تافهة، وكانت تحاول أن تتذكر نفسها، ولكن محاولتها فشلت.. لقد أحست أنها ضائعة، وبأن دوارًا أخذ يتسرب إليها.. يجب أن لا تفقد كل شيء.. يجب أن تقاوم.. إنها تستطيع.. ولكن خطواته لا تنقطع.. إن من هذا الدوار والضعف العام الذي أخذ يسري في دمها. مقاومة أخرى وإلا تهاوت أمامه.

قل شيئًا.

وشعرت أن عروقها تتسع، وألم الدوار قد فارقها فجأة لماذا تصرخين هكذا؟ ما بك اليوم؟. ما بها اليوم؟ يا زوجي المسكين. كيف أقول لك، كيف أخبرك؟ خيل إليها أنها ستقوم بحركة طائشة، بأن تندفع وترمي بنفسها بين ذراعيه، وتبكي بحرقة.. تبكي طويلاً، وتقول له أشياء كثيرة، مثيرة، مخجلة ولكن يجب أن يبادر هو بعمل شيء. حتى لا يقتلها الدوار.

كان قد اقترب منها قليلاً، وهو يفكر في أشياء كثيرة وكان يقول:

إنك تتألمين يا عزيزتي...وجهك مصفر.. هل هو الدوار؟ انتظري لأحضر لك شيئًا.

شكرًا.. لا أريد شيئًا.

وخيل إليها أنها في عالم آخر منفصل عنها وقالت بجرأة:

تعال واجلس هنا.. بجانبي.

لاحظت تردده ولكنه جرّ كرسيه وجلس بجانبها وهو يقول بقلق يا سعاد... قولي هل أنت بخير؟ لم تسمع منه منذ زمن طويل، هذه اللهفة العميقة،.. لقد كنت عمياء..

كنت عمياء يا ماجد.

نعم.

وسكتت فقال لها برفق.. إنك تتعذبين قولي كل شيء.

يا ماجد نعم.. نعم أيقنت الآن أنها على شفا الهاوية، ويجب أن تقفز مهما كان الأمر.. لقد أرهقت أعصابها، وتراخت على المقعد، وقالت باستسلام كاد يبلغ حد الخمول:

لقد قال لي الدكتور شوكت... كل شيء.

آه .

قالها بعمق ثم تهاوى على الكرسي دفعة واحدة، بينما أخذت هي فجأة في بكاء عنيف، خيل إليها أنها تعوض كثيرًا عن هذه الأيام الطويلة التي قاستها، تصورت كل حادثة في سرعة مذهلة، وأخذت تبكي وتبكي. وفكرت بأن في العالم أشياء جميلة وكثيرة، وأن البكاء لذيذ وجميل.. وكان جسدها يهتز بعصبية، فأحست بيده تضغط كتفها مهدئة، فازدادت في البكاء، وعندما رفعت رأسها أخيرًا إليه رأت عينيه ممتلئتين بالدموع.

لماذا لم تقل لي كل شيء.. لماذا.

وازداد ضغط يده على كتفها فألقت بنفسها على صدره وشدت بدفء مريح.

كلما فكرت.. أكاد أجن. يا إلهي كم كنا نتعذب.

لا تبكي. يا عزيزتي. الأمر لا يستحق كل هذا الانفعال.

إن النبل إذا بلغ هذا الحد.. يكون مخيفًا. كان باستطاعتك. ضمها بعنف، ولكنها قالت بتصميم الأطفال شيء جميل يا ماجد، شيء معبود، يجب أن تتزوج ثانية كان يجب أن تفعل ذلك منذ..

اسكتي يا سعاد.. إنك تعذبينني.

ما نفعي أنا؟ جثة.. رمة بالية.. عاقر يحسن أن تجلس في البيت وترقع الجوارب.. يجب أن تتزوج هل تسمع أن تنجب أطفالاً سأرضى. بل سأفرح. وسأعوضك عن كل هذه الأيام الطويلة من العذاب.

هل أنت واثقة؟

رفعت رأسها حينما سمعت صوته.. لقد جمد فجأة.. وأخذت تتلمس في صفحة وجهه ما يعتمل في أعماقه، وتداوت في ذاكرتها آلاف الصور، سريعة بائسة. وخيل إليها أنها تفقد من نفسها شيئًا ما.

يا ماجد... ماذا تعني؟

ولكن وجهه اكتسى طابعه المألوف، بل أحست أنه يريد أن يبتسم فلملمت نفسها الضائعة، وفكرت في أن تنتصر عليه ولكنها شعرت بالضعف.. كانت دائمًا تحس أن شيئًا ما ينقصها. كانت تعبة وفكرت بمعجزة ترد كل شيء إلى مألوف عادته.. بعد أن تعقد كل هذا التعقيد الغريب.

يا ماجد... هل تغفر لي؟

خيّل إليها أن جملتها سخيفة، وأن الأمر من التعقيد بحيث يجعل مثل هذه الكلمة تبدو عامية مبتذلة، وشعرت بأنه يحدق فيها لعله يتنسم طابع الأنانية في هذا الوجه الكنود.

ولماذا الغفران... إني لا أفهمك؟

حقًا إنها تسرعت... هكذا بجلسة واحدة تظن أنها تصلح كل شيء.. وأحست أنه يشعر بالحقد... يجب أن يفهم أنها متعبة لا تستطيع مقاومة وجهه الصارم... يجب أن ينظر إلى وجهها طويلاً ثم يبتسم.. واشتد الطنين في أذنيها.. ونظرت إلى عينيه، وآلمها هذا الرهق، لا بأس ليستمتع بإبصاره فستعود الأمور غدًا إلى حالتها الطبيعية... لا إنها لا تحب أن ينظر إليها هكذا... لا.. وانطفأت الثريا الكبيرة، وشعرت بالراحة.

عندما أفاقت كان الصمت يكاد يلمس، فمسحت العرق عن جبينها ثم مدت يدها وأشعلت الضوء الأحمر الذي علاه الغبار، ثم نظرت إلى مكانه الفارغ وإلى ساعتها وتنهدت... هناك خمس ساعات طويلة حتى تدق ساعة الحجاز ثلاث دقات.

* * *

الساقان السوداوان

لم يعد يشعر بأن السجادة جديدة ثمينة، وأن الصور التي كانت معلقة على الحائط توحي إليه بشيء جديد، وفقد إحساسه بأنه يجلس على أريكة وثيرة وقد مدد ساقيه على طولهما، فتنهد ونظر إلى قنينة الويسكي «الجون هيك» التي تبدو كسيدة عجوز تحاول أن تحتفظ بكبريائها وفي كل لحظة يفيض منها ماء الحياة... ثم قال وهو يرتعش :

- غالا!!

- نعم يا حبيبي!!.

- إني سعيد.

وتضحك غالا الحسناء ويذكره ضحكها بصوت الحصى الرقيق وهو يلقى في الماء، وشعر كأنه يختنق، ففك رباط عنقه، وأرسل ياقة قميصه، وأحس كأن شيئاً ينقصه، فتلفت حواليه، وأخذ يدغدغ ثدييه بيديه ثم يتحدث مع غالا، والضوء قوي، وصوت سيارة شحن ينفذ من شقوق النوافذ، وشعوره بالضيق يزداد، وغالا تبدو جميلة، والصور على الحائط قد باتت مزعجة، ولكن غالا تبدو جميلة أيضًا، وهو يحبها، وماذا يريد منها أكثر من ذلك إنها لا تطلب منه مالاً على فرط ما معه من مال، وهي ترفض إلا أن تدفع حتى أجرة السينما!!. يا لجسمها البض... ولكنها ناعمة جدًا لدرجة البرودة، لدرجة تجعله يحس بالامتلاء والرقابة، وهي تحدثه حديثًا قديمًا ولكنه

لذيذاً جدًا، عن السهرات، وعن حفلات الرقص، وعن المتع التي لا تنتهي.. ولكن الضوء قوي، وأصوات مشاجرة تجري في الشارع، وصفارة حارس الحي تدوي وقدماه تؤلمانه، ولكن غالا تسعده، لقد تمناها، وها هو ذا قد حصل عليها، لا شيء ينقصه في الحياة.. يردد هذه الجملة مرارًا. لا شيء ينقصه.. هكذا تقول له أمه، وهكذا كان يقول له أبوه وهو يؤمن أن هذا شيء بديهي، لا شيء ينقصه، ويتنهد ويشرب كأسًا.. ألا ترين يا حبيبتي أن الضوء قوي، وهذه الزجاجة انتهت، والحر أصبح خانقًا؟.. أنت متعبة، أتريدين الاستحمام؟ فليكن، سأقرأ شيئًا حتى تنتهي، نعم يا حبيبتي، سأنام هنا، فيم تفكرين؟ سأذهب لأفتح نوافذ غرفة النوم.

وذهبت غالا، فأسرع بفتح النافذة، واستقبله نسيم بارد منعش، وزعق قطار بعيد فنظر إلى الشارع المقفر، كم تنام هذه المدينة المزعجة باكرًا، ما أحوجه إلى أن يمشي، أن يمشي طويلاً حتى الصباح، حتى اللانهاية، إنه يستطيع أن يفعل أي شيء، يستطيع أن يشتري هذا البناء الضخم الذي يشمخ أمامه.

لا شيء ينقصك، إخوانه في المدرسة كانوا يقولونها له أيضًا، يقولونها ووجه ساخر هادئ معروق يرقبه من خلال الجماعة ويبصق على الأرض، واستنشق الهواء بعمق، ستنتظره غالا، إنها نزهة صغيرة.

وهبط إلى الشارع، ورد على تحية الحارس، وأغمضت عينيه سيارة قادمة فتساءل عن مصير سيارته في شعبة التصليح، أيستطيع العامل أن يردها إلى هيئتها الأولى بعد صدمتها التي نجا منها بأعجوبة؟ وكانت ضربات حذائه اللامع على الأرض فيها انسجام ورتابة، فتلفت حوله بحيرة، وتمنى أن يفعل أي شيء، أن يأتي بأية حركة ماذا يصير في الدنيا إن طرق هذا الباب سائلاً عن صديق له ذاكرًا اسمًا مزيفًا؟ أو طرق هذا الباب الصغير حتى إذا خرج أحدهم لم يشك فيه؟ وكيف يشك فيه وهو في مثل هذه الوجاهة؟.. لا شيء ينقصك!!.

تلفت حواليه، كل شيء يبدو بليدًا حوله، حتى هو يحس بالخمول وتمنى أن يشهد أي شيء يسليه، مظاهرة في الشارع مثلاً. فيلمًا سينمائيًا، أقفلت دور السينما الآن ونظر في ساعته، واسترعت انتباهه ضجة ضعيفة.. كيف كان يمر أمام هذه الخمارة دائمًا ولا يدخلها؟ أليس مشهدًا طريفًا أن يدخل؟

- عندك ويسكي؟

- وطني؟ لا، جون هيك؟

- ما في - عندك كونياك؟

- وطني؟ لا، كيموس.

- ما في عندك..

فقال صاحب الخمارة بضيق وهو يحك أنفه اللامع: عندي عرق ونبيت وويسكي وكونياك وطني والسلام.

- هات كأس كونياك - كاس للأفندي يا جبران.

وحملق فيما حوله، وزجاجات النبيذ القديمة مصففة على الرف يعلوها غبار كثيف، وتبدو أعناقها كقمم عتيقة لبيوت كنائسية شاهدها مرة في السينما، وتلفت حوله وهو يقاوم التقزز الذي ألم به من جرعة صغيرة، أكوام من الرجال يدخنون ويشربون ويحكون معـــــًا، يتجمهرون حول طاولات مخلعة كأنهم يمسكون بأيديهم حطام سفينة غارقة، وكان أحدهم يحك رأسه بكلتا يديه ويضرب الأرض بقوة، وعيناه اللتان غارتا في كتلة من لحم أحمر مخربش تحاولان مقاومة النوم، بينما كان آخر يسند رأسه إلى الحائط الملوث بالدهن والمغطى بإعلانات سينمائية قديمة ويدندن بأغنية لم يسمعها من قبل.. وكانت الكلمات تصل إليه مختلطة متشابكة.

- كأسك أخي صلاح - صحة وعافية.

وكانت كلمات.. كوريا.. الاستقلال، مصر تأتي إليه مع الأغنية الجديدة.

- واللّه، يشرب كأس أخي صلاح.. أنت الكلام لك.. أبو أكرم.

- واللّه ما سمعت.. طيب مرة ثانية.

- كأسك أخي صلاح - صحة وعافية..

وشرب الكأس الثالثة من الكونياك ثم خرج وهو يضرب بيده على بطنه، وأحس بحاجة إلى التقيؤ فقاوم. ترى لو جلس معهم الآن، أكانوا يعرفون أنه غني وأنه يستطيع أن يفرق عليهم المال الكثير؟.. ويسرع إلى الحائط ليقيء.. وظل متطاول يقف أمامه.

- يا حضرة الأخ، يا حضرة الأخ، هل هناك مراحيض في هذه الناحية؟..

ويسير من جديد، ترى هل انتهت غالا من الحمام؟ ما أشد الحر في البيت الفخم، لعنة اللّه على هذا الكونياك الرخيص.

وبدا له شبحان من بعيد يتقدمان نحوه، أحدهما شبح أسود، إنها امرأة بدون شك، وكان يسمع همسها من بعيد، والنظرات المتلصلصة التي تلقيها المرأة حولها كانت تسره وتبهجه، وانقطع الهمس حين تقدم، ولما جاوزهما سمع الهمس يعود ويبتعد شيئًا فشيئًا ثم ينقطع.

ومن جديد سمع وراءه وقع خطوات، فتلفت ليرى الشبح الأسود وحده يتقدم حتى يلاصقه، فيتردد قليلاً ثم يبتعد وهو ينظر إلى الخلف كلما مشى عدة خطوات ووجد نفسه يهمس:

- سست ست.

فالتفتت المرأة في الحال ثم تابعت سيرها.

فضحك بسخرية ثم أسرع حتى حاذاها فقالت بقسوة:

- ماذا تريد؟ مشغولة؟

- ومن تظنني؟

- هف.. العمى.. قولي مشغولة؟

- لا.. كم تدفع؟

- كم دفع لك ذلك الذي كان معك؟

- الوحش.. تصور ليرة وربع من يظنني؟ حمارة، بقرة، كلبة؟.

- طيب لا تغضبي.. أنا أدفع لك ليرة ونصف.

- كم؟ ليرة ونصف؟

ونظرت إلى هندامه باحتقار ثم قالت:

- اللّه يلعن هذه الليلة، اللّه رماني بزبونات مثلكم.

- ولو، طيب ليرتين، لا تجادلي لن أدفع أكثر.

وضحك في سره، كم ستنفرج شفتاه عن بسمة ساخرة عندما يخرج لها خمسين ليرة ويقول لها من طرف أنفه: معك فرط؟

قال لها بهدوء وبصوت هامس: قولي عندك محل؟

- لا... عندك أنت؟ - لا.

ففكرت قليلاً ثم نظرت إليه بتردد وقالت:

- في البناية المجاورة، في الطابق الثاني يوجد بيت مهجور وأمامه فسحة، فإذا نزل أحد من فوق أو طلع أحد من تحت سمعناه فقال وهو يكتم ضحكة عريضة ويفكر بفراش غالا الوثير:

- عظيم، من أين أتيت بهذا المخبأ الفخم؟

- أسرع، لا تضيع الوقت.

ومشى معها كأنه مسحور، وانزاح ذلك العبء الذي كان يجثم على صدره، وفكر بأن العالم يبدو طريفًا في بعض الأحيان، وفهم لماذا يبدو بعض الناس متحمسين، إنها مغامرة طريفة، لا شيء ينقصك.. هل تظن هذه المرأة، أنها تسرع.. يا للمسكينة. وجاءه صوتها الحذر:

- هنا، اصعد، هناك حارس في هذه المنطقة.

وصعد بحركة آلية ووقف يتأملها وهي تخلع البرقع فكاد يقفز من الهلع، رأى وجهًا مخيفًا أكله الجدري أكلاً فكأنه مساكن النمل أو جحور الديدان، وفي وسطه تقوم عينان قاسيتان ألقى عليهما ضوء الشارع الذي يدخل من نافذة الدرج خطوطًا مفزعة. قاوم القيء ورجعت إليه سخريته وراقبها وهي تخلع معطفها وتفرشه على الأرض، ثم تتمدد، وسيقانها السود الهزيلة تلمع في الضوء الخفيف كأفاع متلوية. وهنا انفجرت من فمه ضحكة طويلة، قهقه بجنون وتشف، وخيل إليه أن العالم مضحك لدرجة لا يكاد يتصورها العقل، أخذ يضحك بعمق وقوة حتى اندفعت من عينيه الدموع، ووضع يديه على بطنه وهو يتلوى كالمسعور.

ولكنه قطع ضحكه فجأة لأن المرأة انتصبت أمامه، وخيل إليه أن عينيها تضربانه بالسياط.

- ما بك يا ابن الكلب؟

فانتصبت أذناه كفرس جامح، لم يتصور أن في العالم أحدًا يستطيع أن يهينه مثل هذه الإهانة، فنظر إليها كأنه ينظر إلى حيوان غريب، وتابع ضحكه وهو يمد يده إلى جيبه فينتر خمسين ليرة كاملة ويقول:

- لا تغضبي، خذي هذه الخمسين ليرة، اضحكي حتى أرى، قلت اضحكي. وأخذ يقهقه بشدة، وهو يتخيل ساقيها السوداوين الهزيلتين، ووجهها المجدور المشوه، وحركاتها الحذرة، ومد يده وألقى إليها بالورقة، ثم استدار لينزل وهو يضحك، ولكنه تسمر في وقفته كأنما قد صعق، فقد فاجأه صوت هائل لم يسمع مثله في حياته:

- يا كلب يا جبان، خذ هل تظن أنني محتاجة لمالك؟

الله يفضحك.. اللّه ينتقم منك..

وشعر بيدها تلامس وجهه ملتهبة فتقذف بالورقة بين عينيه. اللّه يفضحك.

الله ينتقم منك.

* * *

كان النسيم قد تحرك بعض الشيء، وخطواته تتجه نحو البيت رتيبة، منسجمة، لا شيء ينقصك، وارتجف بعنف وشعر بحاجة لأن يبكي، بحاجة لأن يرى أمه وأباه وأصدقاءه الكثر، وخيل إليه أن الوجه المعروف القديم، قد برز له من وراء عمود الشارع، وشعر بالبرد رغم الهواء المعتدل، إنه خائف يطارده صوت ذئبي ينشج بعصبية من وراء البرقع، هو بحاجة إلى أن يصل سريعًا إلى البيت وينام ليفيق باكرًا ويستلم سيارته.

وفكر بأن الدنيا مخيفة وأنه صغير يحتاج إلى أن يضيع بين المجموع فيتحرك دون أن يشعر به أحد، ويتنفس بحرية، لا شيء ينقصك، هه.. كم يتمنى أن ينام.

أحس بالراحة حينما وجد الأضواء لا تزال منيرة في منزل غالا، ولما وقفت أمامه وقد أخفت شعرها الفاحم تحت منشفة صغيرة.. اندفع إليها يغرقها بالقبل، ويضمها إليه بعنف غير مبال بدهشتها.

ولما جلس أخيرًا على المقعد متهالكًا واضعًا يديه في جيبيه تنفس بارتياح. ولكنه امتقع لونه حينما اصطدمت يده بشيء جاف أخذ يخش في جيبه، فأخرج الخمسين ليرة، وأخذ ينظر إليها ثم التفت إلى غالا وقال باستعطاف.

- خذي هذه، واشتري بها شيئًا.

رفعت حاجبيها بدهشة وقالت بملل وغضب.

- عدنا إلى هذا الحديث؟ ألم نتفق..

فقال بعنف: - طيب، طيب، لا تأخذيها.

ثم قال كالحالم:

- يا غالا.. على كل حال لست وحدك.. التي لا تأخذين!!.

ونهض نحو النافذة وأخذ يملأ رئتيه من النسيم المنعش وهو يراقب شبحًا يتقدم من بعيد، حتى إذا صار تحت النافذة، دس يده في جيبه بسرعة وألقى بالورقة، ثم أخذ ينظر إليها وهي تتأرجح حتى وقعت بين رجلي الصبي الذي انقض عليها ثم أخذ يجري ويجري كأنما تطارده الشياطين.

... وغاب القمر

بدا القمر شاحبًا تحوطه هالة صفراء كامدة. وكانت العائلة جالسة على السطح وقد فرشت حصيرًا قديمًا واتكأ الأب على مخدة سريره بينما كان ابناه يتجاذبان مخدة عتيقة برز بطنها حتى بدت كخروف مسلوخ وأخذت الأم تتحدث مع زائرة لها... وهناك في أقصى الزاوية حيث تتبدد خيوط الحصيرة وتتعامد كحديد السجون جلست الخادمة أمينة وهي تنظر إلى النجوم.. ووجهها الذي خربشه الزمن وجعده على صغر يبدو كلعبة الصغيرة فوزية. التي كانت تبكي لأن أخاها ضربها بينما أخذت منور تهدئ ثائرتها.

وتنهدت أمينة للمرة العشرين وهي تسمع الحديث المعاد لسيدتها والزائرة وأحست بضيق في نفسها ففكت أزرار ثوبها سمعت سيدتها تقول:

- بدون يمين يا أم نذير إننا سعيدون جدًا باختيار ابنتك لنصوح .

- ونحن كذلك بدون يمين يا أم صباح واللّه الموفق.

وأدارت أمينة رأسها ببطء ثم وضعت يدها على فمها وحاولت أن تتثاءب فلم تستطع وعادت تستمع إلى الحديث..

- ماذا ترين أن يكون قماش السرير، اجلس يا لعين لا تقترب من الماء.

- هؤلاء الأولاد مزعجون.. نعم.. لون قماش السرير سماوي وسنكلفه عند النونو.

- متى نطبع التذاكر؟

- بعد غد.

- لماذا؟ متى اتفقتم على آوان العرس؟

- في أول الشهر.

- هذا كثير فإن نصوح يرى أن يكون في العشرين منه.

- لا نستطيع أن نكمل الجهاز قبل آخر الشهر. وفكـــرت أم صباح قليلاً ثم التفتت إلى أبي صباح الذي تهيأ لإلقاء آرائه الناضجة فتنحنح وحرك رجله الممدودة ولكن أم صباح هزت كتفيها وقالت لأم نذير:

- لا بأس فليكن.

وتدير أمينة رأسها من جديد وتنظر إلى القمر الشاحب الذي يميل ببطء نحو الغرب وراء الجبال، هناك حيث تنام قريتها غافية تحت أقدام الجبل.

ترى ماذا يفعل أبوها الآن؟ هل يجلس على المصطبة تحت الكرمه العجوز وقد مد رجليه في الساقية الصغيرة وأخذ يحركهما رواحًا ومجيئًا وهو يأكل التفاح بينما تجلس أمها تعجن العجين في المعجن الأسود؟.. ومدت عنقها نحو الغرب ورفعت أنفها المنبطح وتشممت، وخيل إليها أنها تشم رائحة «الجلة» وهي تحترق في تنور عبود الأعرج.. ترى هل يفكر أبوها فيها الآن؟ وأمها لا تزال تلوك اسمها بحنان كما كانت من قبل؟. هل تخطر على بالهما تلك الفتاة الصغيرة الجميلة التي كانت موضع رعايتهم ومناط آمالهم وكان أبوها يدق بيده القوية على كتفها وهو يحمل عنها أعواد الحطب:

قلت لك ألف مرة يا عفريتة أن لا تحملي الحطب حتى لا توسخي يديك!!. اللّه يقطعك ماذا يفعل ابن شيخ البلد عندما يرى خطيبته على هذه الحالة. سيقول أن الحاج مدور يشغل بنته كالحمير!! نطي إلى البيت!

وتدوي ضحكته الخشنة في أثرها كأنها مطارق البنائين الذين ينصبون مأذنة جامع القرية.. فيحمر وجهها وتنفض يديها وتسرع وهي فرحة بالجزمة الجديدة الحمراء التي جلبها لها أبوها من المدينة والتي حلف أبوها بذقنه أنه اشتراها بعشر ورقات بالتمام ما عدا أجرة السيارة فتقفز بها كالعصفور وهو يلتقط الحب.. وتنطلق نحو البساتين وقد ضفرت شعرها فأصبح كسنابل قمح الوادي ويداعب الهواء تنورتها الفضفاضة فتستقبله بضحكة بريئة حتى تصل إلى البستان. وتحس بالحر فتذهب إلى الناعورة الدائرة وتخلع ثيابها الخارجية ثم تنظر حولها بذعر وحذر وقد احمر وجهها وجف ريقها وبسرعة فائقة تخلع ثيابها الداخلية ثم ترتمي على الحاووظ الذي يصل فيه الماء إلى سرتها وتحرك بيديها ورجليها حتى تحس أن جسمها قد ابترد..

وهي لا تنسى ذلك اليوم الذي ذهبت فيه إلى الحاووظ وكان كل شيء ساكنًا هادئًا فألقت ثيابها ثم نزلت في الماء تسبح فيه كالضفدعة ووقفت قبلاً تدلك جسمها لتنظيفه أخذت تضرب الأمواج الصغيرة التي تأتي إليها مسرعة ثم تضحك بعنف.. ولكنها في ذلك اليوم أحست شيئًا مختلفًا جثم على قلبها وشعرت كأن عينين ترقبانها فرفعت رأسها بسرعة فرأت دياب ابن شيخ البلد واقفًا وراء الشجرة يراقبها فصرخت بذعر وغطست في الحاووظ إلا رأسها ثم نظرت إليه بتوسل وقد كادت تموت ذعرًا:

عيب يا دياب روح روح لاحسن أبوي يشوفنا يموتنا وما يجوزنا شبله.

ويضحك دياب وهو ينظر إليها بسرور ثم يقبل ثيابها ويختفي..

فتظل في الماء ساعتين لا تستطيع الخروج خوفًا من أن يكون قد تربص بها ليراها وهي تلبس.

وتصحو أمينة من المفاجأة وتلتفت حولها فلا ترى أحدًا مهتمًا بها فالأب قد غط في نومه وسمع شخيره والأم تتفرج على ابنتها منور وهي

تلعب مع أم نذير بالبرزيز وتلتفت مطمئنة وتنظر إلى القمر وقد كاد يغرب وتحس برغبة في البكاء فتتنفس ملء رئتيها وتتذكر عرس ابن سيدتها نصوح ويقفز فكرها إلى القرية من جديد.. إن شيخ البلد اتفق مع أبيها على الزواج وقد دفع مهرها غاليًا مئة مد قمح وخمس أبقار مع بيدر توم ومئتي ليرة...

وتجري الاستعدادات للزواج الكبير ويعزم شيخ البلد عشرين قرية مجاورة ويستحضر من الدنيا مولدًا صغيرًا للكهرباء فإذا ما جربه ورأت القرية الأنوار الكهربائية ظنوا أنهم في حلم واندفع كل منهم كالفراش نحو النور.

وقبل العرس بأسبوع تطرأ أعراض المرض على أمينة فيترقب الجميع شفاءها بلهفة ولكن حالتها تسوء فيستقدمون إليها طبيبًا من القرية المجاورة فيعطيها لزقة من الخردل مع عشرين كأسًا من الحجامة ونوعًا من الحشائش المغلية ولكن المرض يتحدى الطبيب المبارك ويستمر حتى تفيق أمينة في يوم من الأيام وتمر بيديها على وجهها فإذا به مليء بالمرتفعات والمنخفضات وأخيرًا يأتي طبيب من المدينة على إثر دعوة من شيخ البلد ويقف أهل القرية أمامه خاشعين!

هو ذا شخص آت من بلد الترام الذي يرن والسيارة المسرعة كبساط الريح والطيارة كأنها الرخ الأسطوري فينحرون له الذبائح ويتسابقون في إكرامه ثم يعرضونها عليه فيكتسب وجهه نوعًا من الصرامة ثم يؤنبهم بعنف وهو يسبهم بمسبات كانت لذيذة عليهم لأنها جديدة..

ولكن لغطهم ابتسر ثم ساد سكون تام عندما زجرهم مواطن الترام والسيارة ثم قال بصوت رهيب.

- إنه جدري.

وسادت الهمسات وتدانت رؤوس أهل القرية متسائلة. وتتسع أهدافهم.. فيقول شيخ أنه رأى هذا المرض في إحدى القرى وأنه يجعل الشخص

كسيحًا.. وقال آخر إنه يجعله أعمى وقال ثالث إنه مرض في المعدة لا يلبث أن يشفى بقليل من البابونج.. أما طبيب القرية المجاورة فقال وهو يرفع عقاله مفكرًا هذا المرض يسمونه عندنا (الشنوره) وهو مرض فظيع إذ أنه يترك الإنسان مجنونًا. وقرب رأسه من المجتمعين وقال بصوت خفيض: يقولون أن من يصاب به هو على اتصال مع الجان وخاصة ابن الملك الأحمر ساعد اللّه دياب فقال أحد الشبان: ومن قال لك إنه سيتزوجها لقد أسر لي البارحة أنه ليس قرن التيس حتى يتزوج امرأة تزوجها المرض...

أما طبيب المدينة فقد طاب له المقام وهو يرى أنه ينتقل من بيت إلى آخر فتنحر له الذبائح ويسيل السمن حتى لتستطيع أن تغمر به أصابعك.

وأخيرًا سرت البشر بأن أمينة قد شفيت فيأتي أهل القرية يهنئوها بالسلامة وتكون هي جالسة على سرير مكون من مجموعة من السحاحير مد فوقها فراش.. فيرون أباها وهو يستقبلهم بصوت هامس فيه خشونة وقد أطرق وتغضن وجهه بينما كانت أمها تضرب كفًا بكف وتحاول أن تمنع بكاءها. أما أمينة فقد كانت لا تعرف من الأمر شيئًا وفرحت ببكاء أمها الذي يدل على السرور واصطف أهل القرية حول السرير واجمين فأخذت تتطلع إليهم والسعادة ملء قلبها وتحاول عبثـــــًا أن ترى بينهم دياب ولكنها ذعرت عندما رأت وجوههم الكامدة وسحنهم المجعدة ثم خرجوا وهم يغالبون دموعهم وظنت أمينة أن حبيبها قد وقع له شيء فسألت أمها فطمأنتها بكلمات موجزة فجلست أمينة في حيرة ثم نهضت من السرير رغم احتجاج أمها وأرادت أن تمشط شعرها فدنت من المرآة وهي تلاحظ ذعر أمها وأبيها فلما وقفت عليها نظرت إلى وجهها طويلاً ثم صرخت صرخة عظمى وسقطت مغمى عليها.

.. وبعد ذلك تزوج دياب من غيرها، برم بها أبوها وأمها لأنها لا تخرج من البيت، نزل أبوها إلى المدينة ثم عاد برجل أشيب أوقفها أمامه ثم قال له هذه ابنتي يا سيدي وديعة بين يديك فاحفظها فهز الأشيب رأسه في ألم

فسمعت صوت أبيها يقول تجهزي يا ابنتي فلسوف تعيشين في المدينة تخدمين السادة فكوني أمينة كاسمك واللّه معك وتخرج أمينة من القرية مع السيد الأشيب وتنظر إلى الحجارة والأرض والسماء وتترقرق في عينيها دمعة ثم تدير رأسها وتمشي إلى الأمام.

هل مات أبوها؟ لم تستطع أبدًا أن تتصوره ميتًا وهو الذي كان ممتلئًا حياة وقوة ولكنها أحست أن صلتها به قد بعدت.. جدًا فقد كان ذلك منذ عشرين عامًا. عشرون عامًا طويلاً ألفت أمينة فيها المدينة ورأت أبناء السادة المترفين وهم يتهادون على أرض صلبة لا غبار عليها. وتعلمت فيها أن تقول نعم دائمًا حتى لسيدتها منور بنت سيدتها الكبيرة العانس التي لم تتزوج بعد والقبيحة التي تكرهها أمينة كما لا تكره إنسانًا من قبل!! هذه الفتاة بماذا تفضلها؟! إنها قبيحة وعانس فلماذا الغطرسة والكبر؟.

وهي قد شهدت أولاد سيدتها يتزوجون واحدًا بعد الآخر. ولكنها أحست الآن بعرس نصوح شيئًا مخالفًا. لم تشعر بذلك الفرح الغامر الذي كان يتجلى في قسماتها كلما تزوج أحد سادتها. ولكن نصوح هذا. إنها ربته على يديها وشهدت زحفه الأرعن ومشيته الضعيفة وغذته بحنانها حتى شب وكبر وأصبح في سن الزواج. وكان يجب أن تفرح لفرحه وأن تتفانى في خدمته كما هو مأمول منها. ولكنها وجدت نفسها ضيقة بالحياة تبكي لأية إشارة وتنفعل لأقل كلمة حتى ظنوها مريضة. وكانت هي نفسها لا تدري مصدر حزنها وتلوم نفسها على عدم اندماجها في الوسط السعيد الذي يغمرها فكأنها جالسة في الماء في آنية من زجاج وحاولت أن تبتسم فلم تستطع وثقلت حركاتها واعتكفت طويلاً في غرفتها. ماذا بقي لأيام العرس عشرة أيام فقط. عشرة أيام فقط وبعدها...

- أمينة!! أمينة!!

فانتفضت كالملسوعة:

– نعم ستي منور.

– لماذا لا تردين هل أنت نائمة لقد صرخت لك مرارًا؟

– لم أسمع يا سيدتي.

– دائمًا في أذنيك طرش اخرسي لا تتفوهي بشيء تعالي واحملي أخي إلى سريره ونهضت أمينة بجهد فحملت نور الدين ببطء وحملت منور هيفاء وحانت منها التفاتة إلى الغرب فرأت أن القمر قد غاب..

وجلست منور تحل الملاقط عن شعرها بينما كانت أمينة تقف أمام النافذة في الصحراء التي تعيش فيها والتي لا تجد فيها رفيقًا إن نصوح قد ذهب ولم يبق أحد..

والتفتت أمينة إلى منور طويلاً وتابعت عيناها يديها وهي تفك الملاقط واحدًا واحدًا وفجأة شعرت بدمها يسخن في جسدها وبأنها على وشك البكاء ثم اندفعت تنشج بعنف..

واستدارت منور وقد رفعت حاجبيها مذهولة وقالت برفق:

– ماذا بك يا أمينة في هذه الأيام هل أنت مريضة فركعت أمينة وقالت وهي تنتحب:

– لقد بقيت أنت لي فقط يا سيدتي ضميني إليك. أحبك يا سيدتي وكان الليل يجثم خارج الغرفة حادًا بينما اندفع من بعيد صوت كلب ينبح..

* * *

أوسمة الشيطان

-١-

لئيم، فاجر، جبان.. قل عني ما تشاء أيها الصديق، فقد تكون على حق في ذلك وقد لا تكون، ولكن المهم، أن أعتقد أنني لئيم، وفاجر، وجبان..

أتذكر يا صديقي، ذلك اليوم الذي تعارفنا فيه؟..

كانت السماء تمطر، والبرد يقرص رأس أنفي بقساوة.. وغاب رأسي في قبة المعطف الغليظ، الذي أتدثر به،.. وكنت أمشي في أروقة الجامعة، يقرقع حذائي الجديد على الأرض الناعمة الصلدة، وأشعر بلذة لا توصف، والدفء يتغلغل في كياني، وأنا أنظر من وراء النوافذ إلى المطر، وأفكر أنني بمنجاة منها. وتنتقل عيني إلى الفتيات المستجدات يتعثرن في ملابسهن الطويلة، وتدور أعينهن بنظرات زئبقية، هنا وهناك.. وقد غمرهن الجو الجامعي الجديد.. فأخذن يثرثرن ويتكلمن معًا، ويضحكن في خجل ضحكات لا معنى لها... ويتنشقن جو الحرية في الجامعة... فكانت تلتقي نظراتنا، وتقف قليلاً.. ثم تدور من جديد في كل ركن، وفي كل زاوية كأنها تبحث عن شيء محدد.

بدا لي شبحك النحيل.. وأنت تتقدم من آخر الممشى، وقد غرقت في تكدسات من الكتب الصغيرة والكبيرة.. فعلت شفتي ابتسامة ساخرة وأنت تتقدم نحوي، وتوجه إلي نظرة عجب ودهشة، وعند ذاك وقع من يدك كتاب،

وكان فيما أظن.. نسخة من تاييس لانانول فرانس.. ولم أشعر إلا ويدي تمتد في سرعة، فتمسك الكتاب.. وتقدمه لك في هدوء.. ولن أنس نظرتك الساحرة.. وتمتمتك المرتبكة.. كأنك كنت قانطًا حتى من الوصول.. إلى مثل هذه المساعدة الصغيرة. ومنذ ذلك اليوم يا صديقي، كنت أجدك تنتظرني، واعتدت دائمًا عندما أدخل الجامعة.. أن أنظر إلى العمود الضخم،البني اللون في مدخل الجامعة.. الذي كان مليئًا بخربشات الطباشير فأراك قد استندت عليه، وسيجارتك في فمك،وأنت تبتسم ابتسامة، كانت كل يوم جديدة علي.. حبيبة إلي.

-٢-

أكان من الواجب.. يا صديقي الحبيب.. أن أرجع إلى الماضي، لأسرد لك تفاصيل تعرفها؟.. ولكني أشعر بلذة كبيرة، وأنا أعاود النظر في تلك الأيام الحلوة الطاهرة.. التي كنت فيها أحترم نفسي، وكنت لا أرى في عينيك ذلك الـــــ.. ولكن، لماذا نستبق الحوادث؟.

كنا نلتقي اليوم.. فنمشي صباحًا معًا، ونحن ندخن، ونتبادل شتى المسائل، حتى إذا أزف موعد الدرس، دخل كل منا في غرفة.. لنجتمع من جديد في الفرصة. وكنا نلتقي دائمـــــًا كأننا لم نلتق من زمن.. كل منا متلهف، وكل منا مشتاق.. كان بيننا اتصال روحي عجيب، لا يصبر ولو ساعة على فراق صوري.

ثم كان ذلك المساء عندما فاجأتني بقولك: اسمع يا صديقي.. أريد أن أخبرك بشيء مهم.. أنت لا تعرف أني قصاص!!.

ودهشت حقًا.. فلقد عرفتك ذواقة في القصة.. وكنت تنتقد لي قصصي دائمًا من وجهة فنية تفتنني.. ولكني لم أعرف أنك تكتب القصة، ورجوتني

في ذلك اليوم ولأول مرة أن أذهب معك إلى البيت لتقرأ لي قليلاً من قصصك وترددت طويلاً.. وساورتني رغبة لم أستطع أن أحللها في الرفض، ولكنك جذبتني بقوة وأنت تضحك: لا تخف سأطعمك ولن أدعك تموت من الجوع.

ورسمت ابتسامة على شفتي، وعوى كلب جائع مقرور من بعيد، وعرتني ارتجافة فضممت أطراف معطفي العتيق، وتطلعت إلى بناء النادي الرمادي، وفجأت عيني أضواء سيارة قادمة، بينما طرق سمعي صفير مزعج من محطة (البرامكة) فهززت رأسي ببطء وتنهدت ثم سرت معك ودهشتي لا حد لها من إحساساتي المتناقضة كأنني أسعى إلى غابة مجهولة.

-٣-

كنت أدخن بشغف، وأنا أسمع قصتك الرائعة.. باللّه كيف كنت تخفي عني كل ذلك؟ وكنت أشعل سيجارة من أخرى بصورة لا شعورية..

لا تنبهني إلى إسرافي في التدخين سوى سعلة كانت تنطلق لاهثة من فمي والإحساس بأن لسان حاد كالشوك جاف كيد البخيل ممدود كلسان الكلب وفجأة سمعت دقات على الباب فتوقفت أنت عن القراءة وتوقفت أنا عن التدخين وفتح الباب لتدخل فتاة.. وعلى يديها صينية عليها فنجان من القهوة.. ووقفت ألملم ثيابي وأزرر جاكتتي وسرى توهج كلسع النار في وجنتي وأنا أسمع صوتك المرتبك: أقدم لك أختي إنها معجبة بما تنشر من قصص. ولا أعرف بماذا أجبت ولكنني أذكر أنني أخطأت وضع سيجارتي على المنفضة فنفضتها على السجادة الثمينة وأذكر أنني تشاغلت بالنظر إلى دهان الغرفة وأفلحت في أن ألحظ التموجات الزرقاء فيه وآلم عيني ضوء الكهرباء القوي وسمعت تتحنحك مع صوت سيارة بعيدة يدوي بوقها بصوت مستطيل ثم أخذت تتابع قراءتك وأخذت أحاول أن أفهم من جديد....

وانتهت القصة وأخذنا نتناقش فيها ثم ساد صمت مربك فاستأذنت بالانصراف وأحسست بأن نظرات أختك تحرقني وتجردني من ثيابي فأخذت أتململ وأتشاغل بالنظر إلى حذائي الذي يحتاج إلى طلاء وأخذت أنظر يمينًا وشمالاً كأنني جرو صغير ألقي في ماء بارد ثم أخرج إلى شمس لاهبة. محرقة. وتركتك مودعًا فصافحتك وصافحت أختك وارتجفت يدي وأنا أمسك بحاجز السلم الحديدي البارد وشعرت أنني خفيف الحركة فصرت أقفز السلم قفزًا كأني أمير شرقي على بساط من الريح.

– ٤ –

أنت تعلم تمامًا أن الصداقة عندي ليست ملعقة تنتقل من فم إلى فم ولذلك كنت لا أفكر حتى بمجرد ما يسيؤك وكنت لا أحس بجميع هفواتك الصغيرة والكبيرة على السواء.. إنك صديق. وكفى ولكني لاحظت بكثير من الدهشة والحيرة أن نظرتي إليك قد تغيرت. بل لقد كنت أتعمد أن أعد عليك الهفوات والسيئات الصغيرة حتى كدت في بعض الأحيان تبكي أمامي ولكني كنت أسرع دائمًا فأواسيك وأعتذر إليك وأنا لا أعلم لم آلمتك أولاً، ولم اعتذرت إليك ثانيًا وكثرت زياراتي إلى البيت حتى أصبح اليوم الذي لا أذهب إليك فيه يعد يومًا غريبًا مملاً ويقينًا أنني لم أستطع أبدًا أن أحلل إحساساتي في تلك الفترة حتى كان ذات يوم.

كنت جالسًا أمام (الفونو) تستمع إلى أسطوانة (فوكس تروت) ثم لم أعرف من أين هبطت عليك فكرة الرقص فقمت وأخذت بيد أختك ثم أمسكتها عنوة وأجبرتها على الرقص بين ضحكاتنا وتابعتكما بعيني وأنا أحس بجفاف في حلقي وبألم في فكي وفجأة انزلقت قدم أختك ووقعت على وجهها وانحسر الرداء المخملي عن ساقين نديتين مرتعشتين.

وقف كل شيء فجأة وهرب الدم من وجهي بينما أسرعت أنت فساعدتها على النهوض وأنت تحاول أن تضحك أما هي فأسرعت إلى الباب واختفت خلفه ولم أراها بعد ذلك.

هل أصف لك يا صديقي تلك الليلة السوداء لقد خرجت فلاح لي كل ما حولي غريبًا عني بدا لي عمود الكهرباء يمتد إلى اللانهاية ورقصت أمامي واجهات المخازن وأخذت أنقل خطاي بصعوبة كأني أنتشل خطاي من طين لزج وسبح رأسي في دوامة فتمثلت أشباحًا عدة ترقص حولي وتدنو وتدنو حتى لأحس بلفح أنفاسها على وجهي ثم تنشق فجأة عن امرأة عارية تمامًا كما خلقتها السماء فأمسكت رأسي بعنف وعصرته حتى حسبت أن دماغي قد سال منه. أتعرف يا صديقي من هي المرأة العارية التي تمثلتها ضمن هذه الدوامة؟.إنها أختك نعم أختك الطاهرة الجميلة الوديعة وتبين لي وقد اتسعت عيوني دهشة وذعرًا أنني أشتهيها كالحيوان وبحثت في خيالي المكدود عن شيء سام، شيء مما يتحدث عنه المحبون من تصعيد في الحب وسمو عن الجسد ولصوق بالروح والحب العذري ولكني لم أجد شيئًا سوى خوان مخيف وسطه ساقان نديتان مرتعشتان كذبالة الخطيئة..

لماذا أخادع نفسي أيها الصديق أنا أشتهيها هذه الأنثى المتفجرة وأود أن.. أمتلكها. أحس بها رغبة هائلة مدمرة ادلح تحتها كحمار أعرج أثقل ظهره حمل من الكلس المبلول.

-٥-

كيف تريدني يا صديقي الحبيب أن أظهر أمامك بعد ذلك؟.أنت شديد الذكاء ولن أنسى تلك الليلة التي ودعتني فيها والريب يعصف في وجهك وأنا أسألك عن أختك وعن سبب احتجابها عنا.. ولا شك أن وجهي بدا غريبًا وأنا أسألك وكان جوابك مرتبكًا ثم قاسيًا فأدركت توًا أنك قد عرفت وأدركت أنني أحببت أختك فذلك طبيعي ومن المؤكد أنه ظهر على وجهي دلائل أخرى حيوانية غير الحب الطاهر العفيف ولأنني أيضًا لم أعد احترمك وأقدرك إلا لشيء واحد وهو أنك أخوها..

ولقد كنت تحس بذلك حتمًا وكنت تألم له ويظهر أثر هذا العذاب الصامت على صفحات وجهك النبيل لقد كنت أنظر إليك وفي عيني تنتصب الساقان النديتان المرتعشتان كأنك كنت وجدت فقط لتذكرني بها.. فأحس بالخجل وأتوارى عنك دون أن أحييك...

وفي هذا اليوم جئت مبكرًا إلى الجامعة وشعرت بعينين تراقبانني من بعيد فألتفت لأجدك وقد استندت إلى العمود البني اللون الذي ملأته خربشة الطباشير وبضعة إعلانات تنبئ عن ظهور مجلة جديدة وفي فمك سيجارة وفي عينيك توسل وفي جنبك تلهف لأن تعيد المياه إلى مجاريها.. ووقفت أمامك لحظة وتمنيت أن أتقدم إليك فألقي برأسي على كتفك وأسألك الغفران وأنا أبكي وأبكي حتى أشعر أن دموعي قد غسلت أفكاري الدنسة ولكنني تذكرت توًا يا إلهي لا شيء لا شيء سوى الساقين النديتين المرتعشتين كذبالة الخطيئة..

شعرت بالدمع يجول في عينيك ثم راقبتك وأنت تدور بيأس وتسير بعيدًا بعيدًا حتى تغيبك عني كوكبة من الطلاب والطالبات وأحسست أنني فقدتك وفقدتك إلى الأبد..

استدرت وأنا أشعر بمغص حاد مؤلم وخيل إلي أنني أتلاشى حتى اختلطت بالتراب واستقبلت أول زاوية لأذرف فيها دمعة مهما تكن فإنها أطهر دمعة ذرفتها في حياتي..

يا صديقي الحبيب قل عني إنني لئيم وفاجر وجبان، فقد يكون ذلك وقد لا يكون ولكن المهم أنني أعتقد أنني لئيم وأنني فاجر وأنني جبان وأنني قد استحققت عن جدارة أوسمة الشيطان الثلاثة.

* * *

الخيط المشدود

«مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة،
والسيول لا تغمرها. إن أعطى الإنسان كل
ثروة بيته بدل المحبة تحتقر احتقارًا»

نشيد الإنشاد: الإصحاح الثامن

- تفيه عليك... يا كلب!!

وغار المقعد به، واندلق دمه على رأسه كله دفعة واحدة...كيف؟ كيف حدث ذلك، إنه لا يصدق ولكنه حصل.. واللّه العظيم حصل هكذا كان الموقف بكل بشاعته وقذارته، ما هي الكلمة التي أشعلت البارود؟.. إنه لا يتذكر تمامًا، ليستعرض الجلسة جيدًا... ورن شيء بعيد واندفعت صفارة قاطرة نحو أذنيه متسللة من شقوق باب غرفته المتطاول... لعنة اللّه على المشاحنات... هو جالس كما يجلس الناس، يتكلم كما يتكلم الناس إلى جانبه أخوه عثمان، إنه يذكر وجهه الذي يشبه قطعة البندورة الفجة بجبهته العريضة وقد نفر في أواسطها عرق الغضب الذي يتناهى صعدًا حتى يختفي وراء غابة لامعة من شعره الكثيف، وأصوات لغط متشابكة، وجوه حمر وأفواه متحركة حتى الخادمة العجوز التي تحتل فمها تثاؤبة خالدة كانت مطبقة فمها بعنف.

- تفيه عليك يا كلب.

نعم قالها أبوه، كيف يصبر؟ كيف. والآن ماذا بقي من ألبسته البذلة البنية، وتناولها بعصبية ثم دفعها في الحقيبة المنتفخة القديمة دون أن يعبأ بالمسمار الصغير الذي اعترض يده تاركًا عليها خطًا دقيقًا أحمر، والجوارب، وأمسك بيده زوجًا حريريًا أعده لمناسبة العيد ووضعه قسرًا في زاوية الحقيبة الممتلئة. لم يبق شيء... وتلفت حوله مستطلعًا: طبعًا لن يأخذ الكتب إنها شيء ثقيل، وهو لم يفكر حتى في مصيرها، وأطبق الحقيبة بصعوبة وفكر بأن آخر ترام نزل إلى المدينة قد مضى عليه أكثر من ساعة لا بأس سيذهب ماشيًا بحمله الثقيل وسيثبت للعالم بأجمعه أنه رجل يأبى أن يسكت على الإهانة ولكنه سينتقم انتقامًا مريعًا فظيعًا... وذكرته هذه الكلمة بالأولاد الصغار والمراهقين حين يعلقون على أفلام (الكوى بوي) ولكنه لم يجد غيرها...

وانتصب واقفًا وصدره يتقد وقطرات متصلة تنزلق على لحمه، والهواء قاس مزعج، والذباب يطن في الغرفة طنًا متواصلاً ففرك كفيه وهو يدمدم:

- سأنتقم ولو بعد عشرين سنة.

وتذكر رواية من روايات الجيب قرأها، ينتقم البطل فيها بعد ثلاثين سنة وذكر أيضًا مونت كريستوا وصرخ في أعماقه:

لماذا أجلس وأحقد... العظماء كلهم تفرقوا عن أهلهم بسبب أفكارهم.. وهو.. ألا يعيد نفسه لشهرة وخلود كهؤلاء العظماء فلم يتردد؟ ولكن من الذي يقول إنه متردد، وهز الحقيبة بعنف وصر على أسنانه ونظر في المرآة فأعجبه حنكه وقد برز من وراء جلدة خده يدل على غضبه وصلابته وعزمه.. تفيه عليك يا كلب؟ متى كان يتقبل مثلها؟.

هذا الهرب ينقذه من أشياء عدة: للحلاق عنده ثلاثون ليرة بالتمام، سيتخلص من لثغته الشنيعة، وضحكته التي يبرز منها فراغ نابه المقلوع،

وثرثرته وكلامه المعاد: أهلاً بالأثتاذ ثالم بك كيف الثحة احك لنا عن حرب كوريا. ثم من ماذا؟ من الدخنجي اللعين الذي تجرأ وطالبه بالمبلغ.

- واللّه لو لم أكن معسورًا لما طالبتك... نفس النغمة للدائنين الخنازير. وللخضري اثنتا عشرة ليرة ثمن قهوة وشاي وسكر فهو - بلا مؤاخذة - يحب الاستقلال في البيت حتى بثمن القهوة...أرقام محترمة لا بأس بها سيلقيها وراء ظهره كتتكة من الزبالة...وتصور الدائنين وهم يطرقون الباب يطلبونه وتصور وجه أبيه وأنفه المعقوف وقد تطاول شارباه الأهدلان وحول عينيه الصغيرتين غضون كثيرة تزداد عمقها.

- نعم!!

- سالم!!

- يا أخي أفهمتك مئة مرة ليس هنا، ليس هنا لقد ذهب، لا أعرف أين هو!؟. لا أعرف!..

نعم سيتألم... ولِمَ لا؟ سيعض الندم جسمه ووجهه إنه مستحق.. لم يحافظ على ابنه كما يحافظ الآباء!!.

وعوت صفارة القطار من جديد واصطدمت ذبابة بالمرآة محدثة طنة داكنة بينما كانت رائحة الزيزفون تنبعث خفيفة من النافذة تذكره بالضفادع التي تنق من بعيد...

البيت الآن نائم كله... ليناموا إلى الأبد، كم يتمنى أن يدخل غرفهم الآن واحدًا واحدًا وأن يحدق في وجوههم وأن يستمتع برعبهم قبل أن تقبض يداه على أعناقهم.

إنه الآن حقير عندهم... وتذكرهم واحدًا واحدًا، أخوه عثمان إلى يمينه وممدوح يجلس قبالته يداعب ابنه العليل القذر - فما عني يومًا أن يلبسه صديرية بيضاء - وامرأة أخيه تساير بالكلام بنت عمه منيرة ذات القذال

المدور والبسمة المتحدية الدائمة بينما تحاول أن تبعد بنتها الكبيرة وهي تطلب منها فرنكًا بإلحاح.. أما أبوه فقد كان يتصدر المكان لابسًا طاقية بيضاء وقميصًا خفيفًا من الفانيلا وقد لمع أنفه المعقوف كقبضة الحمالين الحديدية.

لماذا ناقش وبدأ الحديث؟ إنهم لم يقنعوا أبدًا هو بالشرق وهم بالغرب، تذكر أخاه عثمان وهو يقلب رأسه.

- يا سلام على اللخبطة... يا عيني اسمع يا بابا واحد منا معه مئة ألف ليرة جناها بالجد والتعب وعرق الجبين يساويه مع واحد ليس معـــه فرنك يشتري به بصلة.

واحتد هو وأخذ يتكلم.

- لأضرب لكم مثلاً ابن الجاماتي كان.......

ويقول أبوه:

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا.

- إن العباقرة والأكفاء مهملون لأن...

- بدون حيونه، اللّه هو الذي قسم الحظوظ بين الناس، الدنيا هكذا، بدون اعتراض على الخالق.. الدنيا رمضان.

- كل شيء نلصقه بالخالق فإن......

ويقول أبوه بعد أن استمع إليه وهو ممتقع الوجه.

- اخرس بدون علك وكلام فارغ... بدون كفر واعتراض.. استغفر اللّه العظيم اللهم إني متبرئ من هذا الكلام.

وقال أخوه ممدوح وهو يتمخض كدجاجة تبيض:

- يا حبيبي على العلم الذي يوصل إلى الزندقة.

- يا ليتنا لم نضعك بالجامعة.

– اللهم احفظ علينا ديننا يأتي قوم في آخر الزمان...

فيقاطعه:

– مسكين هذا الزمن لم يفسد وإنما فسد أهله.

ويتشعب الحديث ويجيء ذكر خالد بن الوليد فيقول أبوه متحديًا:

– خالد بن الوليد قائد لم تنجب الدنيا مثله ولن تنجب.

– على مهلك على مهلك يا بابا لا تبالغ.. يجب أن لا نتعصب خالد قائد عظيم حقًا ولكن هناك آخرون عظام أيضًا.

ونظر إلى بسمة بنت عمه المتحدية الساخرة ونكت بظفره قطن المقعد، لماذا تنظر إليه هذه المخلوقة الكريهة؟ وتزداد الضجة حوله وتتحرك بضع مقاعد ويصفر القطار وينفصد العرق من جبينه ويصيح:

– هناك كثيرون قد يفوقونه نابليون رومل هانيبال الاسكندر.

نعم إنه يذكر جيدًا أن هذه الكلمة كانت هي الحجر الذي قذفه في البحيرة ورأى وجه أبيه وهو يحتقن.

– تفيه عليك يا كلب والواقع أن الدهشة التي أصابته هي التي شغلته عن إزالة نثار البصاق من على كمه ووجهه ويديه.

تفيه عليك يا كافر، تفيه عليك يا خنزير، يا زنديق يا ملحد تفيه.. تفيه.. تفيه.

* * *

لا كرامة لنبي في وطنه.. لماذا باللّه يبقى في البيت بعد هذا؟ وأي رابط يربطه بعد الآن؟

أبوه؟ وقد أهانه أمام الملأ.. صحيح أنه يؤمن بعبقرية خالد بن الوليد ولكن اندفاعه كان لرد التحدي، أما أخوه الأكبر فقد ترك ابنه وشارك أباه السب وهو يلوي شدقه.

-... عليك وعلى علمك وسحنتك.

أما أختاه اللتان أوصته أمه قبل أن تموت بهما.. وتذكرأمه في تلك اللحظة بوجهها الساذج المدور وعينيها اللتين تقبع فيهما دهشة دائمة والبقعتين الحمراويتين على خدها الطري..

ترى لو كانت الآن في البيت أكان يغادره؟ ولم يدر لماذا أحس برغبة في أن ينسى هذه الذكرى.

هذه الأم التي كانت تعبده في صمت، والتي كان دائمًا يسمع في الليل تنفسها الذي يقطعه سعال خفيف رتيب.. وتسمع في السكون كأنه يريد أن يبلغ أذنيه تنفسها في الفراغ العميق الذي يلفه، كما كان هناك شيء دائم يربطه بالحياة ويجعله يحس بأنه يحيا.. تنفس يقطعه سعال.. تنفس يقطعه سعال، ويشعر أنه يخترق حيطان غرفته الملاصقة في موسيقى رتيبة حيوانية وعند ذلك فقط يشعر أنه في الفراش وأن رجليه باردتان فيحركهما بعنف حتى تدفأ.. ويروح يعدد أحداث يومه. تنفس يقطعه سعال.. تنفس يقطعه سعال.. تلك كانت حركة حياته كأنه رجل ينظر إلى الساعة ويحصي فيها الوقت أو إلى تقويم ينظر فيه إلى أيام العطل كموظف قديم.. تنفس يقطعه سعال.. تنفس يقطعه سعال..

هذا هو النسغ الذي يجري في دمه.. والخيط الذي يشده إلى عجلة الزحام. وأصغى من جديد.. يقيناً لن يسمع سوى صوت شخير أبيه، لماذا لا يكون هذا الشخير كتنفس أمه الذي يقطعه السعال؟

ولكنه لا يحس به إلا رتيبًا كصوت ساعة دقاقة تعود على دقاتها العالية فلا يحس بوجودها. شخير يساعده على أن ينسى أنه حي يحس بالحياة في كل خلية في بدنه.. ولكن الشخير اليوم غير مسموع.. لعل أباه جالس يقرأ القرآن حتى السحور؟. فمن عاداته في بعض الأحيان أن يفعل ذلك.

الآن فقط شعر بالفراغ لموتها. لو تعود الآن.. في هذه الدقيقة إلى الحياة.. تتفس يقطعه سعال.. ويحس بخلاياه كلها تتحرك كموسيقى أبدية.. فيضمها إلى صدره بعنف ثم يفلتها ويحترق كصوفي مات بعد لحظة من لحظات الكشف، لقد كان يعرف أنها ستموت حتمًا.. وكان ذلك لا يخيفه، بل لعله يتوقعه ليظفر بشيء جديد مدهش يعكر حياته ويهز خلاياه.

هذه الأم المعروفة التي ظلت إلى النفس الأخير تحدق في السقف بعينيها المدورتين اللتين تقبع فيهما دهشة دائمة.. رافضة أية مساعدة مالئة الفضاء مع ذلك بسعالها وآهاتها، كانوا وقوفـــــاً حولها كأنهم أمام كعكة كبيرة فيها شموع كثيرة.. كثيرة جدًا، ينتظرون بخوف بابًا مجهولاً يفتح في أحد الأركان فتهب معه ريح شديدة تطفئ هذه الشموع كلها بهبة واحدة فتسرع أخواته إلى البكاء وإشعال النور القوي الذي يشعر أنه لن يبلغه.. بل سيبقى دائمًا يتمسح بالتنفس الذي يقطعه السعال تمسح الطائف بالحرم فتتقيض يده عليه تقيض يد المحتضر على حصى الأرض.. ثم يحاول أن يهرب بعيدًا، كان كذلك الرجل المحبوس في سرداب مظلم والذي يجاهد للخلاص من ظلامه حتى لاحت له ثغرة فيها ضوء اندفع إليها كما تندفع النباتات نحو نور الشمس رغم علمه بأن هذا النور قد ينطوي على خطر أفظع من خطر الظلام الدائم.

كان يقف دائمًا في غرفته الملاصقة لغرفتها وشخير أبيه في السرير الآخر يقطع السعال المتصل وصوت نافورة الماء الرتيب يتصاعد إلى أذنه وسط الظلام المخيم...

كان ينتظر انقطاع السعال ويحبس نفسه لحظات كلما حبكت السعلة على الحنجرة الضعيفة..

لعله كان ينتظر أن ينقطع إلى الأبد؟ لعله كان يفكر كيف يعمل حين ينقطع، لعله فكر كثيرًا هل سيحزن أم لا؟ ولكن السعال يتصل، ونافورة المياه تبعث خريرها الباهت البارد والليل العميق البعيد كان يتثاءب في ملل.

ويندفع إليها في تلك الأحوال ويقف أمامها ينظر إلى عينيها الحمراوين ووجهها المحتقن، وكانت ترفع رأسها إليه في نظرة لا يستطيع تصورها إلا ويرتعش.. ثم تبتسم له وينقطع سعالها بعض الشيء لتعتصر من الحنجرة الرخوة هذه الكلمة المبلولة الندية التي يسمعها تدغدغ وجهه بشعر ناعم أشقر.

- هل أزعجتك يا بني؟

- أبدًا يا أم.

ويرجع غير شاعر بدموعه إلا حين يحس بطعم الملح في فمه وبألم الحرقة في عينيه. وفي بعض الأحيان كان يغضب من سعالها المتصل، ويلعن الحياة والكون، هل قدر عليه أن يقضي دراسته أمام رنّة رتيبة تذكره دومًا في الموت؟ ولكنه لن ينسى أبدًا ذلك اليوم الذي أراد أن ينتقل فيه من غرفته ليستعد للفحص وسط الهدوء المخيم وعندما حبكت عليها السعلة في الليل أسرع إليها، ولكنه علم للحال أنها قد علمت بعزمه، كأن في عينيها تأنيب صامت قطعه سعالها وعندما أراد أن يساعدها لإسنادها على المخدة ردته بلطف وهي تقول:

- أنا مرتاحة يا ابني.. أنا مرتاحة.. لا تتعب نفسك.

- يا أم...

وعندما انكب على يدها ووجهها يبللها بدموعه كانت هي الأخرى تبكي وتضم رأسه ذا الشعر الملبد إلى صدرها وتقبله في حنو وعطف.

كم يتمنى الآن أن يسمع رنتها الرتيبة، وينظر في عينيها الحمراوين الدهشتين.. شد ما أساء إليها في حياتها، شد ما نالها على يدي ولدها المدلل من عذاب!..

لقد كان أبوه يثور كلما دافعت عنه، وكان هو يختبئ وراءها لتتلقى عنه بعض الضربات الطائشة من عصا أبيه، وكانت لا تستطيع أن تعيش بدونه

لحظة واحدة، ليته يستطيع الآن أن يضع رأسه الواهي على حجرها وينام.. ينام إلى الأبد.. إنه متعب وأعصابه منهكة.. ليته يحس بشفتيها الدافئتين على صفحة خده.. إنه في حاجة إلى المساعدة إلى العطف، إلى الحنان، إلى مشاركة الآخرين في البكاء إلى فعل أسطورة بطولة جمعية حقه، إنه مفرد، وحيد،كحمار أجرب، يريد أن يسمع كلمة تؤاسيه، ليت أختيه جاءتا كالعادة إلى غرفته لتستعيرا مجلة جديدة.. إذن لشاهدتاه محمر العيون يريد أن يبكي.. هاتان الأختان اللتان كانتا دائمًا في صراع متصل مع أمهما تلك التي أوصته بهما.. لقد كانتا تتذمران من قعدتها الدائمة في سريرها الذي يئن تحت السعال المتصل وقد سمعهما مرة خلسة تتحدثان من وراء الشباك الخشبي الهرم والجو صاف والنسيم يهدهد الأنفاس ورائحة النسيم تفعم الأنوف والسنونو يحتل عرش السماء، وكانت اعتدال منحنية فوق صديرية صوف تشغل فيها الصنارة النايلون:

- إن الناس لن يتزوجوا أية واحدة منا.
- طبعًا ما دامت هذه الكركعة فوق التخت.
- إنهم يشيعون عنا إننا مصابتان بنفس المرض.
- العمى في هذه الحياة.

وتختنق أنفاسه برائحة النسيم ويصم أذنيه صياح السنونو الراكض ويختبيء وراء الدرج الخشبي الأحمر ذي الرائحة الكريهة وهو يمسح عن رأسه خيط العنكبوت الذي التصق في قرنة الخشب ويكاد يقع على الأرض.

- ليتها تموت.
- أعوذ باللّه. لا تقولي هكذا.
- العمى في هذه الحياة.

وفي الليل عندما يسمع تذمرهما يدفن رأسه بين يديه ويتشاغل بالقراءة وهو يتصور وجه أمه الأليم عندما تقع من يديهما الواهيتين عندما يصلحان الفراش، وكان يعرف الصرخة المكتومة فيسرع ليرجعها إلى السرير في لامبالاة من اعتاد العمل، وكان يحاول أن يخرج سريعًا حتى لا يسمع كلمتها التي كانت ترددها:

- اللّه يرضى عليك يا ابني.

وعندئذ.. وعندئذ فقط كان يشعر بحاجة لأن يبصق على نفسه لقد أوصته أمه بأختيه، ولكنه لم يستطع أن يصبر على إهمالهما له بهذه الطريقة.. إنه يذكر أنه نبه مرة أخته اعتدال التي هي أصغر منه بسنتين إلى أن رطلين من البندورة شيء كثير لطعامهم فقالت له فورًا وقد وضعت يدها على خصرها:

- ومتى اطعمناكم الطبخة أكثر من يومين؟

فقال محتدًا : الطباخ روحه والفاصوليا وكثير.

فقالت مفحمة: إذا لم يعجبك ذلك فاذهب إلى بيت آخر.

وعندما جاء في المساء انتظر منها أن تعتذر إليه ولكنه فوجيء حينما قالت له:

- لن أضعها لك واطئة أبدًا.. أبدًا.. لن تنال مني، لن تذلني ما دام أبوك حيًا.

وكانت منتصبة يلهف وجهها اعتداء كئيب، وثوبها الأحمر القاني يتهزهز ظله على المدخنة التي تقلل هامتها أمطار الأمس، وانتابه ذعر غاضب.. ما دام أبي حيًا... أحس أنه مخطئ رغم إيمانه بحقه.. ما دام أبي حيًا.. وحين أدار وجهه ليخفي خجله وذعره كان جسده يرتجف مع البركة الصغيرة من ماء المطر التي زردتها الريح الشرقية المشبعة برائحة دخان

المحطة القريبة. ماذا يفعل بهاتين الأختين؟ دائمًا تنتصران عليه، وكلما غضب منهما يومًا وجد في وجه أبيه الكامد صدى غضبه، وعندما كان يحتد ويثور في وجهها كانت دمعة بسيطة من العيون البراقة كافية لأن تجعله يحس بالخزي والعار ويشعر بأنه يريد أن يعتذر وكان يسمع قول أخته عائدة .

- آه آه انظر إلى أخوات العالم دائمًا يشيلوهن على الراحات ماذا عملت يا ربي حتى أتعذب هكذا مع أخوتي؟

ولا يجد أمام هذا الكلام سوى أن يهرب وينزلق، حتى يتمنى أن تبتلعه بالوعة المطبخ العتيق. ولن ينسى تلك الورقة الساذجة عندما أخبرهما بعنف أنهما أهملتا تنظيف غرفته شهرًا كاملاً ولما عاد في المساء وجد الغرفة مرتبة وعلى الطاولة كانت ورقة صغيرة كتب عليها هذه الكلمات بالحرف:

(إلى أخي سالم في يوم الثلاثاء ٣٠ تشرين ثاني:

لقد نظفنا غرفتكم لأنكم تنكر المعروف وإن نكرتم فإن الله شاهد)

اعتدال

(إلى أخي سالم في يوم الثلاثاء ٣٠ تشرين ثاني:

إنك من النكارين وأنظف أنا كل يوم الغرفة وتقول لي يا عائدة كل شهر تنظف الغرفة، أنت لست حناين لنا.. آه، آه، إن اللّه أحن من الجميع).

عائدة

وهو يذكر أن هذه الكلمات على سذاجتها وامتلائها بالأخطاء المضحكة استطاعت أن ترسل إلى عينيه دمعة صادقة، ما أشد حاجته إلى أن يقبلهما الآن قبل أن يذهب أليس جميلاً أن يودع الجميع...وتصاعد إليه صوت سيارة شحن بعيدة تشق الطريق، إنه لا يسمع الشخير، ولا يسمع أبدًا أية حركة من غرفة أبيه...في الغرفة الأخرى، التي يفصل بينها وبين غرفته حائط، يجلس أبوه الذي أهانه. غامضـــــًا حتى ليشعر أنه يريد أن يكتشف نفسه الملئية

بالأسرار... كم يشعر بالحرج دائمًا عندما يجلسان معًا حتى لا يعرف كيف يتكلم، فينتهز أول فرصة للهرب... لماذا خلق أبوه هكذا جامدًا لا يعرف كيف يحب... إنه يعرف أنه من النوع الذي يكتم عواطفه. لم يره طوال عمره يبكي إلا عندما تقرأ عليه قصص دينية مؤثرة بل كان دومًا يحمل وراء عينيه العميقتين أسراره الخفية، كم يتمنى أن يربت أبوه على كتفه ذات يوم أو أن يمسد له شعره أو يدعه يقبل يده على الأقل ولا يخيبه دومـــــًا بإجابته الدائمة:

- مسامح.

آه لو يفتح هذا اللغز الصامت.. تمنى أن يسافر حتى يراسله ليعرف كيف يكتب وكان مجرد تصوره قراءة كتاب من أبيه يهزه ويرعشه ويملأه بالفضول ماذا يكتب؟ وأي العواطف يكن له.. ولذلك كان في أقصى درجات السعادة حينما وجد مرة على الطاولة ورقة صغيرة بخط أبيه.

لم يصدق عينيه في بادئ الأمر ولكنه يعرف خط أبيه جيدًا ذلك الخط الجميل الذي تكثر فيه الأغلاط اللغوية والإملائية.. كان قد دخن سيجارته في غرفته ولما عاد من الجامعة وجد هذه الورقة وحينما أمسك بها أحس كأنه أمام أبيه.

(إلى ابني سالم أفندي حفظه اللّه:

شرب الدخان ممنوع في هذه الغرفة خوفاً من الخطر حيث كله أوراق وما يشبه ذلك أو يكون الإنسان حاتط سيكاره ويغفل على غفله يحصل شيء من روح نحنو والبيت لا سمح اللّه إياكم والدخان أيها الشباب المسقف).

كم كان نبيلاً وطريفاً هذا الكتاب الخليط من العامية والعربية لا شك أن أباه أراد أن يداعبه وكم ضحك طويلاً عندما وجده قد شطب كلمة المسكف بشكل يجعلها ظاهرة ووضع عنها المسقف.. كم يكون أبوه ظريفاً رائعًا في بعض الأحيان..ولكن اليوم لماذا فعل ذلك لماذا؟.

تفيه عليك يا كلب؟ شيء غير محتمل.

وتلفت حواليه وصوت النافورة يتصاعد إليه مخترقاً الصمت العميق، وخيل إليه أن صوت موسيقى بعيدة غامضة تتسرب إليه تحملها ريح الجنوب ونظر إلى الحقيبة بشيء من التعب، كم يتمنى أن ينام نومـــــاً طويلاً سنة مثلاً أو على الأقل يكون كالحيوانات التي تنام طوال الشتاء نومـــــاً ثقيلاً فلا تحس بشيء.

الآن.. فقط سمع تقلب أبيه على السرير ثم فجأة أحس برعب قاتل قد فتح باب غرفة أبيه، وها هو صوت خطواته يدنو من غرفته.. لو يستطيع أن يبلغ زر الكهرباء فيطفئه، ولكن الباب قرع ثم فتح بهدوء، وها هوذا أبوه منتصب أمامه وعيونه حمراء من السهر، وطاقيته البيضاء متهدلة على جبينه وأمارات تعب شديد ترتسم على شاربيه وفكه وحول عينيه وخيل لسالم أن دهرًا طويلاً مضى وأبوه ينقل بصره بينه وبين الحقيبة ثم يقول بهدوء:

- ألم تنم بعد يا بني؟

بماذا يجب؟ لو أنه اعتذر لو أنه قدم أي وقود لغضبه. ولكن هـــذه الكلمة المتجاهلة...

لأجل صحتك يا بني يجب أن تنام جيدًا حتى تستطيع القراءة...

- صحيح...

ألم يجد غير هذه الكلمة البلهاء السخيفة.. صحيح.. لوأنه سكت. لو أنه فعل أي شيء لو تذكر تفيه عليك يا كلب، ولكنه لم يجد غير هذه الكلمة... صحيح يا له من طفل غبي جبان.

- لقد أقلقني طول الوقت ضوء غرفتك فخفت أن تكون مريضـــــاً أحس بأنه يتنفس، أحس بالارتياح... فرفع رأسه.

- إني بخير يا أبي.

- نم يا بني أرح جسمك.

- لا أستطيع النوم.. إني مصاب بالأرق سأسهر قليلاً، وتناهى إليه صوت أبيه عميقًا مبلولاً كأنه صوت أمه حتى لقد ظن أنه يسمع معه السعلة الرتيبة.

- كما تشاء! هل لك أن توقظني على السحور؟ لم يبق لي سوى ساعة.. لقد ربطت الساعة، ولكني قد لا أفيق.. تصبح على خير يا ابني.

وأغلق الباب وابتعدت خطواته ثم سمع سالم صوت السرير وهو يطقطق، ومضت مدة، طويلة جدًا،حتى سمع صوت الشخير.

ولكنه أحس بأن ما يسمعه ليس هو الشخير الذي يسمعه كل ليلة.. خيّل إليه أنه كان تنفساً عميقاً تقطعه سعلة..

وشعر سالم بأن خلاياه تتحرك من جديد وتبدأ الحياة. وعندما أغمض عينيه لينام لم يكن يسمع سوى ذلك الصوت المتقطع.. صوت التنفس العميق الذي يقطعه السعال المتصل.. الرتيب.

* * *

سريري الذي لا يئن

هاأنذا وحدي من جديد..

مددت يدي وانتزعت السيجارة الأخيرة، وأخذت أدخن باستغراق وأتأمل الغرفة حولي.. هذا الضوء الخفيف الكئيب،الذي لم أتعوده، يجعلني أفكر جدياً بأن أغمض عيني وأحاول أن أنام.. ولكني شعرت بأنه يجب أن أفكر، وأن أفكر تفكيرًا عميقاً فيما انتهيت إليه، ياالله!! ما جدوى كل ما فعلته إذا كنت لم أتعود، أن أغضي بصري عن هذا السقف الملون العجيب،وأن لا أشعر أنني أنام على سرير يئن تحتي كلما قمت بأقل حركة ممكنة؟كانت موسيقى راقصة بعيدة تتناثر إلى سمعي من نادي الشرق الذي قالوا لي أن عينه لا تنام قبل زقاء ديك.. ولكني مع ذلك كنت أحس بأنني حزين.. بل بائس..

هذه الكلمة التي فقدت مدلولها تذكرني دائماً بنفسي.

بائس؟.. وماذا بعد؟ هل أطلب لنفسي رثاء أحد؟

ها هنا في الغرف حولي، أنفاس تتردد بانتظام ورتابة، تذكرني بالإنسان العجيب.. رئات تتمدد وتتكمش وتحيا، وأدمغة ترى الآن، مئات الأشياء الملونة المجنحة التي تنطفئ في الصباح مع لذعة الشمس.

لقد نظروا إلي بريبة في بادئ الأمر، وتفحصني الأولاد في قلق، وانتحى الأب بي ناحية، وأخبرني وهو يسعل ويحاول أن لا يحمر وجهه، بأن بيته شريف وأنه يريد أن يبقى شريفًا.. ثم أفسح لي الطريق ليدلني على الغرفة.

لا بأس فأنا أعبد الأطفال لدرجة الجنون.. وأنا أعلم تمامـــــاً، بأن أيامـــــاً قليلة، ستجعل من هذه الوجوه الهزيلة الساذجة، تتهلل عندما يظهر شبحي على الباب، وسأعقد تلك الصداقة التي أعرف يقيناً أنها لن تتعدى ذلك اليوم، الذي أحمل فيه حقائبي وألوح بيدي مودعـــــاً، وأنا أحاول أن أبدو رومانتيكياً حقاً.

أخذت أتأمل الغرفة حولي والموسيقى البعيدة لا تزال تتصاعد مع أغنية بلدية من مذياع مجاور.. هل سأبقى في هذه الغرفة حقاً؟ هل سأنام وأستيقظ، أغسل وجهي ويدي، وأمشط شعري، وآكل وأكتب.. مع هذه الجدران التي شهدت قبلي ألف وجه غريب وهي ساكنة محدقة بعينيها البلهاوين الكسولتين..

قلت لهم إني سأشاهد غرفتي قبل أن أرحل، فسكتوا جميعاً، وقالت أختي مديحة: إنه ليس فيها أحد، فاندفعت أرتقي السلم إليها.. آه يا غرفتي العزيزة.. يا للموجة الباردة الرطبة التي أحسستها على وجهي وأنا أراك فارغة!! تحتضنين بضع أوراق متناثرة هنا وهناك، في فوضى وإهمال، وجدرانك التي كانت فاصلة، أصبحت أشد ميلاً إلى القتامة..

هنا كانت الطاولة.. وهناك السرير الخشبي الذي كان لا يئن تحتي أبدًا.. وفي الزاوية، كنت أمدد الكتب، وهناك.. كنت أضع وجهي على بلاطك الأملس في أماسي الصيف، وأحلم بألف حياة حرة عادلة..

أبدًا يا غرفتي العزيزة.. أبدًا لن تقوم صداقة بعد، بيني وبين أية غرفة أخرى في العالم، ولسوف أذكر. إلى الأبد تلك الجدران التي كانت تقف صامدة في وجه الشتاء، تردها عني بصلابة ووقار.

ليست غرفتي فقط هي التي ودعتني!! لقد شعرت بالبيت الفسيح كله يعتريه وجوم وصمت... الأرض.. والياسمينة.. والفلة التي وضعت لها السماد منذ يومين.. وحتى القطتان الصغيرتان اللتان كانتا لا تفتران

تتصارعان وتتطان.. بدتا هادئتين.. وأعينهما المدورة الجميلة مثبتة على شيء مجهول.

كم من الأشياء التي تبدو بسيطة سريعة.. لا تنفك تصبح معقدة متشابكة.. لقد كنت أريد أن ينتهي الأمر بهدوء.. ولقد هيأتُ لذلك كل شيء ولكنهما.. مع ذلك، أخذتا تبكيان كثيرًا.

أقسم أنني حاولت أن ألم كتبي بدون اكتراث، وأن أقسر نفسي على الثبات، ولكن هذه الدموع.. كيف أستطيع أن أقاوم؟ الدموع.. ما أشد ابتذال هذه الكلمة!!. ولكنها، مع ذلك، تلخص حياتنا الشقية.

أدرت وجهي حتى لا أرى..ولكن علام المقاومة؟ أخي.. أخي الصامت دائماً، أخذ يبكي أيضاً.

خيل إلي أن التحدث عن أشياء كثيرة تافهة، قد يجعل من العبث التفكير في الحزن.. فأخذت أثرثر، وإن كان التأثر يعلو وجهي.. فتحدثت عن التفاني في سبيل المبدأ، وأن من الواجب أن نضحي بأشياء عظيمة كي نصل إلى غايتنا.. وقلت أن من الطبيعي أن أنفصل ما دام هذا الاختلاف الهائل يسمم حياتنا، ويجعلها عشرين حياة في سجن مظلم رطب.و لكنهم، مع ذلك، أخذوا يبكون كثيرًا.

انقطعت الموسيقى الآن، وخيل إلي أن الضوء اشتد قليلاً.. ولا تزال الأنفاس المختلطة مع سعلة ضعيفة وبكاء طفل صغير تصل إلى سمعي.. لا بأس، ليئن هذا السرير تحتي ما شاء، فإن كنت لا أستطيع أن أدخن سيجارة أخرى فلا أقل من أن أغسل وجهي الملتهب بالماء البارد.

قلت لهم:

- لا تنسوا فرشاة الأسنان!!

فقالت مديحة بصوت خافت:

-لقد وضعناها!!.

وقالت سعاد، أختي الصغيرة، وأنفها اللطيف يلمع في النور:

- لقد كوينا لك كل ثيابك.. وأصلحنا لك الجوارب.. أما القمصان، ثم سكتت فجأة واستأنفت بكاءها..

بدت الأمور معقدة حقاً.. وكانت تختلط في كثير من السرعة وكنت أحس بألم شديد في معدتي.

-لا تنسوا شيئاً.. أرجوكم.. لاأريد أن أرجع مرة أخرى!

قالت مديحة:

-عندما تتسخ ثيابك.. ابعثها إلي.. أرجوك يا أخي

وقالت سعاد:

-من أين ستأكل يا مسكين؟

- من أين آكل؟ هل فكرت بهذا حقاً.. الأكل.. الكي.. الثياب.. القمصان القذرة.. هذه الأشياء التافهة لم أفكر فيها مطلقًا.. ولكن لماذا التفكير.. لا يمكن التراجع الآن.

- لماذا.. لماذا فعلت ذلك؟!

قالتها مديحة في شبه صرخة.. لقد وجدت في النهار مئة سبب لتبرير ما فعلت.. أما الآن فقد شعرت بأن أي شيء في العالم لا يوحي بالحماسة.. نعم.. لماذا فعلت ذلك؟

ولم أستطع أن أتصوره إلا وهو يبكي.. لا أعرف كيف حدث ذلك .. لم أر أبي سوى مرات معدودات وهو يبكي، وقت أن ماتت أمي، ووقت أن كنا نقرأ له المعراج وسورة يوسف، وأخذت تطاردني صورته، وقد تدحرجت من عينيه العميقتين، الصغيرتين، دمعتان كبيرتان.. ورغم حاجبيه الكثيفين

اللذين يغطيان عينيه، خيل إلي أنه ينظر إلي في حنان وحب، أواه يا أبي لماذا خلقنا هكذا؟

قلت بهدوء:

- كيف.. هو

فلم يجبني أحد، وتوقف خشيش الأغراض بين يدي أخي وهو يحشر الكتب في الحقيبة، وأعدت بصوت واضح..

- هل نام؟

فأومأت مديحة برأسها وهي تمسح أنفها وفمها بمنديل أبيض مطرز ثم قالت بلهفة:

- هلا حاولت. مرة أخرى؟

- لا يمكن يا حبيبتي.. لقد انتهينا ألا ترين كيف طردني؟

.. أرجو أن يعيش مستريحاً!.

ثم قلت بصوت جاف:

- ليحمي روح أولاده ما شاء من كل الأفكار الجديدة فقد ذهب الغول

قال أخي بصوت عاتب:

- أنت تطرفت كثيرًا يا حامد.. وقالت مديحة:

- لقد كان يجب أن تدعه يعيش في هدوء.

يا أخوتي.. صحيح أنكم بكيتم كثيرًا ولكن ما فائدة ذلك إذا كنتم لا تريدون أن تفهموا؟

لقد وقفتم - كالعادة - جبهة واحدة حتى في ساعة الوداع، عندما لمستم نعمتي القديمة التي تمس معتقداتكم.. هذه الحزمة القديمة البالية من الجنون.. تماماً مثلما كنتم تقفون متحدين أمام الابن الكافر الخطر، الذي كنتم تدعون له

في صلاتكم مبتهلين، ليندمج في هذه المجموعة التافهة من النفوس المتسلسلة للخمول، والتي تعلق كل شيء بإرادة اللّه ومشيئته.. إني أعرفكم! أعرف تماماً وجوهكم الخائفة المترددة حينما أتحدث إليكم، وأنتم تديرونها حولكم في قلق لئلا تضبطوا وأنتم تتحدثون معي.. ليس سهلاً أن تفك أدمغتكم ويعاد تركيبها من جديد.. إن هذا يحتاج إلى وقت طويل، كنت أريد أن أقول لكم أشياء كثيرة مؤثرة.. وأن أقنعكم أن في العالم أناســاً طيبين، بسطاء، مظلومين.. يجب أن نفنى في سبيلهم، صحيح أنكم كنتم في بعض الأحيان تقفون في صفي، عندما أصطدم مع أبيكم، ولكني كنت دائماً في نظركم ذلك الضال، العاق، المطارد.. الذي يحتاج إلى عفو اللّه ورحمته.

قلت لهم وأنا أغالب آلام معدتي وأشعر بحزن مغلق:

– هل.. انتهيتم؟

فلم يرد أحد، وشعرت بالجو مشحوناً بأشياء غامضة حبلى توشك أن تنفجر، فأدرت وجهي للحائط واستعددت للحظة الحاسمة.

– هل تريدون شيئاً.. فهزوا رؤوسهم بالنفي وتشاغل أخي بقضم أظافره.

– لن أراكم كثيرًا، ولكنني سأزوركم حتماً عسى أن يكون ذلك.. فــي السنة القادمة.

كلمة بسيطة، عادية، تجارية،ولكن الجو تحول فجأة فأخذنا نبكي كلنا معاً.. وأخذت أنشج بعنف كأنما أعوض عن كل ما في قلبي من أسى، ثم رفعت الحقيبة، وسرت نحو الباب.. لقد كان من العبث أن أقطع هذا الشيء الحار الذي يحرق وجنتي ويذوب ملحاً في فمي، وشعرت بيد أختي الصغرى سعاد تجذب كمي فأفلت الحقيبة ثم أخذت أعانقهم وأقبلهم..

– سامحوني يا أخواتي سامحوني

ثم هربت نحو الباب وأنا أسمع أختي تشهق.

- ليغفر لك اللّه!!..

ليغفر لي اللّه «لو قالتها في مناسبة أخرى لغضبت.. ولكني في تلك اللحظة، أحسست أنني في حاجة إلى أي شيء، ولو وهم مساعدة..

وعندما اندفعت العربة وسياطها تقرقع على ظهري الحيوانين الأخوين كانت ذاكرتي تختزن كل الصور المؤثرة التي تجاهلتها في الداخل.. وجه مديحة الشاحب، وتقاطيع أخي المعروفة الحزينة.. وعينا سعاد اللتان تغطيهما الدموع.. وحاجبا أبي الشائكان..

لقد كانت كل صورة، تدفعني دفعاً لأن أبكي طويلاً.. وماذا بعد، هل البكاء من الضعف بالدرجة التي يتصورها الكثيرون؟

والتفت الحوذي بوجهه الغامض يمعن في النظر، وأخذ يلتفت بحيرة مرة بعد مرة، فلا يجد منفذاً لحيرته سوى أن يسعل وأن يفرقع بسوطه في الفضاء.

يا أخي الحوذي، ترى بماذا كنت تفكر في هذا الشاب الذي كان يساومك قبل لحظات بعناد يريد أن يمتص آخر قطرة من ربحك الهزيل، حتى إذا ما وصل، اعترتك حيرة، وترددت طويلاً قبل أن تمد يدك المعروقة، لتأخذ الأجرة؟!

ها آنذا وحدي الآن في غرفة راقبت جدرانها البلهاء، ألف وجه غريب.. انظر إلى حوائجي المبعثرة، الساكنة تحت الضوء الكامد.. وأتلمس للمرة العشرين علبة السجاير.. ناسياً أنني أحرقت آخرها قبل ساعة. وحولي رئات تتمدد وتتكمش وتحيا، تقص معجزة الإنسان.. وأصـــداء الموسيقى البعيدة، لا تزال تشق طريقها القصير إلى سمعي، والليل يجثم خارج غرفتي ويحاور الضوء الكامد في تشبث.

في جيبي عشرون ليرة وجدتها فجأة.. لا شك أن أخي وضعها في جيبي خلسة بعد أن جمعها من عمله القاسي.. وعندما ستنتهي هذه الليرات العشرون.. سأخرج من غرفتي هذه كالوطواط، وأبدأ صراعي المنتظر مع الجوع.

لا أريد أن أفكر بالمستقبل،فلدي الآن ما أفكر فيه، أشعر بأنني قوي رغم كل شيء. وأنني وجدت ذاتي التي أضعتها منذ وقت طويل .. وأحس أن عيوناً كثيرة تحدق فيّ بنظرات حنونة مشجعة.. وأنني وجدت طريقي المختفي بين الأشواك.

ترى هل نمتم الآن يا أخوتي، بعد أن أتعبكم البكاء؟. أم ما زلتم تفكرون في ذلك الراحل الذي ينام في غرفة غريبة بين أناس غرباء على سرير يئن تحته كلما قام بأية حركة؟

* * *

أخي رفيـق

كنت في العاشرة من عمري، حينما جاءتني أمي بثوب جديد رمادي فيه بقع سوداء. ولم يعجبني الثوب لأن جيبه كانت صغيرة لا تتسع لبذر المشمش الذي ألعب فيه مع رفاقي بالحرام والحلال والزوج والفرد. وكنت واقفاً أمام الدرج أبكي بحرقة حينما جاء أخي رفيق يواسيني وكان شاباً في الخامسة عشرة يعجبني فيه أناقته وبريق شعره وكنت أقف ساعات أمام المرآة أحاول أن أقلده.. قال لي بصوت حنون:

– هل تريد أن تذهب معي يا سعيد؟

فقلت بعناد

– لا

– طيب اذهب والبس حذاءك فإني سأذهب أنا وابن عمك عدنان وصياح إلى البرية.

ثم التفت حوله بحذر

– لا تقل لأخيك خيري فإننا نريد أن نسبح.. وأحسست أصابعه تغرق في شعري وتشده برفق

– سأحملك على يدي اليمنى وأسبح بك.. هل أنت شجاع؟ ارفع رأسك دائمًا وأنا أحملك وسترى كم السباحة هينة.

وأسرعت ألبس الصندل العتيق الذي تقطعت أوصاله فإن رجلي - كما تقول أمي - تهري الحديد وفجأة سمعت صوت أمي.

- أين أنت ذاهب؟

- مع أخي رفيق

- لا.. لن تذهب إن أم تحسين الشيخة ستجيء اليوم وهي تريد أن تراك.

- لا أريد أن أراها إني أكرهها

فقطبت أمي جبينها وقالت بغضب:

- اخرس... إنها عملت لك حجاباً لتقيك من نزيف الدم الذي يلح عليك.. إنها مبروكة.

فبصقت بشدة فصفعتني أمي وهي تتعوذ باللّه من هذا الجيل الذي هو أفجع على حد تعبيرها وعند ذلك قعدت على الأرض الوسخة بثوبي الجديد وأنا أبكي وأفحص البلاط بقدمي.

ونظر إلي أخي نظرة عطف وهو يحمل بيده المؤونة ثم قال بهمس:

- اسكت.. سأحمل لك معي كثيرًا من القرعون. ثم خرج وأمي تراقبني حتى لا ألحقه

وجاءت أم تحسين الشيخة وكانت كامدة صفراء تبدو كالشيطان فربتت على كتفي برفق، وشعرت بالاشمئزاز عندما مرت على خدي بيدها الخشنة التي تشبه ليف الحمام، ثم رفعتني إلى حجرها وهي تتمتم ببضع كلمات غامضة فاستولت علي الرهبة وأخذت أتابع حركة يدها وهي تمر بها على أعضاء جسدي وأنا أرتجف، وانتهت التكبيسة بسلام فهبطت وأنا أتنهد ثم أخرجت من صدرها خرقة صغيرة مكومة وقد ربط على جانبيها خيط أبيض ثخين فعلقته على صدري وهي تدمدم وتقول لأمي:

- مبروك الحجاب يا أم رفيق.

- اللّه يبارك فيك يا أم تحسين، القهوة يا بنت..

فنظرت أم تحسين إلى الحجاب بطرف عينها ثم قالت بصوت مبحوح:

- واللّه كلفني كثيرًا هذا الحجاب لقد عذبني كثيرًا الملك الأحمر حتى استطعت تخليصه منه.

- كل ما تريدينه حاضرًا يا أم تحسين.. ولو... كم أم تحسين عندنا

وفي اللحظة التالية عدوت نحو الباب ثم غبت في زحام السوق. واجتمعت برفاق لي في الطريق وأخذنا طريقنا إلى البرية.. إلى بستان يدعى (البحصة) وتسلقنا الدك ثم قفزنا واحدًا واحدًا مجتازين النهر الصغير الذي ينساب وراء الدك وانزلقت رجلي وأنا أقفز فسقطت فيه وتلطخ ثوبي الجديد بالوحل وتصورت الضرب المبرح الذي سيستقبلني به أبي ولكن نظرات رفاقي الخبيثة جعلتني أرفع رأسي بكبرياء.

وامتلأت جيوبنا بالقرعون عندما سمعت صوتاً هائلاً يصيح بنا فركضنا مذعورين وتركت الصندل على الأرض ثم تسلقت الدك بسرعة فعلق طرف ثوبي بحجر ناتئ فتمزق ولكنني لم أبال به بل ركضت نحو البيت وأنا أتلفت وعندما لم أجد أحدًا تنفست بارتياح ونظرت إلى ثوبي ورجلي الحافيتين فدق قلبي بعنف وفجأة سمعت صوتاً لصديق لي.

- سعيد.. سعيد.

- نعم.

- لقد مات أخوك.. رفيق فاندفعت أقول بغضب.

- اخرس بدون علك.. أما مزحة باردة.. منذ ساعة كان معي.

- واللّه مات.. اختنق في بركة العرقسوس.. ألا تصدق؟

- من قال لك؟

- كل الدنيا عرفت.. امتلأت البركة بأمة اللّه وقد أخرجته الإطفائية.

تركته وسرت بسرعة وكانت نظرات الناس لي قد أيدت الخبر وشعرت بشيء غامض مجهول يقبض على قلبي.. مات أخي ما معنى مات.. وكان الناس جميعهم ينظرون إلي بعطف ورثاء مما أثار فيّ الارتباك المشوب بالزهو وكنت أهم إذا ما رأيت رجلاً لا يحفل بي.. أمسكه من تلابيبه وأقول له:

- أخي مات اختنق.. في بركة العرقسوس.. واللّه مات أخرجته الإطفائية وعندما اقتربت من البيت سمعت العويل، فدق قلبي واصفر وجهي ورجفت ركبتاي ورأيت جمعـــــاً كبيرًا من الأطفال حول البيت فدفعتهم عني بعنف متكبر ثم دخلت المناحة.

كانت الدار غاصة بالنساء ورأيت أمي منفوشة الشعر وأنفها يلمع في وجهها المليء الشوندري وهي تلطم وجهها وتعول بينما كانت أختي الكبرى تمسك منديلها الأبيض الصغير وتمسح به دموعها وصرخات غريبة تتردد لم أفهم منها سوى أنها صرخة لوعة صادقة:

- يا ضيعة شبابك يا حبيبي.

- يا ليتني مت قبلك يا ابني.

- لتنطفئ عيوني ولا أراك هكذا.

وحيثما تلفت لا أرى حولي سوى وجوه حمر وعيون دامعة وأكف تلطم الخدود فوقفت كأنني غريب وحرت فيما أفعل وفي اللحظة التالية لمحتني أمي ممزق الملابس، غارقًا في الوحل، حافي الأقدام فأحسست بالذعر ولكنها لما قربت مني اشتد بكاؤها وهزتني بعنف ثم ضمتني وهي تقول والدموع تقطع آهاتها:

- لقد مات أخوك يا حبيبي مات وذهب إلى الأبد.

وازدادت ضمتها عنفا وشراسة فرأيت الدموع تنساب من عيني بهدوء وشعرت بدوار لذيذ وتمنيت أن أبقى على صدرها هكذا إلى الأبد.

وشعرت أمي ببكائي فقالت بحنان:

- لا تبكي يا ولدي.. لا تبكي يا حبيبي.. ثم تركتني ودخلت إلى الصالون الكبير.

وغرقت في الجو حولي فبكيت طويلاً دون أن أحس بشيء من الحزن بكيت لأن أمي تبكي ولأن الجوحولي كله صراخ وبكاء وعويل وكنت أذهب إلى باب البيت الكبير فأرى الأولاد مجتمعين فيرمقونني بنظرة عطف وإكبار وتهيب وهم يرون عيوني المحمرة ودموعي المنسابة ولكني لا أعبأ بهم بل أقطب جبيني ثم أصفق الباب في وجوههم.

وانتابني عطش شديد فذهبت إلى الفيجة فرأيت منظرًا عجيباً رأيت إحدى قريباتي قد أمسكت بفنجان فيه ماء وأخذت تصب قطرات في عينيها حتى تظهر وكأنها تبكي حقاً فلما رأتني نظرت إلي بذعر ثم هربت فنظرت حولي بحذر ثم فعلت مثلها ولم أكتف بذلك بل بللت يدي بريقي وصرت أفرك عيني حتى احمرتا تماماً فرجعت مزهوًا إلى المناحة.

وسألت عن أمي فقالوا إنها في الصالون.

وفي الصالون كانت تستقبلني رائحة نفاذة ورأيت في الصدر كومة بيضاء على السرير وقد انتفخ وسطها ونظرت إلى أبي الصامت وأمي الباكية وإخوتي المطرقين ثم اقتربت بهدوء فرفعت اللحاف الناصع عن رأس الكومة فبدا لي وجه أخي المرعب... كانت عيناه مغلقتين ووجهه أصفر وقد تلبد شعره الجميل ولكنه كان لا يزال يبرق وبرزت العروق من وراء بشرته الرقيقة وفوق حاجبه الأيسر ضربة قد تجمد الدم فوقها فأرجعت الغطاء وجلست وأنا مطرق.

قال أخي عادل:

- لو أنه نزل البركة من الناحية الثانية.. لم ينتق إلا أعمق الأمكنة.

فقال أبي بصوت متهدج وهو يرفع يديه كمن يستسلم للقدر:

- منيته يا ابني..منيته.. لا تقل من هذه الناحية أو تلك الناحية عزرائيل قاده ولعب بعقله حتى أوقعه.. لقد كان ينتظره.

وتابع أخي عادل:

- لقد أصيب بالصخرة فارتبك وكان قاع البركة مليئاً بالوحل فعلقت رجله فيه ولم يستطع التخلص لقد شده أحد الفلاحين من شعره بدون جدوى.

فقال أخي خيري وهو يلثغ ويفرك يديه:

- عندما أخرجه الإطفائي قلب رأسه للأرض.. وأقسم باللّه، خرج من بطنه ماء قدر القربة.

قال أبي ثانية بصوت متهدج:

- حكم اللّه ولا راد لقضائه «قل لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا هو مولانا وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون».

فقالت أمي مندفعة:

- اللّه لا يأخذ إلا الطيبين الممتازين.

فقال أبي غاضبا:

- لا يا أم رفيق استغفري ربك اللهم لا اعتراض على حكمك.

فتابعت أمي كأنها لم تسمع:

- نهلك بالولد ونتعب به ونضع له دم قلوبنا ونفرش له ريف عيوننا فإذا كبر وصار.. قصف اللّه عمره هذا ظلم.. هذا.

فقال أبي كمن يتضعضع:

- صلي عالنبي يا أم توفيق هذه حال الدنيا.. إن اللّه مع الصابرين.

قالت أمي وهي تعول وتنظر ناحية الفراش:

- يا ليتني أموت الآن وألحقك وأتخلص من الدنيا الملعونة هذه.

قال أخي الكبير:

- الآن هو في الجنة روحه ترفرف علينا أليس كذلك يا أبي.

- نعم نعم.. هنيئاً له على هذه الميتة اليوم الجمعة ومات والتذكير يملأ الفضاء وبمثل هذه السن.. هو الآن عصفور بالجنة اللهم احشرنا في زمرة المؤمنين.

ووقع نظري على برميل (البريلكريم) وفكرت حالاً أنه بقي لي الآن لا ينازعني فيه منازع، وكذلك كل أدوات الزينة التي كانت لأخي أصبحت لي الآن وبذلاته الفخمة سأصغرها وأفصلها جميعها لي.. وشعرت بشيء من الارتياح، لقد أدانني البارحة ليرة كاملة استأجرت بها دراجة وذهبت بها حتى بكداش فأكلت كأسا من البوظة وقد ذهبت هذه الليرة ولن يأخذها مني بعد الآن، وفكرت في المدرسة لا شك أنني لن أذهب إليها إلا بعد أسبوع، وسأتخلص مؤقتا من الشيخ طالب وفلقته وعبدو أفندي ومسطرته، وسأقضي هذه العطلة في البرية فأذهب كل يوم لأنهب القرعون ولن تنتبه إلي أمي وهي مشغولة الآن بموت أخي.

وقطع علي تصوراتي صوت أمي وهي تسأل:

- هل نزعت منه الخاتم والساعة يا عادل.

- نعم يا أمي.

- وبذلته التي كان يلبسها أين وضعتها.

- في غرفته.

- سأضع كل أمتعته في خزانة خاصة لأشم فيها ريحته كل يوم.

قالت ذلك وهي تضرب كفًا بكف وتتنهد.

فقال أبي كمن يهرب من حلم:

- توفيق.

- نعم يا أبي.

- هل أعدت معدات الجنازة.

- كل شيء جاهز.

- إذن فلنقم.

فتعالى صوت أمي بالبكاء وشاركها إخوتي ولكن أبي زجرهم برفق ودموعه تخذل جلده المتكلف فخرج من الغرفة هاربا وصوت البكاء يملأ فضاء البيت كعويل الشياطين في أرض شاسعة خالية.

كان المساء قاتما مزعجا والتعب قد هد كياني فانسللت من (الصبحية) لأنام وكانت غرفتي ثاني غرفتين الأولى لأخي رفيق والثانية لي ولأخي الكبير.. وشعرت بالخوف وأنا أمر أمام غرفته وكان كل شيء بالغرفة مجللاً بالسواد، وكل نتوء يرعبني فيخيل لي أنه رأس إنسان.. ماذا لو قام الآن من وراء السرير فبحلق في وجهي.. لا شك أنني سأصرخ وسألقي نفسي من النافذة وتذكرت قصصاً كثيرة لأموات يقومون وتذكرت سحنته والجرح فوق حاجبيه فكاد يصيبني الدوار فهربت إلى غرفتي، واسترعى نظري فورًا البذله البنية التي كان يلبسها أخي رفيق اليوم، لقد وضعها أخي عادل هنا حتى تضمها أمي إلى الخزانة.

لاحظت الانتفاخ في جيبها اليمنى فمددت يدي في تهيب فغرقت في القرعون..إذن لقد تذكرني أخي قبل أن يموت وها هو القرعون الذي وعدني به، وشعرت لأول مرة بحزن مبهم.. ورفعت رأسي وأنا أتصوره قد كبر حتى ملأ الغرفة.. هل مات حقاً.. هل ذهب إلى الأبد؟.. ما هو الموت.. هل هو عصفور في الجنة الآن كما قالت أمي؟.

في مثل هذا الوقت من كل مساء كان يأتي إلى غرفتي فيدخن سيجارة وهو يتحدث مع أخي عادل في السياسة والأدب والسينما والممثلات وأنا

أجلس مبهورًا أنظر إليه وإلى شعره اللامع وقسماته النبيلة وأعبده بصمت..وكان ينظر إلي فأحس بعينيه الجميلتين تغرقان وجهي في دغدغة ناعمة كشعر حسناء وكان يسألني عن دروسي ويساعدني في حل مسائل الحساب وإعراب بيت القواعد الذي يعيده علينا أستاذنا في كل مناسبة.

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبـــي وأسمعت كلماتي من به صـــمم

ونظرت إلى الباب علّي أرى وجهه الجميل وقامته المهيبة وبشرته الرقيقة التي تظهر عروقه من وراءها وشعرت بهوة تحفر بين رجلي وبدوار غامض يهوي على رأسي بمطارق قوية ولكنها ناعمة.. لقد مات حقًا.. أخي العزيز الحبيب ولن أراه إلى الأبد.. لن يساعدني في حل مسائل الحساب وسأنظر دائمًا إلى أخي عادل وسينظر إلي وسنطرق معًا وننظر إلى مكانه ويد أخي عادل ترتجف بسيجارته ونصمت ثم ينتهي كل شيء. لأول مرة شعرت فجأة بحزن شديد ففهمت بكاء أمي وإخوتي ولأول مرة أيضًا طمرت رأسي باللحاف وأخذت أبكي بصدق وعنف حتى انطفأت النجوم.

* * *

ساعي البريد

عبرت سور الحديقة، وأنا أرتجف، فتلك هي المرة الأولى التي دعتني فيها، ثم تباطأت خطواتي قليلاً قليلاً حتى وقفت أمامها وأنا مطرق واجم.

آه، إنها تبدو أصغر بكثير مما كنت أعتقد يوم أن قابلتها لأول مرة، وهي تنزل من العربة المتواضعة وتستأجر البيت الذي بجانبنا في مصيف الزبداني الهادئ، فتركت مقابلتها الأولى في نفسي تأثيرًا سحريًا، فتمنيت أن تطول قامتي ويكثف شارباي وأن يسمر لوني قليلاً لأبدو أمامها رجلاً حقًا.

ونظرت إلى بذلتي القصيرة باشمئزاز وأدرت ظهري لها ثم مشيت متثاقلاً حتى أخفاني عن نظرها «باص» طويل، وعندها أخذت أركض إلى البيت.

ولاحظت أمي بعد ذلك «أن عيوني قد غاصت قليلاً» وأن «أخلاقي تزداد سوءًا» وأن شهيتي للطعام أخذت تقل ذلك «لأنني أصبحت ذا نفس كبيرة تأنف من الألوان التي تقدمها» ولاحظت «أنني أسهر كثيرًا لسبب غير معقول وذلك من تأثير الروايات السخيفة الرذيلة التي أقرأها» وأنني «أخذت من والدي أكثر عاداته السيئة التي طواها الموت منذ سنة» وأنني إذا استمررت على هذا الحال «فسأنحف كالفأر وسيصبح أنفي الكبير هو كل وجهي وذلك كما قالت شيء لا يطاق».

ثم نصحتني بوجهها اليابس كالتين المجفف أن أرجع إلى عقلي وأقلع عن غروري وفظاظاتي الكثيرة».

قالت السيدة بهدوء: – اسمك؟

فرفعت حاجبي الكثيفين وأنا أنظر إلى عينيها الخضراوين اللتين شملتاني بنظرة حانية، طالما افتقدتها من أمي الغليظة وتذكرت كلماتها الغاضبة:

«إنك مثل أبيك لا تصلح لشيء» «وجهك كالقرد بشاعة» «لا تتعال علي بكثرة معلوماتك فأنت ومدرستك لا تفهم شيئًا»...

وقلت للسيدة:

– اسمي إحسان، إحسان جيرودي.

– ماذا؟.. هل عيناها هما اللتان تعكرتا أم بحيرة خيالية؟ واتسعت حدقتاها وأخذت تتفرس في بدهشة أرسلت إلى نفسي بعض الذل والحنق، وخيل إلي أنني دينار زائف بين يدي صيرفي ماهر.

وقالت أخيرًا – وقد لاحظت أن نبرة صوتها موسيقية كما هي العادة وأن بحة خفيفة كانت تجرحني كالعنب الحلو – :

– أريد أن أكلفك بمهمة.. هل تقبل؟.

واستندت على جذع الصنوبرة الكبيرة فوقنا بدلال وهي تنتظر جوابي، فأخذت أبلع ريقي، وأتلفت حولي كأني أبحث عن شيء ضائع...

طبعًا.. الذي تأمرين به.. أنا مستعد لأية خدمة.

«ولاحظت أنني اقتبست هذه الجملة من الحلاق المجاور عندما كان يخاطب امرأة مسنة في الأسبوع الماضي» وفاجأني صوتها:

– هل تعرف النادي الجديد في طريق المصيف القديم.. تعرفه؟ عال.. خذ هذه الرسالة وسل عن حسن، حسن القباني واعطه إياها، أسرع، أسرع يا شاطر.

وكان يجب أن أحنق لأنني سمعتها البارحة تدحرج أمام كلبها طابة وتقول له:

- هيه. بوبي.. هاتها، أسرع.. أسرع يا شاطر ولكني قلت:

- أمرك يا سيدتي.. حالاً..

ثم استدرت بعجلة وأخذت أركض دون أن ألتفت إلى الوراء ووصلت إلى النادي بعد نصف ساعة، فسألت عن الأستاذ حسن القباني فخرج إلي رجل قصير أعجف، أحسست بالكره له مددت قامتي وقلت بوقار:

- رسالة لك يا سيد حسن.

فنظر إلي بدون اكتراث ومزق الغلاف بهدوء أثارني ثم أخذ يقرأ، ووجهه الذي يشبه الجمجمة يتقلص، ثم شملني بنظرة مزدرية وقال باختصار.- انتظر..

واختفى في إحدى الغرف الجانبية وهويهز كتفيه. وأخذت أتطلع إلى جدران النادي:ثمة صورة رجل في الحائط يبرز عضلاته، وهناك على الحائط المقابل، صور كثيرة لممثلات وممثلين، وتحتها تعليقات بالقلم الرصاص لم أكلف نفسي قراءتها وكانت تعلوها شهادة كبيرة للنادي بـــجودة لاعبيه موقعًا عليها توقيعات كثيرة.

وأحسست بيد توضع على كتفي وبصوت يقول: - خذ..

فأخذت الجواب وخرجت محنقاً من هذا المخلوق الذي لم يكلف نفسه عناء النظر إلي وهو يعطيني الجواب.

ووجدتها تطل من نافذتها تنتظر وتحدق في الأفق البعيد ولما رأتني لوحت بمنديلها - وأظنه كان ملوناً بلون غير مألوف - وسألتني أن أصعد إليها.

وقادتني خادمة ضخمة الأرداف، حذرة النظرات إلى مخدعها وكانت جالسة على طرف السرير في غلالة رقيقة تبرز صدرها الذي كان مبللاً

بالعرق لشدة الحر، ونهديها اللذين تجمعهما حمالة بيضاء عليها تطريز من قصب فغضضت بصري حياء، ولكنها لم تشعر بشيءمن ذلك بل كان همها منصبًا على الرسالة مما أشعرني بتفاهتي، ورأيت على وجهها نوعًا من الغضب المكبوت وهي تقرأ الرسالة... ثم انفجرت فجأة تقول:- النذل... الكلب... الجبان.

وقفزت عن مقعدي، وخيل إلي أن الكلمات تصفعني بمطرقة من أشواك، وأخذت أتراجع ببطء، وأنا أسمع سيل السباب يخرج من شفتيها الحمراوين «وقد كانت لا تطليهما بالأحمر أبدًا ولعلهما حمراوان من أكل التفاح إذ لا حظت بقايا التفاح في الإناء الأبيض الموضوع فوق الطاولة» وأخيرًا أحسست أنني أكاد أخرج من الباب هاربًا، فكتمت غضبها ثم انقلبت وقالت بلطف ورقة.

- تعال هنا.

فتقدمت كأنني أتعلم السباحة لأول مرة، فنظرت إلي طويلاً ثم قالت بصوت غريب:- نفس الملامح... والطول... والأنف، إنك تشبهه دون شك ثم أضافت بسرعة:

- اذهب... اذهب وتعال غدًا في مثل هذا الوقت.

وانطلقت وقد خيل إلي أن دمعة كانت تملأ عينيها.

* * *

وأخذت أتابع مهنتي الجديدة شهرًا كاملاً، ولاحظت أمي مرة ثانية أنني «أصبحت كالبنات أقف ساعتين أمام المرآة» وإن الأناقة في المصيف عمل شاذ إذ أنه يقتضي البساطة وأنني استنفذت قنينة العطر التي اشترتها» وأنني «أبدو مضحكًا في الربطة المنتفخة المنقوشة كقنفذ آخذ بخناقي» إلى غير ذلك من الأقوال التي أقابلها بثورة جامحة، وكانت تلمح لي بأنني «لم أعد أهتم بها وبالبيت» وبأنني «أصبحت كالمكنسة يستخدمها أناس غيرها».

مضيت في مهمتي بحذر وأنا أزداد كل يوم تعلقًا بالسيدة الغامضة الجميلة وكنت أسأل نفسي دائمًا من يكون هذا الحسن القباني القصير الأعجف البغيض، الذي بدا لي أن إجاباته للسيدة فيها تسلط ونفوذ كأنه يملك قيادها؟ واشتد تلهفي لمعرفة هذا السر.

كنت أسلمها الرسالة فتلاطفني بأن تربت على كتفي وشعري كما تفعل لكلبها بوبي، وكنت أتمنى عبثًا أن تنظر إلى شواربي وقامتي وأمارات الرجولة التي كنت أحاول أن أظهر بها من رفع للحاجب وإطباق للفكين وقلب للشفة. وكانت تلاحظ غضبي فتضمني إلى صدرها الخافق في حنان مثير، فأتمنى أن أقبلها في فمها وخديها، ولكنها كانت تتخلص مني بلطف ثم تودعني إلى الباب.

وفي يوم خانق الحر، سلمتها الرسالة، ووقفت أنظر إلى المداخن من خلال النافذة، وقد بدا دخانها يصعد في الجو عموديًا تحركه نسمة، وكانت أشجار الصنوبر تحترق عن بعد من الحر، ويخيل إلي أن بريقًا وبخارًا يتصاعد من رؤوسها، وكان يقطع الطريق رجل عجوز وقد نشر مظلته البيضاء وتوكأ على عصا انكسر مقبضها، بينما كانت امرأة تهدد بائع التفاح بيديها في عنف...

وفجأة، سمعت صوتها ينشج، فالتفتت كالملسوع فإذا هي تبكي بحدة!..وخيل إلي أن شراييني قد أصبحت كالحديد المحمي، كيف أستطيع أن أخفف عنها؟ كيف؟ سأقتل ذلك الكلب الأعجف. واستمر البكاء دون أن تلتفت إلي وعندها فعلت شيئًا لم أدر سببه إلى الآن... أكان يمكن أن يحصل ذلك. المهم أنني صحت بصوت ذاو بأنني لن أسلمها رسالة بعد الآن، وأنني ذقت

بحبها الدنس، وأنني لسعيد جدًا إذا ما دعست صاحبها القميء الأعجف بأسفل حذائي... وأنني...

ولكن سكوتها الطويل ألقى علي لوحًا من الثلج، فهدأ غضبي وتمنيت أن أنزلق هاربًا من الباب، ولكنها قالت أخيرًا بهدوء كأن شيئًا لم يحدث: - تعال هنا.

نفس الجملة التقليدية التي لا أجد حيالها سوى أن أطيع، فتقدمت خاضعًا، وأمسكت بيدي في مرح وهي تجلسني في حضنها، ثم ضمتني إلى صدرها وشدت على أذني برفق وهي تقول:

- آه يا إحسان.. إنك أصبحت مخيفًا حقًا... أصبحت غيورًا لا تطاق، لقد خيل إلي أنك ستقتلني فغمغمت في ارتباك - عفوًا يا سيدتي... اغفري لي... لأنني.

- اسكت أنا أعرف ما تريد أن تقول، سأعفيك من مهمتك، ولن أشق عليك بعد الآن؟ خذ هذا الكتاب الأخير... سأكتبه بينما تصنع الخادمة القهوة...

ثم وقفت كملكة متوجة، وسرحت إلى النافذة ببصرها الحالم، وعادت عيناها تبرقان، ثم نادت بصوت قوي:

- يا منيرة..يا منيرة..

وسمعت صوت انغلاق أحد الأبواب الجانبية وصوت وقع خطا خفيفة.. ثم انتصبت الخادمة ذات الأرداف الثقيلة على الباب، ووقفت تنظر باحترام إلى مولاتها التي أخذت تنظر من النافذة مرة أخرى.

قالت أخيرًا بهدوء خيّل إلي أنها تتكلفه:

- اذهبي إلى بيت فؤاد وادعيه حالاً:

- أمرك ستي

وقفزت الخادمة وأردافها تتبعها حتى اختفت، فنظرت السيدة إلي وفاجأتني بهذا السؤال:

- هل كنت تحب أباك؟

- من؟ أبي؟ أبي أنا؟

ووجدت يداها تدفعانني وهي تردد:

- اذهب.. وسلمه الرسالة الأخيرة.. موعدنا غدًا..

ولما خطوت نحو الباب صاحت قائلة:

- قف قليلاً..

وفي اللحظة التالية وجدت نفسي بين ذراعيها، وهي تشبعني لثمًا وتقبيلاً.

* * *

كنت أسير في عالم سحريّ، الكتاب في يديّ لذعة نار، وصدى قبلاتها يدوي في أذني فأحس بالدم في وجهي حارًا، وقلبت الكتاب بين يدي، ثم فتحته لأول مرة بحذر (وكانت لا تغلفه بالصمغ وهذا دليل أمانتي) ثم قرأت فيه:

«أخي حسن..

لن تراني بعد الآن.. ادّع لنفسك الشرف ما شئت، لقد قلت أنني في أشد الحاجة لمئة ليرة، ولكنك أبيتها عليّ وأنت الذي تربح ما تربح. لقد كان

خطأي أنني قاومت فؤادًا والتجأت إليك وأنا أعرف أنني أستطيع أن أغرف من ماله ما أشاء.. ولكنك كنت دائمًا الرجل الذي يتكلف الفضيلة.. والآن لن أراسلك، ولن تراني ولتذهب إلى جهنم»

أختك سميرة

سمّرت في مكاني، وتلاحقت ضربات قلبي، فتلفت حواليّ بذعر، إذن فهي أخته، ولا شك أنها في ضائقة مالية شديدة.. يا للكلب.. سأكتم أنفاسه، سأقطع رقبته.. سأ.. ومددت يدي إلى جيبي.. مئة ليرة يا سماء.. واصطدمت أصابعي بالليرة اليتيمة التي أعطتها لي أمي عن جمعة كاملة..

– ماذا أفعل؟ خطر لي أن أبكي لألمها،ولكن ذلك بدا لي عملاً أحمق.. لماذا لا أصفّر مثلاً أو أغني أغنية شائعة؟ ولكن.. لا.. شيء بارد.. بارد جدًا، إذن فلأستسلم للصمت، وذلك ما عجزت عنه أيضًا، فركضت مسرعًا كأنني واقع تحت كابوس، فوضعت الكتاب في النادي وعدت إلى البيت كالمجنون.

– أمي.. يا أمي يا حبيبتي ألا تسمعين؟ أريد مئة ليرة.. أقول مئة ليرة. نعم أنا مجنون.. أنقذيني بمئة ليرة.. فقط مئة ليرة يا ناس.. يا عالم.. لا تضربيني بعد الآن.. آخ، لا تضربيني أنا لست طفلاً، أريد مئة ليرة أو أنتحر.. أموت..

وعندما أفقت في اليوم التالي كانت أسناني غارزة في الوسادة.

* * *

لبست مسرعًا، وخرجت إلى الحديقة المألوفة... ياالله.. النوافذ مغلقة في هذا الحر؟ هذا ليس ممكنًا..

وطرقت الباب فخرج البستاني وصعدني بنظرة بلهاء أرعبتني وهو يقول:

- نعم..

- السيدة يا سيد عبد الفتاح.. السيدة.

- لقد ذهبت صباحًا وتركت البيت.

- ماذا؟..

- ذهبت صباحًا برفقة شاب أسمر طويل الأنف جاحظ العينين كانت تناديه على ما أظن..

- نعم.. نعم..

- اسمه.. اسمه يا عبد الفتاح.. اللهم صلِّ على سيد المرسلين.. آه اسمه فؤاد.

- آه... فؤاد..

واستدرت إلى البيت وأنا أرتجف كأنني أحمل جبلاً من الثلج، فنظرت إلي أمي بخبث وقالت:

- ما بك؟..

- لا شيء... ابتعدي عن طريقي.

- اخرس يا ولد، يلعنك اللّه من قليل أصل.

- قلت لك اذهبي من وجهي.

- ها... لقد رحلت إذن...وخلصتنا من شرها ودنسها.. هذه اللعينة الفاجرة.

والواقع أن دهشتي فاقت غضبي، وخيل إلي أنني سأصفع أمي صفعة يحمر لها وجهها الأصفر ولكنني تمالكت نفسي وصحت.

- إنها خير منك.. إنها سيدة راقية..أنت لا تفهمينها يا أمي.. إنها أكابر.. أما نحن.

- ها.. أكابر؟ هل تجرؤ على القول إن هذه المومس خير مني يا كلب؟.. هذه الفاجرة الشهيرة التي ضج المصيف من عهرها.. لقد أورثك أبوك أخلاقه السافلة.. يا.. يا..

ولم أسمع كلماتها الأخيرة.. ودوت أذناي.. مومس شهيرة.. ضج المصيف.. لقد استغفلتك. إنها كانت تعرف أباك..

ودارت الأرض حولي وخيل إلي أنني في بئر لا قرارة لها.. وأن الصنوبرة العتيقة قد فغرت فروعها الواخزة في أسفل البئر، وتلقتني أشلاء... أشلاء..

* * *

وفي الناس المسرة

أحسست فجأةً، أن أنفي الخائن الثائر، قد ارتدّ إليّ طائعًا، فتدفق الدم من شرايينه في عنف آلمني.. يا لهذا الأنف اللعين ينفصل انفصالاً عن بقية الجسد، ويستقبل وحده... مترفعًا، تياهًا ألسنة الزمهرير.

وكان يمكن أن يستمر هذا الوضع الغريب لولا أنه.. هناك.. في ركن دافئ وسط الضجيج.. كانت عدة شمعات، تسعل لاهثة تحاول أن تقاوم الضوء الأحمر.. جانب السرير المجهد البارد،وقدأخذت تتراقص تاركة في جو الغرفة، رائحة خاصة.. شكلت مع رائحة العطر الرخيص، وروائح المياه القذرة، تحت الطاولة الحديدية، نوعًا من الإحساس بطرافة الحياة.

عيد الميلاد؟ وما هو عيد الميلاد عند شخص مثلي، نزل إلى المدينة.. فلاحًا.. جافًا.. يبحث في المدينة الكبيرة لمجرد البحث.. ولمجرد أن يقول لأصدقائه غدًا.. وهو يملأ صوته بحماسة باردة، كعاطفة سياسي محترف:

- نعم يا أصدقائي.. هناك في المدينة الكبيرة، قضيت عيد الميلاد؟؟.

كانت وحدها.. في المدينة الكبيرة العجوز.. التي تحاول أن تكون أضواءها الكثيرة دليلاً على حياتها.. وكانت لا تستطيع أن تخدعنا.. نحن فقط.. لأننا نعرف، أن وراء كل ضوءٍ من هذه الثريات المتلألئة.. قصة يائسة. فارغة. تافهة. تعيشها المدينة الكبيرة. في أشخاص التفوا حول الموائد.. يدلكون خدودهم في عنف لتتدفع فيها حمرة السعادة، ثم يشربون.. ويشربون.. وينبعث صوت أحدهم:

- المجد للّه في العلا..

ويقطع الثاني جرعته، وهو يدندن كأنه يردد محفوظاته:

- وعلى الأرض السلام..

ولن يقول الجملة الثالثة أحد.. لأنه سيشغل بملء الأقداح الفارغة...

أمللتِ التمثيل يا صغيرتي الحزينة؟. كل شخصٍ في المدينة الكبيرة قد استطاع أن يمثل، وأن يجيد التمثيل.. وهو يعلم تماماً أن بينه وبين رفيقته.. والقلب على القلب، والشفةُ على الشفة.. بعد سراب العطشان.. ومع ذلك، إنه يمثل يا صغيرتي.. إنه يملأ حياته على كل حال.. فلماذا، يا صديقتي الحزينة، أنت وحدك.. هنا.. مع هذه الشمعات الساعلة، التي تنافس الضوء الأحمر الظافر...تخلعين الشعر المستعار؟..

لم تقبليني يا صغيرتي.. حدقت في بلاهة..

- لا أشتغل الليلة.. عفوًا

لقد لطمتني. بمطرقة من أشواك.. كم رددت.. يا مسكينة. هذه الجملة لمن جاءوا قبلي.. وعيونهم الحمراء تلتهم جسمك.. المهزول كبقايا سيجارة عامل.. المعروق كوجه ساكن زنزانة.. ثم لفت عيونك، ترمقين الشمعات في لهفة وأنت تسترحمينها أن تقاوم.. لحظة بعد أخرى.. اللهيب الجائع النشوان؟؟!!

- لا أشتغل الليلة.. عفوًا..

أنا مثلك يا حزينة.. قد خلعت الشعر المستعار، لأني لم أجد من يقوم بالدور معي.. اسمحي لي أن أدخل إلى محرابك المقدس.. هذا المحراب الذي يدخله كل ليلة عشرات الأشخاص.. يترنحون.. ويعربدون.. ويصيحون.. ويحركون شفاههم وأيديهم ويخرجون من جيوبهم شيئًا يظنون أنه الثمن..

هذا المحراب الذي ملأته الليلة بالدموع، والشموع، تجلسين أمام المدفأة كهرة أليفة وأنت تحدّقين في الأبعاد.. ما وراء الحيطان التي يتراقص عليها اللهب، كخيمة أرجوز عتيق.

كان أنفي يؤلمني جدًا وأنا أدور في الأبهاء.. وأصوات مرعبة قوية تتبعث من وجوه نحاسية تنادي وتحث على الإسراع.. متنقلة كاللولب.. حاملة الماء.. رادة على الشتائم.. محركة جيوبها برنين الفضة.. وكنت أفتش عن واحدة لا تعد (الفيشات) وأنا أضمها. ولا تقول بآلية:

- أسرع.. هناك من ينتظر.

ودرت خمسين مرة.. وحفظت الوجوه.. والأخاديد.. والسيقان.. والنحور.. والنظرات المرسومة بعناية. يا إلهي.. أليس هناك شخص يقول معي بحماسة:

- وفي الناس المسرة؟؟..

ومللت الطواف.. واستهدفت لنظرات شزرة من أصحاب الوجوه.. النحاسية، وأنا واقف مستند على حائط ملئ بتوقيعات وبجمل، لا ينقصها التنميق.. ورددت عشر مرات على أسئلة غريبة.. واستهدفت مرتين للتفتيش.. ثم أخذت أدور مـــن جديد. وأبواق السيارات خارج الأسوار تدعوني ساخرة. وفي الدرجة الثالثة شددت ياقتي وأحكمت الشال حول عنقي.. ثم وزعت نصف علبة السجائر على أيدٍ تمتد بدون تكلف.. وأحببت أن أشغل نفسي بأي عمل.. وسمعت أصواتًا تقول:

- نريد سميرة.

فانضممت إلى الزمرة وهتفت بصوت ضعيف أخذ يزداد مع الترداد قوة:

- نعم.. أين سميرة

ولعننا شرطي ذو شاربين معقوفين وأدارت لنا عجوز رأسها نافرة.. واندفعنا نبحث عن سميرة:

قلت لرفيق أكل الجدري وجهه:

- ومن هي سميرة

- واللّه علمي علمك..

وصرخ أحدهم

- هاهو ذا ضوءها مطفأ.. إن لديها زبونًا دسمًا.

- يا سميرة.. استعجلي يا سميرة.. عرق السقف يا سميرة. سمورتي.. سميراميس.. سمور!!ه!!..

وانبعث النور فجأة وفتح الباب وخرج إلينا ساقان عاريان يحملان وجهًا ينبعث الشرر من حدقتيه. وعوت وهي تسوي شعرها الأجعد:

- امشوا..

وصاح أحدهم:

- أي واللّه كي.كي.

- حبيبي.. روحي. مئة مرة قلت لكم.. أنا الليلة مشغولة. العمى.. فظاعة.. تفيه وأغلق الباب بعنف.

وأخذت أدور من جديد.

* * *

كان بابك.. يا صغيرتي الحزينة.. مواربًا وكانت تلك الرائحة الغريبة تتسرب هاربة من الشق.. ولمحت عدة شموع.. وسريرًا يسع خمسة.. وهرة أمام مدفأة، تحدق في الأبعاد.

وترددت دقيقة، وعيناي بلهاوان ترقبانني من بعيد وصوت شيء ينكسر.. مع شتائم ورنين قبلة..

ثم فتحت الباب:

لا أشتغل الليلة.. عفوًا.

ودارت عيناي بالمحراب المستباح.. كان كل شيء يغري بالنوم..إلى الأبد.. وأحسست بصدر حار يضمني وأنت تحركين النار.

- لا مؤاخذة.. بخاطرك.

ولم تردين.. ولماذا؟ ستردين على مئة جواب من هذا النوع.. وأغلقت الباب، وأحسست بالبرد من جديد.

مشيت خطوتين ثم استدرت.. وفتحت الباب ثم أغلقته ودخلت. وتطلعت إلي بنظرة سمرتني.. لقد استطعت.. ولو لفترة، أن تكوني صاحبة هيبة، وكنت أستعطف بعيني:

- لا أريد شيئًا.. أريد.. فقط.. أن أجلس.

ومرّت لحظة.. ثم ابتسمت بآلية:

- تفضل.

وجلست كتلميذ مذنب.. وأخذت أتطلع إلى الغرفة الغريبة. فإلى جانب السرير.. كانت هناك شجرة متواضعة قد صفت عليها أصناف اللعب وأضواء باهتة مع تماثيل كثيرة..

كان الأمر بسيطًا يا قديسة، لدرجة أنني شعرت أن هذه التماثيل كانت هادئة.. باسمة، كأنها مطمئنة إلى هذا المحراب الغريب.. وكنت لا تنظرين إلي وإنما تعبثين بأيقونة كانت تتأرجح على صدرك الجاف.

- هل تدخنين؟

واستللت العلبة الغالية.. وقدمتها لك في شيء من عدم الاكتراث المصطنع.

ولكنك رددت بهدوء:

- شكرًا.. لا أريد أن أدخن!..

وهبط عن وجهي آخر أقنعة التمثيل، ونظرت إليك بخجل ولكنك أخذت تبتسمين..

أخذت أنتظر يا صغيرتي الحزينة.. أن تسردي عليّ قصة حياتك.. أن تروي لي قصة شاب خدعك.. فهربت من أهلك الذين يبحثون عنك في كل مكان حتى يغمدوا في صدرك خنجر الثأر، ويمسحوا عن جوانبه، دم الشرف الرفيع.. ولكنك قلت ببساطة:

- إنني ولدت هنا.. هل رأيت تلك العجوز التي تقرقر النارجيلة في الصالة؟..

وفتحتِ المدفأة وأخذت تعبثين بالنار..

- إنها أمي!.

وحدّقتِ إلى الأبعاد من جديد.

وأخذت أتكلم.. تكلمت عن أشياء كثيرة.. عن الحياة.. والمتاعب.. ووفاء الناس.. وكنت أريد، ببراعة، أن أجعلك تتكلمين عن ذلك الرجل التافه، الذي تتأملينه وراء الأبعاد.. والذي أسلمته، بإخلاص، هذا الشيء الذي تسمينه قلبك.. وأخيراً سألتك بصراحة عن رجلك البعيد:

- رجلي؟

ورفعت إلي عينين لم تعرفا الكذب.

- لا أفهم.. ماذا تعني؟..

ولفظت شمعتان آخر أنفاسهما.. وفرغت علبتي الغالية.. ورأيتك تسرعين إلى درج صغير، فتقدمين إليَّ سيجارة رخيصة.

- آسفة ليس عندي إلا من هذا النوع..

قلتها بسخرية ناعمة.. ثم أخذتِ تضحكين.. وتتحدثين.. تحدثت عن حياتك.. وعن زبائنك.. وعن دخلك.. ببساطة لا تشوبها مرارة وكنت تذكرين مضايقات الناس، وشعرت أنني أصبحت معك في المحراب.

– ولماذا لا تشتغلين الليلة؟

فنظرتِ إليّ بحدقتين مدهوشتين:

– إنه عيد الميلاد... حرام.

* * *

في المدينة الكبيرة.. يا صديقتي الحزينة.. وفي هذه الغرفة الدافئة الصغيرة.. الممتلئة بالشموع.. وجدت نفسًا تحاول أن تحيا.. أن تتنفس بدون منديل. لن أنسى أبدًا.. ما حييت.. هذا السرير الكئيب.. والحيطان القاسية.. واللعب المتناثرة على الشجرة الصغيرة.. والمياه القذرة المستعملة تحت المنضدة الحديدية التي تآكل دهانها الأبيض.. وسيظل محفورًا بذاكرتي.. صوتك العادي كملايين الأصوات التي لا تمتاز بشيء.. وصدرك الجاف الذي امتص كبرتقالة ريانة. ونظراتك الغريبة الحالمة.. التي لا تعني شيئًا. وحياتك الخالية من الذكريات الدافئة... حياتك التي تقدم دومًا على البذل.. على العطاء الدائم.. أو لست تتخلين لأي رجل عن خمس دقائق من وقتك.. لأجل أن يستمتع؟ أو لست خيرًا منا جميعًا؟...

وهناك.. في زاوية عميقة من زوايا قلبك المهترئ يظل حبك للناس حارًا دافئًا كليلة صيفية..

– لا تقل شيئًا عن أمي.. إنها مسكينة...

هذه الذئبة العادية.. بوجهها الكنود المرقع.. ونارجيلتها الخالدة.. لم تستطع أن تحقق في قلبك ذلك الإحساس بالقداسة.

ولن أنسى صوتك الزاجر الدهش عندما حدثتني عن رجل سكران قاء ما في بطنه على صدرك وهو يمتلكك.. وعندما حاولت أن أظهر عطفي عليك.. وأبادر إلى سبّ ذلك المقرف حتى اندفعت قائلة:

– لا تقل شيئًا.. يا صديقي.. فحياة أكثر الناس عندنا كئيبة جدًا...

- ماذا فعلتِ؟ ألم تصرخي وتدعي أصحاب الفيشات ليخلصوك من هذا أو...؟

ونظرتِ إليَّ بدهشة أذهلتني:

- أبدًا لقد مددته على السرير.. وبعد أن غسلت صدري.. أسعفته ببعض الليمون..

ثم قلت مزهوة:

- إنني أعرف تمامًا ما يتوجب عليّ في هذه الحالات.. قليلٌ من الليمون يذهب مرارة السكارى.

بهذه البساطة التي تفرك القلب أخذت تعالجين مشاكل الناس المعقدة.. وكم من الوقت يلزمنا.. نحن أصحاب النفوس الملتوية.. أن تعرف أن حياة أكثر الناس عندنا كئيبة حقًا.. وأنها تستحق أن تمد إليها يد المساعدة لتحسينها؟.

يا قديستي أنت فقط التي رددت عليّ وإن كانت شفتاك لم تتحركا.. عندما أخذت أردد حالمًا..

- وعلى الأرض السلام.

وكانت عيناك تقولان:

- وفي الناس المسرة...

ولم يكن هناك واحد يتشاغل بملء الأقداح الفارغة.

* * *

سَنتان وتحترق الغابَة



الى السنديانة الصامدة

التي ترمز الى روح شعبنا

هذا الشعب الذي تألم أكثر من كل شعب

اليك يا أبي ...

أيها الأثر القديم !

اقدم هذا الكتاب

المَهجع الرابع

«إن من الممكن قهر الإنسان

ولكن من المستحيل تدميره»

(هيمينجواي)



آ آ آ آه!!..

صرخة حيوان مطعون.. مزّقت كشفرة مُرهفة، سكونَ ليلٍ أصمّ ثقيل ذي نجمة يتيمة.انطلقت من الغرف الخارجية لسجن المزّة، فدَخلَت الأبهاء المعتمة ذاتَ الرائحة المتفسخة بسرعة عجيبة. مسحت بيدها المكهربة الراعبة الجدران، وهزّت أبواب الزنزانات الانفرادية، ثم تسلَّقْت السلالم التي عبَّدتها الأقدام الثقيلة الدامية، ومدّت مخالبها إلى المهاجع المكتَّظة بمئات النائمين بعيون مُطْفأة على الحقد والعذاب، وغرستها في الجروح الطَّرية التي لم يستطع النهار تجفيفها بعد، وحبست في الحلوق اليابسة الأنفاس.

وانفتحت الجفون على النور الباهت المهزوز، وارتفعت رؤوس بالغة البشاعة، ووقفت هنيهة منتصبة الآذان كخيل أحست بالخطر، حتى إذا تكررت الصرخة مرة ثانية وثالثة، ارتدّت إلى مراقدها متململة، وتنهدت بألم وفهم.. لقد ابتدأ التحقيق!!

وبالرغم من أن السكون العميق قد استمر، لا تقطعه سوى هذه الصرخات الطويلة المألوفة، فإن شيئًا في المعتقل قد تحوّل! شيئًا كان يجري في كل نفس.. تحوُّلٌ يعني أن العدوّ هناك، في الأسفل، قد استفاق جائعًا إلى اللحم، فأطلق نفير المعركة، وها هوذا يهيئ أسلحته، ويبري أظافره، ويصقل مديته، وأن واحدًا من هذه الكومات السود النائمة سيستدعى بعد قليل إلى الوليمة الدموية:واحد مجهول، أنيس، في رأسه الحليق أفكار مقلقة، وسيحاول الأعداء فتح جمجمته بالسكاكين، وسيمدون أصابعهم القذرة داخل الأوردة والشرايين بعصبية، يفتشون ويفتشون كي يستأصلوا الشرارات النابضة ويطفئوها.. ثم يطبقون العظام على الظلام.

في تلك اللحظات، كانت وحدةٌ عجيبة تمزج بين هذه النفوس المعذّبة الصَّلدة؛ فينسلخ كل واحد عن ذاته ليذوبَ في الآخرين، ويصبحَ كتلك القطرة الصغيرة في البحر الزّاخر.. قطرة صغيرة، ولكنها تحمل كل معاني البحر: كلَّ عمقه وكلمته، كلَّ شفافيته وسحره، كلَّ أمواجه وثَبجه. وبدا السجن الكبير كقاعة ضخمة تُعْزَف فيها موسيقى همجيّة لآكلي لحوم البشر. وكان المستمعون يحسنون الإصغاء، دافعين نحو الأعماق عواطفَ حاقدة، يجوهرونها ويزقّون في عروقها الدماء. وكانت الأسنان تصرُّ حتى لتتحطم، وكانت الأعصاب تُشَدّ حتى لتتقطع أوتارها. إنه لمن المريح أن تعرف أن عدوك دون شرف، دون رحمة، دون حبّ.. وعند ذلك سيَبْهَرُك أن تقاتل، وستتلبسك روح الإنسان الأول؛ روح سارق النار، ومنتزع الأرض من الغابة، ومرسي الأعمدة في وجه الزلازل.. إنها معركة أبدية ضد وحوش الطبيعة.

وارتفعت أصوات الحرس المحيطين بالتلال المطلّة على السجن أصوات تُضاف إلى الموسيقى كجوقة من الذئاب،ويصيح الواحد (جاهز) تدوّي بها القيعان، وينتظر حتى يتسلّم الصدى رفيقُه، وها هي (جاهز) أخرى تمسح الأبعاد وتلحقها ثالثة ورابعة حتى تتم الدورة.جاهز.. جاهز.. جاهز!!

وتَقْصُر المسافة بين الجاهز والأخرى، فإذا هي تختلط وتتشابه، فلا تسمع سوى صرخات بدائيّة للحرب، حاجبة عن العالم الخارجي عذاب الفريسة، مُلْقية دونه ستارًا مسرحيًا يُظَنّ معه أن الزمن قد عاد إلى الوراء ألوف الأعوام، وأن المتفرجين الأغبياء المتعطشين للدم ينتفضون بلذّة وهم يرون الأسود تغرز أنيابها في أجساد عارية رُبِطتْ إلى الأعمدة.

وانقطعت الموسيقى فجأة وسكت العواء، وساد سكون أصفر شاحب كالموت.

وعرف الجميع معنى هذا السكون!

وتصاعد من المهجع الرابع صوت عويل بدأ خافتًا متقطعًا ثم أخذ يشتدّ. فتقدم الحارس بخطوات متلصصة حتى وقف خلف قضبان النافذة، ثم قال بصوت لا حسّ فيه:

- مَن الذي ينبح؟

فأطلقت كومة ملفوفة في البطّانيّات عالقةٌ، في احدى الزوايا المعتمة أنّـــةً معذبة، وانبعث منها صوت متقطع:

- كرامة للّه... خذو..ني..إلى المســـ..تشفى!!

ولان صوت الحارس قليلاً:

- ولك يا حسين.. ستموت هنا، مستشفى هاه؟ أتطلب ممرّضة أيضًا؟

- كرامة للحبيب.. جروحي تتعفّن.

- هذه آخرة الأفكار ووجع الرأس، سيأكلك الدود، خلِّ واحدًا من هؤلاء الدكاترة -(وأشار بيديه إلى ستين كومة راقدة) يفحصك ويعطيك الدواء!!

ارتفعت عدة رؤوس من الكومات وشاركت في الحديث:

- اصرخ للممرّض يا بو علي.. أنت قلبُك لله.

- الممرّض فل.

- هل تتركون المريض يموت؟ أيُّ حكم هذا ؟

وصرخ أحدهم:

- حكم وحوش!!

وأردف الثاني:

- حكم كلاب!!

تغيّرت ملامح أبو علي بسرعة، ونظر نحو الممر المعتم خائفًا، ثم صاح:

- عالسكت.. العمى.. حرام أن يعطيكم الواحد وجهًا. ثم طامن من حدّة صوته:

- العمى.. لا تخربوا بيتي.. اللجنة تحت.

وسُمِعَ صوتٌ مستعجل بعيد:

- أبو علي.. أبو علي.. لك وينك يا مسطول؟..

- أيوه سآتي حالاً، استعدوا يا بني آدم، إذا طلبنا واحدًا ولم يكن قد لبس ثيابه بعد!! أنتم تعرفون ما أعني..

وفهم الجميع ما يعني جرُّ شخصٍ من المهجع على وجهه حتى الطابق السفلي. وهدرت صيحة أبو علي في الممر هازةً ستةً من مهاجع الطابق العلوي:

- استعدوا..

وركض مختفيًا.

وفي لحظة واحدة، دبَّت الحياة في السجن كلّه، وسمع دويّ كدوي النحل.

ووقف ميشيل سليم، روحُ المهجع، وهو أستاذ ريفي تقول عنه اشتُقّ من جذع سنديانة أو من فلذة صخرة، ونظر إلى الحركة الدائرة حوله، ثم قال وعيناه تبرقان بحيوية:

- يا له من مخيم يتأهب للرحيل.

وسُمِع صوت:

- الرحيل إلى الأبدية!!

وتابع ميشيل:

- سمِّكوا.. سمِّكوا.. ضعوا المناشف تحت القمصان، ستحميكم على الأقل من سياط الطريق..

وضحك مقهقهًا في عصبية.

قال حسين متأوهًا:

- إذا طلبوني اليوم.. فلن أستطيع المسير.

فأجابه العامل محمد صالح وهو يحاول دسَّ قدمه المتضخمة في الحذاء عبثًا:

- ولو يا حسين.. سيحملونك على محفَّة كملوك المصريين!!

فأضاءت وجهَ حسين المتقلّص ابتسامةٌ شاحبة:

- وسيقدّم لي عبد الوهاب الخطيب[1] فنجان قهوة سكرَّه قليل مع حبِّ الهال.

ونهض المحامي سليمان الحلبي وهو يتمطى ويشد قامته النحيفة كعصا ويقول:

- هذه هي الحفلة... يظهر أن الدنيا بخير في الخارج.

فتدخل مهندس صغير الجسم مربع الوجه زئبقي العينين كان قد اعتقل منذ أسبوع فقط:

- لقد قلت لكم.. لقد قلت لكم.. (حملة) العراق فشلت، وأُجَراء (الامبراطور) قُتِلوا، وفلولهم جاءت تحمل الألوية الممزّقة، ومعلّهم يملأ الدنيا صراخًا وبكاء ويزور المقابر.

قال ميشيل وهو يفرك يديه بفرح:

- ثم أن منشورًا جديدًا قد وُزِّع.. منشور من كعب الدست.

فقال محمد صالح وهو لا يزال في محاولته ادخال قدمه في حذائه:

- ١+١=٢.. ستترجم كلماته سياطًا على أجسادنا.

---

(١) مدير المخابرات العامة، ورئيس لجنة التحقيق.

أجابه ميشيل:

- وسيلسعوننا بالكهرباء كما لسعهم المنشور.

فتدخل بقال في الستين من عمره وهو يتحسس أصابع قدميه ويرتجف:

- لا تذكروني بالكهرباء.. يضربني العصبيّ فورًا.

قال محمد صالح ساخطًا يائسًا:

- اللعنة على هذه القدم.. لقد زادت خمس نمر.

فأجاب المهندس ضاحكًا:

- كل الاجسام تتمدد بالطّرق والحرارة وقد «طرقوك» جيدًا.

فنظر محمد صالح نحو المهندس ذي الحجم الصغير ورمش بعينيه الدكناوين قائلاً:

- هذا من حسن حظ مهندسنا، سيخرج من السجن وقد صار في طول صوفيا لورين، وعرض محمد الحريري!!

وضحك الجميع فقاطعهم المهندس قائلاً:

- لا تحسدوني.. على كل حال لقد أعطتني أمي حجابًا قبل أن أعتقل ضد الحسد، وضد الفالج والطاعون.. و.. وأشيا أُخَرُ.

قال حسين متنهدًا:

- أعرني أياه لألقيه في وجه عبد الوهاب الخطيب.

- حبيبي.. هذا سر العائلة فقط.

وساد صمت قصير قطعه فجأة بكاء هستيري من إحدى الزوايا، وتأوّه البقال دامع العينين:

- وصلنا لزمن نُضرب فيه والشيب غطى شعرنا؟ عينُ أولادي ترى أباهم وهو يهان من أسفل خلق اللّه.

ونظر إليه رفاقه ساهمين، وانطفأت في عيونهم تلك الغبطة المسروقة التي منحهم إياها اقتراب المعركة.. وتضامنهم الذي لا مثيل له أمام الخطر، وأحس كل منهم فجأة بثقل صليبه.. نظروا من خلال النافذتين الوحيدتين إلى الليل العميق في الخارج، وتذكروا عالمًا بعيدًا.. بعيدًا كادوا أن ينسوه.. عالم الضوء الغامر، والعيون التي لايقف في امتداد بصرها جدران، عالم أمّ تضمُّ طفلها، وحبيبة تعانق إلفَها، عالم الضحكات المجلجلة من النفوس المعافاة، عالم الأحياء.

وصاح أحد الحرس من بعيد

- جاهـــ .... ز.

فاندفعوا بثيابهم إلى بطانياتهم وغابوا تحتها إلى منتصفها وأسندوا رؤوسهم إلى الحائط، وانتظروا.

وساد السجنَ كلَّه صمت ثقيل، لا يسمع فيه الواحد منهم سوى دقات قلبه المتضخّمة وأنفاسه المتقطّعة المبهورة.. لقد دقت الساعة.

وسُمِعَ وقع أقدام كثيرة.. كثيرة.. تصعد السلالم، فعرفوا أن قراقول العذاب قد اصطفّ صفين متوازيين من المهاجع حتى غرفة التحقيق، وأن كل من سَيُسْتَدْعى يتحتم عليه أن يمرَّ ضمن الشريط ليتلقى عشرات السياط والأحذية واللّكمات في ذهابه، وليُجَرَّ كتلةً دمويّة فاقدة الحسّ في إيابه فيما إذا قال للجنة التحقيق المجتمعة تحت:لا!!

وأطلَّ الحراس على المهاجع، وأضاءوا النور، فبدت وجوههم معروقة متشنجة، وانتصبت آذانهم، واتسعت مناخرهم.. كلاب صيد تتشمم من بعيد رائحة الطريدة.

حتى أبو علي الذي اعتاد أن يحدّث المساجين عن بؤس حياته وعن احتراق ابنه، وعن أطفاله الذين يأكلون الرّاتب دفاتر وأقلامًا وكتبًا، استلبت

منه هذه اللحظات، ما تبقّى على وجهه من انسانيّة، وبدا كوجوه الواقفين قربه «مسنّنًا صغيرًا في هذه الآلة التي خنقوا في أعماقها الاحساس، فأصبح القتل عندها احترافًا ومهنة، تنطق قسماتها الشمعية بالبغض والسادية، وتبرق من عيونها أشعة باردة زجاجية».

وقفز الرقيب بيطار نحو المهاجع صائحًا في الحرس بعصبية من يشعر بأهميتّه:

– افتحوا الأبواب.. افتحوا الأبواب..

وتأهّب جنديان ومدّا بندقيتهما من خلال النوافذ بينما صرّت المفاتيح في الأقفال العتيقةَ، فأخرج الرقيب من جيبه ورقةً كبيرة وتابع بنفس اللهجة:

– كل من يطلع اسمه، يخرج من المهجع كالبرق ويصطف بالممّر دون أية كلمة.. ومن يتأخر..

ونظر إلى رؤوس ضحاياه دون أن تلتقي العيون، وسكت تاركـــــًا للكلمة تأثيرها ثم نبر:

– نزار عريف..

وأجاب صوت نحيف مذعور.

– حاضر.

– زهدي اشموني.. حاضر.. ميشيل عربي.. حاضر..زكي فارس..

ولم يرد أحد.

زكي فارس؟زكي.. أين هذا الـــ.،؟ ولك زكي..

أبو علي دُرْ عليه في المهاجع تحت.

وانطلق أبو علي كالقذيفة.

– محمود عيسى.. حاضر.. حنا إبراهيم.. حاضر.. بدون أصوات يا أوادم. اصطفوا هنا.. ورنّت صفعة على خدّ الدكتور محمود عيسى.هنا.. هنا.. كلمة واحدة.. قال دكاترة قال..

الحمار من كلمة واحدة يفهم.. لك آه.. إلى متى نتعب في تعليمكم؟ فادية شربجي..

واحمر وجهه من غلطته، وابتسم بعض الجنود وهم يرون رقيبهم يخلط بين قوائم المعتقلين والمعتقلات.

سامي أسود.. حاضر..

وعاد أبو علي:

- لم أجده حضرة الرقيب

- در عليه في الزنزانات.

- حاضر..

وانطلق من جديد.

- حسين دوماني؟ حسين دوماني.. لماذا لا ترد يا أستاذ فأجابه حسين متأوِّهًا:

- لا أستطيع التحرُّك.

اشحطوه على وجهه.

واندفع الحراس لتلبية الأمر، ولكن شيئًا ما أوقفهم، شيئًا رهيبًا غامضًا قرؤوه في الأعين الغاضبة، والرؤوس الحليقة، والأفواه المرتجفة التي تعلك اليأس.

قال الرقيب بيطار ممتقع الوجه في بحة خفيفة تشبه همس غرام:

- ساعدوه على المشي.

وانتظر بصمت حتى إذا حُمل حسين وهو يتأوه ووضع خارجًا في الصف مستندًا على جدار عاد أبو علي فارغ اليدين، فزمجر الرقيب:

- أين زكي الشرمو.. هذا؟

وجاء حارس جديد مسرعًا، وهمس في أذن الرقيب كلمتين فاصفرّ وجهه وتطلع حواليه خائفًا من أن يكون أحد قد سمع شيئًا وتنحنح:

- آ.. زكي فارس بالمستشفى.. طيب.. أحمد فؤاد.. حاضر.

وتوالت قراءة الأسماء، واصطف المعتقلون في الممر العريض، هادئين، لا تميز أحدهم من الآخر، مطبقين أسنانهم في وجوم، وطوى الرقيب ورقته قائلاً:

- يكفي هذا الآن.. أغلقوا الأبواب، واطفئوا النور.

ثم التفت نحو المهاجع مهدّدًا:

- الكل تحت بطانياتهم، بدون أي صوت، كل من يرفع رأسه من تحت بطانيته سيرى نجوم الظهر.

وساد الظلام، وسُمع صوت الرقيب وهو يراجع الأسماء ثم بدأ المسير.. حتى إذا تلاشى وقع أقدامهم من الممّر، ارتفعت ضجّة عظيمة؛ وشقّت الأنّات والصرخات الجدران السميكة. لقد هجمت الذئاب الجائعة، وابتدأت المجزرة.

* * *

عندما بدأ مئة وستون معتقلاً مسيرتهم الكبرى داخل سكَّة العذاب بين صفيّ الحرس، سيطر على السجن كلّه جوٌّ اسطوري لا يوصف. فبدا كغابة مكتظة اشتعلت فيها النيران، فاندفع مَنْ فيها من الأحياء وهم يصرخون ويثبون ويتدحرجون ويغرزون أظافرهم في الشجر، محاولين في جنون ويأس التخلّص من سدّ النار الآكلة ذات مئات الأيدي والأرجل الممتدّة بالسياط، والأحذية الثقيلة الجلديّة والسيور الجلديّة، والعِصيّ العَقْداء تضرب وتضرب.. متشنجة، عاوية، مزبدة الأشداق، قد عَمِيَت منها العيون وتقطعت الأنفاس واصفرت الوجوه، وأهاجتها رؤية الدم النافر فأشرعت قرونها، دافعة إياها بعيدًا بين الأضلاع.

وغدت الأصوات أكثر عمقًا وأبعد صدى.. ولولة نساء، ورنين حديد.. زنزانات تفتح وتغلق بعنف، وخبط مكتوم على الأرض والجدران، وضحكة مجلجلة من غرف التحقيق، يحيط بهذا كله حزام من الحرس الخارجي يمنع أصداء الجحيم:

- جاهز.. جاهــ...ز.. جاهــ....ز.

ويصل قطار العذاب إلى نهايته عند غرف التحقيق، حيث وقفت ساقان طويلتان تحملان رأسًا أشقر ذا عينين مبتهجتين، وفم مكشّر عن ابتسامة سعيدة جدًا، ابتسامةٍ كان من الواضح أنها لم تصل إلى هذا الوجه الذي يتسلى برؤية هذه الأشلاء الآدمية المُذَلَّة الخارجة من معركة غير متكافئة، إلا على أكداس من حقد أسود طويل عتيق عتق عنكبوت في قبو مهجور.

ونظر إليه المعتقلون، فخفتت آهاتهم، وتحاملوا على أنفسهم وأخذوا يحدّقون فيه وعيونهم الغائصة في كتل متورمة من اللحم الأزرق المحمر ترسل وميضًا أصفر فيه من الدهشة بقدر ما فيه من الحقد.. إنه لمن المدهش أن يتأمّل المرء إنسانًا جميلاً إلى هذا الحد وحيوانًا إلى هذا الحدّ أيضًا.

وظلّت العينان المبتهجتان تتنقلان بين الوجوه الدامية والثياب المشققة، وبدت فيها حيرة خفيفة:

- تُرى ما سر قوة هذه البقايا الأدمية؟

وصرّ الشخص الجميل جدًا على أسنانه، وانطفأت عيناه وأرسلتا شرارات الكراهية:

- ادخلهم حسب ترتيب الأسماء يا رقيب بيطار.

واستدار إلى مكتبه، مارًّا بغرفتي التعذيب الجرداوين إلا من أدوات باردة حديدية، فربَّتَ عليها بقليل من الفرح، ذلك أن أمله فيها بدأ يتناقص يومًا بعد يوم:

- إنها تصدأ.. سنزيِّنُكِ اليوم.. يوجد مقدار كاف من الدم.

وضحك.. تلك الضحكة المفتعلة المدروسة التي يعرفها المعتقلون جيدًا ويستبشرون بها كثيرً، إنها ضحكة رجل غاضب مقهور.

وما كادت الضحكة المتشنجة الغريبة الأليفة تتسلل من بين الشقوق، هازَّةً معها أنسجة العنكبوت الكثيفة، حتى ارتفعت (جاهز) سورًا يلاحق الأصداء حول المعتقل فيردُّها. لقد رفع المايسترو عصاه، فرآها الحرّاس المدربون، وشمّوا رائحتها النتنة، رائحة اللحم المحترق. نسوا ما كانوا يحلمون به وهم على مشارف دمشق يحدّقون في النجوم، لقد كانت الضحكة تنتزعهم بعنف من مملكتهم البخيلة المسروقة من بين (جاهز) وأخرى، كأنما تذكرّهم دومًا بأنهم ليسوا ملك أنفسهم، لقد باعوها للشيطان منذ أن وطئت أقدامهم أولَ درجة في المعتقل، ومنذ أن رفعوا باستحياء وتردّد وتهيب أيديَهُم لأول مرة، واكتشفوا أن لها مهمة أخرى غير شق الأرض وبذر الزرع وإمساك النورج وإدارة الآلة. وها هوذا سَوْطٌ بين الأصابع التي باركها الترابُ ذات يوم، ومع كل ضربة، كان شيءٌ ما، لزجٌ وبغيض، يطفوا على ينابيع نفوسهم، وشيئًا فشيئًا غاض اليُنبوع، ،بدأ العطش النفسي يعذبهم، وبدأت الضحكة تلاحقهم في أعماق وحدتهم، في المحارس المنتشرة على الهضاب المحيطة بالسجن.

وفي بعض الأحيان كان واحد منهم ينظر نحو بلده في أقصى الأفق، ويتذكر زوجة له أو حبيبة، يتذكر الدبكة يضرب بها الأرض حتى ليكاد يخرقها، ويتذكر مجوز الرعاة وهو يجرح الأفق العاري المخضّب. فتندى عيناه، وتتفرج شفتاه عن ربع ابتسامة ذلك لأنه نسي كيف يبتسم الناس، ويغوص في حلم صغير، وقد ينطلق صوت دافيء من هنا وهناك فيه أثر من أصالة، وينسرب خيط من ماء الينبوع المردوم:

يـــا ديـــرةً مالهـــاش مثيـــل بـــــــسهولِها وجبالِهـــــــا

حلـــق العـــدا يـــشرق دِمَـــا وقـــت اللقـــا إحنـــا لهـــا

ندرًا علينا يا سما....

وفجأة يقطع الصوت ببلطة حادة، وتنطلق الضحكة حيوانية جائعة، فيلتوي الصوت كغصن زهرة، ثم يشحُب وينقصف. وتمتلئ الدنيا أمام عين الشادي بالسواد، وتحدجه نجمة يتيمة بقسوة وبرود، فينتفض، وتبرز منه الأظافر، ويفغر الفم، وتنقبض اليدان على البندقية.

لقد جاء وقت حقنة الدم ويصرخ:

جاهز... جاهـــ.......ز.

المعتقلون قابعون وراء أغطيتهم، قلوبهم تدق كالمطارق، وأرجلهم تمشّى إليها الشلل، يسمعون من بعيد رهج المعركة والضحكة التي تزداد عصبيّة وحنقًا، والآهات المتقطعة التي تنتزعها الكهرباء.

وعاد محمد صالح إلى المهجع، ودخل متقطِّع الأنفاس متدحرجًا على الأرض إثر ركلة ثقيلة ودّعه بها الحارس، وانتظر دقيقة، ثم تحامل على نفسه ووقف يجفف الدماء عن وجهه ويديه وحاول جاهدًا أن يبتسم من خلال دموع حمر، ونطر المهجع الرابع ابتعاد الحارس ثم رُفعت الأغطية وقفز إليه أكثر من واحد.

- ايه.. من أولها.

- يحرق دين أولها وآخرها، لولا أنني معتاد على الهبش واللبش لانتقلت هذه الليلة إلى رحمته تعالى.

وتناثرت الأسئلة.

- ماذا قالوا لك؟ ماذا قلت لهم؟ هل كهربوك؟ هل أخذوك إلى الحمام؟ صحيح فيه خازوق؟

- العمى.. أف.. روقوا شوي، أين الميركوركروم؟ اللعنة.. إنني لا أسمع شيئًا بأذني اليمنى، لقد ظنها أحدهم فطيرة فحاول انتزاعها بأسنانه، ولم أنقذها إلا بأعجوبة.. اسمعوا.. لقد جاء أحدهم.

وبقفزة واحدة كان الجميع تحت أغطيتهم، وفُتح الباب ودُفع إلى المهجع حنا ابراهيم مُلطّخًا مشوّهًا كأنه مشروع إنسان لم يتم بعد.

وانهار حنا في أحد الأركان وأخذ ينشج بعنف.

ورفع الجميع رؤوسهم وأخذوا ينظرون إليه بأسى:

- ولو يا حنا.. بسيطة، البكاءللنسوان.. أنت رجل.. أنت معلمنا.

وصرخ أحدهم:

- بدون دروس سخيفة دعوه يبك.. هذا يهدّئ.

- ليك العالم النفساني الخطير ليك!!

وتابع حنا نشيجه بصورة أهدأ ولكن بدون انقطاع ووجم الجميع، فحنا من أكثر المناضلين بأسًا، ولذلك كانت الدهشة عامة وتوتر الجو وشُحن بالهمسات.

قال محمد صالح قاطعًا الصمت.

- أتعرفون أبو محمود؟

فأجابه ميشيل:

- أبو السبعة أولاد؟ الضخم؟

- أيوه هالشيخ الستّيني، مسكين لا دخل ولا خرج، لا يعرف القراءة ولا الكتابة.. تشكى ذات يوم من غلاء الأسعار فجاء إلى هنا وبرأسه عشرة جروح!!

- هل رأيته تحت؟

– رأيته.. كان دوره قبلي.. آه إنني أنزف.

وخلع قميصه فشهق الجميع، لقد كان ظهره لطخة حمراء دامية،.. أية قوة خارقة تكمن في هذا الجسد المشوّه.

– لا تتحرك.. انبطح على صدرك.. سنغسل الجرح بالميركوركروم.

– أنبطح على صدري؟ وهل حالة صدري أحسن؟ أولاد الكلب، لكأنهم يضربون حجرًا.. على مهلك يا ميشيل حرقت ديني.. عاش الدواء الوحيد في سجن المزة العسكري.. أبو محمود.

– إي.

– أنتم تعرفون أن وزنه يقارب المئة كيلو، لقد جعلوه يمشي على أربع، ثم ركب على ظهره ثلاثة، وصاروا يسوقونه كالحمار، وأجبروه وهو على هذه الوضعية أن يغني لهم أغنية (وحدة ما يغلبها غلاب) فصار يقرأ آيات من القرآن فخبطوا رأسه بالأرض حتى أغمي عليه.

وساد صمت كان يقطعه نشيج حنا الذي انخفض جَرْسُه.

– وبعد أن أفاق أتعرفون ماذا سألوه؟

– ماذا؟

– سألوه: أنت مركزي أم منطقي؟وتصوروا المسكين وهو يستفهم منهم عن معنى مركزي ومنطقي فضربوه ثم شحطوه إلى سيلول (أبو ريحة).

قال ميشيل بأسى:

– ليس هناك من يطعم أولاده السبعة.

ولاحظ المحامي سليمان

– سورية كلُّها هنا.. وأنت يا محمد ماذا طلبوا منك؟

– كالعادة، ولكني رفضت هذه المرة بصورة أقسى، وكان ما ترون.

وتساءل المهندس:

- أين الاستاذ سامي؟... تأخر كثيرًا.

فوجم محمد صالح قليلاً ثم قال بصوت منخفض:

- لقد خرج من السجن.

وارتفعت الأصوات دَهِشة:

- خرج؟

وركض سليمان نحو محمد صالح:

- ماذا تقول؟

- لقد وقَّع على ما قدموه إليه ووعد بالمساعدة، سمعته يطلب من الحارس اخراجه فورًا دون أن يأتي لأخذ أغراضه، لقد كان يتحاشى النظر إلى عيون رفاقه.

ونظر المعتقلون بعضهم إلى بعض بصمت، لقد هوت ورقة أخرى من أوراق الشجرة الضخمة، ورقة أخرى تصفرّ وتسقط أمام العاصفة.

وارتمى المحامي متهالكًا على الأرض كمن أصابته لكمة قاضية، لقد كان سامي صديقه الشخصي المحبب، ثم قفز وصار يمشي في الميدان[١] بعصبية:

- اللعنة... اللعنة على كل هذا..

وقال ميشيل بسخط:

- هُرُّوا.. هرُّوا.. يا رفاق الطريق.. ترحَّموا عليه.. مات. (والتفت نحو حنا) كفى يا حنا، هل تقضي الليلة في البكاء؟

ورفع حنا رأسه:

---

(١) الميدان ممر صغير في القاووش بين صفين من المهاجع.

- هل تظنّون أنني.. أبكي على نفسي؟.. لقد قتلوه.

فقال سليمان مبهوتًا:

- قتلوا من؟

- لقد رأيتهم.. يلفّونه ببطانية. ووجوههم مصفرّة مذعورة.. لقد قتلوه.. لقد قتلوه.

وصرخ ميشيل:

- ولكن بحق العفاريت.. عمن تتكلم.

- ضربوه على رأسه بالعصا.. نزعوا ضرسين من فمه بالكماشة أحرقوا رجليه بالشمع، لقد كان يحشرج.. لقد سمعته.. لقد قتلوه.. أخذوه إلى المستشفى للتغطية.. ولكنهم قتلوه.

لقد كان واضحًا أن حنا يعاني نوبة فظيعة وكأنه يتكلم من عالم آخر، فقد كان ما رآه مرتسمًا أمام عينيه المحتقنتين المسمّرتين على الرعب.. استند برأسه على الحائط وهو يردد:

- لقد قتلوه.. الوحوش.. يا حيف يا حسين، يا زينة الرجال!!.

حسين دوماني العامل الأنيس، الطيّب، الصابر، الذي تزوج منذ خمسة أشهر فقط، حسين الصامت الخجول، الذي يقدم مساعدته دون منّةٍ أو كلل، اختفت من سمائهم ضحكته الخافتة، وأسئلته الدائمة عن معنى الكلمات الاقتصادية الصعبة، ونظروا نحو كومته في الزاوية، كانت مستطيلة سوداء كنعش حزين ودبّ في المهجع الرابع كله موجة من الجنون.

صرخ ميشيل سليم بأعلى صوته:

- كلاب.. لك كلا..ب، اقتلونا كلنا، وحوش، فاشيست.

وبكى فتى في السادسة عشرة من عمره، انتزع من مدرسته رهينة عن أخيه الهارب، وصار يضرب برأسه الجدار ويصيح:

- أريد أن أخرج.. لا أريد أن أموت.

وأمسكه المحامي سليمان بصعوبة.

- لن تموت.. ستخرج.. ولو.. صرت رجلاً، شارباك قد نبتا.. مش عيب؟

- لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت!!

وأخذ الجميع يتكلمون معًا ويصرخون، وبدأت أصوات من المهاجع الأخرى، تهمس مستفسرة، وانهار بعض المعتقلين مستندين على الحائط وهم يرتجفون ويراجعون ذاكرتهم.

وبدا أن النوبة التي أصابت المهاجع لن تنتهي، لقد أفلت الحقد والخوف من عقالهما.. وأخذ كلٌّ منهما يعبّر عن نفسه:

- لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت.

- اقتلونا كلنا.. يا جبناء.. يا فاشيست.. يا فراعنة، نحن نبصق عليكم.

ولكن صنجة مفاجئة وضعت حدًا لذلك، فقد اقتربت خطوات وسمع حوار:

- أنت كلب عكروت.

- .. أنت ورؤساؤك الكلاب العكاريت.

- يخرب بيتك.. خذ.. ستموت (وسمعت خبطة قوية).

- هديب.. هديب(١) يا جبل ما يهزك ريح.

ليك الحيوان ليك.

- أنت ورؤساؤك وحوش وحيوانات قذرة.

خذ (خبطة أخرى) نعم، قبّل هكذا الأرض. أرى الجبل وقع!!

---

(١) تعبير بدوي ياقل للجمل الذي يتحمل كثيراً.

- الجبل هنا في القلب لن تستطيع هزّه.

واقترب الصوتان وهما يتشاتمان، وظهر عريف ضخم يعرفه كل من دخل غرفة التحقيق يسوق أمامه شيئًا، ومد يده إلى زناره مخرجًا حزمة من المفاتيح الثقيلة، وصرّ باب المهجع الرابع وفتح، ودفع العريف الشيء إلى الأرض بجُمْع كفيه، ثم أغلق الباب بسرعة وابتعد وهو يشتم ويزمجر.

- صار لي عشرون سنة بهالصنعة ولم أر خلالها حيوانًا بهذا الشكل.

ونسي معتقلو المهجع الرابع ما هم فيه، ونظروا برعبٍ ودهشة إلى (الشيء) الذي وقف أمامهم ينظر إليهم من خلال الأربطة والضمادات.

لقد كانت جثة حقيقية لمشوّه من مشوهي الحرب.

وأطلقت الجثة ضحكة طفلية مهموسة كأنها المناجاة وانداح صوت رفيع:

- مرحبًا يا إخوان.

* * *

كان رجلاً رَبْعَة،ثيابه البلدية، المؤلفة من سروال أسود وصديرية مقلّمة، تنبئ عن جسم بالغ النحول، أما وجهه فقد لُفّ بأربطة قذرة ملطّخة بالدم تدور حول رأسه وتغطي أذنيه وخديه وبعضـــــًا من فمه، أما قدماه فقد كانتا متورمتين شديدتي الزرقة، تنتهي أصابعها بلطخ حمراء فلا يبدو من خلالها أيّ ظفر.

رمش بعينيه المتورمتين عدة مرات وكأنما أدهشه هذا السكون حواليه،ثم ضحك بوجه الجميع وكرّر بنفس الصوت الرفيع المهموس:

- مرحبًا يا إخوان.

- مئة مرحبا.

وتغلبوا على دهشتهم وذعرهم وانطلقوا يسألونه:

- من أين حضرتك؟

- هل هربت من المستشفى؟

- لقد هرب قطعًا من غرفة التشريح؟!

- يا اسم اللّه، ولكن ماذا فعلوا بك حتى أصبحت هكذا؟

وصرخ ميشيل:

- العمى.. اتركوه يتنفس ألا ترونه يجاهد كي يتكلم؟

قال صاحب الصوت الرفيع وهو يقلص عضلات وجهه:

- أولاً اعصروا لي ليمونة حامضة أَبُلُّ بها ريقي

وجلس بصعوبة مستندًا رأسه إلى الحائط:

- ما في وقت يا شباب.. الحيوان العريف الدرفيل تاه وما سمع الأمر مليح، قالوا له خذه إلى السيلول، حيث كنت منذ أسبوع، فجاء بي إلى المهاجع، وسيأتون بعد قليل ليأخذوني حتى لا تتفضح الطبخة. بالمية مية سيأتون!!.

وصمت الجميع مأخوذين بينما تابع وهو يلهث:

- الحمد للّه اللي شفتكم لأقول لكم القصة كلها، فقد أموت وأروح هدرًا، ولا أريد أن أذهب هدرًا، كانوا سيخترعون قصة بائتة محمضة.. أما الآن فطويلة على رقابهم.

وانفجرت التساؤلات: - هل ذهبت إلى المكتب الخاص؟

- من المؤكد أن الخطيب قد عذبه بنفسه.

- لا تنس فضائل أبو أحمد الجحش.

- متى لقطوك؟

- الاسم الكريم؟

فرفع يديه، وهو يتلمظ بطعم عصير الليمون:

- حلمكم.. حلمكم.. داعيك منصور ميداني، صاحب فرن بحيّ الميدان، أول كل شيء أنا لا أتعاطى كثيرًا بالسياسة، ولم أدخل بأحزاب، ولكني أقرأ الجرائد، وأعرف ما ينفعنا وما يضرنا، ووقت الانتخابات، انتخبت الناس الذين يعرفون أكثر من الجلوس على الكراسي ورفع الأصابع، وكنت أجمع الصنيعة كل يوم ونحكي على سياسات ها العالم، ولم يحب ذلك بعض من ينتفون حواجبهم، ويعيشون - حاشاكم - من عرق أقفيتهم، فأطلقوا على فرني اسم الفرن الأحمر.. ونكاية بهم ملأت حيطان الفرن بصور الشيخ الأشمر.. تاج ميداننا وشيخ ثوارنا.

«وبلا طول سيرة.. انقلبت الدنيا، وعبس وش الدهر، وجاء إلى بلادنا من كنا البارحة نفدي أرواحنا تجاهه في معركة القنال فأتى اليوم يمصّ دمنا ويقتل شبابنا ويرمّل نساءنا.. العمى شوفي يا جماعة؟ شو صار؟ بلاد خربانه؟ داشره؟ بلاد يهود؟ لك شو مالكم شايفين خيرات بعمركم؟ قال عديم ووقع بسلة تين وهات يا سلب.. وهات يا نهيب بشرفي يا جماعة الخير رغيف الخبز الذي كان يدور في يدي كوجه القمر في الشروق، صار يتفتت ويتمزق كغَزلْ البنات، طارت البركة كانت الغلَّـــة- نحمد الباري- تطلق الضحكة عرض دراعين في وجه أم الولاد فصارت لا تكاد تكفي أجرة الصنيعة!! وصدق من قال: الحاكم الظالم يسلب الأرض خيرها والدنيا شمسها نعوذ باللّه من الظلم والظالمين يا جماعة الخير».

«ويوم من ذات الأيام، صرخت لأم الأولاد وقلت لها: اسمعي يا خديجة الدنيا فيها هيك وهيك، وهالحكام مو مسميين بالرحمن، نازلين بها البشر حبس وضرب وقتل، ،ومن أيام جاءني واحد علق، من جماعة آخر الليل، وقال لي كنت بزمانك معلّق صور وتتحدى الناس، وعندما رأى بدي تمتد إلى دف

العجين، قصرها وشمَّع الخيط، ولذلك من يعرف، والعلم عند علاّم الغيوب، فقد أكون بكرة في بيت خالتي[١] فلا تخافي، ولا تقصدي أحدًا، عندك هالخمسمئة ليرة في صندوق الجهاز، في كمّ الصدرية المقصبة اصرفي منها حتى يفتح اللّه ويفرجها عليّ وعلى البلاد كلها، وإذا خلصت بيعي الخزانة والراديو والكنبيات، ولا يهمك شيء، وإذا احتجت أجّري الفرن، الذي يأخذ يعطي، ولا تتذللي لأحد، وقولي للولاد - عندي صبي وبنتين اللّه يخلي ولادكم وعقبال عند العزّابية - أبوكم حبسوه الظلام، لا تقولي لهم سافر أو غاب أو.. مثل عادة الأمَّات.. قولي لهم حبسه الظلام وربهم على كره الظلم والظالمين!!».

وسقط لاهثًا مقطوع الأنفاس، فشرب مصة من كأس الليمون، ونظر إلى العيون المحدّقة فيه بلهفة فعاودته ابتسامته وتابع:

«ظننت أن خديجة ستبكي، ستقطع شعر رأسها، ستولول، ولكن النسوان أجناس، بنت الأصل والعيلة مثل الذهب العتيق - داعيكم آخذ من بيت نجيب، وبيت نجيب طول عمرهم ثورجية أولاد ثورجية، منهم أبو خالد نجيب. اللّه يرحم ترابه الزكي ويعشب قبره الطاهر مات بالثورة - الحاصل.. خديجة - بلا مستحى كلكم إخواني - قامت وباست رأسي وقالت: ولو يا منصور!! أنا تربايتك، لقد عودتني دومًا على الطريق الدغري، احسُبْ دومًا أنك في البيت، إن كان طريقك صحيح خليك عليه، ولا يهمك، اللّه من فوق يحكم ويساعد بعدي اسمه، اللي كاتبه بيصير.

«من عشرة أيام والدنيا برّه حميانه عليكم كبطن الفرن، والناس تقلب كفوفها متعجبة: لك ليش لقطوهم؟ مين كان بالمقاومة؟ هم!! مين اللي كان بالصفوف الأولى وقت الحزّه واللزّه[٢] هم!! مين اللي فضح الخونة

---

(١) أي السجن.
(٢) أي وقت الشدائد.

والمتآمرين؟هم!! طيب ما عدا مما بدا ؟ الآن صاروا بوش؟ الآن صاروا مالهم ولاد الوطن ولحم دراعه ونيرة سنانه؟ شو هي الدنيا هيك بالبرابيك[(١)]؟.

صدري كان ضيّق، يدي ترتجف وأنا ألقم الفرن، والزبونات حولي واجمون كأن عزرائيل فوق رؤوسهم، وإذا بسيارة متل الزلحفه.. طوط طاط طوط بيبيب.. شوفي؟ وقفت السيارة على باب الفرن، ونزل منها خمسة شباب وواحد شايب شيبة النحس، لابسين كزالك[(٢)] سود اللّه يسوّد وجههم، فات الشايب وايده على جيبته ليفهم الناس أن معه فرد، ثم رفع رأسه ونظر إليّ نظرة غدر، فتعوذت باللّه وقلت اللّه يتمم هاليوم على خير، وبعد قليل قال: انت اسمك أبو سليمان الميداني؟فقلت له: نعم داعيك.. خير انشاالله يا أفندي؟ قال امش ولا معنا!!.

أنا سمعت كلمة (ولا) عرفت أن الساعة دقت، ولكني تجاهلت وقلت لوين؟ قال بعنفصة: مش شغلك!! قلت: كيف مش شغلي؟ ومن تكون حضرة جنابك حتى تأخذني وتعطل شغلي؟ قال وهو يتلفت حواليه:

– نحنا من المكتب الخاص.

قلت:

– أنا لا أعرف لا مكتب خاص ولا مكتب عام.. أنا لا أروح إلا بورقة جلب ومذكرة توقيف ومختار، نحنا منعرف القانون.

قال:

– نحنا القانون

قلت:

– شو عملنا؟

---

(١) أي بالكذب.

(٢) أي عوينات.

أجاب:

- أنت قدام الناس من أربعة أيام الساعة تنين ونص بعد الظهر قلت إنو الحالة زفت، وهلأ ما بدها المسألة شوشرة[1] وعياط.. بتروح معنا للتحقيق وترجع بعد عشر دقائق، المسألة بسيطة!!

قلت: ربّك ما بزحزني من هون إلا محمّل على سحليّة[2] الناس بتعرف أن الذي يروح لا يعود.

فشفط شفطة من سيكارته.. شفطة حشاشين ثم انتتر نحوي وصاح..

- ليك العرص ليك.

وهنا يا جماعة الخير، كان فيّ صواب وطار: بعمري كله لم يقل لي أحد كلمة نابية، وما تعودت حطها واطية لأحد، يجي كالعكروت السحنوك الذي لا يسوى نكلة[3] يسبني أمام أهل الحي؟ نطيّت متل البرق نحو دف التقريص[4] فشلته وصفقته به على وجهه، فصرخ وحاد عنه، فأصابه في خاصرته فعوى متل الكوت[5] المنكوت، وفكّ الفرد، ولكني صرت أرميه بكل ما يقع تحت يدي، وهجم جماعته نحوي فأمسكت بمحراك النار وكان أحمر كالجمر، إذ كنت أحرك النار ساعة دخولهم، ورفعته ووقفت وأنا أصرخ: لن أطلع إلا شقف.. قوّصوني.

وعند ذلك حميت الجماجم وهجم الزبونات والصنعية عليهم وأمسكوا بهم، وشقّوا لهم قمصانهم وكان الشايب يقول لجماعته: لا تقوصوا.. لا

---

(١) أي ضجة.

(٢) أي نعش.

(٣) عملة تساوي نصف قرش.

(٤) التقريص هو تقسية العجين إلى أرغفة.

(٥) أي جرو الكلب.

تقوصوا، لأنه يعرف أين هو، وقسمًا باللّه لو قوّص فإنه لن يطلع أحد منهم من الحارة على رجليه.

الحاصل.. ركضوا مهبَّرين[1] مجعلكين نحو السيارة وهم يهددون الأرض والسماء بالحرق والقنابل والقطران، فلما ابتعدوا طارت السكرة وجاءت الفكرة، قلت للزبونات: يا جماعة انتو ما دخلتو ولا خرجتو، روحوا كل واحد على بيته قبل ما يرجعوا وتكبر، قالو لي اهرب أنت يا أبو سليمان، قلت فشروا مالي سارق أو ناهب أو مجرم واللّه لاأترك الفرن إلا على ظهري، والتفتُّ نحو العجان وقلت له: مرّ يا حسين على البيت وقول للعيلة أنهم أخذوني، وأنت يا سالم ياللّه انصرف عالبيت وأنت كمان يا صالح.

وابتعدوا وهم يسبون هذه الأيام الذين لم يروا مثلها من زمان الأتراك ووقفت أنتظر في الفرن وحدي.. جئت بأدوات الشغل ووضعتها في متناول يدي، قلت في نفسي: يا ولد أولتا وآخرتا[2] موته.. موت شريف ولا تموت جبان ذليل، واللّه لا تسلم حالك ولو اجا السراج نفسه.

«وصفنت بالبيت والأولاد ودمعت عيني، ولكني تجلدت وقلت اللي خلقهم يدبرهم، وشعلت سيكارة من ذنب السيكارة وأنا أنظر إلى رأس الحارة.. ما بقي فيها ديَّار ولا نافخ في نار فكأنها في رمضان بعد مدفع الافطار.

ومن بعيد سمعت زمور الخطر.. زمور الموت.. زمور الرعب.. زمور شرطة السرّاج.

* * *

---

(١) أي مجروحين.

(٢) أولها وآخرها.

«جاءت سيارتان من سيارات الشرطة البيك أب ونزلوا منها مثل النمل، وهجموا على المحل كأنهم يحتلون تل أبيب، صرت أقفز من مكان إلى مكان، ضربتهم بكل ما يقع تحت يدي وبعد أن استنفدت كل الأدوات التي جمعتها، انحصرت حصرة أعمى بقرنة، استفردوني ونزلوا فيّ ضرب، صرت أصرخ: طيبة يا أبطال.. طيبة يا أسود .. روحوا على فلسطين وفرجونا شطارتكم، سمعت صوت الرصاص برات الفرن لترويع الحي وسمعت صراخ الناس وراء البيوت والنوافذ، وصار الدم ينفر من وجهي ويصبغ ملابسي، ولكني لم أحسّ داعيكم ضعيف الجسم، ولكن أي قوة هبطت عليّ ؟ وأخيرًا استحكمني أحدهم وضربني ببوز الفرد هنا فوق الجبهة بقليل، فسقطت على الأرض مثل شوال التبن، وهات يا دعس وهات يا رفس. صرت أعض الأقدام والسيقان حتى ذهبت كل قوتي وبردت جروحي وأرخيت يدي على جانبي، فدعس أحدهم ببسطاره على فمي - عرفته وإن كتب اللّه لنا العمر سألحقه إلى الواق واق - فكسر لي سنيَّن وكاد يخنقني، ثم حملوني نحو السيارة، كنت بين الموت والحياة ألقيت نظرة وأنا محمول على الفرن الذي قضيت عمري فيه، وأغمضت عيني لاتقي الدم وهو يدخل في وسطهما، ولكني سمعت صوت خديجة ففتحتهما، ورأيتها من بعيد هي وأختي وأبنائي الصغار ومعهم الصنعية وبعض الرجال، كانت تحمل في حضنها كومة أحجار، أخذت تصيح وتلطم وهي تراني كتلة دم، قذفت عليهم الأحجار وسبتهم حتى انبحت، وجرحت أحد الشرطة في رأسه، ولما هجموا عليها حمي لها بعض الحريم من البيوت المجاورة، ودبت النخوة في الرجال فعربدوا، وعند ذلك فركها الشرطة ومشوا، كان رأسي يخضخض على سيارة البيك آب، وآخر ما رأته عيني وسمعته أذني كان شبح خديجة وصوتها وهي تركض خلفي وتشجعني وتسبَّهم .. هاي هيّ خديجة يا جماعة.. أخت الرجال، النسوان توفيقات وحظوظ.. اللّه يبارك في البطن اللي حملها.»

سُمعت في تلك اللحظة خطوات حرس سريعة، وقرئ اسم من المهجع الأول، ثم انطلقت صرخة متطاولة اليمة وخبطة صماء وسمع صوت باب يغلق بعنف، وبعد لحظات ابتعدت الخطوات وساد الصمت.. فتابع منصور الميداني قصته.

* * *

«فتحت عيوني على أصوات وصرخات وولاويل وخبط وسباب.. العمى على هذا الرابوص، ظنيت نفسي بمنام، ولكن الأصوات زادت وعلت، مديت إيدي لأفرك عيني فلم تتحرك حركت رأسي فطرق كناقوس الكنيسة! غشي علي كم دقيقة وبعدين صحيت، عرفت وين حطني الجّمال، لا بد.. هذا هو المكتب الخاص المشهور، يا حفيظ يا ستار كلكم تعرفونه لا داعي لوصفه، ما شفت متله إلا في مسلخ «باب مصلى»: ناس معلقين بالسقف من كراعيبهم وهات يا ضرب وهات يا جلد، مجانين وفلتانين. قسمًا باللّه شفت اللحم كان ينتثر مع الكرباج، شقف لحم قد راس العصفور.

لما شفت هموم الناس هانت علي همومي!! شباب، بلا صغرة، متل الفل، معلمين ومثقفين وفانين عمرهم بين الكتب، محامين ودكاتره وموظفين وعمال وطلاب أشراف أوادم، عيون البلاد ونظرها، وفلاحين هياكل متل سنديان القدموس، يكهربونهم ويلسعونهم بالنار.. أعوذ باللّه، أنا شفت هالشوفات وطار مني العقل، شوفي؟ شو صار بالدنيا، شو عملوا؟ خربوا الدولة؟ حملوا السلاح؟ نسفوا السرايا؟ حششوا؟ لحقوا الولاد؟.

سمعتهم يريدون دمقراطية، وداعيكم عاميّ لا يفهم هاالكلمات الصعبة، فهمتها أخيرًا، بدهم برلمان، بدهم قانون، بدهم يكونوا بشر لا حيوانات، بدهم يكونوا إخوان للمصريين لا عبيد، يعني بالاختصار بدهم كل الخير للبلد وأهل البلد، طيّب ليش جهنم فتحت فمها عليهم؟ ركَّعوهم على البحص، صبوا عليهم مي متل البوظ في عز البرد، نفخوهم بالمنفاخ، ادخلوا لهم الخازوق، تفوه

على هيك وحوش، تفوه على هيك زلم، ولوه ما في ضمير ولا شرف! العمى.. ولكن فكركم تراجعوا؟ كانوا صامدين ساكتين متل صخر اللجاة.

«صفنت، ولك يا بو سليمان من اللّه بتحب هالجماعة؟ لك واللّه قلبك دليلك، هيك ناس كل الناس بتحبهم إلا المجرمين والأنذال وجماعة النهب والسلب وبناديق الأجانب، دمعت عيوني شهد اللّه، وحركت حالي من فوق البلاط البارد فما تحركت، وقلت يا بو سليمان طاب الموت، أنت مالك أحسن من هالشباب، أنت على كل حال شبعت من عمرك، والولاد مؤمّنين باذن اللّه. وحق المنتقم الجبار لا أسكت لهم على كلمة.»

«شافني واحد منهم وأنا أتحرك، ركض يخبر الشَّلة فجاءوا كفرقة عسكرية، وشفت الشايب وهو يكشر عن أسنانه، قرفص جنبي وقال:عملت رجَّال بالفرن يا عرص؟ هلأ ورجينا شطارتك. فلم أرد عليه، بصق في وجهي فجنيت وفتحت فمي وركبت القرون على راس أجداد أجداده، حتى أحفاد أحفاده، فعلقوا الفلقة في رجلي ونزلوا ضرب، غشي عليّ مرات، وبعدين فاتوا بالغميق قالوا: سب فلان، العن فليتان!! قلت لهم فشرتوا، طويلة عاسنانكم، ليش سبهم؟ شو عملوا؟ إذا كان في ناس بينسبوا فهم أنتم!! عند ذلك يا جماعة أمسكوني، واحد من ايد وواحد من ايد، وقعدوا على صدري حتى انقطع نفسي، ثم جاءوا بكماشة ونزلوا تقطيع وتقليع بأظافر رجلي.»

* * *

سكت منصور الميداني وتاهت نظراته، وانطفأت من عينيه تلك الضحكة الطفلية العذبة، وبدا كأنه يطرد من عينيه أشباحًا رهيبة، وظل هكذا مدة دقائق والصمت حوله واد ضبابي له لون الرصاص، وفجأة اتقدت عيناه من جديد بحقد هائل:

«أنا ما بدي شي من الدنيا، إذا عشت وانقلبت خيمة كراكوز هذه ما بدي إلا أكون سجان هؤلاء المجرمين، وقتها.. يا لطيف على النجوم في عز الظهر.

بقي شي ما جربوه فيّ؟ حرقوا خدودي بالسيكارات جعلوارأسي مصفاية، تختخوا عروقي بالكهرباء، حتى مضي علي بعدها ثلاثة أيام ما بعرف فيها ايدي من رجلي. أخذوني عالمستشفى، قلهم الطبيب خذوه من وجهي، لا أريد جثث أموات هون!!ربطوني بالخرق حتى لا تظهر الجروح ودهنوني بالدوا الأحمر، ولحشوني[1] من خمسة أيام في السيلول، لا سؤال ولا جواب حتى اليوم، فقد جاءني واحد لوح وفوتّني على جماعة الضباط.

نظر إلي ولد منهم أشقر طويل ناتف حواجبه مثل البنات وقال: شفت لك مجنون شو عملت بحالك؟ ضحكت، قلت له يا سيدي أنا اللي عملت هيك بحالي ولاّ أنتم اللي عملتوا فيِّ هيك؟ قال: الك نفس تجاوب ولك عكروت؟ قلت له أنا شريف وطول عمري ما عكرتت على حدا.

تطلّع إلي واحد تاني مثل الدجاجة الطوزا[2] وضحك باستهزاء وقال: ولك أنت سياسي؟ قلت له: أنا بعمري ما دخلت بالأحزاب ولكن أعرف المنيح من العاطل.

فضحك ثالث مثل فرخ الجن وقال: يظهر أنك سياسي فظيع! فما رأيك دام فضلك بمشكلة برلين؟ قلت له: برلين تبع الألمان؟ قال هي بذاتها، قلت له ما بها؟ قال مع مين الحق فيها مع الروس أو الأميركان؟ قلت له بعمري ما سمعت بها الشغلة، ليش ما بتسألني عن بلادنا وشو بدنا ببلاد الناس؟

وقفز ثلاثة منهم نحوي قائلين: شو رأيكم يا سيدي؟ فأجبتهم وأنا أرد على سخريتهم بحدّة: حكم زفت، بدنا ديموقراطية، بدنا برلمان، بدنا حرية، بدنا أخوّة!!

---

(١) أي رموني.

(٢) أي متكبر.

وعند ذلك هجم الثلاثة محمري العيون، وبغضب شديد نزلت علي الكرابيج لا أعرف من أين، وشحطني العريف من أمامهم إلى هنا ورأينا وشكم بخير.

يا جماعة.. أنا ضميري مرتاح، علمتوني هنا أشياء كثيرة، صرت أعرف كم شغلة عن الدنيا وعن الناس، ومعليش كلكم مثل أخواني.. لا تزعلوا السجون للرجال.

أنا حاسس أني واضع رجلي اليمين بالدنيا والشمال بالقبر، من يعرف ما سيفعلون بي؟ ولكن بحق الصحبة والأخوة لا تنسوني إذا مت، انتبهوا للمرا والولاد ساعدوهم، طول عمركم كرام ولاد كرام.

لك شو بكم ساكتين كأنكم في جنازة؟ لك اضحكوا، كل عقدة ولها حلاّل، لولا وجود زلزال تحت أرجلهم ما صنعوا كل هالفظاعات هنا، لك واللّه عم ترجف رجليهم قصب. وبكره بتطلعوا وبتذكروا هالأيام لأولادكم، لك اضحكوا.. لا تفرحوهم وتشمتوهم بالزعل اللي ما له نهاية. ارفعوا رؤوسكم، طول عمركم راسكم مرفوع.. ارفعوا ارفعوا يا أخوان».

ثمة صرخات مبهمة في الطابق السفلي، ومن خلال النوافذ الغريبة تنطلق «جاهز» مبحوحة كنباح كلاب أنهكها العطش، ولكن معتقلي المهجع الرابع لم يسمعوا شيئًا من ذلك، كانوا ينظرون جميعًامفتحي العيون في شيء من الدهشة والاعتزاز، إلى هذا الإله الآدمي الملفوف بالأربطة، المتوقدة عيناه توقُّد مصباح في ديجور، الجذل جَذَلَ طفل في ملعب، ووقف ميشيل سليم ثم اقترب منه وجثا أمامه لحظات، وفجأة مد ذراعيه وقبله بحرارة عدة قبلات، على البقع الملطخة بالدم، على الشفاه المتورمة المتمردة، على الخدين الغائرين الناتئة عظامهما.

وبوغت منصور برهة، وضحك بارتباك.. الضحكة الناعمة الفضية كأجراس عنزات جبليات.

وسمع وقع أقدام مسرعة، فرفع منصور رأسه وتنهد ثم قال بأسى:

- شرّفوا..

ووقفت الأقدام عند الباب، وصرَّ الباب ثم فتح ووقف الرقيب بيطار والعريف الضخم يحمل رشيشه ويتفحصان المعتقلين ثم قال الرقيب بصوت هادئ:

- منصور الميداني!!

- حاضر.

- قوم خيّ قوم.. غلط هالتيــ..(واستدرك وهو ينظر إلى العريف الذي اضطرم غضبًا) مكانك بالمستشفى، قوم خيّ قوم سنأخذك إلى المستشفى ونداويك!!

ووقف منصور بصعوبة ثم التفت نحو المعتقلين وطرف بعينيه وابتسم

- بخاطركم يا أخوان.

واندفع الفتى ذو الأعوام الستة عشر وانطرح تحت رجلي العريف صائحًا:

- بعرضكم .. دخيلكم.. داخل على دين محمد.. طالعوني.. لا أريد أن أموت.. لا أريد أن أموت.

وركله العريف ركلة قذفته مترين، وصرخ المهجع:

- تنكسر هالرجل.

- يا وحش، يا كلب تضرب طفلاً.

- جبناء.

- فاشيست.

وذعر الرجلان وأخذتهما الدهشة، وتذكر العريف أن بين يديه رشيشًا فهيأه وصوبه نحو المهجع:

- كل من يتحرك يموت.

وأنَّ الفتى.

- دخيلكم.. أريد أن أطلع.. لا أريد أن ..

وغرق في بكاء هستيري فاجع.

وامتدت يد العريف الطليقة فنترت منصور الميداني، وأغلق الباب في عجلة، وصرت المفاتيح بالأقفال وسمع صوت العريف:

- ولك عكروت.. شو حكيت معهم؟

- أولاً أنت العكروت، ثانيـــــاً حكيت لهم كل شيء.

- خذ يا ابن ستين صرمايه، ستموت في السيلول كالكلب الفطيس (صوت خبطه).

- واحد مثلك يموت كالكلب الفطيس!

وتدخل الرقيب فزجر الاثنين، فهمهم العريف متوعدًا؛

- موتك على هالايدين.

- اللي أكبر منك ما خفنا منهم، بقي علي سحنوك سلبود[١] مثلك!!

وغاب هذا الحوار عن الأسماع عندما انتهى الممر الطويل.

همد بكاء الفتى فأصبح زفرات مرتعشة، وجلس الجميع يحدق بعضهم في بعض، كان روح جديد، ناعم وعذب ولكنه مليء بالقوة يسري في دمائهم. وقفز سليمان هائجًا يذرع المهجع ذهابًا وإيابًا ويقول وكأنه اكتشف حقيقة كانت في ذهنه نظرية:

- هذا هو الشعب.. هذا هو وجه سورية الحقيقي. وندَّ من أحد الأركان صوت بدا فريدًا مترددًا ثم أخذ يقوى ويشتد، وانضم إليه صوت وصوتان، ثم

---

(١) أي ضئيل حقير.

انطلق المهجع كله، وتلته المهاجع المجاورة وارتج المعتقل بالأصوات الغاضبة:

اضرب يا جلاد.

واقفل يا سجان.

لن تقوى الأصفاد.

أن تمحو الإيمان[١].

وكان سدّ «جاهز» المحكم في الخارج يتشقق ويتطاير والاصداء الفتية المنبعثة من أعماق المهاجع تلاحق أشلاءه عبر الظلام.

وسمعت أصداء ضحكة مخنوقة من الطابق السفلي.

١٩٦٠

(١) نشيد المعتقلين في سجن المزة.

الجنّازتان

غدًا وغدًا وغدًا

وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة

يوماً بعد يوم

ألا انطفئي أيتها الشمعة الضئيلة

فما الحياة إلا ظل يمشي

[شكسبير]

(مكبث)



رفع الطبيب رأسه فجأة، ثم نظر إلينا واحدًا واحداً بشكل استعراضي، فأدرت عيني إلى أبي وأخوتي. كان الرعب متجسدًا في عيونهم، أما أمي فقد كانت مسجَّاة هناك، على السرير النحاسي الأصفر، تتصعد أنفاسها في بطء ومشقة، وهي تحاول السعال، فلا يخرج من فيها سوى أنين خافت. وتعلقت عيناي بوجه الطبيب المتجعد كقطعة خيش. وخيل إلي أنه يتهمنا واحدًا واحداً وغمغم:

- لا أفهم.. كيف تركتموها حتى الآن.. كان يجب التصوير منذ سنوات.

وتهادى بطيئاً غاضباً نحو الباب:

- عليّ بالمطهر وقفز أربعة منا لتلبية النداء، وراحت يداي تبحثان في الدرج في ارتباك مجنون حتى وجدته، فقدمته إلى الطبيب وقد أحسست بشيء من الزهو.

ووجد أبي أخيرًا الكلام:

- طمّني يا دكتور فأجاب بإيجاز وهو يهز رأسه:

- إنها في خطر!!

وسعل.. بينما نظر بعضنا إلى بعض في حيرة

- إنه السل الرئوي.. وهذه هي آخر حالاته.

وغضب من جديد!!

- لا أفهم.. لا أفهم حقاً كيف يموت إنسان من هذا المرض في هذا العصر. فقط كان يجب أن تبدؤوا من زمن طويل..

وصفَّر في حقد:

- ولا أظن أن المال كان ينقصكم.

وشعرت برعشة تهزني، وخيل إلي أن رأسي أكبر من الغرفة وأسرعت بالخروج لأخفي دمعة باكية، ووجدت أخواتي واقفات مترقبات فبادرنني بأسئلة عدة: ما لك مكفهر الوجه؟ ماذا قال الطبيب؟ وهزتني أختي الكبرى النمشاء: قل.. انطق.

فقلت بصوت أردته أن يشبه صوت الطبيب:

- هي مريضة بالسل الرئوي

ونظرت إليّ أختي الكبرى وقد تقلص وجهها فبدا كجلد الفيل، وقلت مندفعاً في حمق:

- ألم أقل لكم من زمن طويل؟..أنتم.. أقصد نحن قتلناها.

ويظهر أن دموعي التي رافقت كلامي هي التي شفعت لي، فقد نظرت إلى أختي في وحشية وبرقت عيناها الباردتان وتخيلت كلمتها الخالدة:

- اذهب يا كلب

وأسرعت بالدخول لأجد الطبيب يلملم أدواته بهدوء طقسي وبصوت قدري حاول أن يُلْبِسه مسحة من التأثر همس:

- إذا استطاعت أن تقاوم فستعيش إلى المساء .

ونظرتُ إلى المنبه.. الساعة الآن العاشرة.. ثماني ساعات فقط وتكون أمي العزيزة قد غادرت هذا العالم إلى عالم مجهول لا نعلم عنه شيئاً!!

* * *

- فائز!!

- نعم بابا

- انقل الكراسي من القاعة إلى أرض الدار. هناك كرسيان في غرفة أخيك لا تنسهما.

- فائز!!

- نعم بابا

- لماذا ضربتَ أختك.. يجب على الإنسان أن يملك رشده عند الشدائد. لقد أصبحتَ رجلاً.

ورفعت رأسي إليه بعنف.. كنت أريد أن أصيح.. يا قاتل يا قتلة.. لقد تكاتفتم جميعًا وقتلتم أمي!! ولكن وجه أبي كان حزيناً جدًا.. حزيناً بشكل يفتت القلب، فسكتُّ، ولكنني كنت أبكي.

- اذهب يا ولدي وخذ الباص وأسرع إلى بيت جدتك وأعلن خالتك النبأ.

ذهبت إلى غرفتي متثاقلاً، ومررت بيدي على وجهي فوجدت ذقني نامية.. لا بأس سأرتاح من الحلاقة أسبوعاً طويلاً، وشعرت بارتياح خجول عندما تذكرت كذلك أن عندي بذلة سوداء وربطة عنق سوداء يجب أن ألبسهما، ولبست البذلة وعقدت الربطة وأنا أنظر في المرآة إلى شعري المهمل، ووجدت يدي ترتفع لتشوشه أكثر، ثم انسللت من الباب الخلفي لأخبر خالتي.

وركبت السيارة وأنا أتساءل:

ما معنى أن أمي قد ماتت؟

يا له من سؤال سخيف يطرحه فتى على نفسه.. وشعرت بتفاهة معلوماتي.. وأحسست بالناس حولي غريبين عني. نظرت إلى وجوههم الجامدة بغيظ، وتمنيت أن يعرفوا جميعاً أن أمي تموت لأحظى بشيء من المهابة.. ووخزني قلبي.. يا لي من حقير! وهززت كتفي: وبعد، ألست من طينة أولئك الذين أهملوا أمي وتركوها تموت حتى لا يدفعوا أجرة الطبيب؟

وارتفع صوت بكاء مزعج لطفل صغير، فأخذت أمه تهدهده وتعلّله الأماني وصراخه يزداد حدة، بينما قال أحد طلاب التجهيز وهو يخفي وجهه:

- عطيه بزه!!

فضحك بعض الناس وعبس آخرون، واندفع أمامي شخصان في مناقشة حامية عن أسعار القمح وضرورة وجود مؤسسة الميرة وكان أحدهما يصيح بابتهاج:

- العمى. بلعونا.. سرقونا.. بلاد القمح واهراءات روما أصبح الزيوان فيها بسعر الذهب.

وسمعت صوتًا ورائي لشاب مراهق يتنهد ويمصمص بشفتيه وهو يطري جسم تحية كاريوكا، بينما صم آذاننا بوق سيارة قد أفلت في باب الجابية فنزل صاحب السيارة يحاول أن يصلحه وهو يبصق ويسفح اللعنات.

وقفز إلى ذهني خاطر: كم أتمنى أن يفقد هؤلاء الناس جميعًا أمهاتهم في هذا اليوم ليشعروا بعمق مصيبتي، وابتسمت في سخرية، المهم أن أمي قد ماتت.. أو ستموت بعد ساعات، وتصورت يدي تدق الباب وخالتي تفتحه، ثم تشهق حينما ترى وجهي الكامد وأنفي اللامع من الدموع، وأقول بصوت أحاول أن أجعله خطيرًا:

- إن أمي قد ماتت.

وتصورت وجهها المليء، وقد اتسعت حدقتاه وغشّاه الدمع وصوت لطماتها وعويلها، والكلمات التي ستولول بها.. إن مهمتي لا تخلو من الإثارة الحقَّة.

ستقودني خالتي من يدي بسرعة لأطلعها على التفاصيل، وستسألني أن أخفض الصوت حتى لا أزعج جدتي المقعدة التي هي على شفا الموت. وشعرت بغُصَّة من الغضب: هذه العجوز الدردبيس، كم شاهدت في حياتها

من مآس ونكبات ، أنجبت ثلاثة عشر ولدًا مات أكثرهم في المهد، وعاش لها خمسة أولاد مات أحدهم وهو في الثلاثين من عمره بالسل الرئوي، ومات جدي بلدغة ثعبان، وحفيدها تحت أنقاض سيارة تدهورت في وادي خالد..كل هذا وهي لمّـــا تزل قوية مكينة قد جاوزت الثمانين، واحتفظت بكامل قواها العقلية، تدفن أبناءها بيدها مودعة إياهم بدمعتين وولولتين، ثم تعود إلى جلستها فوق كرسيها العتيق الصدئ. ووجدتني أصرخ من أعماقي.. أما كان من الممكن أن تموت جدتي مثلاً عوضاً عن أمي؟ إذن لآمنت بأن هناك عدلاً في الحياة، وأن عيناً بصيرة حقاً، كريمة حقاً، ترمق هذه الدنيا وتسيرها. لقد شبعت جدتي من الحياة، وشبعت من رؤية الأحبة يموتون في عزّ شبابهم.. هذه العجوز كم أتمنى أن أخنقها، ماذا رأت أمي من الحياة بعد؟ وتصورتها صحيحة معافاة تملأ البيت مرحًا وغناء. وأحسست أصابعها تغرق في شعري وتهيب بي:

- هيا يا فائز. انجح السنة وسأكفّ عن مصادرة علب الدخان من جيوبك. فأضحك من أعماقي وأضمها بعنف:

- سأنجح يا أمي. أريحي فكرك أنا ذكيٌّ ابن ذكية.. يومان أدرس فيهما ويكفي!!

وترتسم على وجهها ظلال من الشك:

- هل ستنجح حقاً؟

وساءلت نفسي مرة أخرى.. كيف ماتت؟ وهل الموت بهذه السهولة؟ يا ليتني أستطيع أن أموت عوضاً عنها. وخز آخر في قلبي، والعرق يبلل جبيني، وخجل يكاد يخنقني.. هل أنا صادق؟ هل أتمنى حقاً أن أموت لتعيش أمي؟ والشعر، والقصص، والشهرة، والرسالة التي أعتقد أنه يجب أن أؤديها، ومباهج الحياة؟ يا لي من جبان لو كنت مكانها لما تردّدَتْ لحظة واحدة في فدائي بعينيها.

وشعرت بلساني يجف، وأخذت أتشاغل بالنظر، ثمة بائع للعرقسوس يضرب بطاسته الهادرة، وتلك امرأة تبدو غير محترمة، وتلك سيارة بويك طراز الواحد والخمسين تدور حولها. عبثاً أحاول أن أبتعد عن نفسي.. وخزة ثالثة في القلب.. يا لي من حقير.. حقير لدرجة مُغْثِيَة.

* * *

أمسكتني خالتي من يدي في ذعر، وآلم ذراعي ضغطٌ عصبي قاسٍ ثم قادتني إلى الصالون وفاجأتني بقولها:

- لا تقل شيئاً، إني أعرف أن أمك في خطر!!

واعترتني دهشة فيها بعض خيبة الأمل، فقلت لها بصوت خافت عدائي:

- ومن أخبرك يا خالتي؟

- إن شيئاً منذ الصباح يقبض على نفسي، إني أعرف أعراض المرض (وشهقت بالدمع) ألم يمت المرحوم خالُك فيه؟ ولكن أنت لا تذكر.. واولداه.. واولداه..

وغابت قليلاً في ذكرياتها ثم قالت مندفعة:

- لو اعتنيتم بها قليلاً لتداركتم المرض من أوّله.

فقلت بصوت هادر:

- إنهم مشغولون يا خالتي بعُرس أختي، لقد أعمتهم الفرحة فلم يلاحظوا أمي وهي تذبُل.

- واولداه واولداه على شبابك يا طربون الحبق.

- إنهم قتلة.. كلهم.. قتلة.. قتلة..

وخيل إليّ أن نظرات خالتي تخترق صدري.. نعم نعم يا خالتي إن لي جزءًا من المسؤولية. وأخذت أبكي، فضمتني خالتي إلى صدرها وأحسست

بدفءالصدر اللذيذ وباضطراب غامض وأحببت رائحة ثيابها ولكني تخلصت بسرعة فقالت لي بعجلة:

- احذر يا عين خالتك أن تسمع جدتك، لقد قال الطبيب إن أقل صدمة ستقتلها (وأخذت تبكي بحرقة) لا أريد أن أفقدها أيضاً وصمتت قليلاً وقالت:

- سألبس ثيابي، انتظرني ولن أطيل عليك.

وتوارت وهي تضرب كفاً بكف، وخرجتُ إلى غرفة جدتي، ووقفت متهيباً الدخول، ولكن صوتها دعاني في خفوت أن أدخل. اذن فقد شعرت بي. وبدا وجهها نحيلاً جدًا كأنه لُعبة طفل، وخيل إلي أنها تهللت لرؤيتي، فقد كانت تحب أمي وأولادها حب عبادة، فوقفت أمامها قليلاً دون أن أتكلم.

ومدت إليّ يدها فأخذتها باشمئزاز لأقبلها فقالت في هدوء:

- كيف حال أمك؟ لم نرها منذ مدة. لقد أخبرتني خالتك أنها متوعكة.

فأخذت أغالب دموعي، ثم انفجرت في البكاء وقلت لها بغيظ وحقد:

- إنها ماتت يا جدتي.

فرمشت عيناها وحدقت فيّ برعب لا يوصف ثم قالت بصوت متحشرج:

- ماذا.. هل قلت.. هل.. يا فائز..؟

- ألا تسمعين؟ (وأخذت أهزّها) ماتت.. ماتت.. أنتِ العجوز الفانية تعيشين، وهي الصبية الفاتنة تموت!!

ثم علا صوتي راعدًا وأنا أضغط على يدها بدون وعي:

- لن تموتي حتى تدفنينا كلّنا!!

واهتزت يدها في يدي هزة عنيفة.

* * *

وفي اليوم التالي سرت مع الموكب الحزين وهو يتجه صوب المقبرة كنت أغصُّ بالدمع كلما لاح لي النعشان الخشبيان المتعانقان، واندفعت أمام عيني صورةُ جدتي جاحظة العينين مائلة العنق، ووجه خالتي وقد امتلأ بالتأنيب وصورتي وأنا أركض وأركض كأنما تطاردني الأشباح، لأختفي في الدرب المتعرج الطويل!!

* * *

ثلج هذا العَالم

إنني وحيد، ولكني أسير كفرقة
تهبط نحو مدينة!!

[سارتر]

(الغثيان)



الثلج ينهمر وينهمر عبر مربعات النافذة الحديدية حتى لقد آلمه اللون الأبيض، ومسح بيده على شعره.. العالم مختلط مشوش... وبرزت في وجهه أسنان تحمل سكاكين، وأذرع عارية تلمع عضلاتها تحت وهج الشمس وهي تضرب وتضرب في حقد، وينفجر الدم حارً قاتماً بعض الشيء كنبيذ معتق واستطال جسده عملاقاً رهيباً، وخيل إليه أن أصابعه امتدت وامتدت حتى استطاعت أن تمسك بخمسين عنقاً دفعة واحدة وأن تضغط عليها، والأذرع العارية ذات العضلات، ترتخي شيئاً فشيئاً كذنب حية سحق منها الرأس. والعيون المكحلة الهمجية، تبرز من محاجرها في ذعر لا يوصف.

ويستريح، وينكمش، وينظر إلى جسده الضعيف البارز العروق، ويدور رأسه في صنوج تنقطع فجأة.

وحدق في الطلاب ساهم الوجه.

خيل إليه أنهم فقدوا هوياتهم في نظره.. مجموعة من العيون المتطلعة في حماسة تشرب كلماته ووجهه وحركاته وتعابيره. هل يقول لهم كل شيء في بساطة؟ ألا يكون الخبر بالنسبة لهم هو استجلاب جوّ بطولي أسطوري له، كنهاية ملحميَّة لكل أحاديثه معهم؟

ولكن الصمت.. الصمت الوقور هو الذي يشعره بجوهر المأساة الحق. رغم أن هذه المأساة تبدو له سطحية ضعيفة هيولية لها استطالات متعددة كرأس موجة متكسرة.. مائعة مجوّفة كقربة ليست منفوخة جيدًا.

والتقت عيناه بعيني أحمد عاطف في قرنة الصف.. وداعاً يا أحمد عاطف.. وداعًا يا صاحب الوجه الأنيس.. أقول لك الحق؟! لقد كنت طالباً مبرزًا، وفوق ذلك، كنت تقبل على الحياة عفويًا كقفزة غزال مذعور.

وكانت عينا أحمد عاطف قلقتين.. ستنقطع الدروس الخاصة يا أحمد!! أتقلق من دفع الحساب؟ لن آخذ شيئاً بالطبع منذ قررت أن أساعدك.. يكفي أنك أتحت لي التعرف على إنسان طيب.

ومن على المنبر الذي لا يبرز منه إلا رأسه وجزء من صدره، كان يتكلم بصوت متقطع. ولم يألف الطلاب من مدرّسهم محمود الأدلبي هذا المنهج في الحديث.. فوضع يديه أمامه على المنبر، وشعر أنهما ترتجفان، ثم أدخل يده اليمنى إلى جيبه فاصطدم بها، وانقطع عن الكلام.. كانت بين أصابعه كحقيقة قاسية مخرّشة.. وفركها طويلاً وسمع خشيشها المكتوم.

العيون تتطلع إلى الشيء الجديد في الأستاذ الذي أحبوه.. أتعرف يا أستاذ محمود.. أنت أستاذ.. لا ندري ماذا نقول، أستاذ لذيذ!!.

في الصباح قال له ياسر أبو السباع: النبيتات وصلوا أستاذ. تنكة من أجود كروم الكَفر.. لا يوجد مثلها في الشام.. دمعة رايقة. ستشربها نخبي يا ياسر، ستشربها مع أختك الجميلة وأمك العجوز، وستنهل حتى يعرف خداك الهزيلان الشاحبان الإحمرار.

في البيت.. بعيدًا في الشام، سيقول أبوه أشياء كثيرة وشارباه الشائبان يرتجفان، وفي عينيه نظرة غاضبة مبهمة.. وتذكر قوله:

- قلت لك يا محمود.. نحن ننتظرك فاشعر بمسؤوليتك.. أبعد عن الشر وغن له.. لا نريد وجع رأس.. لقد انتظرنا الحصرم طويلاً فلا تسحق العنب. جاء دورك، في رقبتك خمس أنفس تنتظر المعاش، بدون حماسة زيادة عن اللزوم اللّه يرضى عليك.. تذكر أبويك العجوزين وأختك المريضة وأخاك الذي يهلك في سبيل تسعين ليرة.

ومسح محمود على عينيه، اليد المرتجفة لا تزال تفضحه، والعيون الكثيرة فيها دهشة وحيرة. وفكر: يجب أن أتوقع كل شيء، كل كلام له جواب

وثمن، وإلا فكيف تكون الحياة؟ولكن هكذا.. وبشكل سريع مفاجئ.. والحقيقة القاسية تخشخش بين أصابع يده اليمنى؟ لقد كان يشعر حقًا بالضياع.

- إلى أين وصلنا بالقراءة يا أخوان؟

وفاجأه صوت فيه دهشة:

- أية قراءة يا أستاذ؟

- قراءة الشعر.

- ولكنك قلت لنا البارحة إن الدرس إنشاء.

- آه..

وأدركه ارتباك يسير، وقفزت إلى ذهنه طرقات لا نهاية لها مغطاة بالثلوج، والبرد يكاد يقصّ الرُّكَب، والسيارة تمشي وتمشي، ضمن الوحل والمطر والثلج، وهو يهوّم ويصطدم رأسه بحاجز المقعد أمامه، ومدينة غائمة نائمة، وفندق صاحبه سكران، ووجوه جديدة، وعيون جديدة، ووجه يبتسم في وجهه ابتسامة كالسيف.

- درس إنشاء آ ؟ من يريد أن يقرأ موضوعه؟

وارتفعت الأيادي.. غابة من الأصابع ترقص في وجهه، ونظر من النافذة التي تواجهه..أي طقس فظيع هذا؟.

- الدنيا برد جدًا.. المدفأة انطفأت مرة ثانية.. إرمِ فيها حطبتين يا سلمان.

ما أحوجه الآن إلى أن يرجع للبيت، وأن يشعل المدفأة ويستلقي على سرير يلتهم الدفء، ويحلم بعالم جميل ليس فيه ابتسامة تلمع كالسيف، الناس جميعهم فيه يضحكون بسعادة..وصاحبة البيت في القرية تضحك في سعادة، وأبوه نفسه يضحك في سعادة.. عالم كله حدائق وعشاق وأطفال، وثلج غير بارد، ودفء فناجين الشاي وبخارها يتعالى مع دخان السكير، وتماثيل من

البرونز والحجر تبرز لك من بين الشجر كالسحر، وألحان أكورديون بعيد، وشاعر أعمى يغني بصوت رخيم في الطريق يقوده طفل ضاوي الجسد ذو جدائل ذهبية، وأخوه ينعم بامرأة جميلة تتحمل ذرات الحديد التي تتراكم على ثيابه في المعمل.. وقطار سريع يطل على حقول من القمح والبرسيم والزهور البرية المتألقة، حقول خضراء لا تنتهي.. وملامح غريبة وثياب عجيبة ولغات متعددة يفهمها كلها وركضٌ جنوني ومرح حتى تنطفئ الحياة.

والعيون تحدّق فيه ثابتة ثبات نظرة القلق والدهشة فيها.. يا إلهي لماذا تقلق العيون؟ لماذا تمّحي الطفولة السعيدة منها؟.. عالم طفلي!! وأعجبه التعبير.. كل فرد فيه يتصرف وكأن كل حركة يأتي بها فجائية نابعة في عفوية انبجاسة قطرة من صخرة.

وخشخشت الحقيقة السوداء بين أصابعه، وساد غموض وتشوش، وبرزت الابتسامة التي تلمع كالسيف.

- ما هو الموضوع يا شباب؟

- الحرية يا أستاذ.

وأضاءت وجهه ابتسامة، فانزاح القلق عن العيون وابتسم أحمد عاطف وتنهد بارتياح.

- الحرية؟ اقرأ لنرى.. أنت.. عفوًا فهد نصر.. طيب طيب اقرأ يا فهد موضوعك.

«الحرية شمس ساطعة تنير الأكوان، الحرية شجرة تفرش ظلها على الكائنات وهذه الشجرة إذا لم نسقها بدمائنا تموت، ورحم اللّه شوقي حين قال:

وللحريـــة الحمـــراء بـــاب بكـــل يـــد مـــضرجة يـــدقّ

أجل يجب أن نضحي بأنفسنا قربانا على مذبح الحرية.. ».

الثلج لا يزال ينهمر.. ورأس كبير أسود بعين واحدة، يتقدم ويتقدم.. حتى يكاد يلاصقه ويقبض على عنقه، وطقطقة المدفأة ورائحة الخشب المحترق بعيدة.. بعيدة.. ذات صوت مكتوم أصم كضربات سوط منقوع بالخل.

الجلادون يعصبون عيوني بأصابع قاسية..

إنني أعشق الشمس.. أعشق الزهر.. أعشق امرأتي.

ولكنني هنا في زنزانة مظلمة..

لم يبق لي لذة في الحياة.

سوى خيط من الضوء الحار يلتوي على وجهي.

ويذهب نحو غيري بسرعة

ويخونني كعاهرة حقيقية.

المقصلة تقطع الرؤوس وتقطع وتقطع.. والرؤوس تتقدم باعتزاز وإيمان نحو الشفرة اللامعة.. وجيد أسود وعينان حمراوان معذبتان ملطختان بالدم والدموع.. وزنزانة ضيقة وأنين قيود:

نحن هنا في الزنزانات.

اسمعوا صرخات قيودنا.

إنها تهزأ بالسجانين.

وأفلتت أصابعه في جيبه الحقيقةَ السوداء، وانقلبت قسوتها لينة مائعة سخيفة لا لون لها.. وعصرها طويلاً.. يا لها من شيء هشّ.. نزهة يائسة لا معنى لها، وضحك من تفاهة مأساته وشعر بارتياح ونقر على المنبر:

فهد نصر .. تذكره الآن جيدًا. إنه صامت دومًا كأبي الهول، تذكر وجهه النحيف حينما تقدم إليه أول السنة قائلاً:

- أستاذ محمود.

- نعم.

وتلعثم فهد وأطرق قليلاً:

- عفوًا أستاذ.. هناك حديث خاص أريد أن أحدثك به.

- تفضل.. تعال نتمش خارجاً في الحديقة.

وبدت في عينيه سعادة لا حدود لها.. وأخذ يدخل يده في جيبه ويخرجها في ارتباك:

- أنا من قرية عرمان أستاذ.

- بالمقرن الجنوبي؟

- نعم.

- خير.

- أنا فقير جدًا يا أستاذ.. أخي خالد يبعث لي بالشهر عشرين ليرة أعيش فيها هنا بالسويداء.. أختاي في المدرسة الابتدائية وأبي ميت وأما أمي فهي عجوز مقعدة.

وسكت قليلاً وزاد ارتباكه وتلعثمه فقلت مشجعاً:

- تكلم يا فهد، إذا كنت تحتاج إلى شيء من المال..

- أعوذ باللّه..

ونظر في عينيّ مستطلعاً ثم قال:

- لقد قبضوا البارحة على خالد، ضربوه في وسط القرية أمام النساء والشيوخ، ثم أخذوه إلى الشام.

وتصور الأستاذ محمود أباه فجأة.. كان ثوريًا عتيقًا حارب الفرنسيين وهو الآن يحتقر كل شيء:

- أنذال يا ابني، قال حاربوا الفرنسيين قال.. أنا أعرف تمامًا أن نصف الذين يحكموننا كانوا مع الفرنسيين.

ولمس الأستاذ وجهه، وخيل إليه أنه دامٍ باللكمات، وعينا أبيه تفضحانه بهدوء فيه اعتزاز: إفعل أيّ شيء ولكن لا تحْنِ رأسك لمخلوق، ولا تفعل أيَّ شيء يلزمك أن تحني رأسك لمخلوق.. الكرامة كل شيء يا بني.. عندما كنت في عصابة الغوطة...

- وماذا أستطيع أن أفعل من أجلك يا سيد فهد.. قلت إنك لا تحتاج إلى المال، فمن أين تأكل؟.. وأبعد فهد قدمه عن ضفدعة تنطّ بين الحشائش:

- لقد دبرت نفسي، أنا أنتظر فرصة الظهر، وعند انصرافنا في المساء.. أنتظر السيارات الآتية، فأساعد الركاب في حمل متاعهم.. أنا أجني ما يكفيني.

- عظيم يا فهد.. يوفقك اللّه.

- ولكن قل يا أستاذ هل أخي على حق؟لقد تحدث بأشياء فظيعة عن الحكومة في المجالس وبين الفلاحين.

وتذكر أنه حدثه طويلاً، ولن ينسى أبدًا نظرة الاعتزاز والكرامة والفرحة التي زرعها في عينيه.

- شكرًا يا أستاذ أنا مرتاح جدًا.

«أجل.. ورحم اللّه من قال: إذا لم أحترق أنا وتحترق أنت فمن أين يخرج النور؟»

موضوعك جيد يا سيد فهد.. اكثرت قليلاً من الجمل المقتبسة، تحدثوا ببساطة.. في كم من المواضع وردت هذه الجمل عن الحرية؟ كثيرًا أليس كذلك؟ إنها تفقد بعد ذلك مدلولها وتأثيرها.. تحدثوا من قلوبكم، عن أثر الحرية في وطنكم، في بيتكم، في حقولكم، في أنفسكم لا تخجل يا فهد نصر

فموضوعك حسن السبك يدل على قراءة وثقافة.. ولكن هذه ملاحظات عابرة لا بدمنها، موضوعك يستحق علامة مرتفعة: الستين مثلاً.. من يريد أن يقرأ؟

وقل عدد الأصابع واختار الأستاذ واحداً.

- تفضل يا سيد علي الشوفي.

«الحرية.. يا له من اسم عظيم جليل الشأن في حياة الأفراد والمجتمعات وإذا تفحصنا التاريخ، نجد دوماً أن بعض الناس من الصفوة والأغنياء والإجراء للأجنبي، يكبتون حرية المجموع، ويسمى هذا بالحكم الدكتاتوري!!.

فلنقل جميعاً لتسقط الدكتاتورية بأنواعها وخاصة العسكرية...»

وتوفزت أصابع الأستاذ على المنبر وبدا كمن فوجئ فقال مقاطعاً:

- تمهل قليلاً.. هل أنت ذاكر بعد هذا أسماء خاصة.. أسماء حكومية؟

فقال الطالب باستهانة وحماسة:

- طبعاً أستاذ، أنا واضع النقاط على الحروف، وأذكر كل شيء عن وضعنا ووطننا..

- لماذا؟

وتطلعت العيون إلى الأستاذ في ثبات، وأحس بها تتفحصه كأنها تنظر إليه لأول مرة.

- أنت علمتنا ذلك يا أستاذ!!. ألم تذكر كل شيء في دروسك؟

- أنا؟..

وابتسم واسترخت أصابعه على المنبر.

الثلج ينهمر، والحقيقة السوداء المخشخشة في جيبه لينة سخيفة تافهة، والعيون المحدّقة فيه طيّبة، رجولية وأنيسة تتوقّد كنجمة الصبح، سيرى غير

هذه العيون، وسيسمع غير هذه اللهجة.. لقد تعود عليها، وسيعتاد تلك، وستقول اللهجة الجديدة:

- أنت علّمتنا يا أستاذ.. ألم تذكر كلَّ شيء في دروسك؟

الوجوه تتقدم.. والسواعد المفتولة ترتفع في الهواء ملوثة بالغبار والعرق، والعَلَم متمزق ولكنه مرفوع بعزم، ويدويّ الرصاص، ولكن السواعد المفتولة تتقدم.. ووجه يشبه وجهه ولكنه يختلف عنه بأنه عملاق الجسم مفتول الساعدين متهدل القميص غليظ الشفتين جهوري الصوت، يندفع وعروق ساعده نابضة ناتئة يرتجف عليها الشعر المشقرّ من الشمس المحرقة، وأصابعه قابضة على شيء ثقيل ثقيل لا يقدر على حمله خمسة رجال وهو يلّوح به كقضيب من القنّب. والوجه يندفع إلى الأمام ويلوح بالشيء الثقيل.. والغضب يتشظّى من كل حركة من حركاته.. يندفع إلى الأمام دائماً، يهز الجدران، ويدفع الدبابات ويلوي الحديد. وتتكاثر الوجوه.. وتتكاثر الوجوه.. وتتكاثر متشابهة حتى لا يرى إلا هذا الوجه الأليف، ولا يسمع إلا هذا الصوت القوي.. والرصاص يغلي حوله ومن خلاله وبين أعضائه ولكنه لا يصيبه، والطرق تتشابك وتبرز منها السواعد والأعلام الممزقة حتى تسد الأفق والطريق والأرض كلها.. وتقلص كفاه، وأحس بأن شخصاً بغيضاً ككتلة من شحم يرتجف ويذوب حتى يتلاشى كورقة جريدة محترقة سرعان ما تتطاير مع الريح. وتشابهت الوجوه المحدقة فيه، وعريت السواعد، وخيل إليه أن نظرة حاقدة على كل شيء ترتسم في العيون.. لقد أفسد جمالها، هذه البحيرات العميقة العذراء.. عكّر ماءها الجلادون السود، ولكنه يؤمن بها، يثق بأنها ستصفو عن ماء ولا في صفاء قلب طفل..

- طيّب يا سيد علي..أكمل موضوعك قل ما تريد!!

وأدخل يده إلى جيبه وأخذ يعرك الورقة اللينة بين أصابعه.. الإنسان واحد.. جميل.. بهي، رائع.. مدهش.. إله!! في كل مكان وتحت كل شمس.. يا أخواني.. يا أبنائي يا طلابي الأعزاء.. يا علي الشوفي.. يا بطل.

لقد دهش أتمّ الدهشة، عندما رآه بعد أسبوع من قدومه إلى المدرسة. لقد عرف كثيرًا من الحالات البائسة الشقية، وقرأ عنها في الكتب أكثر، ولكن الموقف كان نموذجيًا!! فأمام عمود النور في البرد القارص رآه واقفاً يقرأ.

- أنت طالب في المدرسة؟

- نعم أستاذ.

- عندي في الصف كما أظن؟

- نعم أستاذ.

- ماذا تفعل هنا؟

- أستذكر دروسي!!..

- ماذا؟.. تستذكر دروسك؟ وهنا في الزمهرير.. أليس عندك بيت؟

- عندي، ولكننا نسكن سبعة في الغرفة وقد انتهى زيت الكاز من الفانوس وليس معنا...

وتذكر كل الأساطير حول جبل الدروز: أسطورة استعمال الخبز الأبيض كأدام داخل خبز الذرة والشعير الأسمر، وأسطورة السير صباحاً عشرة كيلو مترات في الثلج إلى المدرسة. لقد قضى هو بالذات طفولة بائسة حقاً.. كان يدرس في دمشق وأبوه يعمل كالمستقتل لتعليمه، وأخوه يدس في جيبه كل صباح بعض الفرنكات وكان هو يختنق بالعواطف ويرى في كل سطر يقرأه كدح أبيه ووجه أخيه الملطخ ببرادة الحديد.. الوجه الصامت أبدًا.. المعبّر دائماً.

وارتعش الأستاذ محمود.. العالم جميل ودافئ..وأذرع حانية تمسح على شعره، وأنفاس حارة تداعب وجهه وتقترب وتقترب حتى تنفذ من سلسلة ظهره.

- أستاذنا لقد وعدتنا بتحليل قصيدة ابن الرومي في الوطن وشعر بحرقة ومرارة وأجاب بصوت خافت:

- في دروس مقبلة

وداعبت يده الورقة في جيبه.. الورقة ذات الخمسة الأسطر.

«أمر إداري:

(ينقل المدرس المتمرد محمود الإدلبي من ثانوية السويداء إلى ثانوية الحكمة.. وعلى المذكور أعلاه أن يلتحق بمركز عمله الجديد بعد أربع وعشرين ساعة..).

- ونصوص النثر؟

- في الدرس القادم.

- تحدث لنا يا أستاذ عن الأوضاع عندنا.. تحدث لنا عن الحرية، نريد أن نعرف ماذا يفعل الشيشكلي بالبلاد..

(إذا لم يلتحق صاحب العلاقة المذكور أعلاه في الوقت المنوه عنه فهو يعد مسرَّحاً من الخدمة وفقاً لأحكام القانون رقم ٢٣ الصادر في ١٩٢٤/٧/١١ والمعدل بتاريخ ١٩٥٢/٣/٥).

وشعر أنه يريد أن يتحدث إليهم طويلاً.. أن يقول لهم أن البحث في الحرية أساسي ومفرح، كفرحهم بالثلج الذي يدفع بالماء إلى أعماق الجذور داخل الأرض. أن يتكلم ويخبط على المنبر بيده مستهيناً باليد الحاقدة السوداء تمسك بتلابيبه.. أن يفعل أشياء كثيرة كما كان يفعل من قبل، ونظر في الساعة:

- تداركنا الوقت، سنتحدث عن كل هذا غدًا أو بعد غد أمامنا وقت طويل.

وتصوّر رجلاً آخر جالساً في مكانه على المنبر.. أستاذ آخر يحدّق في العيون ويقول في اهتياج:

- الحرية يا إخوان.. الحرية أولاً، لنناضل في سبيلها.. لنمت كي يعيش أبناؤنا مبتسمين سعداء.

وأنه سيدخل بعد أربع وعشرين ساعة قاعة جديدة، ويتعرف على أسماء جديدة.. في بلدة نائية كنجمة لا يكاد يدركها خياله.. تفصله عنها طرق وأوحال وثلوج. ثم يقول لهذه الوجوه والأسماء الجديدة كأنه يتمم درساً بدأه:

- لقد وعدتكم يا إخواني أن أحلل لكم قصيدة ابن الرومي في حب الوطن... وكذلك نصوص النثر.

وينظر داخل العيون التي لم تفاجأ

- ووعدتكم أيضاً أن نتحدث عن الحرية.

وسيداعب في جيبه عند ذلك ورقة أخرى، حقيقة سوداء تخشخش في جيبه مرة أخرى «يسرّح المدرس المتمرن فلان..» إلى الطريق.. وشاربا أبيه الأشيبان يتهدلان في بؤس، وعينا أمه تعتبان وتعبدان معاً.. والسير المتجول.. والسجن والتعذيب، والتنقل ضمن أراض اللّه الواسعة: مساعد صيدلي.. أجير محام.. كاتب عرائض.. مدرس دروس خاصة.. محرر صفحة الوفيات والجرائم في صحيفة مشبوهة..والرجال ذوو السواعد يتقدمون يحملون في أيديهم نارًا عظيمة، وكل المياه التي يوجهها إليها رجال بدون رؤوس، ما كانت إلا لتزيدها اشتعالاً كأنها ترش بالبنزين.. والرجال ذوو الأعلام الممزقة يتقدمون.. وشاعر ذو ربابة يلتهب ويغني للبشر بصوت عميق:

أومن بالشاعر

الذي يدفئ بشعلته

ليالي الحفارين والبنائين

ليالي البحارة العاتية.

عندما قرع الجرس خرج الطلاب بهدوء أخرس، وظل الأستاذ محمود الادلبي جالساً على المنبر يستعرضهم واحدًا واحدًا بعينين تحترق فيها

الدمعة.. إن من المريح أن يقول لهم: ليس هناك غد، ولا بعد غد!!. سيكمل غيري.. لن أرى المدير ولا ابتسامته التي تلمع كالسيف، ولعلي سأعرف ابتسامات أخرى أشد مضاء وأقتل حقدًا.

وأحنى رأسه مبتسماً لأحمد عاطف.. لا تقلق يا أحمد.. لا تخجل من الحساب... أما النبيتات يا ياسر.. تشجع يا فهد نصر يا خالد نصر الصغير... مع السلامة يا علي الشوفي.. أيها الأسطورة.. وعندما خرج كل الطلاب أحس بفراغ لا نهائي، وطنت أذناه وهمس من أعماق قلبه:

- وداعاً

* * *

الثلج ينهمر.. والأستاذ يبتعد عن المدرسة، نقطة سوداء في المحيط الأبيض، كان الصقيع يتكسّر تحت قدميه وهو ينتزعهما منه بقوة وعزم.

١٩٥٣

محَطَّة السَبعَا وأربَعين

لقد سمعت الفاشستية من فم شرطي قازان، قبل أن أقرأ كلمة واحدة لنيتشه .

[غوركي)
(جامعاتي)



عندما يعرف الإنسان خصمه، يعرف خطته وأساليبه وطرقه في المناورة، يحس بلذة حينما يقاتله.. لذة تشبه الوَجْد.. فها هنا عدو كُفء، إذا انهزمتَ أمامه مرة.. فلن تشعرَ بالعار فأمامك معارك أخرى.. المهم أن جزءً عظيما من حياتك أصبح متعلقا بوجوده، بألاعيبه ومفاجآته.. وكم هو شاق وبارد ذلك الفراغ الذي تحسه عندما تنتصر الانتصار النهائي. إن مرارة الهزيمة أهون شأنا من ذلك الفراغ...

ولكن طريق دير الزور الحسكة، كان من هؤلاء الخصوم الذين لا يُقهرون...

فعندما يصل السائق إلى دير الزور ينزل من سيارته فيفحص الفرامل، ويكشف على الزيت، ويطمئن على الهواء، وينظر إلى سطح السيارة المليء بحقائب الركاب بقلق ثم يرمق الغيوم.. وبعد أن يسأل عن «الشيفروليه» التي سبقته، وعن «الدودج» الذي سبق المطر إلى الحسكة، ويطمئنَّ إلى أن سائقيها قد أخبرا الدير بالهاتف أنهما وصلا بالسلامة دون أن تحدُثَ حادثة... يجلس وراء مقعده وينفخ يديه ويأخذ نفساً طويلاً ثم يهمس:

يا ساتر يا رب.

ويبدأ الصراع..

في البادية يبدو المكر متخفيا وراء التراب، فليس هناك طريق معين!! هناك ألف طريق كلها تُفضي إلى الحسكة، ومن الصعب، إلا إذا كنت قد أمضيت عشرة أعوام تذرع الطريق، أن تعتمد على درب خاص تسلكه. وكل سائق يزعم أنه يسير على الطريق الوحيد القصير السهل، ولكنهم مع ذلك كانو كثيرًا ما ينقطعون في البادية يوما ويومين، حتى تأتي سيارة الدرك وتنتشلهم من المستنقع الذي غاصوا فيه.

ذلك أن البادية تصبح بركة من الوحل في أعماق الشتاء، وتظهر الدروب من بعيد وكأنها خطوط تفضي إلى البحر، وعوضا عن السراب الذي يأخذ بريقه الأبصار في حمّى الصيف، تمتد أمامك برك حقيقية، تحتار في أيها تخوض وأيا منها تتجنب لقد كشّر الدرب عن أنيابه العكرة الرمادية، ومد طرقه أمامك كأرجل الأخطبوط فيجرك قليلاً قليلاً نحو الأعماق الباردة، وعند ذلك، تصغر كل خبرة لهؤلاء الدهاقنة العتق، الذين ظلوا ينقلون الركاب بسياراتهم بين الدير والحسكة طوال عشرة أعوام أو تزيد.

وكم يبدو علم الجغرافيا في تلك اللحظات، علماً عاطفياً إلى أبعد حد.. فلم تبقَ الدير أو الحسكة هي الشيء المهم الآن!! المهم بضعة بيوت من اللبن والطين، ومخفر درك، وقهوة كراسيها مسنة متخلعة، وماء آسن من تجميع قطرات المطر، وبضع ذُبالات من أضواء تتراقص في العاصفة برعب. وتبدو هذه المحطة عاصمة الدنيا بالنسبة للسيارة وراكبيها، فبعد مئة وثلاثة كيلومترات من الطين والوحل والبحرات والانزلاق والتيه، تظهر محطة (السبعة وأربعين) بر الأمان، حيث يتوضح بعدها الطريق، ويصبح أسود لامعا معبدًا بالإسفلت حتى الحسكة..

إن علم الجغرافيا أمين على تسمية الأشياء بأسمائها، بما تشتهر به.. وهو قد حبى هذه القرية الحقيرة بأعظم اسم في مخيلة سكان تلك المنطقة، بالاسم الذي يبعث الأمل والحب والمرح في قلوبهم، بالرقم الواقف بين حدود الأبدية المؤلفة من مئة وخمسين كيلو مترًا.. ففرقها مئة وثلاثة، وسبعة وأربعين. وأعطى للقسم الحي الضاحك هذا اللقب (قرية السبعا وأربعين).

ولكن ماذا يعني كل هذا بالنسبة لمعلم منقول من السويداء إلى الحسكة؟

عندما خرجنا من دير الزور كان الجو مجلّلا بالصمت.. وسقوط المطر متوقع بين لحظة وأخرى.. السماء عجيبة تتوازعها أصناف من الغيوم الثقال تنفصل وتترابط إلى ما لا نهاية، وساعة المساء كانت مقبلة فلم نحس بها، ذلك لأننا لم نر الشمس منذ أيام أربعة.

يا لها من نقلة بائسة.. فعندما تركت السويداء كان الثلج حتى الركب، والصقيع يغرز في العظام كلسعة الكهرباء، وطوال الطريق من السويداء.. حتى دمشق.. حتى حلب.. حتى دير الزور.. كنت أرفع قدميَّ المتجلدتين عن أرض السيارة وأفركهما حتى أشعر أنهما جزءان مني.. بينما نزعت أخيرًا أنشوطتي حذائي نهائيا لأخفف من رصه عليهما. ولأول مرة.. رأيت رجلاً عجوزًا في (الرقة) يدفن رجليه في رماد منقل خبت ناره منذ لحظات، وهو يتلمظ في لذة منكرة.

كان الشيء الذي يحتل تفكيري هو الفضول.. الفضول لكل ما أراه وأسمعه.. لهجة جديدة، تصرفات جديدة، مناظر جديدة. وكنت أستنشق الحياة مع الصقيع، فلم تكن الرحلة خالية من المفاجآت والزخم بحال.. وكانت خيالاتي منصبة كلها على الحسكة.. القبائل، البدو.. القتال.. العاصفة، حيث لا يحجبك عن الريح والمطر إلا نسيجٌ من شَعرْ مرقع ألف رقعة.. على الناس الذين تؤلّف الخيل جزء من أجسادهم، على الإنسان الذي لا يساوي هناك الطلقة النَّارية التي تتربع في أمعائه.. على قصص الصحراء الخيالية حيث يعتبر رد فنجان القهوة إهانة لا يغسلها إلا الدم، عن المِنْسَف الذي لا يقدر على حمله عشرة رجال.. وكنت أتصور البدوي.. ملك هذه الأرض البالغة الاتساع، كما يتصور الطفل أحد مرَدَة الأساطير.. وكنت أتمنى أن أشهد معاركهم التي تدور في الليل حول اختطاف امرأة، أو انتقام لثأر أو ضيف، أو سرقة نعاج.. حيث يعلم الواحد منهم أين يضع رصاصته في ليل لا يعرف الإنسان مكان يديه.. أتمنى أن أسمع الأهازيج، ومراثي القتلى، وأشم رائحة نارهم الخاصة.. يا له من عالَم كبير.. كبير!!

* * *

كانت أضواء السيارة المندفعة تكشفُ عن أرض ممتدة كراحة اليد، وقد يصطدم طائر مذعور، أو فراشة حائرة بزجاج السيارة بين حين وآخر، طيور

متوحشة تعيش على النبات القليل الذي يتموج في بعض مساحات ضيقة من الأرض، وكان جاري السمين في المقعد يهوّم ويشخر قليلاً في صوت رتيب يتساوق مع هدير المحرك، ويميل عليّ بجسده حتى ليكاد يسحقني، فلا أستطيع بين حين وآخر إلا أن أسعل في أذنه حتى يفيق، أما بقية الركاب فقد استكانوا جميعاً وانكمشوا في مقاعدهم، وخفَّت ضجة الحديث، اللهم إلا بعض همهمات غنائية كان السائق يسلّي نفسه بها حيناً بعد حين.

انقطعت الهمهمة الغنائية فجأة وحل محلها صوت ناقم خافت

– العمى!!

ونظرت إليه.. خيّل إلي أن عطلاً ما قد طرأ على السيارة. ولكنه مد يده إلى ماسحة الزجاج وأدار زرّها..

فعلى الزجاج كانت دموع كبيرة جدًا تتزلج بسرعة وتغيض في النهاية متسربة على غطاء المحرك.. وتابع السائق بنفس الصوت الخافت.

– ابتدأنا..

وأمسك بمقود السيارة بقوة، وأصلح من جلسته، ثم أشعل سيجارة وأخذ أُهبته للمعركة المقبلة...

ولكن المعركة كانت قريبة جدًا.. فبعد لحظات، أفاق ركاب السيارة جميعهم على زمجرة الرعد، وخطف عيونهم لمعان البرق، وطغى صوت المطر على صوت محرك السيارة نفسه.وارتفعت بضعة أصوات قائلة بغبطة:

– اللّه يبعث الخير.

فأجاب السائق بغلظة:

– فهمنا اللّه يبعث الخير.. لكن ليس هنا.. ثم همس كأنه يبتهل..

– لو نصل فقط إلى السبعا وأربعين!!

فقال أحدهم من ورائي وهو يتثاءب:

- توكل باللّه يا رجل.. صار لنا ساعتين ماشين، ساعة ثانية والسبع وأربعين قدامنا.

أجاب السائق وهو يرفع سيكارته بغيظ:

- أول البارحة - اللّه يبعد عنا - بطقَّت أربع سيارات كبيرة شحن، وواحدة تكسي.. غاصت كلها في الطين حتى منتصفها... الأرض شبعانة، ونقطة مطر مثل هذه تثقبها كالمسمار، بعد دقائق سنبحث لا عن الطريق لكن عن طريق بين الماء!!

فأجاب نفس الصوت:

- صلِّ على النبي أبو إبراهيم.. مالك جديد هنا، فاني عمرك في الطريق... ميسَّره إن شاء اللّه...

أفاق جاري السمين واستمع إلى آخر الحديث ثم مال بجسده إلى الأمام وضرب على ركبتي دون أن يعيرني أيّ اهتمام وقال:

- اللّه يأخذ هيك حكومة!!

وحاول أن يعود للنوم.. قلت له:

- السبعة وأربعين.

فأجاب بلهجة متعبة:

- السبعا وأربعين؟ ما لها السبعا وأربعين؟

- ما معناها؟ هل هي إشارة؟

فتح جاري عينيه إلى آخرهما بدهشة شديدة، لأول مرة نظر إليّ من أسفل حذائي حتى ناصية رأسي بازدراء عظيم وقال بهدوء:

- منين أنت؟

- من الشام.

فطقطق بلسانه عدة مرات قبل أن يقول:

- شامي آ... أهلاً وسهلاً... السبعا وأربعين؟ الآن سترى ما هي السبعا وأربعين... مدينة عامرة (واهتز كرشه بضحكة خفيضة) سترى أن الوصول إلى بيتك لا يشعرك بالراحة مثلما...

وقطع حديثه فجأة ونظر إلي بنوع من التحدي:

- ستتعب كثيرًا هنا.. الشام ظريفة آ (ولكزني بمرفقه أنت مُلاَّ) [1]؟

وسكت كأنه ينتظر ردِّي، أما أنا فقد شعرت بشيء من المهانة للطريقة التي يتكلم بها، ولما لم أفتح فمي بكلمة، فقدتُ كل ما يشعره بوجودي في لحظة واحدة.. أغمض عينيه الخضراوين الغائضتين في كتلة من الشحم المترهل، وعاوده النوم بسرعة.

كنت أحس أن أعصاب الركاب جميعـــــاً متوترة، فبعد السكون العميق الذي كان يخيم على الجو.. أخذوا جميعاً يتكلمون، كانت أحاديثهم بمجملها منصبة على المطر.. وكانت القصص تروى عن (البطق) حيث تنقطع السيارات أياماً في البادية. وزعم أحدهم أن سيارة ركاب كبيرة قد نهبها البدو، وأن المسافرين صاروا يأكلون الحشائش، حتى أنهم ذبحوا كلباً شاردًا اجتذبته رائحة الإنسان وأطعموا من لحمه الأطفال! بينما قال آخر أن سيارة الدرك المعدّة لانتشال السيارات المنقطعة، معطوبة منذ يومين؛ وهي جامدة في السبعا وأربعين، وأن تصليحها لا يتم إلا في حلب أو دمشق. وكان الفلاحون الذين كانوا ورائي يتحدثون بسرور عن سنة الخير هذه وعن أن الأرض قد شبعت ولن تحتاج بعد إلى أمطار أخرى.

اشتدّت زخّات المطر حدّة على زجاج السيارة، وكنا لا نرى من خلال المدى الذي تطالُـــهُ أضواء السيارة إلا هذه الخيوط المتدفقة من الماء..

---

(١) الملاّ باللغة الفارسية والكردية والعراقية العامية: المعلم أو الشيخ.

وأخذت السيارة تترجرج وهي تنزلق في البرك وتنحدر في الحفر، ثم تثب من جديد.. وخيم الصمت.. صمت متوفّز قلق، العيون كلها تنظر عبر الطريق، واستمر الصمت حوالي خمس دقائق ليقطعه السائق بصوت يائس:

- يلعن دين والدك!!.

هب الجميع ورفعوا رؤوسهم إلى الأمام، واستفاق جاري دُفعة واحدة. لم نعرف ماذا يعني السائق بشتيمته، ولكننا كنا جميعاً نشعر أن شيئاً ما مخيفاً قد وقع، انحنيت على الزجاج الأمامي فإذا بالسيارة تسير في بحيرة حقيقية. الماء يجري فيها هادرًا كأنه الفرات، والسائق يراوغ ذات اليمين وذات اليسار بدون فائدة، فالأضواء كانت لا تقع إلا على الماء العكر..

وصاح صوت:

- بطَّقنا يا جماعة..

وكأن هذه الكلمة قد فتحت كل ما خزن في قلوب هؤلاء الركاب من كلام.. فأخذوا جميعاً يتحدثون:

- الحق على السائق.

- ترك الطريق الزين ومشي بالماء...

- يا جماعة روقوا بالكم وصلّوا على المصطفى.

- الولد مريض وما يقدر على تحمل البرد.

- واللّه بخمسة أيام لن يجدونا

قال جاري السمين وهو ينظر إليّ وكأني أمثل عنده دمشق والحكومة التي فيها.

اللّه ياخذ هيك حكومة.. شاطرة بس تاخذ مصاري العباد وتتركهم شاردين بالشول.

صرخ السائق بصوت كالرعد علا على كل الأصوات:

بس يا جماعة... العمى... بيعونا سكوتكم... عميتم قلبنا.. يلعن دين أبو هالصنعة ودين السيارات ودين اللي ابتدعها.. ودين اللي يركب بيها.. واللّه ركب الحمير أشرف. بشرف النبي...

ولم يكمل السائق صراخه فقد أحسسنا بخبطة هزتنا، ثم وقف المحرك فساد سكون عميق..

أدار السائق المحرك ثانية، وكبس بقدمه على المسيِّر فأخذت السيارة تهتز وتلهث دون فائدة.. دفع بقدمه إلى آخرها وبدا صوت العجلات كأنين حيوان مذبوح، ولكنها كانت تدور في مكانها لا تتقدم خطوة واحدة... وشممنا رائحة المطاط المحترق من فرط الاحتكاك.

أطفأ السائق المحرك ونزل يستطلع الأمر..فتعالى صوت بكاء طفل مع همهمة ساخطة لشيخ عجوز.. وبعد قليل عاد السائق ورجلاه حتى الركبتين ملطختان بالوحل.. فجلس على كرسيه، وتنفس بهدوء كأن مهمته قد انتهت، بعد أن ظل ساعات يعيش على أعصابه ثم قال:

- سمْك الطين أربعون سانت.. يجب أن ندفعها. ساعدونا يا شباب.

سأل أحد الركاب:

- هل السبعا وأربعين بعيدة؟

- أظن أنها على مسير ساعتين مشي!!

- يا حبيبي على الحميّة.. والسيارة؟ نتركها؟ نلعنها؟ الكل قادرون على المشي؟. أما شباب زفت..

قال رفيقي السمين:

- لا تضيعوا الوقت بالعلك.. يا اللّه يا جماعة انزلوا ندفعها.. هي دفعتان وتطلع.. الرجال يزحزحون الصخر.

نظرت إلى بذلتي اليتيمة برعب.. كيف أنزل في هذا المستنقع الموحل؟ من الذي سيزيل البقع عن البذلة في بلدة ليس فيها كواء واحد؟.

ولكن نظرات جاري جعلتني أنهض بتثاقل فلكزني بمرفقه مبتسماً:

- هيه شامي. هل فهمت الآن ما هي السبعا وأربعين؟قل معي اللّه يخزي هيك حكومة.. انزل أخوي انزل، قال شيشكلي قال!

رفعت ساقي البنطال حتى ركبي بعد أن نزعت حذائي وجوربيّ.. بينما كان السائق يقول بشراسة لبدوي غارق بمقعده لا يتحرك:

- وأنت يا بو الفوارس.. قاعد مثل النسوان؟..تحرك ولكن البدوي قال بهدوء:

- واللّه يا أخي لا أقدر.. أنا ساخن والبارحة طلعت من مستشفى الدير.

- باطل باطل معافى.. قالها بسخرية مرة.

أجاب البدوي بهدوئه السابق:

- اللّه يعافيك. غصنا في الوحل.. وتوازعنا أمكنتنا على أطراف السيارة. كان جاري السمين يقود الحملة.. أنت يا عم إيدك على الرفراف وأنت أمسك من هنا.. يا اللّه يا شباب يا اللّه اليوم يومكم واحد اثنين ثلاثة..

ودفعت مع الرجال ودفعت، وظلت العجلات تئن، واستطعنا أن نحرك السيارة مترًا، مترين، ولكنها كانت مع ذلك تغوص كلما تقدمت، وبدا أننا ندفعها إلى جب عميق وأن لا فائدة من أي شيء.

وارتفعت الأصوات:

- ما في فايدة المشي للسبعا وأربعين أشرف.

- ناس يحملون الأطفال وناس الأمتعة.

- السبعا وأربعين قريبة مشي ساعتين وبس.

في تلك اللحظة رأيت البدوي المريض يمد رأسه من الباب وينزل. كانت عيناه السوداوان تتفحصان الأفق بنظرة، وقف يستمع إلى الأقوال بصمت.

قال السائق من الداخل:

- أنا سأنام بالسيارة.. اتركوا الأمتعة وابعثوا لي من السبعا وأربعين سيارة الدرك.

فرد عليه أحدهم بغيظ:

- اللّه يأخذك ويأخذ سيارتك.

- اللّه يسامحك.. يا جماعة انظروا إلى خلق اللّه.. أنا ما هو ذنبي؟ هذا مطر؟ هذا سيل.. يلعن دين...

قال البدوي فجأة بصوت خافت:

- هذا ليس طريق السبعا وأربعين هذا طريق الرقة.. تهنا عن الطريق.

- ماذا؟

قالها الكل باستنكار وغضب، وحدجوا البدوي بدهشة بينما غمغم السائق:

- ليك المسطول ليك.. روح بول على نفسك ونام.. أنت رايح تعلمني صنعتي ..

ولكن البدوي قال.

- السبعة وأربعين بعيدة أكثر من عشر ساعات مشي، وهذه أراضي عشيرة جبور.. هذه أرض مفلوحة وليست أرض بور.. أنا أعرفها زين.

- ليك التيس ليك..

قالها السائق وقد شعر بالقلق ونزل يستطلع.

وتابع البدوي كلامه:

- ساعتين مشي مغرّب نصل لمشروع مفلح الجدعان، أحسن شيء أن نسير إلى هناك!!

أدخل جاري السمين يديه في الماء ثم رفعهما ونخر غاضباً:

- إي وربي أرض مفلوحة، ضاربك العمى وطالع من الطريق، صار لك ساعة تسب وتشتم وإنت تيس ابن تيس..

- لا يا سيدي أنت تيس وأبوك تيس ابن ألف تيس. وتصايح الاثنان ففرقهما المسافرون. وانصرفت الأفكار إلى الخروج من المأزق قال السمين للبدوي:

- تعرف الطريق زين لمشروع مفلح الجدعان؟

- أعرفه زين.

- أنا من جهتي سأذهب معك، من يروح؟

وساد بعض الصمت ثم وافق اثنان آخران فنظر إليّ جاري وقال:

- ملاًّ.. معلم أفندي.. تروح معنا؟

نظرت إلى البدوي فوجدته واثقًا من نفسه بصورة مطلقة، وبحثت الأمر من كل وجوهه ثم قلت:

- أنا معكم..

- يا اللّه يا جماعة.. اتركوا أغراضكم في السيارة وسنرسل لكم من هناك - إذا يسّر اللّه ووصلنا - معونة وأكل.. اللّه معكم..

وعندما ابتدأنا السير ونحن نرفع رجلاً من الوحل لنضع أخرى، انضم إلينا ثلاثة آخرون. أخذنا نتبع البدوي صامتين، لا نهتدي خلال الظلام الدامس إلا على صوت وقعِ أقدامنا في الماء.

قال جاري السمين الذي كان إلى جانبي:

– هيه شامي.. ستتعب كثيرًا.. هاي الجزيرة وليست الشام.قول معي اللّه يأخذ هيك حكومة. آ ؟اللّه يأخذ مواعيدها وشيشكليها، شاطرين بالحكي بس (قال حمار طقّع نار جاوبه اسمع وسطّح) قول معي قول.. قول يا ملاًّ قول.. تفوه..

* * *

كنا أعجب قافلة في الدنيا.. لقد أصبحنا جزءاً من الطبيعة فلم يعد يؤثر فينا البرد والمطر.. التصقت ثيابنـــا بأجسادنا وهي تعصر ماء.. الحقيقة الكبيرة التي كنا نشعر بها هي المطر والظلام، وهذا البدويّ الغامض الصامت الذي كان يسير كأنه قطعة من الليل، أحسست شيئـــــًا فشيئـــــًا أنني أنفصل عن العالم القديم، وأنني بسبيلي إلى دنيا جديدة قاسية وفظّة ولكنها أصيلة، دنيا لا يفتن فيها سوى عُريها اللانهائي وصراحتها المطلقة. لا أدري بماذا تفكر هذه الرؤوس السبعة التي ترافقت معها.. لعل كلاً منهم يحلم ببيته ودخان أعواده المحترقة وزوجته وأولاده.. بالدفء، والشمس، والربيع، وموت الجابي، والانتهاء من الحكومة أو المالك. كان كل منهم يحمل سره معه ويطويه في صدر أعمق من ظلام هذا الليل الرهيب. أما أنا فلم أكن أحس بأية خيبة أمل، رغم أنني لم أكد أغمس لقمتي في هذا الطعام المسموم.. ورغم أن الأمور جرت بسرعة مذهلة حتى كنت لا أقوى على التفكير، لقد كنت أتصرف باستسلام من دهمته موجة فترك نفسه لها، لكل آلامها وأفراحها. لم أفكر بالمقاومة، وإلا كنت ناشزًا في هذه السمفونية الفاجعة.

كنت أحس مع كل نقلة مؤلمة من قدمي أنني أعبّد طريقاً جديدة، وأن كل آلامي أصبحت ضرورية ضرورة آلام المكتشفين والمغامرين.. وهاأنذا أضع قدمي على أرض مَوات ستخصب بالموت أوالفرح، ها هنا تبدو كل أفكار الإنسانية متساوقة مع عري الحياة البدائي.

قطع جاري السمين الصمت بصوت غاضب:

– ولَك يا ولد.. مشينا أكثر من ساعتين. فين قرية الكلاش[1] ابن الكلاش مفلح الجدعان هذا؟

فأجاب البدوي باقتضاب:

– قربنا نصل.. الصبر زين العجلة شين.

– أخاف أن تكون تُهت أنت الآخر.فردد البدوي بصوته السابق:

– قلت قربنا نصل. الصبر زين والعجلة شين.

– فين ساكنه جبور؟

– مغرّب.

– أيّ جبور؟

– جبور الفاضل.. جانب حرف الجبل.. عند البقارة [2]

– بقارة الجبل؟

– اي نعم.

– سليمان صاحبي.

فلم يرد البدوي.

– من أي عشيرة أنت يا ولد؟

– شرابي.

– شرابي؟

– نعم..

---

(١) الكلاش: الخف.

(٢) جبور والبقارة والشرايين عشائر عربية تسكن منطقة الجزيرة شمالي سوريا.

فأجاب السمين بتردد:

- تشرفنا..

ثم قرّب مني وهمس:

- الشرابيّين مشهورين بسرقة الخيل..

ورفع السمين صوته:

- الشيخ حاتم فين ساكن اليوم..

- مغرّب الحسكة.

- ولد زين.. صاحبي.

فلم يردّ البدوي أيضاً.

ثم ساد الصمت من جديد.

وبعد مسير حوالي ربع ساعة قال البدوي وهو يشير أمامه:

- وصلنا!!..

أمعنت النظر جيدًا باتجاه إشارته، فلم أر شيئاً مطلقاً سوى الليل المظلم، ولكنني ما أن تقدمت عشر خطوات، حتى سمعت نباح كلاب بعيدة أخذت تقترب، وبدت بيوت اللبن والطين سوداء كقطع من الليل.. وأخذت الكلاب تقترب بنباحها المتوحش. صاح البدوي فينا:

- اجلسوا على الأرض..

فلم أفهم شيئاً من جديد:

- اجلس على الأرض.. الكلاب متوحشة ولكنها لا تهاجم الجالسين!!

ولم يكمل كلامه.. وصلت الكلاب إلينا في اللحظة التي تربعت فيها بالطين.. فتحلقت حولنا وأخذت تنبح بشراسة وعيونها تضيء في الظلام كجذوة حمراء. كان قلبي يخفق برعب، وتذكرت بعض حوادث كلاب العرب التي تمزق الناس في الليل كالذئاب الضارية.

وكان يبدو أن هذا العذاب سيستمر إلى أن ينتهي فضول الكلاب الخائف فتتجرأ على الهجوم، عندما انفتح باب قريب، فظهر خيط عريض من النور ووقف على عتبته شخص طويل ضخم في فمه سيجارة.. يلبس بنطال ركوب الخيل، وجزمة طويلة عسكرية وعلى جنبه مسدس، وبدا لي كأحد أصحاب القصور القساة كما تُصورِّهم الأفلام السينمائية.

صاح بصوت غليظ:

- من هناك؟

فأجاب السمين بصوت متحشرج:

- ضيوف مقطوعون.

- منين؟

فقال البدوي:

- انقطعنا بالسيارة يا مفلح بك..فأجاب الصوت بتردد:

- يا حياكم اللّه..

كان الحوار يجري متقطعاً بين نباح الكلاب الهمجي فصرخ بها مفلح:

- كوش كوش.. كوش..

فابتعدت الكلاب وهي ترسل شرارات نظراتها الغاضبة إلينا.. وقمنا ونحن نتحامل على أنفسنا، وتقدمنا إلى المكان المضيء..

وأفسح لنا المضيف الطريق فدخلنا إلى مضافة كبيرة دافئة جدًا. في منتصفها ركايا القهوة مع كمية كبيرة من الجمر.. وعلى المخدات كان يجلس رجال كثيرون نظروا إلينا بصمت وعجب.

* * *

منذ عشرين عاماً نقل ضابط درك في الأربعين من عمره إلى الجزيرة، كان يبدو قاسيًا جلادًا أمام الفلاحين، وكانت العشائر التي لا يجسر أحد على

التعدي على تخوم أراضيها سواء أكان المعتدي ابن حكومة أو غيره تقول: إن الجزيرة لها بلاءان ضابط الدرك الجديد وانحباس المطر.

وبقدر ما كان ضابط الدرك الكهل متكبرًا أمام الناس، كان آية في اللطف والكياسة مع الفرنسيين، فكانت ترقياته تتالى بسرعة غريبة.. وهذا الضابط الذي جاء من دير الزور يدًا من قدام ويدًا من وراء، أصبح بسرعة البرق من أصحاب الثروات الضخمة.. فكل مخفر درك في طول المحافظة يعرف هذه الحكمة:

ما لقيصر لقيصر وما لمخفر الدرك لمخفر الدرك! فكانت غنائم وأسلاب اليوم من شوال برغل إلى تنكة سمن، ومن خروف سمين إلى عشر دجاجات منقنقات، ومن ثلاثة كيلوات تنباك إلى ثلاثمئة بيضة - عدا عن الأموال العينية - كل هذه الغنائم كانت تقسم إلى قسمين: قسم إلى ضابط الدرك وقسم للمخفر. وكان النظام يثير الإعجاب حقاً، فلا سرقة ولا تلاعب، فلكل مخفر دركيّ خاص سري لا يعرفه الآخرون هو عين القائد على الأسلاب حتى لا يخفي أيُّ مخفر شيئاً من محصول اليوم. وكان لهذا الجاسوس راتب خاص لا يتقاضاه إلا في مركز القيادة!. وإذا صادف أن تلاعب دركي في المحصول أو قصّر في فنون استجلاب الرشوة فالويل له... إذ أنه يتهم فورًا بأنه سارق جبان عربيد معتد على الفلاحين، فيسرّح أو ينقل مع الاهانة والتشهير.

ولكننا نستطيع أن نقول إن هذه الصفة المشينة لم تلصق بأحد من أتباع القائد الباسل، فقد كانوا مثالاً لقائدهم في الأمانة والحرص على أموال الدولة وأموالهم الخاصة.

وأشيع عن القائد أنه يخاطب دمشق رأساً بالتلفون، وأن الفرنسيين في الحسكة والدير وحتى في حلب يتمنون له كلمة، وأن له نساء كثيرات، أكثرهن قد تزوج بهن خطفاً كرجل حقيقي لائق ببذلته العسكرية، وأنه لم

يعترف لأية منهنّ بأولادها بل أرجعها إلى أهلها معززة مكرمة بعد أن أتاح لها شرف مضاجعته بعض الليالي.

وبقدر ما كان إله الجزيره يكسب من منصبه كان يبذّر كل ذلك على طاولة القمار.. فبمجرد حصوله على مأذونيته السنوية - ويظهر أن نظام السنين كان في ذلك الوقت مختلفاً عما هو الآن إذ أنه كان يحصل في كل شهرين تقريباً على مأذونية أسبوعين يشاع فيها أنه ذاهب إلى تصريف أمور الدولة في دمشق - يذهب إلى بيروت أو عاليه أو بحمدون أو صوفر فيصرف أمواله كلها ويعود فقيرًا متساوياً مع رعيته التي تشفق عليه فتجعله غنياً من جديد.

وفي عهد الاستقلال... بدأ نجم القائد يأفل قليلاً، لا لأن المسؤولين في ذلك العهد قاوموه لاعتبارات وطنية ؛ بل لأنه أغضب بعض المتنفّذين المالكين لأراضي الجزيرة والذين كان وزير منهم ممثّلاً في الحكومة.. ولذلك، وقبل أن يحال على التقاعد، وبطريقة بارعة من طرقه الكثيرة، استطاع الحجز على أرض كبيرة واسعة بين أراضي جبور والبقارة، ثم اشترى بعض القضاة فسجلوها باسمه. فلما أحيل على التقاعد، لجأ إلى أرضه يوسعّها. وبمعاونة دركه السابقين صار يقتطع جزءًا من الأراضي المحيطة به، حتى استطاع أن يصبح من هؤلاء العشرات الذين يملكون أكثر من مئتي ألف دونم.

هذا القائد الهمام هو مفلح الجدعان مضيفنا الكريم الذي وقف يرحب بنا بطريقة أشعرتنا أننا أمام سيد عظيم.

نظر إلى ملابسنا الموحلة المبللة وإلى هيئاتنا المحزنة، ثم وقع بصره علي:

- منين الأستاذ؟

- من الشام

- معلّم؟

- نعم.

فابتسم ابتسامة عريضة ثم قال:

- شايف الجزيرة؟ لأجل أن تعرفوا ماذا نقاسي هنا نحن المزارعين المساكين!! قوم يا عبود وأنت يا صالح أعطوا الأخ عباية وكذلك الأخوان وجففوا الثياب على النار.

* * *

شعرت بلذة غريبة في هذه المضافة الدافئة جدًا وأنا أتصفح هذه الوجوه القروية الخشنة.. دارت القهوة مرات ومرات في صمت لا يشوبه سوى عواء الكلاب من بعيد، وغاب عنا مضيفنا لحظات بعد أن رافقه ستة من الحاضرين.. ثم عاد وحده وقال وهو يتنهد:

- أمّنّا كل شيء.. راحت المعونة إلى السيارة، فقال رفيقي السمين بتأنٍّ:

- كلك شهامة يا مفلح بك.

- واجبنا... أهلاً وسهلاً..

وسكت قليلاً وتابع:

خبّرنا الدرك... معلومكم، يوجد مخفر درك عندنا، ولكنهم كانوا مشغولين جدًا فاضطررت لارسال جماعتي.

قلت متسائلاً:

- مشغولين؟ وفي مثل هذه الليلة؟.. إن التقاط هؤلاء المسافرين أهمّ من كل شيء.

فأجاب المضيف وهو يرفع حاجبيه:

- في مثل هذه الليالي تكثر السرقات.. حولنا بعض الشرابين وهم كثيرًا ما يسرقون القرى منتهزين فرصة العاصفة فتنحنح دليلنا البدوي ولكنه لم ينطق بكلمة..

كنت ولا شك سعيداً في العباءة الفضفاضة، جو دافيء، ودخان تركي مهرب في غاية الجودة، وشاي ساخن يدار في كل لحظة، وروائح لحم ينضج تتسرب من شقوق الباب، وفي صدر المضافة، كان يطل من حين لآخر من وراء زجاج نافذة صغيرة مفردة، وجه نسائي عذب ذو عينين واسعتين متوحشتين كعيني الغجر تنسدل على صدغيه جديلتان قاتمتان منفوشتان بعض الشيء.

وكانت تنظر إليّ نظرة طويلة خالية من أي معنى.. ولكنني كنت حالما.. تصورتها واجمة معذبة تعيسة.. فكأنها إحدى بنات القصور وقد اختطفت من بين يدي حبيبها لتزف إلى مارد متسلط شرير..

- الشام.. الشام.. إنهم يقولون هناك بحسد ما أغنى الجزيرة!!. إن الأشخاص الذين يملكون هذه الأراضي هم في أعلى درجات السعادة.. إنهم يقولون ذلك وهو جالسون على مكاتبهم المريحة، لا أتمنى لهم إلا أن يذوقوا ليلة واحدة من ليالينا كما ذاقها الأستاذ (وابتسم لي عن أسنان كبيرة بشكل غير عادي) ليعرفوا ما معنى نجوم الظهر، ما معنى نجوم الظهر، ما معنى الوحل والطين والغبار والبراغيث والثعابين ورائحة البدو التي تقزز النفس، وليروا البدويات وهن يدهن شعورهن ببول الجِمال.. ليشعروا بالرعب كل يوم لأن ظل البنادق معلق فوق رؤوسهم.. إنهم يحسدوننا على أرض مسمومة.. على أرض ملعونة، تعطيها شبابك وصحتك ورفاهية حياتك فلا تبوء آخر الأمر إلا بمأمور الضرائب والحاسدين..

وظهر الوجه الغجري بنظرته الغريبة من وراء النافذة، وثبَّت عيونه عليّ فخفق قلبي وامتقعت، ونظرت إلى مضيفي ولكنه كان لا يلاحظ شيئًا بل ظل متدفّقًا في حديثه وهو يمدّد رجليه إلى آخرهما على بساط المضافة:

- نموت في سبيل جر الفرات أو الخابور إلى القطن ثم تأكله الدودة.ونحرث الأرض في انتظار المطر، ثم ننظر إلى السماء فإذا بها كأنها قد سدت بالنحاس من جميع أطرافها فلا تنفذ منه قطرة. وأخيرًا عندما يكون المحصول الضئيل قد أكل حياتنا يسرقه الفلاحون الأنذال، لفّها يا رجل، لا يوجد أحلى من الشام وماء الشام وبنات الشام.

كان صوت مضيفي بعيدًا كأنه همس، لا شك أنني كنت أحلم.. أحلم بدنيا خضراء، خضراء إلى نهاية الأفق.. أحلم بالفجر، وركوب الخيل، أحلم بغرفة دافئة مطلة على لوحة طبيعية لا يمكن أن تُقَلّد أو تتكرر.. أحلم بالصحراء يحرقها الجفاف، أحلم بالحب والنشوة والفرحة والشباب. أحلم بوجه عيناه غجريتان متوحشتان تنوس على صدغيه جديلتان قاتمتان منفوشتان بعض الشيء.

* * *

- سيلانس

قالها مضيفنا ذلك العسكري المتقاعد فجأة بصوت كالرعد..

- ماذا؟.. قلناها ونحن وجوم لا نقوى على الحركة!!

- مهلاً.. انتظروني.. هناك حادث.. أسمع طلقات نارية صادرة من مكان بعيد.

وهبَّ ويده على مسدسه، وما كاد يفتح باب الغرفة حتى دخلت مع الريح الباردة أصوات طلقات أخريات صدرت من مكان قريب جدًا!!

وسمعنا أصوات أقدام تخوض في الوحل، وسباب ولعنات بلغة حاقدة، وهمهمة رجال كالفحيح، ثم اختفوا.

خرطش مضيفنا مسدسه وخرج كالسهم من باب المضافة يعدو ويصيح:

- الحقوني يا شباب!!

ونظر بعضنا إلى بعض، ثم اندفعنا وراءه نتلفت يمنة ويسرة.. غاصت رجلاي الحافيتان النظيفتان في الوحل، ودخل الهواء إلى العباءة وتلاعب بها.. ولكني لم أكن أفكر بسوى الركض وراء مفلح الجدعان، لأية غاية؟ تحت أية قوة؟ لا ندري سوى أننا كنا نركض ونركض وراءالطلقات.

الظلام حالك جدًا.. كنت أصطدم تارة بعجوز هائمة أقلقها!الرصاص، أو بحيوان ضائع أفزعته الضجة، حتى وصلنا إلى السوق، وهنا كان بعض أفراد من فلاحي أراضي مفلح الجدعان ينتظرون. لا شك أنه حادث رهيب أسقط أفئدتهم الواهنة وبعث الهلع في قلوبهم المطمئنة.

وهذه سيارة درك عتيقة أتت تعدو بسرعة وهي تقاوم الوحل فتصورت الدم.. النقالات.. وتصورت القيود والسجون والمشنقة والإعدام.

وقفت السيارة أمام المخفر ووقفت القلوب وحبست الأنفاس فلن تسمع فحيحًا ولا همسًا.

نزل دركي من السيارة صائحًا:

- ناولني إياه!!

فناوله إياه.

كانت جثة ضخمة جدًا لفلاح.. وعلى أضواء المصابيح المتراقصة التي جُلبت من البيوت، رأيت وجهه الممتقع المخضب بالدم، والثقب العميق الذي يتوسط جبهته، ولحيته البيضاء المشوّشة، وكانت عيناه الصغيرتان مفتوحتين على نظرة دهشة ورعب.

نظر الدركي إلى مفلح الجدعان وإلى الوجوه التي تجمعت حوله وقطع الصمت قائلاً بنبرة انتصار.

- لقد طاردناه طويلاً وأخيرًا اصطدناه.

وضحك بغباوة مثيرة.

وقال مفلح الجدعان مستفهمًا:

- ولكن ماذا فعل؟

- سيدي كان يحاول السرقة ولقطناه بالجرم المشهود..

وأسرع إلى السيارة يفتح بابها، وأنزل كيسًا صغيرًا مليئًا بأوراق خضراء مبللة قطفها الفلاح الشيخ من حُرج قريب تابع للحكومة ليطعم بها ماعزه الجائع!! وطورد من أجله، ودوت فوق رأسه رصاصات قاتلة، وأصوات قاسية كانت تقول له قف.. قف وإلاّ.. وها هو ذا يقف، ويستدير رافعًا يديه وينشج بتوسل. وها هي رصاصة محكمة تستقر بين حاجبيه. ونظر إلينا مضيفنا ثم قال وكأنه يتابع حديثه:

- أتعبنا أنفسنا بحادثة تافهة.. ألم أقل لكم إن الفلاحين لصوص!.. جنس عاطل يستحق الشنق؟

ثم استدار إلى المضافة!!

* * *

الجـوزات الثـلاث

آه، . من لي بلمحة منعشة لساق عشبة واحدة، بنشقة من شذى حفنة من الأرض الصلصالية ، أليس هناك من شيء طازج حولنا؟

[هرمن ملفيل]

«الجزر الوحشية»



أوقف أبو صلاح المكنسة واتكأ عليها، ثم سرح ببصره نحو الهياكل الحجرية الضخمة، التي تنتصب في حمرة الأصيل تاركة ظلالاً مستطيلة.. كان السكون سائدًا، فالطلبة انصرفوا إلى بيوتهم إلا بعضًا منهم لا يزال في المطالعة، فلا يصل إليه من ضجتهم غير أصوات خافتة كرجع بعيد، وسكت رنين أجراس المدرسة المتواصل الذي يجعل أبا صلاح ينتصب بسرعة ويَظْلَع جارًّا رجله العرجاء نحو الحائط، ليعرف من لوحة الجرس أية غرفة تطلبه.

كان يصل إليه عبر السكون السائد صوت مطحنة أحجار قائمة أمام بناية بعيدة، وخيّل إليّ أن في عينيه الكئيبتين البارزتين في وجهه الممتلئ بالتجاعيد العميقة، نظرةً حاقدة مرّة.

ناديته دِهشًا من رؤيته:

- أبو صلاح!!

ولم يسمعني.. لقد كان في صوتي بُحّة قليلة من الرهبة القديمة التي حَسها نحوه، فمن منا نحن شبانَ الحارة الشياطين، لم يكن في ذاكرته آثارٌ من وقائعه ومعاركه مع أبي صلاح ناطور جنينة (التريا) المشهور الصارم؟ فقد كان مرعب الأطفال الذين يخرجون لنهب القرعون، والخوخ، والرمان، والفول، من التريا.. أحفل بساتين المنطقة جميعًا بأجود أنواع الفاكهة التي تراود أحلام الأولاد.

إني لأتصوره تمامًا بسرواله الأسود الفضفاض، وبشملته الرمادية الصوفية التي لا ينزعها أبدًا حتى في آب، يجوس بعينيه خلال مملكته الواسعة، لقد كانت له قوة غريبة في اكتشاف أتفه الحركات بين مئات الأشجار، فينساب نحوها بخفة رغم رجله العرجاء متسترًا بجذوع الزيتون المعمرة، فيلمحه أحد الأولاد فيصيح برعب جنوني:

- أجا ابن الحرام يا ولاد.. رجليكم بضهركم..

وتندفع القذائف الحجرية من يديه الخشنتين كالقنابل وهو يهدر:

- آه يا ولاد الكلب.. الرمّان..

ويقف تحت الشجرة المنهوبة التي تكسَّرت أغصانها، وينظر إليها بأسىً عميق، ويظلّ يومَه كلَّه يضع لها الأوتاد، ويصلح فروعها، ويدور حولها ويتلمَّسها كولد عزيز.

وفي حلقات سَمَر رمضان، عندما كنا نجلس حتى السحور نتصارع في ضوء القمر كصغار القطط، كان اسم أبي صلاح يتردد دومًا بين اللَّعَنات:

- أما فظيع.. ابن حرام عالمحَكّ!!

- لا ينام الليل.. بل يبقى ساهرًا حول الدكوك، يراقب الأسلاك.

- يسمع من بعد نصف ساعة صوت ضرب الحجر على الجوز..

- يأخذ الولاد اللي بيستفرد بهم ويذبحهم في الليل...

- حتى الشرطة بتخاف منّو...

- بتتذكر قصتو مع الشرطي اسماعيل الحلاوي؟

- طيب ليش كل هالولدنيت حرام؟.. مع أنه يكره أصحاب التريا للموت!!

- حبيبي طبيعة بالبدن ما يغيرها غير الكفن، عفريت من رجليه لراسه..

- دائمًا عابس.. مانزلت من عينو دمعة حتى عند موت ابنه علي..

وفي يوم من الأيام، غامرت ودخلت مربض الذئب.

كانت على طرف الدَّكّ توتة شامية، برز ثمرها من خلال أوراقها العريضة كشفاه حمراء مطبقة، وكان نصفها يتدلى من وراء الدك، فلم يُبقِ

فيها الأولاد وعابرو السبيل سوى بعض توتات لم تستطع حجارتنا أن تنال منها شيئًا. وهمست لابن خالتي بتصميم:

- لك صطيف.. توت..!!

- لا يا حبيبي.. ما لي مآيس على روحي!!.

- بتخاف على هالروح النسّه يا صطيف؟

وخجل ابن خالتي خوفًا من أن يعيَّر بأنه يخاف على (هالروح النجسة)

ونططنا فوق الدك بهدوء، وبعد أن تفحصنا المكان تسلقت الشجرة، وأنا أتحسس ثوبي الجديد، وجيبه الجانبي العريض، الذي طلبت من أمي خصيصًا تكبيره على هذه الصورة حتى يتّسع للمنهوبات.

ووقف مصطفى على طرف الدك ممتقع الوجه، وهو يجوس بعينيه من خلال الأشجار ويهمس بخوف:

- استعجل يا سما.. ما مليّت الجيبه؟

ولكني كنت مشغولاً بهذا الخط الأحمر الذي أخذ ينساب من حول جيبي ويلوث الثوب الجديد.. سحق التوت سحقًا أثناء تنقلاتي على الشجرة، وتصورت القَتْلة المحترمة التي سآكلها، وصممت على أن أتسلل إلى الحمام، وأغسل ثوبي بيدي وأنام باكرًا حتى لا تنتبه أمي.

صرخ ابن خالتي وهو يقفز من على الدك ويسابق الريح:

- أبو صلاح.. سليمان.. اجاك!!!.

لا يمكنني أبدًا أن أصور الرعب الذي تملكني، فقد أخذت أتدحرج عن الشجرة بسرعة غير عابئ بالجروح والخدوش التي تتركها في لحمي رؤوس الأغصان المسننة... ووضعت رجلي المرتجفتين في القبقاب، وأخذت أستعد لتسلق الدك عندما سمعت صياحه:

- يا بْن الكلب...

والتفت إليه وأنا أكاد أسقط، وقلبي ينتفض فأسمعُه كمطرقة لحداد.. فرأيته ينحني على الأرض فيلتقط حجرًا ضخمًا ويقذفني به..

أسرعت واختفيت خلف الشجرة، واصطدم الحجر بها فهزها هزًا جعل التوتَ يتساقط حولي، فانطرحت باكيًا على الأرض.

- دخيلك عمي أبو صلاح.. هالمره بس.. أنا داخل على دين محمد!!

ووقف أمامي كأنه يستمتع بفريسته، ثم قطب وجهه لما عرفني وقال بغضب:

- يه يه... العمى.. قلة مصاري عند أبوك حتى تسرق، العمى أبوك بصوّل الذهب عالشراشف.

- دخيلك عمي أبو صلاح.. هالمره بس.. اللّه يخليلك ولادك، اللّه يسترك... أنا داخل على اللّه وعليك.

وأمسك بيدي وجرني من خلف الشجرة:

- امشي لعند أبوك..

وتصورت الفضيحة... لا.. أفضّل أن أموت على أن أذهب، واستمددت من لهجته شجاعة وقلت:

- مالي رايح... موتني!!

فهز كتفه:

- أما جيل منحوس.. ملعون مطعون.

ونظر إلي طويلاً ثم قال مهددًا:

- هالمرة راحت.. إذا شفتك مرة ثانية هون!! (وبصق) كل بيت وإله بلوعة.

ومرت الأيام ونسيت أبا صلاح، وتلك الطفولة المتشيطنة كلها.. وتغير الحي وتغيرت (التريا) وقام مكان أشجارها الريانة عمالقة حجرية، وامتدت

الفؤوس وقطعت الأشجار التي كان يناضل أبو صلاح في سبيلها.. وانكمش الزرع الأخضر دهشاً من هذا العالم الجديد، وانسحبت الأشجار نحو الأطراف، ثم تناقصت حتى لم يبق في كل التريا الهائلة سوى ثلاث جوزات هرمات.. تمشّى في أطرافها التآكل، وظهرت جذورها من التراب الذي أخذ ينكشه العمال وهم يحفرون أساس البناية الجديدة، ورجعت أنا أستاذاً في الثانوية الجديدة التي شيدت حديثًا في التريا نفسها.

كانت آلة طحن الأحجار لا تزال تعمّق السكون، وخفتت ضجة الطلاب تمامًا لوصول المراقب، وفي مدى الأفق البعيد، كانت الشمس قد تركت دمها في غيمات متناثرة في صفحة السماء، وارتعشت رؤوس الأشجار متخيلة برودة الليل الموحش، وفي أقصى جبل المهاجرين، اشتعلت أضواء قليلة أخذت تتكاثر.. لقد بدأت قصة الظلام.

همست بوضوح:

– أبو صلاح...

فالتفت بسرعةِ مَن تعوَّد على تلبية الأوامر، ولما رآني لم يفاجأ بل تقدم مني يجر رجله العرجاء، ومد يدًا خشنة ملأتها الثآليل وصافحني بحرارة:

– أهلاً سليمان أفندي..

– أبو صلاح..انت هون؟

فرفع يده باستسلام، وخيل إليّ أنــه خجل، وغمغم من بين أسنان خضراء مصفرة:

– إي واللّه.. متل مالك شايف.. بدنا نعيش.

واندفع إلى الردهة وعاد بكرسي وقال:

– تفضل!!

ولما دعوته إلى الجلوس ابتسم بارتباك وقال:

- تفضل يا أستاذنا.. العين ما بتعلى على الحاجب.

ونظرت إليه بإمعان.. لا تزال الخطوط المتجعدة توحي بالصرامة، ولم يتغير من الوجه الكنود الذي ينظر إليّ بغموض، سوى الشاربين الكبيرين المعهودين، وقد تشذبا ولصقا بالشفة العليا كفرشاة قديمة.

قال بعد صمت:

- واللّه ما دريت غير البارحة، قالوا لي الأستاذ سليمان انتقل من الجزيرة لهون ففرحت.. معلومك ما للحارة غير أبنائها.

قلت وأنا أحاول أن أجد مجرى للحديث:

- اللّه يبارك فيك يا أبو صلاح.. صار لك زمان هون؟

- من وقت ما تعمرت المدرسة.

- يعني من التريا للتريا.. المدرسة بدل الأشجار.

فقال كمن ضعن:

- شو جاب لجاب يا أستاذ، هي دنيا وهديك دنيا، ولولا ما الأرض هي التريا كنت ما قعدت دقيقة هون.

- يعني مالك مبسوط من ها العمار وها الناس؟

قال مغتاظًا كمن أثير له جرح قديم:

- يا سيدي أصحاب التريا ما لهم مراق بالأرض..واللّه شجرة واحدة تساوي كل ها البنايات اللي شايفتها عينك أَشّه لَفّة.. هديك بتحسّ يا سليمان أفندي، بتتنفس، بتعيش.. هاي جنينة بهجت، باع... لكن ترك جنينة خاصة فيه.. لكن الطمع يا سليمان أفندي.. الطمع ضرّ وما نفع.. شفت..؟ الولاد ما كان لهم خاطر بالبيع، أما الكُرْكمَّه العجوز النَّحس، فهو الذي باع، وكما يقول المثل: الثلم الأعوج من الثور الكبير.

وصمت قليلاً وهو يمد يده ويأخذ سيجارة مني شاكرًا بحركة من يده.

- شوف هلأ يا سليمان أفندي. الأرض هبّت كالنار، ما قال المثل:خلي القمح بكواره لتجي أسعاره؟ صارت الأرض الآن تطالع أضعاف أضعاف ثمن البنايات.. التفاح ثروة.. الخوخ.. الرمان.. كلّه هبّ وكما يقول المثل: صاحبك القديم ذهبك القديم. لكن شو الفائدة؟.كل يوم أرى من هنا الفؤوس تطلع وتنزل وتقلع وتميت الخَــضَار.. لكن كما يقول المثل: العين بصيرة واليد قصيرة.. انظر للتريا.. ما بقي منها غير الجوزات الثلاثة، شوف كيف مصفرّين، شوف كيف قشرتهم يابسة ومشققة.. قال جحى باع بيته وخلا خازوق.. ولولا ما بسقيهم وبلحقهم في أوقات فراغي لكانوا ماتوا ولحقوا بالتريا.

قلت متعجبًا:

- لكن يا أبو صلاح.. شو بدك بكل هالعراضة؟ ليش حامل هالسلم بالعرض؟

فنظر إلي كمن فوجئ، وفي نظرته قليل من الاحتقار:

- شو بدي؟.. ما بدي شي. شايف ها الجوزات التلاتة يا سليمان أفندي؟ من ثلاثين سنة أنا زرعتهم، وسقيتهم،ونزعت الحشيش عنهم.. ربيتهم كأولادي.. هيك يا سليمان أفندي، كل هاد لا يهمني أمرهم؟ لكن كما يقول المثل ما يحك جسمك مثل ظفرك.. لو كنت مزارع..

فقلت مغيرًا وجه الحديث وقد رأيته يتألم:

- بتذكر يا أبو صلاح.. يوم نزلت أنا وابن خالتي عالتوته؟

* * *

وذات يوم هوت الفؤوس وقطعت الجوزات الثلاث..

ووجدتها وأنا أدخل المدرسة صباحًا ملقاة مهملة على الأرض، رافعة جذورها المكلومة كأنها تعرض جراحها للشمس، والأولاد يلعبون على

أطرافها لعبة الثقل.. وانصرف فكري توًا إلى أبي صلاح، وشعرت بانقباض.. وفجأة لمحته واقفًا على شرفة المدرسة ينظر نحو الجوزات مسمَّرًا باردًا مكمّدًا كأنه صنم، وخيل إليّ أن تجاعيده قد بدت أكثر عمقًا وتهدّلاً.

صعدت إليه ووقفت بجانبه لحظة صامتًا ثم قلت ببلاهة:

- أبو صلاح.. قطعوهم..

لم يرد علي. بدا وكأن أي شيء في العالم لا يعنيه. تكوّم كجذر عجوز نشف عليه التراب. ومرت عليه فترة طويلة وهو ساهم. كنا نقف معًا وأنا أتطلع نحو بحيرة، ثم انسحب مخفيًا عني وجهه. ولكنني لمحتهما، دمعتين كبيرتين حقيقيتين من العينين اللتين لم تعرفا يومًا طعم الدموع، نزلتا واختفتا باستحياء بين خطوط وجهه.

وتثاقلت خطوات أبي صلاح في الرد على رنين الجرس، وقلّت نظراته إلى لوحة الأرقام، وصار يدخل الغرف مخطئًا بين واحدة وأخرى، وانتبه المدرسون إلى القهوة الباردة التي يشربونها.

وقبل العطلة الانتصافية بيوم واحد، اختفى أبو صلاح، فعندما قرعنا الجرس طالبين القهوة، ظهر بسرعة نشيطة، وجهٌ فتيٌّ انخطف لرد طلباتنا على رجلين سليمتين قويتين.

* * *

سَنتان وتحترق الغَابة

الناس لا يستطيعون أن يرتكبوا إثمًا
على ذلك القدر من الروع

[تولستوي]
(الحرب والسلم)



بعد بكره السحب... يا أستاذ.. خمسين ألف ليرا!!

- يحرق دين...

وتوقفتُ عن السبّ والشتم، وحدقتُ في العينين.. يا إلهي.. الثالثة!! الثالثة التي تكلم عنها طويلاً البارحة وهو يشرب الشاي بنهم ويتلمظ بشفتيه الغليظتين، ويبسم عن أسنانه الصفر المسودّة.. إنها تشبههما لدرجة فوتوغرافية.

كانت عيناها تبتسمان بكثير من الكآبة والتعب والنعاس، وتكاد تغيم منهما المرئيّات المتراقصة في البؤبؤين الخضراوين العميقين اللذين لا حد لجمالها.

وهزت أوراق اليانصيب في وجهي مرة ثانية، وتأكدت للتو أنها لا تراني ولا تتميز سماتي مطلقًا في ذاكرتها... إنها أمام زبون قد يشتري أو لا يشتري، قد ينهرها أو يبتسم في وجهها، والقلق الوحيد الجدي الذي ينتابها، كان من خادم المقهى عدو البائعين المتجولين الأول.

- بعد بكره يا أستاذ.. خمسين ألف ليرا!!

ونظرت إلى صدرها... كان أمسح أعجف، صدر ابنة في الحادية عشرة من عمرها، وتصورت نهدًا يثب، وقوامًا يلتف، وعينين تداعبان بنظرة إغراء.. يا حلوتي.. يا صديقتي الصغيرة.. هل ستفعلين أنت الأخرى نفس الشيء؟ لقد عرفتُ هذه النظرة المتعبة الحزينة من قبل، عرفتها على وجهين في مثل هذا الجمال، منذ المرة الأولى انطبعت خضرة العيون في ذاكرتي عندما اختفت عني في الوجه الأول اختفاء طويلاً.. قد يكون إلى الأبد، ثم ظهرت مرة ثانية صافيةً متألقة بكآبة متعبة في وجه آخر، له عين التقاطيع

والأهداب، وبنفس القسوة اختفت من محيط المقهى إلى دنيا أخرى!! ترى كيف خضرة تلك العيون الآن؟ ولمن تبتسمان؟ والآن.. العينان.. النظرة.. الوجه.. الصدر الأمسح ذو المستقبل.. الردفان اللذان يبرزان شيئًا فشيئًا ليأخذا نصيبًا من نظر الرجال.

- بعد بكره ال...

وانفتحت الحدقتان في دهشة يسيرة، وصَفَت الخضرة في أعماق البؤبؤين مرجـــــًا مجهولاً ظليلاً وبان شيء من التلعثم والخجل.

قلت لها باسمًا بأسى:

- قرّبي يا حلوة.. اسمك فاطمة؟

- أي أستاذ.

واعترتني غصة.. كم أتمنى أن أرسل نظرة خالصة السعادة إلى هاتين البحيرتين!!

- بعت كثيرًا اليوم يا شاطرة؟

- عشرة بس

- من الصبح؟

- من الصبح.

تحركت رجلاها بارتباك عندما نظرتُ إلى أسمالها.

- عرفتيني؟

هزت رأسها باسمة.

- لماذا لا تأتين مع أبيك لتشربي الشاي؟

- لا يأخذني!!

- هل طلبت منه ذلك؟

- لا.. أنا ما بشوفه إلا الصبح والمسا.. والباقي بكون في الشغل.

- هاتي ورقة.. لا ليست هذه.. اختاري أنت واحدة.. أيوه من المنتصف.. إن شاء اللّه على حظك أربح وسنتقاسم.. آ ؟

ابتسمت في سعادة وتنفستُ بهدوء وأنا أرقب الغابة تصفو في رُواء ربيعي آسِر.

- قولي لي يا فاطمة أختك فين؟

وتعكرت البحيرتان برهة وتلفت الرأس الصغير حواليه:

- خديجة أم سعاد؟

- ها.. إختان إذن.. أين الاثنتان؟

- لا أعرف!!

- بذمتك

- وحياة النبي لا أعرف.

- سألتِ أباكِ؟

- اي.. قال أنهما رجعتا إلى فلسطين!!

- بس؟

- قال أنهما تزوجتا هناك.

- أتحبينهما؟

- سعاد بس.. خديجة كانت تضربني وتسب أبي وتبكي دائمًا. وساد صمت قصير.

- موفقة يا حبيبتي.. اللّه يسهل لك.. لكن يجب أن ترجعي للبيت الآن، تأخر الوقت..آ؟

- تأخرت كثير.. لكن ما بعت خمس عشرة ورقة.. يجب أن لا أعود حتى بيع خمس عشرة ورقة.

- هل ينتظرك أبوك عندما ترجعين؟

- لا.. ألاقيه نائم.

- ألا تخافين الرجوع وحدك في الظلام؟

وسكتت قليلاً واعتراها الخجل، ونظرَتْ من خلال زجاج المقهى إلى الليل المظلم.

- تخافين؟

- أخاف كثير.

وتندت العينان قليلاً وبان فيهما الإجهاد.

- تشربين الشاي الآن؟

- لا..

وخفضت رأسها

- سلمي لي على الوالد.

- اللّه يسلمك.

وابتعدت نشيطة بعض الشيء، كأنما حرك فيها الحديث،الطفولة الراقدة في أعماقها. وتهالكتُ في مقعدي أحاول أن أقرأ الصحيفة مرة ثانية. يا طفلتي.. وأشعلت سيجارة.. هل ستذهبين أنت أيضًا وتختفين؟ هل سيقول أبوك لمن سيسأله عنك: ذهبت إلى فلسطين.. إلى الضفة الشرقية من الأردن وتزوجتْ هناك؟

وتصورتُ الدرب الطويل إلى حي الميدان.. إلى بوّابة اللّه، من يعلم؟ قد توفّر الفرنك فلا تركب في الترام، وتقطعه ماشية، يخيفها كلُّ عمود كهرباء أو ضوء سيارة.. حتى إذا وصلت دخلت الغرفة القذرة المختنقة برائحة دخان (النوع الخامس)، وتستلقي إلى جوار أبيها وتنام نومًا بلا أحلام.. تاركة الغابة الخضراء مظلمة بدون أية رُؤىً ضاحكة الأسنان.

- بعد بكره السحب.. خمسين ألف ليرا.

وهمس صوت قريب مني:

- شايفين هالبنت؟ تمام.. آ ؟ لها مستقبل.

وانفلتت ضحكة بليدة قاسية مع ضرب الأحجار على النرد.

- سننتظرها سيدي.. ممكن تفلت؟

- شايف هالعيون؟

- اخجل يا زلمه.. العمى.. طفلة.

- لنشوف بكره انسانيتك لما تكبر.

أشعلتُ سيجارة أخرى.. وتراءت لي الشفتان الغليظتان المبتسمتان عن الأسنان الصفر المسودّة وهما ترشفان الشاي.

- أتعرف يا سيد سليم؟ قال سبع دول عربية قال. والله لا يرْجِعُنا الفلمنك.. مفتكر الأمير كان والإنكليز قاعدين عم يطقطقوا أصابيعهم؟ إساسًا إذا رجعت ماذا أشتغل؟ كنتُ حمّالاً في صفد.. والآن لم يبق في الذراع قوة.. لا أستطيع أن أعوُل نفسي.. لا نفع يُرجى مني بعد الآن...

وأقول له مشجعًا:

- ولكن كيف كنت تعول بناتك وامرأتك وولدك؟

- اتركها للّه يا زلمه.. كانت أيام عظيمة.. ابك على الشباب بس.. كنت أسحب يوميًا سبعين قرش فلسطيني.. ليرة.. وفي بعض الأيام الطيبة ليرة ونصف.. أحمِل.. أساعد الدهانين، أعمل بناء.. أبيع خضرة.. أشوي كستناء.. أسرق الجنود الانكليز.. سبَّعت الكارات.. ميت ألف شغله.. كنت أشتغل بحماسة عظيمة، وكانت بناتي في المدارس، ولما ولدت أم إبراهيم الصغير إبراهيم، كنت جامعًا عشر ليرات صرفتها كلها في الفرح واستدنت فوقها.. أما الآن فلمن أشتغل؟ انكسر ضهري من وقت وقوعي من على السلم.. صرت لا أنفع لسوى بعض الأعمال. شوفة عينك!!

– توكل باللّه يا رجل.. أنت لا تزال قويًا.. و..

فيشير إلي بيده مقاطعًا:

– سيدي بلاش ضحك عاللحى.. ولولا هالبنية.. فاطمة.. حلوتي فاطمة هل تعرفها؟ لرميت حالي من أعلى بلكون وخلصت.. فيه شاي؟

– فيه!

وتتلمظ الشفتان وتستروح الخياشيم المتسعة رائحة التبغ الغالي.

– طلعنا طلعه.. اللّه لا يريك.. قالوا اليهود هجموا!! كل من يستطيع الرحيل فليرحل.. وحصلت طوشة وهوشة، كيف؟ الصبح كان الجيش الأردني.. ماذا صار.. لك شو الخبر؟ وتذكرنا ما قاله لنا النازحون إلينا عن جيش العراق وقيادته.. الإنكليز يا سيدي الإنكليز.. وحملنا يا سيدي ما خف وغلا.. تفوه عالخيانة وميت تفوه.. أتعرف (صفد)؟

– لأ.. ذهبت إلى يافا والقدس وبس.

– صفد يا سيدي عاليه في السما.. فوق هضبة مثل الحصن، لو تركونا ندافع عن نفسنا، لظللنا نقاتل خمس سنين، وحياتك ما يدخل فيها كلب صهيوني.. تفوه عالخيانة! اي بلا طول سيره عليك.. طلعنا طلعه لا تسر صديق. في عز الليل والبرد والمطر، ولم يكن هناك طريق إلا طريق وادي الطواحين.. وادي الطواحين الذي لا نستطيع النزول منه بالنهار، فكيف بالليل ونحن حاملين المتاع؟ وترقص أرجلنا من الذعر ونغوص في الوحل ونتزحلق على المنحدرات. وقع من وقع إلى أسفل الوادي حيث مزقته الصخور. مشينا.. أم إبراهيم تحمل ابننا الرضيع إبراهيم، وأن أحمل فاطمة.. حلوتي فاطمة ما غيرها.. كان عمرها سنتين ونصف بس.. وكانت ابنتاي تتبعانا باكيات، وفجأة صرخت أم إبراهيم صرخة أماتتني من الرعب، وجحظت عيناها.. نعم رأيت وجهها برغم الظلام على ضوء فانوس شتوي يحمله

جارنا أبو عبدو. ثم رمت ما تحمله على الأرض بقوة، ولم أسمع صوت الرضيع يبكي، واندفعت راجعة وهي تركض وتصرخ كالمجانين وبعد لحظة، وبعد لحظة يا سيدي تدحرجت من أعلى الجبل إلى أسفل الوادي. فيه شاي؟

- فيه..

ويمسح جبينه في عصبية ويسكت قليلاً ويأخذ ينقر بأصابعه بخفة على المقعد.

- لا أزال أتذكرها إلى الآن، كتلة سوده داكنة تثير في انحدارها الأحجار والصخور.. والصرخات الهلعة تنبعث من على يميني وشمالي.. كان اللاجئون يفسحون الطريق أمامها حتى لا تجرفهم.. وأنزلت فاطمة وقعدت على الأرض أبكي وأغطي عيني.. في لحظة واحدة أفقد بيتي وبلدتي وزوجتي.. و.. التفت جزعًا نحو ابراهيم الذي ألقته من يدها.. ركضت إليه.. وأخذت أحملق في الظلام لأتعرف عليه.. أتعرف شو كان هذا الشيء الملقى على الأرض يا سيد سليم؟ كان صرة ثياب ظنتها المسكينة أم ابراهيم في لهوجتها وذعرها.. ابننا الحبيب إبراهيم..

* * *

خمسين ألف ليرا بعد بكره السحب..

كانت فاطمة لم تبع الأربع الورقات الباقية بعد، ولا تزال تنتقل في المقهى متعبة كئيبة تقف أمام الطاولات طويلاً وترد على الممازحات بتقطيبة ألفَتْها. وتصورتُها باكية بين يدي أبيها وهو يتلمس طريقه في الوادي الرهيب، وأختيها من ورائه تتمسكان به، وتحاولان أن تطردا الظلمة المسيطرة وترفعا أرجلهما من الوحل وبدت لي من بعيد تحمل في أعماقها سرًا مجهولاً لمأساة أليمة، أسئلة حائرة عن حياة لا تعرف لماذا تعيش فيها وتحتمل ثمنها، ثمن المشي طول النهار وتنفس الدخان الردئ...

وتدانت أربعة رؤوس على الطاولة المجاورة، وقال أحد الرؤوس بصوت أبح:

- شايفين بياعة اليانصيب الحلوة هي؟

والتفت الآخرون صوب فاطمة متفحصين.

- هل تعرفون أختيها؟

وعلا الوجوه الاهتمام والترقب.

- تشتغلان عند لوريس.. جميلتان مثل النُفّجة ولكن غاليتان.

- هي؟ الصغيرة

- إي سيدي

- يا ما فيه بالدنيا

- وماذا تفكر.. سنتين ثلاثة وبتشوف هي كمان!!

- يا حرام..

- لكن هي أدهش.. تطلع إليها مليح.. مفتخرة، تُبلع بلعًا.

- يا حرام على هالجمال، يا ضيعانه!!

- أختيها ما بيخرجوا أبدًا، بدهم يروحو متل ما دريت إلى حلب في الأسبوع القادم..

- ولكن هالمسكينة تعرفهما؟

- ما أظن

- اسألها

- خطية.. حرام.. تقوم بتوصيل الخبر لأهلها.. ما حدا بيعرف شو بيصير!!

وبدت لي طلعة أبي إبراهيم الهرمة ونظرته التي انطفأ فيها بريق قديم رائع، وتذكرت خيبة الأمل والحيرة اللتين استقبل بهما اختفاء سعاد، لقد كانت هي الأخرى تبيع من قبل أوراق اليانصيب، وتسمع نفس التعليقات.. ويومًا ما مزقت الأوراق التي في يديها واختفت مخلفة وراءها أعينًا دامعة أطبق جفونها العار.

– ماذا أستطيع أن أقدم لها يا سيد سليم؟ نحن جيران ونعرف بعضنا، هل أعرف الآن أي مكان في الأرض تأوي إليه؟ قد تكون هربت مع رجل وتزوجته (وتنحنح ورفع رأسه بصعوبة من يلم بقايا ثقته بنفسه وكرامته) لقد ربيتها جيدًا، ما لي خايف عليها.. قد تقول نام على الضيم، قد تقول أن زوجها خالف الأصول بعدم استشارتي، قد تقول يجب أن أقلب الدنيا بحثًا عنها.. ولكن لنفرض أني أرجعتها.. هل أقتلها؟ هل أذبحها لكونها أرادت أن تأكل لأول مرة حتى الشبع؟ هل تبقى في البيت قعيدة تنظر إليّ في الصبح والضهر والمسا؟ أنا أفهم تمام، ما أنا إلا رجل أعرج لا نفع يرجى منه، يأكل من كد بناته.

وعندما اختفت خديجة كاد يدركه الجنون.. استدان مني عشر ليرات قبل أن يدفع فاطمة إلى العمل، وأخذ يقضي أكثر الأمسيات عندي يتناول الشاي ويدخن السجائر، وكان يخجل دائمًا أن يأتي معه بفاطمة.

– شو العمل؟ لعنة اللّه على خلفة البنات.. عار وذل وبهذلة، لو كان لي ولد يشيلني، لو ظل إبراهيم إلى الآن..

ويصمت دامع العينين ويحدق في بركة الماء.

– ما بقي لي إلا فاطمة.. حلوتي فاطمة.. إنها سند شيبتي.

– ستظل لك أنها ابنة عاقلة.

– القدر بيد اللّه يا سيد سليم، من يدري؟ لقد أردت أن يخطبها من الآن أحد اللاجئين، ما رضي أحد.. معلومك.. الأنذال يقولون أشياء كثيرة عن

بناتي.. ولكني واثق منهم.. لن أصدق ما يقولون ولو رأيت بعيني.. أن متأكد أنهم متزوجين. لقد ربيتهم مليح.

ويصمت قليلاً ويتنهد:

- سأجن حتمًا إذا راحت.. وسأضرب بطني بسكين حتى أرى أمعائي بعيني.. تصور يا سيد سليم فاطمة.. حلوتي فاطمة.

أخذت أتابعها وهي تدور بين الزبائن.. سنتان ثانيتان، يا رب، سنتان وينهد الثديان في صدرها الأمسح، ويلتف الردفان في استعلاء، والعينان الخضراوان.. الغابة الصباحية، ستعرفان زقزقة العصافير، ومناقير الشواهين، وسيختفي هذا الوجه من المقهى كما اختفت له أختان من قبل، وهذا الجسد الصغير ستأخذه أذرع قوية قاسية تدفع ثمن كل المباهج التي يحرم منها الآن.. السينما.. الحلويات التي تقف طويلاً أمامها كل يوم.. الثياب البراقة.. السيارات الفخمة..

وسيرّن معصماها بالذهب، ويبرق جيدها بالآلئ.. وثغرها الطفل ستشققه الحمرة الداعرة.. كل شيء يروق لها ستفعله، ولكن البحيرة المسحورة سيمتصها التراب الأبرش، والنظرة الظليلة في أعماق عينيها الرائعتين، سيطفئها حريق الغابة ذات الأوراق الندية.

عندما عدت في منتصف الليل إلى البيت، كنت أتطلع إلى القدمين الصغيرتين وهما تحاولان أن تسايرا خطواتي.. ونظرت إلى آخر الزقاق المظلم متوقعًا أن أرى أبا إبراهيم سهران قلقًا لتأخر ابنته، ولكن غرفته كانت سوداء كالليل المحيط بها، ومن خلال النافذة المفتوحة كان يتعالى شخيره الرتيب. استدرت إليها قائلاً:

- لا تتأخري يا فاطمة بعد الآن.. آ؟

- ولكن بدي أبيع..

- دعي قصة البيع والشراء هذه، أبوك يقلق وأنت تخافين بالليل.. ارجعي دومًا الساعة تسعة..

فهزت رأسها، وأدركت أنها لن تفعل شيئًا مما أقول:

- إذا تأخرت في المدينة.. ابحثي عني في قهوة (الهافانا) وأنا أوصلك..

- يكتر خيرك.

- تصبحي على خير يا حبيبتي، سلمي كثيرًا على الوالد.

ودخلت البيت منسابة بخفة، وانتظرت لحظات علي أسمع رد فعل التأخر على أبي إبراهيم ولكني لم أسمع سوى همهمة مبهمة، ثم ساد السكون، لقد نام الاثنان.

لتتم هانئًا يا صديقي.. تمتع بضم الجسد الصغير إليك وشم الشعر المجعد.. لم يبق أمامك طويل وقت تضيعه بالسهر والقلق، وشرب الشاي والدخان، من يدري ماذا سوف يتغير في عالمك بعد سنتين؟ ترى هل سأجد الغرفة مطفأة عندما أعود كل يوم أم سأراك واقفًا تنهب الدرب بعينيك الكئيبتين حتى يبتسم عنها؟ وهل ستسبقك إلى العمل في الصباح كالعادة، أم أنك ستقف، ويدك على قلبك، تودع الصدر الناهد والقوام الملتف بإشفاق قائلاً بصوتك الخشن المهموس المبلل بالعطف والعبادة:

هل جاء دورك أنت أيضًا... يا حلوتي؟..

* * *

صولـد

إنهـا الحيـاة يـشعر معهـا المرء أن كل
نفــس مــن أنفاســه رميــة مــن نــرد
مغشوشة ضده .

[برناردشو]



إنهم الآن ينتظرونني في المقهى.. لتذهب ساعات النوم اللعينة هذه إلى الجحيم.. النوم!! النوم!! يا لهذا الموت اللذيذ الذي يطاردني كل يوم. سبعة سباتي، آس كُبّا.. شو بتشربوا يا شباب؟ وصوت مائع يغرق المقهى المتوتر في ضجيج لا معنى له، وشفاه تصيح: سكر الراديو.. العمى.

أصابعي ترتجف، لو حدثَتْ المعجزة، وجاءتني الخمسة الديناري حفرًا بين هذه الورقات الأربع، إذن لنزل قلبي إلى موضعه، ولأسرعت إلى اللوح لأسجّل ربحي ولأمسحَ الآخرين، أمسحهم مسحًا وأستمتع بمرأى وجوههم الصفراء وهم يتمتمون بحقد:

– حظ فظيع.. اذهب إلى الروليت أشرف لك!!

الخمسة الديناري.. أين أنت أيتها الشهباء المدمّاة الحلوة؟..هاأنذا أسحب أيضًا.. وأيضًا.. وأيضًا.. أين أنت؟.. يا أجمل من خد متورد لحسناء.. الخمسة الديناري يا أروع من مؤخرة فتاة في الرابعة عشرة. اهرب!! اهرب. أمامك متسع من الوقت قبل أن تنفرج شفتان لترفع الرهان: فيشة.. دق يا قلبي.. اثنتان.. ثلاث.. تك.. تك.. تك.. أربع.. ست.. عشر.. بم بم بم، اليدان ترتجفان، وأنت تنظر إلى الشفتين وتكاد تتوسل: على مهلك، ورقنا ميت، يأتي كله مزدوجًا دون أن تركب ورقة على أخرى، صدق المثل: مثل ورق الشدّة كل ورقة شكل.. دقيقة يا شباب سأذهب لأبصق على حظي الأسود قه قه قه.. سأذهب لأبول على كلب جوبر، ولكن الشفتين تنفرجان:

– صولد!!

وتصفر الوجوه.. شو بتشربوا يا شباب؟ عندنا قهوة.. شاي.. زهورات.. كازوز.. ليمون.. تمر هندي.. كسما.. نومي.. والصولد معلق

فوق الرأس كسيف ديموقليس، والعينان اللتان يفصلهما عن الشفتين المرتجفتين عشرة سنتيمترات يحتلها أنف قبيح، تتأملان الثلاثة بتشف وانتصار، وهم مكبون على أوراقهم يحسبون ويطرحون ويجمعون..

- ليش الصولد.. واللّه مثلي مثلك تنقصني ورقة.

ولكن العينين تظلان ثابتتين وينفرج تحتهما الفحيح:

- قلت صولد وبس اللي بدو يجي.. يشرِّف.

العمى في سمى هذه الضجة، والصوت المائع لا يزال يدوي:

أنساك إزاي أنساك

وأنا قلبي معاك

يا هاجرني ارحم شوية

وترتخي الأيدي بخزى.. لا.. اربح.. اربح.. صحتين.. حياة كلاب، حياة لصوص. كل يوم أنظر إلى البارودة الستة مليمتر المعلقة فوق رأسي.. طلقة واحدة على الزناد بابهام القدم اليمنى على الصدغ الأيسر وتنتهي المشكلة. الموت لذيذ كالنوم، ولكن لنفرض أن الرصاصة الصغيرة لم تقتل، لنفترض أنها دخلت الأعصاب الشبكية أو مالا أعرف، وأعدمتك البصر ونجوت لتحمل عكازًا فوق حملك الحياة؟ هل باستطاعة الإنسان أن يضرب طلقتين مرة واحدة؟ هل يستطيع تحمل الضربة الأولى ثم يدير الرأس على الصدغ الأيمن والبارودة على الابهام الأيسر ليجرب حركة أخرى؟

يا أستاذ.. وجهك أصفر كالأموات.. قلت لنا البارحة أنَّ اسم إنَّ منصوب.. ويتهالك الأستاذ على المنبر.. لو أن الخمسة الديناري اللعينة أتت حفرًا بين السيري؟اذن لمسحتهم مسحًا.. أنت يا ولد.. العب!؟ جاء دورك.. عفوًا أعني اكتب الدرس خمس مرات.. نعم أنت في آخر الصف.. العب.. أعني اكتب جيدًا. ووجه أبي الغاضب وعينا أختي المخضلتان بالاشفاق

تدوران وتكبران وتكبران وتكبران.. حَيَّ على الصلاة. حيَّ على الفلاح، والخمسة الديناري تكبر وتكبر وتكبر ويصبح كل رقم فيها كقلعة حلب.. ويدان تهزانني لأستفيق من النوم والعرق يغرق بدني اغراقًا.

يا له من كابوس روتيني.. أحلام مُتَمَلِّك، ونظرتُ إلى وجه أختي الذي لا يزال به أثر من نوم.

- الساعة ثمانية إلا ربع.. تأخرتَ عن المدرسة.

قمتُ بتكاسل وأنا أجري حسابًا سريعًا كانت نتيجته أنني لم أنم سوى ساعتين ونصف. نظرت إلى المرآة، من يصدق أن هذا الوجه وجهُ إنسان؟ وجه أعبس كنود، لحيته لم تحلق منذ أيام (لضيق الوقت)، وجه مومياء، تنتظر ضوء الشمس ونقى الهواء لتتفتت. لبستُ القميص الأبيض النظيف على رقبة لم تغسل منذ أسبوعين (لضيق الوقت)، وتنهدت أختي ونظرت إلى يديها المسلوختين من الغسيل، ولكنها لم تتكلم: كانت الثورة على لساني ويدي ووجهي المظلم كلِّـــه قالت:

- هيأت لك لقمتين.

أجبتُ بجفاء:

- ما في وقت!!

وأشعلت سيجارة انساب دخانها في حلقي وكاد يتوقف.

استقبلت نسيم الصباح خارجًا بسرعة. الساعة الثامنة إلا خمس دقائق، والمدير لا يرحم، والطلاب بدؤوا يلاحظون الغرابة في وجهي وتصرفاتي وأقوالي. كانت البنات الصغيرات ذاهباتٍ إلى مدارسهن. شرائطهن البيض المعقودات خلف شعورهن الناعمة كفراشات مضطربة، وملابسهن السود وكتبهن التي يتأبطنها ويضعنها فوق القلب، تذكرني بعالم ذي ثلج أبيض.. ودمعت عيناي.. لا شك أن قرصة البرد هي السبب، وليس هناك عامل آخر.

وعند باب المدرسة، في الساعة الثامنة تمامًا، رأيت المدير. كانت نظرته جارحة كالصقر، نظر إلى لحيتي الرهيبة السوداء، وإلى هندامي، واحمرار عيني، واصفرار وجهي نظرة متفحص، ثم مُزْوَرٍّ، وكلف نفسه بأن رد بتمتمة ما من بين شفتيه على تحيتي الوجلة. وفي الصف كانت تنتظرني مئة عين مدققة، تعودت على صوتي الخشن الذي أحرقه الدخان، وخرشه السهر وعلى عينيَّ الداميتين.. عيني سكير ومقامر، وعلى الغضب السريع والغلط والتناقض.. ولكنهم مع ذلك كانوا يحبونني من أعماقهم، ماذا أقدم لكم يا أصدقائي الصغار، قلبي؟ يا له من بخل أن يقدم الإنسان شيئًا لا يفخر به، كيف أقدم لكم قلب عبد، عبد لأوراق تحملها الأيدي المرتجفة بتعبد. أنا أشعر الآن أنه ليس هناك في هذا الجسم الذي قدر علي أن أتحرك به شيء أصيل: الأيدي لحمل الورق، والقلب للانتظار، انتظار أول غبش يضرب صفحة السماء لأسرع إلى المقهى، والعقل للتفكير الممض في طريقة لاستجلاب المال لألعب وأخسر، لم تعد الخسارة والربح الشيءَ الأساسي الذي يثير اهتمامي.. المهم أن أمسك الورق.. أن ألامسه، وأن ترتجف يدي بحمله.. أن ألعنه.. أن أعبده.

لم يكن ضيقي بالدروس ليقلّ بحال عن ضيق الطلاب، كنا جميعًا ننتظر الجرس كما ينتظر السجناء فسحة المساء ليخرجوا إلى الهواء الطلق ويتنفسوا شيئًا من هواء الإنسان الحر.

- ولك يا حسن بدون كلام.

وهويت بيدي على الخد الضامر الشاحب وحدقت فيّ أذكى عينين في الصف مدهوشتين مؤنبتين، وقال حسن بهدوء:

- لست أنا الذي تكلم..

وبدا أنه يبذل جهدًا كي لا يبكي.

- لقد كنت مريضًا.. وجئت خاصة. وسكت وأكمل آخر:

- لقد جاء خاصة ليحضر درسك..

ودق الجرس المنقذ وخرجت كالمخمور إلى البيت.. لقد جئت خاصة.. لقد جئت خاصة، وبعد خمس دقائق فقط كنت أنام بدون طعام.. رقاد الظهر هو الوحيد الذي يريحني، إذ يكون التعب قد بلغ بي حدًا يمنع عني الأحلام.. أنام كالخشبة ثلاث ساعات، وعندما يأتي المساء أحس كأن يدًا سحرية تهزني من النوم، لقد حان الوقت، واستفاق إله الورق الخفاشي وجاءت ساعة القدر التي لا مفر منها.

لا أعلم لماذا خطر لي في ذلك اليوم أن أحلق ذقني وأن أرتب شعري. وخرجت من البيت وأنا أكثر ثقة من أي وقت مضى، بأي شيء؟ هذا ما لم أفكر فيه وما لا أدري معناه.

وعند باب القهوة أصابتني الحمى مرة واحدة، أخذت أرتجف وخفق قلبي فشعرت به كعجوز مشرف. وملأت أنفي الرائحة المألوفة التي هي مزيج من رائحة الخمر والقهوة وأنفاس التنباك ودخان السجائر والناس المنتنين.. وسرت كأنني منوّم فدخلت إلى طاولتنا المفضلة، ورأيت اثنين من الشلة ينتظران وعيونهما معلقتان بالباب دون أن يحركا شفاههما بكلمة:

- مرحبًا.

- مرحبًا.

كم أكره وجوههم. لقد تعرفت فيها على وجهي الصباحي كان الورق على الطاولة يأكل حبة قلوبنا.

وضربت كفي صارخًا:

- أبو أحمد.. أوقية لحم شقف بدون دهن، وصحن حمص وبطحة عرق شلهوب وأكثِر من السرفيس.

- أمرك.

الوقت ثمين.. الورق على الطاولة صامت كأبي الهول، وصاحبنا الرابع لم يأتِ بعد، وتململنا، ونظر بعضنا إلى بعض. ربع ساعة، نصف ساعة، ووصل اضطرابنا إلى نهايته، انتبهت أكثر من أي وقت مضى إلى الضجيج. كان بجانبنا رجل يحلف بالطلاق أنه لم يسرق الجوكر، وآخرون يعربدون ويرافقون الراديو وصوته المتميع، وهناك في الزاوية جلس شباب يتحدثون في السياسة.. السياسة؟ هه.. يا لها من عالم قديم، تفصلني عنه عصور جيولوجية سحيقة.

وفي غرف جانبية كان الصمت يسترعي الانتباه!! إن آخرتنا هناك!! في هذه الغرف الجانبية، حيث لا يخرج منها المقامرون الكبار على الإطلاق، وحيث تبدأ الفيشة بخمس ليرات فلا يخرج الواحد إلا رابحًا أو خاسرًا مئات الليرات.. وارتجفت.. أكان ذلك ذعرًا من الهاوية؟ (لقد جئت خاصة لأحضر درسك) شربت الكأس حتى نهايته، ونظرت إلى الورق، وبدأ وجدي يصل إلى قمته، أين الرابع؟ لا بد من رابع، كنت أتمنى أن يأتي أي رجل، مضى الزمن الذي كنت أنتقي فيه من يقامر معي. أصبح كل من يمسك الورق مصفرًا أو مرتجفًا، صالحًا لأن يجلس معنا ولو كان غشاشًا أو ساقطًا أو سكيرًا أو ذا سمعة سيئة معروفة، المهم أن نلعب ونلعب ونلعب حتى ننطفئ أو ينطفئ العالم.

- بتسمحوا يا شباب.

- اتفضل.

لعلي الوحيد الذي أهتم بالوجه.. لقد كان قهرمانيًا تجاوز الستين، ورمقنا خادم القهوة، ورفع حاجبيه استياء واستنكارًا كأنه يقول: ولو.. إلى هنا وصلنا؟ ولكننا لم نبال، لقد جاء الرابع.. وأنه ليستحق الشكر على هذا التفضل.

وكالعادة كان حظي سيئًا، وكنت أزجي اللعنات للورق والحظ والدنيا، وأتفوه بكلمات أبعد ما تكون عن معلم تلامذة، واستمرت خسارتي.. والغريب صامت عابس يربح ويربح بهدوء، وتمخط ثم بصق على الأرض من بين أسنانه الدرداء.

وقمت لأغسل يدي.. كانت أنفاسي تتقطع، نظرت إلى وجهي في المرآة، كان محتقنًا بائسًا كوجه شهيد. وقفزت إلى ذهني كلمات عجوز شحاذة عند باب المقهى، قالت لي ذات يوم وأنا خارج في الصباح من المقهى:

- يا أسفًا على شبابك.

شبابي.. حياتي.. أمي.. أبي.. أختي.. التلاميذ.. (لقد جئت خاصة لأحضر درسك). الوطن.. العالم.. كل هذه أشياء لم يعد لها في ذهني أي معنى أو دلالة.. يجب أن أستمر في الورق والسكر حتى يصبح لحياتي معنى.. ركضت إلى الحديقة وحيدًا أترنح وأخذت أبكي بشقاء عظيم.

وعدت محطمًا إلى المذبح.. وجلست، وأمسكت بالورق، وجاءني الآس منذ أول توزيع، ثم الملك، ثم الملكة، ثم الولد، ثم العشرة:ورق في غاية القوة، لا أدري لماذا أفرح.. وأخذت أفكر.. وما الفرق بين هذا الورق والورق السيئ الذي كان يأتيني؟ لا شيء.. واستمر التوزيع واستمر صعود الورق.

وأخذت أزيد بأرقام كبيرة دون أية حماسة، وانسحب رفيقاي وبقي الغريب بوجهه العابس وببصقاته المتكررة يلحقني وفجأة قال:

- صولد.

وقف الورق في يدي، وعلت وجهَيْ رفيقيَّ أمارات الدهشة بعد أن نظرا إلى ورقي.. لا يمكن أن يتغلب على هذا الورق إلا أعلى ورق في السلم، وهو ما لا يجتمع عند اللاعب إلا مره كل سنة.

قلت بحقد واحتقار:

- ماذا تحمل؟ اهرب أحسن لك.. عندي أعلى ورق يمكن تصوره.

ولكنه أجاب:

- صولد.

في مثل هذه الحالات، لا بد للاعب، إذا كان يحترم نفسه من اللحاق ولو كان متأكدًا من الخسارة مائة في المائة، وإلا فما أدري ماذا يسمونه.. وكان هذا الدور يدعى في عالم القمار (حكم الورق) وإذا لم ينزل اللاعب عند هذا الحكم الشيطاني سيخسر سمعته.. نظرت إلى الوجه الغريب أمامي، وإلى الورق الرائع بين يدي وهو ينظر إلي برهبة وحزم.. إلحق يا جبان.. الحق يا عبد.. والضجة تكبر ووجهي يحتقن أكثر فأكثر. (يا أسفًا على شبابك). (لقد كنت مريضًا وجئت خاصة لأجلك).. لقد أعطيتك هذه الأوراق لتلحق.. الحق يا صفر، وأنزلت يدي وقلت بهدوء:

- باس.. أنسحب. انفجرت دهشة محتقرة في عيون ست، وساد صمت مربك قطعه الغريب هذه المرة ببصقة منكرة مشمئزة، وأدار صديقاي وجهيهما لكي لا تلتقي عيوننا، وتهالكت على المقعد، وأنا أشعر بحرية لا حدود لها.. وانطفأ العالم حولي وخفتت الضجة ثم قمت.

- بخاطركم.

ولم يرد أحد.

وخرجت من باب المقهى وأنا أحس أنني خفيف كطيف، كان العالم ضحكة كبيرة سوداء وتمثلت لي ألف صورة.. فراشات البنيات عند الصباح، وجوه الطلبة، أعتذر لك من قلبي يا حسن، أبي أمي أختي.. كانوا كلهم يبتسمون. حتى المدير كان يبتسم وعند الباب رأيت الشحاذة العجوز. نظرت إليها ثم أخرجت كل ما بقي معي وأعطيتها إياه.

قالت من أعماقها:

- روح اللّه يخلي شبابك.

فانحنيت حتى الأرض لأول إنسان حر، رأيته في عالمي الجديد!!

* * *

مشـروع إنسَـــان

كانت تلك ساعة جدي، وعندما أهداني إياها أبي قال: دالتن . . إني أعطيك ضريح الآمال والرغبات كلها، إني أعطيك إياها لا لكي تذكر الزمن، بل لكي تنساه بين آونة وأخرى

[فولكنر]

(الصخب والعنف)



هناك أكثر من الضحكات، والتفكير العميق المجدي في النادر، والجلوس في المقهى خمس ساعات من أربع عشرة، والأكل والشرب والتنفس والنوم.. هناك أكثر من الأيدي والأصابع والعيون والقامات والألبسة.. وعندما ننظر إلى المرآة لنصفف شعرنا أو نحلق ذقوننا.. قد لا ننظر بكثير من الاستغراب إلى من يواجهنا سواء أكان جميلاً أم قبيحًا، ومن الواضح أننا، بحكم العادة، لا نشعر بكثير من الصداقة له من جهة أو بكثير من الكره له من جهة أخرى. ولكننا نستشف من وراء خياله الذي قد يؤلمنا أنه يشبهنا، شيئًا غير ما هو كائن فيه شيئًا يبعث في نفوسنا الفخر الذي يسوقنا إلى الرهق والتعب والخمول في أكثر الأحيان، بل قد يديننا ويستثير فينا شعورًا ضمنيًا بمقاتلة العالم.

يحلو لي أنا شخصيًا – كموجود يمشي على رجلين ويهمه حتى الموت أكل الطعام الجيد والاستمتاع بالمباهج – أن أفكر تفكيرًا مقلقًا في هويتي.. ولأحدد الأمر بالقول أنني أعتبر نفسي شخصًا معقولاً في الحياة تجاه كثيرين أعرفهم ويعرفهم غيري في هذا العالم الواسع العريض.. وقد أفكر بهذه الهوية في أكثر المواقف مدعاة إلى عدم التفكير.. أفكر وأنا أدرّس الطلاب، أو وأنا أنظر إلى شخص أصلع يحدثني عن مأساة حياته.. أو وأنا أقرأ أو آكل أو ألعب الورق.. ولأقل أن هذا التفكير كان دومًا ينتهي بي إلى أنني شخص خائب! وأنا مولع جدًا بالإصرار على هذه الكلمة.. وخيبتي كما قد ينتهي بي إليه هذا التفكير البالغ العمق، ليست منبعثة من أعماقي، وإنما هي من العالم الذي حولي.. يقنعني بهذه الخيبة شخص يمشي مع فتاة جميلة.. أو طالب يترأس المظاهرة التي قد يكون في نهايتها الرصاص والدم والموت.. أو فرّان يدير قرص العجين بين يديه في مهارة فاتنة، أو أي رجل يتحدث في حماسة لاهبة عن شيء يعتقده.

يخيل لي في بعض الأحيان أن العالم مضحك.. مضحك لدرجة الإغماء.. وأنه مليء بالقامات التي تمشي على رجلين. مليء بالأيدي والأرجل والولادة والعطور وعقد الرقبة، والأفواه التي تأكل بشكل ينبو عن الذوق. مليء بكل ما هو حيواني أصيل عريق فظ. وأن كل واحد فيه ينظر إلى الآخر بغرابة من يرى منظرًا غير مألوف يراه لأول مرة، ومن جهة أخرى يحس بأنه هو، متعددًا متكررًا بشكل يدعو إلى الملل.

أنا قامة مثقفة، حشت رأسها مدة عشرين سنة بمختلف المعارف العامة عن الشعر والجنس والبلاد والطقس وفن معاملة الناس.. وفي كل مرة أحاول الجمع بين مواد هذه السلسة الملأى التي أتعب من حملها رغم شعوري الضمني بخفتها وضحالتها.. فلا أعود من ذلك إلا بإيمان مرضٍ: وهو أنني شخص خائب مضاع، عاش في غير زمنه، وعندما يفهمه من حوله، تبدأ حياته من جديد تكتسب طابعًا كنت أنا نفسي ألوب عليه ولو أنني شاعر حتمًا بوجوده!!

في الأيام الصاحية.. أخرج مستمتعًا أتنزه... بورجوازي صغير يضع يده في جيب بنطلونه، ويتأمل العالم في شفافية قد تبلغ مرتبة حسن النية.. وأنا في هذه الأيام أكون على أتم الانسجام مع نفسي.. وأروح ألتقط الكلمة تتناثر إلي من فم عابر، أو الحركة تند عن شخص يقف على شرفة قصر. لا شك أن العالم يبدو لي في بعض الأحيان عصيًّا على الفهم...فقد أشعر أنه حجر، أو موسيقى، أو أسنان نخرة بارزة. ولكن الأيام هذه على وجه العموم تنتهي بعودتي إلى كآبتي.. إلى حصني الذي أتقي فيه المفاجآت.. إنني أشعر دومًا بأن شيئًا خفيًا، عتيقًا، ماردًا، بكرًا.. هو سر ما يتحرك به الناس والأشياء من حولي.. وأنني مشدود إلى هذا الشيء شدًا يرهقني عدم ظهور وجهه متميزًا بملامحه الخاصة.. ورغم ذلك، أؤمن بأن اليوم، الذي اكتشف فيه ما يكمن وراء هذا التيه الروتيني من الحركات التي تنظم البشر والحياة والطبيعة معًا،

هو يوم بداية حياتي كشخص لا يتميز فقط بأن له رأسًا وعقلاً ورجلين يمشي عليهما مرفوع القامة؛ بل يتميز حقًا بأنه إنسان.

أترى قد وصل ذلك العامل الذي رأيته منذ شهر إلى السر؟ لا أزال أذكر نظرتَه المحتقِرة، وعودَه الناحل، وحركاته العصبية.. قد أكون جبانًا... ولكن أليس من الضياع الحقيقي على هذا العالم موتُ شخصٍ ذكي مثقف باحث مثلي؟ بينما يوجد منه هو كثيرون..

يجب أن أقرر بصراحة أنني أَحببْتُه... وأنني إذا أحببت شيئًا احترمته.. والاحترام ينطوي عادة على شيء من التفوق.. هل أستطيع أن أقرَّ الآن أن فيه ما يتفوق به علي؟. لا أزال منذ شهر أفكر فيه جديًا، ويكاد يسلِمَني هذا التفكير في بعض الأحيان إلى احتقار نفسي.. والبارحة استسلمت لرجفة حقيقية عندما نفذت عيناه صدفة إلى أعماق كياني في لقاء عابر في الطريق... لماذا يعذبني؟ لماذا يمارس سلطته علي؟ وهل كل من يعاني شيئًا أكثر من الآخرين يؤثر فيهم على هذا الشكل النابي عن اللياقة؟

لم تعطني الكتب أكثر مما أعطانيه هذا العامل في شهر واحد! لقد زاد شعوري بأن الناس ينطوون في أعماقهم على سيد عظيم هم جميعًا ينتظرون ظهوره؛ فهم شاعرون ضمنيًا بوجوده، وهم إلى ذلك يائسون، وفي بعض الأحيان قانطون، من كل ما هو قاس وصفيق وآلي في زحمة حياتهم. ويحسون جميعًا بحاجة إلى تغيير الهواء الخانق، وبالبكاء، وشرب الخمر، وقضاء لياليهم في البؤر الدنسة، بالعراك، وفي تحطيم الأشياء الجميلة نفسها، حتى لقد رأيت جاري يضرب زوجته لمجرد أنها ضحكت مرة من كل قلبها ثم نطح الحائط برأسه عقابًا لنفسه.. ولم تفعل هي سوى أن ضحكت مرة أخرى، فاضطر إلى أن يضحك، وإلى أن يأخذها إلى السينما وأن يولم لها وليمة.. ثم يعود آخر الليل منهكًا حزينًا مستردًا كآبته القديمة.

كان العامل يقود مظاهرة وهو منتصب أمامها كإله أسطوري. الآن تذكرت.. كان المتظاهرون جميعًا يبدون لي غريبين بل مخيفين.. ذلك لأنني شعرت لأول مرة بأنني ضئيل، ولم تنفع كل الأهرامات التي كونتها عن ثقتي بنفسي لإزاحة هذا الشعور.. وكانت المظاهرة بكل بساطة تمشي إلى الموت!! وحانت منه التفاتة نحوي.. آه من عينيه.. كان يعرفني معرفة عابرة من زمن طويل. وأشار بيديه إليّ لأنضم إلى المظاهرة.. وتعالت الدماء إلى وجهي، وأخذت أقلب يدي وأقضم أظافري ببلاهة! ولم يزد، بل أدار وجهه ومضى. وخفتت الأصوات من بعيد، ووجدتُني وحيدًا مع نفسي. كم كنت بحاجة إلى مرآة في تلك اللحظة! كل الأعذار التي ابتدرت إلى نفسي قد أقنعتني بسرعة، ولكنني استغربت كثرتها.. لماذا أموت؟ كم يخسر العالم بفقد رجل مثلي؟ ولكن الذي كان يشغلني ليس هو نفسي والدفاع عنها في المرتبة الأولى. كان يشغلني هذه النظرة الذي كان يلف بها هذا الفتى الناس والأشياء، إنها نظرة تختلف عن نظرتنا ونحن نأكل ونلعب النرد أو نلقي إحدى النكت.. كان فيها حنان علوي مُرنٌّ مشرق.. ترى هل اكتشفت السر؟..

وعندما كان يراني.. يأخذ فمه شكل ابتسامة صغيرة أُحسُّ معها أنه يفهمني، وهذا ما يدفع الغضب إلى نفسي.. كان يهدد أسواري وبنائي الصفيق الذي أقمته يومًا بعد يوم.. بل إنني أشعر أنه اكتشف في نفسي، أشياء فوق التي أعرفها.. إنه يعيش بهذا الفهم في هذا العالم واثقًا، سعيدًا، رابطًا حياته بأمل كبير غني هو فوقي وفوق الناس وإن كان يستمد عناصره مني ومنهم..

لا شك أن أمثاله في العالم كثيرون.. والذي يعذبني الآن اكتشافي لسرهم.. أو بالأحرى اكتشافي صداقتهم! فأنا وحيد وحدة عانس في قصر بارد أثري.. الرخام يتقلص حولي، والجدران يذيبها وهج دافئ مجهول.. ويخيل لي أنني الجاهل الوحيد وأن الناس حولي يعرفون.

في أربعين أو خمسين أو ستين سنة أحياها يجب أن أفهم لماذا أحيا. لماذا آكل وأضحك وأذهب إلى القهوة وأنام كالأموات. وما إصراري على تسمية شخصي بالخائب، والعبقري المضاع والذكي المثقف، إلا تمويهات أخذت تفقد طلاءها أمام عمق الحياة المخوف. وعظمة هذه المنتصبة التي تحيا.. لقد انزاح عن نفسي بعض الخوف منهم لأنني بدأت أتفهمهم.. وفي بعض الأحيان أسأل نفسي هل أنا حيوان؟

أتساءل عن ذاتي هذه.. ما كنهها؟ كيف يحق لي ألا أرى في العالم شيئًا يستحق الاهتمام سواها.. في بعض الأحيان أحس أن عالمي ضيق.. فقير.. ولا أعلم لماذا تتدافع إلى ذاكرتي تلك الصور المخيفة التي رأيتها في بيروت ذات مساء.

كان كهلاً مشوهًا قد التَوَت رقبته وانحنت عروقه حتى لامست عيناه صدره!! فهو كأنما يفتش في صدره عن شيء ضائع.. وعالمه كله منحصرًا في هذا المثلث الصغير الذي تطاله عيناه. وشيئًا فشيئًا ينطفئ بريق عينيه، حتى يصبح ذات يوم أعمى لثبات المنظر واللون في منظورات حدقتيه.. العالم الخارجي بالنسبة إليه همهمات وأصداء تفقد رُواءها.. الحقيقة بالنسبة إليه هي هذا القميص القذر الذي يغطي صدره، والذي يبهت يومًا بعد يوم حتى يمَّحى تمامًا ولا يبقى أمام العينين إلا الفراغ المظلم.

الوحدة؟ هذا السل الرهيب الذي يعمل في صدري تخريبًا منذ زمن.. لقد أخذت أشعر بشيء من الصداقة لها.. صداقة ليس منها بد. وعندما تضغط على قفص العظام، على صدري، أضمها بقسوة مؤلمة وأغذيها بهدوء رجل ينتظر الموت بشجاعة. وفي بعض الأحيان أحاول أن أهرب منها.. أن أنسى وجهها المنعدم المعنى، المتبرقع بالبياض الفاقع الممروض.. فأسهر حتى الصباح، وأشرب حتى الانطفاء، وأروح أتجول في المدينة أضحك لوجه لا أعرفه، وأبتسم في وجه صاحب دكان مشوه بشكل شنيع وأبادله الحديث،

وأدع مراهنًا يحاول أن يسلبني نقودي يضحك في سره من بلاهتي، وأناقش سكران عن أفضل أنواع العرق، وأمشي تحت المطر وأنا أشعر بلذة انحدار القطرات من تحت قميصي إلى بدني المرتعد، وأدخل دكانًا يعلِّمُ إصابة الهدف وأصرف ساعة أحاول إصابة الطابة البيضاء التي ترقص على كف الماء. ثم أجلس أخيرًا في محل عام لأشرب كأسًا من عصير الجزر وأراقب النيون وإعلانات التي تومض في عصبية آلية ميتة قاسية. إني أريد شيئًا مختلفًا، أريد من يمسح على شعري ويقول لي كلمة حانية.. كلمة أفهم منها أن العالم صغير وكبير معًا.. بيت وميدان في آن.. وعندما أفكر هذا التفكير، أراها في وجهها المقنع الممروض، ضاحكة عن فم بلا أسنان، تقترب مني في ثقة وأمل وقحَين.. ثم تقترب وتقترب وتقترب. إنها الوحدة.. إنها السل!

ما أطول التاريخ!! عندما أفكر بالإنسان منذ ابتدأ يتلمس قساوة الحجر والجو والحيوانات حوله حتى الآن، أصاب بنوع من الدوار. وأنا عادة لا أحب هذا النوع من التفكير لأنه يسلمني إلى شعور بحقارتي.. أكان هؤلاء الناس مثلي وحيدين؟ لا يمكن ذلك. هل كان كل منهم يفتش في هذا العالم عن سر وجوده؟يا منجزات التاريخ العظيمة، يا سر الإنسان الخالد.. هل كان يعاني كل صانع لك هذا التمزق الذي أحسه؟ من العجيب أن أوقن أن إنساني القديم هذا يعرفني ويحس بوجودي ويحتقرني معًا. لقد استشعرت هزأه مني في أهرامات الجيزة وجنائن بابل وسور الصين وهياكل بعلبك ومدرجات بصرى.. عرفت هزأه مني أنا بالذات. لقد وقفت مرارًا أمام أعمدة الجامع الأموي واستشعرت ثقلها على كاهلي. وكان أمامي جماعة كثيرة يمرون أمامها بدون تكلف، كانوا يحسون بنوع من الصداقة أمامها يمنعهم من الشعور بالحيرة والغرابة تجاهها، وكانت هي بالذات تبتسم لهم.. إنها امتداد عظمتهم.. وعندما كان الواحد منهم يجلس مسندًا ظهره إلى أحدها كان يحس أن العمود قطعة منه، لقد بُني له هو بالذات.

هل أنا فردي سيء إلى هذا الحد الذي أشعر إزاءه أنني منسلخ عن العالم؟مرة واحدة شعرت بإنسانيتي..شعرت بأنني مع هذا الجمع.. مع هذه القامات التي تمشي على رجلين والتي تفكر وتحلم وتغني.. دخلت مشربًا في مقهى بولوني صغير.. كان الناس هناك من مختلف الأجناس يغنّون كأسرة واحدة. لم تحدجْني الأنظار مستفسرة حين دخلت.. لقد دخل إنسان جديد مثلهم، وبعد لحظة انفجرت أغني أغنية عربية، وسكت الجميع ونظروا إلي بحب.. لقد شعرت بهذا الحب كما أشعر بلمسة نار محرقة، وداروا حولي وسألوني أن أرقص وأغني وأشرب معهم وأن أعلمهم أغنيتي..

أيكون الجو والزمان والمكان وطريقة الحياة ما يبعد الإنسان عن أخيه في هذه الكرة؟أحس بأنني أعيش في جو خانق لا أستشعر كنهه ولونه، ولو أني موقن بقذارته وعدم إنسانيته.. لماذا أجلس الآن في مكان لبيع عصير الفواكه في بيروت تداعب يداي النقود الكثيرة وأنا أشد بؤسًا من أي إنسان في العالم؟ أعرف أن بعضًا من هذه النقود التي تداعبها يداي في جيبي تجلب إلي ما أريده من لذة.. تجلب إلي الحب والحنان والاحترام وكل ما أريده رغم كونه مزيفًا.. ولكني مع ذلك أحس بعداوتها لي.. إنني أحتاجها.. وما كل اللذات التي تأتيني بها ستبعد عني في آخر الليل ذلك الشبح البغيض.. شبح الوحدة.

اليوم صباحًا عندما استيقظت في غرفتي بالفندق، حييت الشخص الثاني الذي ينام معي في نفس غرفتي. وظللنا بعد ذلك ساعتين .. ساعتين كاملتين نغسل ونلبس ونقف أمام مرآة واحدة نمشط شعرنا، ولا نتكلم.. لم يفتح أحد منا فمه بحرف.. كان موقفًا سخيفًا وقاسيًا وغير مفهوم.. هل من المعقول عدم وجود أي شيء يمكن أن يتحدث به إنسانان في غرفة واحدة؟ عن الطقس أو الأسعار أو البلد أو المهنة على الأقل.. كنا نتحاشى بعضنا بكثير من اللطف والكياسة، حتى إذا خرج تنفست بارتياح وأخذت أدندن بأغنية، وعندما تركت الغرفة سألت صاحب الفندق عنه فعرفت منه أنه سأله عني نفس السؤال.

كل واحد مثلي في جوي هذا يريد أن يدخل إلى العالم بطريقة حصان طروادة.. يجب أن يحتال وأن يكذب، وأن يبتسم بتشنج، وأن يضحك، وأن

يتبنى النظريات التي لا نفهمها حتى يجلب السعادة إلى قلبه.. يا لنفوسنا المعقدة الملتوية كدروب اللصوص!!

لست أبرئ نفسي رغم قذارة جوي.. إن شعورًا ضمنيًا يصرخ في أعماقي بأنني مريض.. وأن كثيرين حولي.. كثيرين جدًا قد اكتشفوا هذه الصلة التي تجمع بين الناس في مختلف القارات وأنا أعرفهم..أعرف ذلك العامل، وذلك الفلاح، وذلك الطالب، وذلك الصانع.. أعرفهم من وجوههم، ومن نظراتهم وتصرفاتهم.. وعندما أقيس نفسي بهم، أنا المثقف المحشو الرأس، يداخلني شعور بضرورة اندغامي بالتراب.

فرديتي؟ هذا الهراء الذي أبهج به كمثقف.. لم تكن الفردية ما شعر به كل العظماء عندما فهموا الإنسان. صحيح أنهم أكدوا ذواتهم.. – لماذا أصر على هذه الكلمة؟ – ولكنهم عرفوا ذواتهم في نفوس الآخرين..

كيف يستطيع ذلك العامل أو الفلاح أو الصانع أن يندمجوا مع هذا الكون بهذا الانسجام؟. كيف يشعر كل منهم بالسيد العظيم في نفسه.. هل هم مجتمعون على هدف واحد يا ترى؟.. آه، إن رأسي يكاد أن ينفلق.

هناك أكثر من الضحكات والتفكير العميق المجدي في النادر والجلوس في المقهى خمس ساعات من أربع عشرة والأكل والشرب والتنفس والنوم.. هناك أكثر من الأيدي والأصابع والعيون والقامات والألبسة..

يا عاملي.. يا صديقي.. يا إنسان.. يا أيها الجالسون في المقهى تضحكون وتحدقون في الفراغ.. يا أيتها القامات التي تحلم وتغني وتشتغل وتبدع على ظهر هذا الكوكب العجيب..إنني أريد أن أقول لكم أشياء عظيمة.. أشياء بالغة العظمة والصدق.. إنني...

آه لشد ما أنا متعب.. سأذهب الآن لأشرب كأسًا من العرق لعلني أستريح.. ولعلي بعد ذلك أحظى بقليل من النوم..

* * *

من يَوميّات ثائر

«انحدر وحده عن قمة الجبل وهو يهز بندقيته بغضب في وجه الجيش، وتخطى قاعًا عميقًا فذهلنا أمام هذا الجنون وكأننا قد صعقنا في أمكنتنا وهو مندفع كالسهم، وجمد الكون من حولنا، وصمتت الطبيعة، فلم يعد يسمع غير وقع سنابك فرسه».

[لورانس]

(أعمدة الحكمة السبعة)



وجدت هذه اليوميات الحية في دفتر صغير للثائر(...) ولقد حاولت أن أحتفظ ما أمكن بروحها ولغتها.

* * *

كان الشيخ الأشمر[١] بشرق الأردن بالشلاّلة، وكنا بمعيته ننتظر أن نتجهز هناك أموالاً وسلاحًا وخيلاً. كنا كتار، حوالي أربعميت ثورجي، معنا جماعة من عرب المساعيد بقيادة عدوة السرور، ومعنا عوّاد بن ماضي من بني صخر شيخ العيس، والشيخ مصطفى الخليل وجماعته، والشيخ ديب القديمي وسالم بن إسماعيل الترك من شيخ مسكين. وكنا نحن شباب الميدان[٢] ونبلغ حوالي التسعين بقيادة الأشمر.

تحركنا من شرق الأردن لنذهب بطريق الغارية على درعا عاللجاة، حتى إذا وصلنا إلى تل عرار بين خربة الغزالة ودرعا وكان نقطة فرنسية، هاجمناه فأشعلت الحامية فيه النار وأعطت الإشارة إلى درعا، قبضنا على العسكر الموجودين، ولغم الشيخ مصطفى خليل الجسر وراءنا، ومشينا حتى وصلنا إلى داعل.

ونحنا صرنا على سواة داعل، وأسأل اللّه العافية، نار مثل زخ المطر.. ون ون ون.. العمى.. شو القصة؟ ظهر أنه في داعل حامية فرنسية. معنا واحد من تل شهاب اسمه ياسين الحشيش رفع رأسه وصرخ:

– يا هالربع.. يا هالربع.. اتركونا.. نحن ثوار.

---

(١) أحد كبار قادة الثورة السورية.

(٢) أكبر حي في دمشق أحرق عدة مرات أيام الثورة وضرب وهدّم لأنه كان مغلقاً على الثوار.

فما أجابونا إلا بالرصاص.. نصب أبو موسى مترلوز وحرّك فيهم ضرب.. ثم اقتحم الشيخ الأشمر بفرسه البلد، وسرنا وراءه ودخلنا البلد، وهرب من بداخلها نحو طفس، وما لحقنا نستريح حتى جاءت وش الصبح ٢١ طائرة حامت فوق البلد. بم.. بم.. بم.. كل قازان[١] قد الزلمه.. طلعنا برات البلد، ولما قويت الشمس جاءت الدبابات والمصفحات من خربة الغزالة، صرخ الشيخ الأشمر يا هالربع اتركوهم يدخلوا بوسط البلد ونردمهم بالصخور.

وصلوا للبلد وبدأوا الضرب، كان بيدي بمبة[٢] مشرَّطة إنكليزية، لطيت للمصفحة، وما أن رفعت بدي لأقذفها، حتى جاء بالقرب مني قازان طيارة.. عميت عيوني من الغبار، وسمعت الصراخ حولي:

- راح أبو فارس.. راح أبو فارس. وركضوا نحوي.. باطل[٣].. باطل.. يا باطل راح أبو فارس، دفعت البارودة من يدي وألقيت البمبة وتدحرجت بعيدًا فصرخوا فرحين:

- ليكو أبو فارس طيب.. شد العزيمة يا سبع شد.

بعد برهة، جاءت العسكر بعد الطيارات والمصفحات، وصار الضحى المتين، وحمينا مع حمّو الشمس.. انحرفت العسكر مغرّب، لحقناهم فتشتتوا، ولحقت الطيارات والمصفحات العسكر لتحميهم، وبقينا ساعات لاطين بين الصخور خوفًا من القازانات، وإذا بعواد بن ماضي يركب ويدعو جماعته.

قال الشيخ الأشمر، وين يا شيخ عواد؟ قال: فالّين! نحارب السما؟ عسكر ما بو [٤].

---

(١) قنبلة.

(٢) قنبلة يدوية.

(٣) كلمة سورية للتأسف.

(٤) لا يوجد.

مشى مشرّق، لحقه عدوة السرور وجماعته، لحقه الشيخ ديب القديمي بقينا نحنا أهل الميدان.

الولاد[1] قالوا عطشنا، رجعت على البلد وجبت مي.. ركب الشيخ الأشمر فرسه حانقًا.. وين يا شيخنا؟ قال أنا رايح رد هالأمة اللي راحت.. قلت له خير.. ركب الشيخ وطلع.. وهو طلع لحقته الطائرات.. فيه طائرة طاردته مثل خيال يطارد خيال.. واللّه المترليوز شفناه وهو ممدود من الطائرة، ترن ترن، على الشيخ الأشمر، والأشمر ساحب مثل الريح يميل يمينًا وشمالاً حتى لا يصيبه الرصاص.. انهرست خصوته، ومنذ ذلك اليوم حتى الآن ومعه وجع المثانة اللعين.. قول نفد الشيخ بعدها بعناية اللّه، بقينا لبعد المغرب والشيخ لم يرجع.. حكمته صعوبات مع الذاهبين..

انقطعت الطيارات بالليل.. قلنا يا اللّه يا شباب عاللجاة.. الدليل عزو عباش وابنه صالح قالوا نعرف الطريق.. درت، أنا (للّه عبد) وأبو خالد نجيب وأبو سعيد فصرخنا عالناس.. قال الحج كاسم وين؟ انتظروا الشيخ.. قال أبو خالد ما نترك الولاد هنا، بكره يجوا العسكر وتصير مذبحة، ونحنا ظهرنا ليس محميًا.. تحمل الصراخ عالناس ساعة ومشيوا قدامنا حتى أمنَّا آخر ثورجي، ولكنهم كانوا قد سبقونا مسافة ساعة مع الدليل، فلما مشينا ضيعناهم في الظلام.. لقينا فلاحين سألناهم منين راحوا؟ قالوا من هون، طردنا الخيل وراهم فلم نرهم.. رجعنا يمين، شمال، بلا فائدة، رجعنا إلى البلد حائرين ماذا نفعل.

قلتلهم يا جماعة يمكن أخذهم سالم على شيخ مسكين، الحقوني لهناك وأنا دليلكم.. كنت، أنا للّه عبد، وأبو خالد عبد الغني نجيب.. أبو سعيد دقماق، أبو صياح الحرش، رمضان دربازه، عصمان بن عصمان، أبو شاكر

---

(١) يعني الرجال.

المقشاتي وأخوه، وأولاد شبركة الاثنين وأبوهم المريض، سيروا يا شباب على بركة اللّه.

مشينا من ابطع على شيخ مسكين.. قبل جسر الشيخ مسكين فيه تربة جنب المحطة القديمة، الدنيا ظلام والقمر في المحاق ترفع إصبعك ما تشوفها، كنا نكاد نموت من الجوع، يومين ونحنا وخيلنا بدون أكل.. قلت لهم أنتم اقعدوا هنا حتى أعسّ البلد. سحبت فرسي بايدي ومشيت من على الجسر وصرت برأس البلد. صرخ واحد من قلب العتمة فجأة:

– ويش هالزول[١] ؟.

قلت:

– صاحب!

قال:

– شو هالصاحب بها الليل؟

قلت:

– يا عمي طريق.. بتمنعوا الطريق؟

قال:

– أسوق عليك اللّه[٢]، وجاه اللّه، اكفونا شركم.

قلت:

– يا عمي ما احنا يمكم[٣]، تعال أسألك هالسؤال.

وقفت دقائق دون أن أتحرك، وساد صمت.. صرخ الرجل من بعيد: بعدك واقف؟

---

(١) من هذا الظل.

(٢) بحق الله.

(٣) لا نريد بكم شراً.

ومد البارودة: دي دي.. وصرخ بصوت متطاول يفزع[١] جماعته:

- ويـــ يـــ يـــ ن را ا ا حوا ا..

وقت صاح، تاري البلدة ملآنة عسكر.. رجعت كرفته[٢] لقيت الجماعة راكبين ورفعوا راس خيلهم. ركبت ولحقت ربعي.

سمعنا صوت، صارت الخيل ورانا، ضربت مشطين وجماعتي ضربوا. ويالله يا خيل.. الخيل الأصيلة الجائعة سبقت الريح، وجدنا أنفسنا أمام محطة ازرع.. أعوذ بالله! أكبر قلعة للفرنسيين ارجعوا يا شباب عناية ربانية جعلتهم يعموا عنا، رجعنا من غربي الدنيلبة، وسلَتنا[٣] على الطريق، مشينا.. مشينا.. مشينا وبعدين وقفنا، فقال أبو خالد، اللّه يرضي روحه في أعلى عليين (تاريخ وفاته، في معركة الغوطة، حرقة بقلبي، ما كتبتها بعد):

- خلينا نفوت عاللجاة.

قلت:

- يا أبو خالد، إذا فتنا عاللجاة، عمرنا لعند على بكرة، مليانة زرار صفر[٤]، أمامكم يا شرقي الأردن، يا الشام.

حولنا على الأرض، لقينا شوية حصيد، صارت الخيل تاكل بعض الهشيم، كوعنا[٥] على بواريدنا، أخذت غفوة ساعة وانتبهت مذعورًا:

- أبو خالد، أبو صياح، رمضان، اقعدوا.. أعطوني سيجارة. شعلت السيجارة، فهدأ روعي، قلت: وين يا جماعة؟

---

(١) يستنجد.

(٢) لهوجة أو دحرجة كناية عن الارتباك الشديد.

(٣) نزلنا برفق وتسلل.

(٤) عسكر وضباط.

(٥) وضعنا كوعنا على بواريدنا.

فقال أبو خالد:

- عالشام.. خلينا نموت بأرضنا.. يا اللّه امشوا على بركة اللّه.

وصلنا محطة (محجة) وإذا بها عسكر.. وإذا بيرجكتور يكشفنا، غربينا حقــل ذرة، ألقينا حالنا بالذرة، وجررنا خيلنا فيها حتى وصلنا إلى تل المقداد وطلع الضوء.

نظرنا أمامنا وإذا بخيام عرب قدامنا، وصلنا إليهم والشمس بدرت، ميلنا وحولنا عن خيلنا.. وأكلنا خبز ناشف ما كان عندهم شيء غيره.

أكلت لقمة ما نزلت ببلعومي، زتّيتها[١] أكلت الثانية لحشتها[٢].. حتى سال ريقي وقدرت آكل.

تاري ورانا جواسيس لاحقينا من بلد اسمها مشغرا، نزلوا عند العرب قبلنا وقالوا لهم عنا. فحكى لنا البدوي، قلنا له نحنا ما لنا مقيمين، نريد باب اللّه.. قال:

- يا خيو انزلوا خربة الدلّ، مابوها[٣] حدا.

ساعتها صرخنا على أبو خالد وأبو سعيد اركبوا.. ركبنا.. وصلنا على خربة الدلّ. كانت خربة عالية فيها مثل البايكة[٤] حطينا الخيل بهالبايكة، والخيل الأصيلة صارت تأكل الزبل.. يا حيف!!

عملنا حراسة كل واحد ودربيله[٥]. وقفت حارسًا ونام الآخرون.. صار يحكّني بدني، قلت يا ولد اشلح وإذا إجت العسكر الثياب ما ترد الرصاص..

---

(١) رميتها.

(٢) رميتها أيضاً.

(٣) ليس فيها أحد.

(٤) مستودع كبير للحبوب.

(٥) منظاره.

شلحت وفلّيت نفسي من القمل وعنّ على بالي النفَس. أخرجت الأركيلة من الخرج ولمّيت حرز شوك وساويت نفس أركيلة. هيك حتى صارت الدنيا الظهر. صرخت على واحد آخر، أظن أنه أبو سعيد، ورجعت أنام. لما سهيت عيني، سبحان من لا ينام، صرخ أبو سعيد: هاي اثنين درك خلينا نضربهم وناخذ خيلهم، قلت له: درك ما بدنا.. على كل هدول ولادنا ولحم كتافنا.. آخرتهم لنا.. مرقوا عنا بعيدين شوي، ورجعت ونمت.. أظن أنني أغفيت ساعة وقت صرخ أبو سعيد، فزيّنا كلنا ورحنا لعنده، لقيت عنده أبو خالد (اللّه ينور ترابه بمطر نيسان) قال المرحوم:

- شوف يا بي.

وهز رأسه وعيونه تشتعل مثل نجمة الصبح، ونظرت وإذا بخيل كثيرة، وإذا ببيرق يشبه بيرقنا. يا هل ترى جماعتنا وأولادنا؟ لكن يا ربع جماعتنا مو بها العدد، تطلّعنا بالدربيل، لقينا معهم ضباط فرنسيون، عرفنا أنها علقت.

وقفوا أمام طاحون قريبة منا، ثم فرّقهم الضباط، وإذا بالعسكر انفردت في كل الاتجاهات وطوقوا الخربة.. فهمنا.. من ها المراح ما في براح[1] معنا ست بواريد فقط. انتظرنا وشمينا ريحة الموت بأنوفنا.. يا شباب هللي ينفد من هالوقعة يخبّر أهلنا أنَّــا متنا هون، قبل ما تاكلنا نسور الفلا وسمّعونا الفاتحة.. كل ضَرْب قولوا اللّه أكبر. واضربوا على اللحم.. يا بالزمالة يا براعيها[2].

بلَّش الضرب من العسكر، فجاوبنا. صبت فرس بسبتّها[3] فهجمت نحونا بخرجها. تلفتَّــنا مغرّب، فوجدنا ضابط لابس عباية حمرة مقصّبة وراكب فرس

---

(١) مثل يعني أننا لا مهرب لنا من مكاننا.

(٢) أي إما بالفرس وإما براكبها.

(٣) بمؤخرتها.

وملبّسها ومدندشها بالقصب تقول جايه لمعرض. وكان معه خمس خيالة. وتوجهوا صوبنا لأجل التسليم، وصرخوا علينا: استسلموا وانفدوا بحياتكم.

كانوا لا يعرفون عددنا.. وأظن أنهم قدروا أننا مئة وأكثر لأننا توزعنا بشكل منيح وتَرسَنا وراء حاجز صخري.

صرنا ننخي بعضنا: عيال عمي.. عصابة راسي. عيال الميدان أخواني.. قرايبي.. وهذا يقول:ابشر يا ما عندك اشهدوا لي. بم، بم، بم، أي، أي.. وإذا بخمسة ملقَّحون على الأرض كنا ممرنين على النيشان نصيب خرم الإبرة، الضابط علقت رجله بالركاب، وأنجرَّ مدة، ثم تخلص ووقع في قناة الطاحون، السادس شمَّع الخيط[1].. صرخت: أبو خالد عندك هالخاين الوطن.. فرفع أبو خالد بارودته والمسافة بعيدة جدًا.. بم.. رفعت الفرس قدميها وسقطت.. والفارس تدركل وتدحرج هاربًا.. باطل باطل.. بسيطه اللّه ما هو قاتله. شرقّت فرس والخمسة جاءت صوبنا وصارت قبالنا، وقفت لأجيء بالخيل، فتساقط أمامي الرصاص على التراب لدرجة أنني لم أر شيئًا من الغبار والعجاج.. صرخ أبو خالد، اللّه ينور روحه: وين؟ يلعن دين الخيل وسما الخيل! لم أجب. شعرت أن كسب الحرب لذيذ، لذيذ، ألذ من ربح التجارة.. نزلت من مغرّب واسناولت[2] هالخيل ورجعت على الخربة، وبركت منها فرس مجروحة على الأرض فورًا. ركضت على الخرج فإذا بها كلها مليئة بالنهب والسلب: قماش، صحون، طناجر.. ولقينا أكل وشعير للخيل وفشك بما هو كفاية، ورجعت لعند ربعي بالذخيرة والطعام.

ملّينا من الضرب، وحبيّنا الموت.. كان العسكر يتقدمون ويرجعون بعد أن يتركوا على الأرض ما فيه النصيب، ورأيت بالدربيل كيف أن الضباط غاضبون. كان العسكر مرتزقة طالعين من شان النهب والسلب، ولذلك ما فيهم حيل للموت، صاروا يتراجعون مذعورين. قلت لأبي خالد وقد ضرب جنون الحرب برأسي: شو رأيك نمشي عليهم؟

---

(١) تعبير شعبي، يعني أنه هرب.

(٢) تناولت.

وبدون أن يفوه أبو خالد بكلمة واحدة نهض ومشى، لحقته، نزلنا بمنخفض، صار العسكر المتقدمين لما شافونا يصرخون بطلب النجدة، قلت لأبو خالد:

- يا ترى هون الطرابة[1] يا بو خالد أم نحكي السالفة لأولادنا؟

قال بجفاف: سلّم للّه.

بقي معنا خمس بواريد لأنه في واحد أصيب، حمونا ربعنا من ورائنا.. لحقنا عصمان بن عصمان. هناك قناة الطاحون وعمقها متران ونصف. نزلت قبل ربعي لقيت على بعد عشرين متر الضابط صاحب العباءة المجروح ومعه خمس عساكر يريدون نقله ونقل الجرحى الباقين واحد واحد. انقصفت رجلي وانهدَّ حيلي، وبهتنا أنا وهم ثواني. مديت البارودة، دي دي، ضربت الأول والثاني، وتسلقت القناة إلى الأرض بمعجزة. صرت فوق ولهثت أقول لأبو خالد: العسكر هون. فنزل ونزلت وراءه وعثمان لقيناهم ساحبين الجرحى.. أخذت العباية المقصبة ولفيتها على ها الإيد الخاطية، قال عثمان عمي بو فارس بدي الحدية[2]، قلت أبشر بالعطية وأعطيته العقال.

صار وقت الغروب.. ريقنا نشف. وحالتنا بالويل. ضربنا لقينا العسكر ركضت قِبلة[3] نحو الطاحون.. شو ردّها؟ ما بعرف! يمكن رجعوا ياخدوا أوامر من الضباط في الطاحون. قال أبو خالد:

- أخوي أبو فارس، عصابة راسي عثمان.. هلأ وقتكم.. الفشكة تأخذ على قدر قوتها اثنين وثلاثة وأربعة.. العسكر متجمعين.

ضربنا خمسة أمشاط متتابعة من الذخيرة المنهوبة ففرقنا العسكر.. الولاد عم يضربوا من الخربة ونحنا لاحقين العسكر نضرب لبعد المغرب.. رجعنا عالخربة، لقينا الولاد ساحبين الخيل وجايين، تركنا الخربة لبعد

---

(١) انموت هنا.

(٢) أريد البشارة.

(٣) جنوباً.

خمسمائة متر.. وإذا بنا نسمع ضرب الرصاص والهجوم على الخربة وراءنا.. فهمنا سبب تجمع العسكر، ركبنا الخيل الجديدة ولفينا لخيلنا الأصيلة «مريج»[1] في واحد بدوي جاء لعندنا وقال يا ربع، أنا أدلكم على الطريق لشرق الأردن. قال أبو خالد وابشر بليرة عصملية. قال عيب أنتو جماعة شجعان عجبتوني، والرجال عند بعضها.. ركب الدليل فرس مريج. ابتعدنا عن الخربة، ونحن بسن نوى[2] ونسمع العسكر وراءنا يضربون على الخربة بالرصاص.

كنت باخن[3] الطريق. طلعنا على عين الضبيّ غربي طفس وصلنا لشرقي المزيريب حتى طلعنا على أرض شرقي الأردن، وصلنا للشلالة، مطرحنا الأصلي، ونحن وخيلنا بدون أكل، إذ ما وجدناه لم يكد يقعد بقرنة بطوننا. بعد الشمس توجهنا عالرمتا ونحنا ماشيين وإذا بعسكر عليهم قائد شركسي اسمه أحمد رمزي شيشاني، ولد مثل الأسد اللّه يسعد مساه، رفعنا البواريد واستعدينا، بعث أحمد رمزي شاويش وقال واحد منكم يكلم القائد.. قال أبو خالد أنا ما بروح، ما بعرف أحكي، أخاف يحكي كلمة فأجاوبه برصاصة، روح أنت ونحنا بنحميك. استقبلني مبتسمًا وقال نسألك سؤال: وين الشيخ الأشمر؟ قلت لا أعرف. فرك يديه بأسف وقال: شو صار معكم؟ حكيت له كل شيء. قال وين أصحاب الخيل؟ قلت له: في صقر[4] ووادي الأحمر، وهالخيل مريج من العسكر ذبحنا ٨١ و ٢٢ مصاويب وست روس خيل، فضحك وفرح رمزي ثم قال، وين؟ قلنا على بلادنا. قال إذا أردتم الرمتا انتو غشما الطريق من هنا.. خذوا ذخيرة من هناك وتوجهوا بعون اللّه. مشي معنا الشاويش دليل وهو يردد: اللّه ينصركم.. اللّه يأخذ بيدكم.

---

(١) مريج: تعبير شعبي يعني أن تلف الرسن على عنق الخيل وتتركها فيقودهـا الفـرس التي تركبها

(٢) بسن نوى: أي بمحاذاة نوى.

(٣) باخن: أي عارف.

(٤) جهنم.

قبل ما نصل للرمتا وصل خبر للشيخ الأشمر وهو في الرمتا أن أبو خالد وأبو فارس استشهدوا. ضرب إيده على رأسه وصرخ ومن وقتها ووجع الرأس يلازمه حتى الآن.

وصلنا من قبل الرمتا إلى قرية اسمها البويضة، أبو خالد ميّل على البلد ليشوف الخيل. بقيت أنا ورمضان وأحمد الحرش. بقينا لبعد العصر وإذا بأبو هاشم رحمون صرخ علينا وجايب لنا طعام، أذكر أنه فاصوليا وبرغل.

ركبنا على الرمتا، حتى وصلنا إلى الشيخ الأشمر. كان قاعد على حجر وهو كامد.. لما رآني فتح عيونه وما حسن يقوم من التأثر.

(حاشية)

عن موتة حبة قلبي أشجع العرب والعجم والبربر الزعيم أبو خالد عبد الغني نجيب جعل اللّه روحه في أعلى عليين.

* * *

«كان الثوار بالأزرق في شرقي الأردن. توجهوا نحو وادي حسان، ثم نحو الغيات، كانوا في غاية الجوع والعطش. صاروا يأكلون لحم الحصان. اشتروا جمل في الطريق وذبحوه. توجهوا نحو المرج في الغوطة حتى وصلوا إلى بحيرة العتيبة فحوَّلوا هناك عند عرب الروَلة، وأكلوا وشربوا. كانوا كثيرين يعدون أربعمئة مجاهد، توجهوا نحو مخفر النشّابية فعرفت العسكر بهم فطلبت نجدة واحتاطت لنفسها. ولكن الثوار هاجموا المخفر، وقتلوا من كان فيه. وأول من فات على المخفر أبو سعيد دقماق. اللي بقي من العسكر هرب وخبَّر الشام. مشيوا أولادنا من النشابية على حوش خرابو، على تل الدهب وصلوا لبالة - قرية شكري القوتلي - وإذا بالعسكر تحاصرهم. كان الثوار مكشوفين الولاد يصيروا ينخُّوا بعضهم البعض. برز أبو خالد في رأسهم ولحقته الخلق. عملوا هجوم عالعسكر وردوها. عملوا العسكر التفاف جديد ولكن ولادنا كسروها مرة ثانية. آه يا أبو خالد يا سبع الرجال.



في تلك اللحظة جاءت نجدة كبيرة للعسكر وجرى القتال. تصوّب أبو عزو الشعار، وكامل العقل قفز النهر ولكنه غرق فيه وجرفه التيار.. جاءت مصفحتان نحو بالة، وبدأ موقف الثوار يتزعزع ولكن أبو خالد بدأ ينخيهم ويصرخ فيهم، رغم أنه بالعشرة ما بيتعاشر ورغم أنه جاف، لكن قلبه كنبع الفيجة فقد كانت كلمته عند الزلم ما بتصير تنين. صرخ فيهم طاب الموت يا أسود اليوم يومكم. وتبعته الخلق كالمجانين وتركهم أبو خالد ودار من قبلة حتى يضرب المصفحتين من القفا، حسُّوا فيه، فتوجه المترليوز بم بم بم.. سقط أبو خالد.. في المنتصف بين الثوار والفرنسيين. أبو خالد وقع وهالعالم انفك عصبَها، الرجال المغبرين صاروا يبكون مثل النسوان.. صار الأمير عز الدين الجزائري وسعيد العاص يشجع فيهم ليسحبوه. ولكنه كان يشير بيديه ليرد ولادنا عن المصفحات صارخاً:

- اتركوني اتركوني.. وديعتي عندكم ابنكم خالد.. وبقي في الوسط حتى صفي دمه.

ولادنا يعملون مناحة عليه ويبلشوا بالمصاويب حتى الظلام فينسحبون. المصفحتين واقفين بيننا وبين الجثة. الأمير عز الدين يأخذ جماعته ويتجه شمال على الجرد. أولاد قطاط يذهبون إلى جوبر.. ولادنا بتنزل وبتجي على الميدان غير شايفة طريقها.. بيطلعوا الفلاحين بيسحبوا أبو خالد وبيدفنوه ببالة. انكسر ضهري وسخنت أسبوعين. نسوان الميدان يسمون مئة ولد جديد عبد الغني.

اللّه يرحمك يا بو خالد.

* * *

الخفاش يفتح عَينيه

نجمة الصبح يا حطام الليالي ورمـاد اللفافـة السـوداء

خلفتك الظلماء عقبًـا ذليـلاً تحت أقدام كبرياء الضياء

[عبد المطلب الأمين]



عندما وصلا إليه، كان يحدّق بكل وجهه المحتقن المخنوق في الأرض، بإمعان خياطة أضاعت إبرة. ولم يشعر بهما البتة.. وامتدت يده تحل رباط عنقه، والثانية تبعد عن الضوء الباهت الذي يرشه مصباح في آخر الممر، الأرجل الأربع التي انتصبت في وجهه.

وصاح جريس مشفقًا بصوت فيه دهشة وبؤس:

– قوم يا سما.. ما في شي!!

أما مفيد فقد أصلح وضع جاكتته بصمت، ثم سحب من جيبه عودًا من الكبريت وأشعله في الوقت الذي أشعل فيه جريس عودًا آخر.

وانحنت ست عيون، وتجمعت على الدائرة التي انحدرت من فمه قبل لحظات باحثة منقبة كأنها في مختبر تحليلي. قال جريس وهو يتنهد:

– قلت لك ما في شي.. وهم.. ونفض مفيد بذلته وأمّن:

– طبعًا وهم. طول عمرك يا سليمان تتوهم.

ولكن سليمان ظل يحدق في السائل:

– وهذا الخيط الأصفر المحمرّ؟

– بقية سيجارة.. ظاهر.فوقف سليمان يتحامل على نفسه، وفي عينيه الدامعتين شيء من خيبة الأمل، لقد فقد محورًا يلوّن حياته أيامًا كاملة، حتى ولو عرف في آخر الأمر أنه وهم.

– ولكن أقسم لكم، أنني رأيت منذ ساعتين فقط، بقعًا حمراء من الدم تخالط ريقي عندما بصقت!!

قال جريس بنفس اللهجة البائسة محمّلاً كلماته سخرية لا معنى لها:

– هذا لون عينيك الحمراوين يا سليمان. ويمكن أن تكون مصابًا بعمى ألوان.

ونظر سليمان إلى عيون رفيقيه، وخيل إليه رغم الظلام أن فيهما نظرة أشعرته بالضيق.. هل أسفا هما أيضًا؟ لعلهما يريدان برهانًا حيًا، على ما يحدّثهما به دائمًا من قصص عجيبة! ولم تكن خيبة أملهما عندما حدقا في الأرض على ضوء عودي الكبريت المرتجفين لتقلّ عن خيبة أمله إذا لم تفقها، ذلك لأنهما ينظران إلى المأساة من بعيد.

وأحس سليمان بشيء من الخجل، منذ ساعتين وهو يحدثهما وينظر إلى وجهيهما المبهورين، ويتابع رحلة كلماته فيهما من الآذان إلى العيون، إلى الأصابع، إلى كؤوس العرق وهي تكرع في الشفاه بطريقة عصبية، ورضاه عن نفسه وهو يقصّ قصصًا يظن هو بالذات أنها حقيقية وأنه قد نسيها من قبل، أخذ يشوبه بعض الانهيار، لأنه يعتقد أنه عُصر كليمونة، وأن كلماته تتحدث إلى جيل آخر رغم عدم تفاوت السن. منذ ساعتين وهو يحدثهما عن بؤس حياته، وعن غناها الرائع، بلهجة معلم يطلب من مريديه أن يُغْنوا حياتهم بأشياء يظن هو بأنها غير تافهة. النساء يا أصدقائي.. المرأة تجربة تُغني وتحرق، ومجتمعنا يمنعها.. إنه يشوه وجهها الإنساني. منذ سنتين كنت في حلب!! ومنذ ساعتين وهو يرفع من أشلاء نفسه كلاً عظيمًا، لم يصل إلى هذه العظمة إلا بتجارب تعصر وتقتل وتجعل للحياة معنى. وأفهمهما، ولعله أراد أن يفهم نفسه، إن هذا التمزق الذي يعانيه، سببه أنه أضاع التوازن، بين نفس مسحوقة وإيمان عميق بالحياة وساكنيها. كيف يناضل الرجل يا أصدقاء؟ أنا مؤمن بأشياء عظيمة، حياتنا بائسة ويجب أن نغيرها، أتعرفون؟ واستمر يتحدث حديثًا طوباويًا مدة ساعتين، ومنذ ساعتين أيضًا بصق بصقة حمراء.

قال بصوت لا لون فيه، وهو يلقي نظرة أخيرة نحو الدائرة وعيدان الكبريت الميتة:

- كم الساعة؟

- الثانية.

- معنا وقت.. اطلعوا.

وصعدوا الدرج بصمت. كانا يتقدمانه، وأخذ يراقب ظهريهما بشيء من الغضب، ثم أشعل سيجارة وضحك ضحكة مبتسرة.

- شيء طريف وسخيف معًا.

ولم يرد الآخران.

وفي البهو كانت الرائحة الخاصة، التي تعطي المكان هويته. قد أسرعت إلى أنوفهم، وتوقفوا يبحثون.

قال سليمان جازمًا:

- سأذهب إلى وصفية!!

وابتعد مفيد فجأة، وهو يسلم بلطف زائد على امرأة سمراء تلبس بنطلوناً صارخ الحمرة وكان يترنح قليلاً من السكر.

قال سليمان مرة ثانية بنفس الجزم:

- سأذهب حتمًا إلى وصفية!

قال جريس من فوق كتفه:

- ذوقك عجيب، أنا لا أستطيع مطلقًا أن أدخل مع امرأة سمينة. إنها تخبصني!

وأردف بعد قليل:

- أعطني خمس ليرات.

- من المؤكد أنني سأذهب إلى وصفية رغم كونها سمينة.. إنها مجربة ولطيفة. تصور أنني لم أسمع في عمري من فمها كلمة نابية واحدة.سيدة

حقيقية! – أما أنا فقد أعجبتني تلك. انظر إليها جيدًا. ماشي الحال، أليس كذلك؟ وفرك عينيه المحمرتين العكرتين.

– المهم التفاهم.

– أعطني خمس ليرات.. أنا لا أحب مطلقًا أن تدفع عني هنا.

واقترب مفيد:

– اي نعم.. ماذا قررتم سادتي؟

قال جريس:

– هل تحب أن تدخل مع امرأة سمينة يا مفيد؟ أما من جهتي فأنا حتمًا لا أستطيع أن أدخل مطلقًا مع..

وقال سليمان مقاطعًا:

– ها هي وصفية.. من المؤكد أنني سأدخل معها.. إذا سألتك جان عني، فقل لها أنني مع وصفية.

– أنا ما دخلت ولا خرجت.

– لا.. أنا أقول لك.. لعنة اللّه على هذا العرق. أنا لم أتصور مطلقًا.. سأدخل حتمًا مع وصفية.. إنها لطيفة.. تصور أنني لم أسمع منها في عمري كلمة نابية واحدة..

ووزع مفيد ابتسامتين بالتساوي لمارّتيْن، وانحنى لثالثة، فقال جريس غاضبًا:

– العمى.. أنا لا أشك مطلقًا أنك رقيع.

قال بهدوء كمن اعتاد ذلك:

– منذ زمن، قررت نهائيًا وبصورة حتمية، أن لا أردّ على كل ما تقول.

قال سليمان وهو يتحرك نحو الوجه المبتسم:

- تفضلوا سادتي.

ولكزه جريس هامسًا:

- أعطني خمس ليرات.

وقال مفيد:

- أنا سأذهب إلى تلك.. بخاطركم.

ولكنه لحقهما إلى داخل الغرفة.

قالت وصفية بابتسامة بدت لسليمان أليمة:

- من زمان ها القمر ما بان!

فأجاب سليمان وهو يستند على الكرسي العريض ويحدق في السقف الذي حفظ كل تعرجاته:

- اطلبي أربعة قهوة، واحد منهم سكر قليل.

قالت وصفية ضاحكة مكملة:

- مع هيل بفنجان سميك..

ونظر سليمان إلى رفيقيه..

مفيد يحدق في حذائه اللامع باهتمام، أما جريس فقد كان يجلس جامعًا ركبتيه على نحوٍ طفولي خجِل، وهز سليمان رأسه بحب وقال في نفسه:

- ذكاء على مستوى ممتاز.. ولكن..

ورفع صوته:

- مرحبا جريس.

ورد جريس بصوت مبحوح:

- أهلين..

وقال سليمان في نفسه:

- ولد طيب، إلى حد مؤلم..

وشعر بتعاسة وبشيخوخة:

- كم عمرك يا جريس؟

- عشرون!

- كم تظن عمري أنا؟

- أنت؟ عمرك حتمًا.. أنا لا أشك مطلقًا أنك تجاوزت الثلاثين.

وصمت سليمان.. تراءت من خلال ذاكرته المشوشة هذه السنوات التي تفصلهما.. يجب أن لا يقول لجريس أن عمره ست وعشرون فقط.. هو نفسه لا يصدق. لقد عاش دهرًا طويلاً. طويلاً جدًا، تقاس كل لحظاته بساعة حساسة قاسية، تبدو عقاربها كأسنان شيطان.. حياته في البيت المحافظ الذي تمزقه الخلافات والمعارك.. إيمانه المطلق بالمقدسات الذي انتزعته منه الجامعة في السنة الأولى.. انفصاله عن أهله الذين لم يغفروا له أبدًا تحطيم عالمهم.. حبه الأول الفاشل.. مغامراته القذرة.. اندفاعه في سبيل مبدأ آخر لا يزال حتى الآن مؤمنًا به إيمانًا يخزه كالسهم في أعماقه، ويشعره بتفاهة حمله للمسؤولية.. لعبه القمار.. شربه العرق حتى الإدمان.. كتاباته التي لا يفهمها إلا القلة.. انسحاقه في دوامة الرتابة.. أمله وفرحه ويأسه وحزنه وقراءاته.. بصقته التي خيبت فيه الأمل لأنها لم تكن ملوثة بالدم.

قال بصوت حنون من أعماقه:

- أنت ولد طيب يا جريس.!!

وخجل جريس ونظر إلى وصفية المبتسمة دائمًا.

- اسمع، أنا لا أسمح مطلقًا..

- أنت ولد طيب جدًا يا جريس.. عمرك عشرون سنة فقط أليس كذلك؟ أتعرف يا جريس؟ أحببت امرأة وأنا في العشرين عمرها أربعون سنة.. ووقتها كنت أنا أيضًا ولدًا طيبًا..

وقال جريس وهو ينظر في أعماق عيني سليمان بصورة ثابتة بريئة وواثقة إلى حد ما:

- ما الذي يضايقك؟

- وكانت مليئة باللحم يا جريس.. وتحب دومًا أن تأكل الرز شائطًا بعض الشيء، ومن الهدايا المحببة إليها كيس رز يزن كيلوين، وكانت تفضله على باقة زهر وقنينة كولونيا.

قالت وصفية بدهشة:

- كيس رز؟ أنا لا أتصور أن أحدًا يأتيني بكيس رز ولو أنني لا أرفضه!!

- وكانت تطلب مني يا جريس. أن أقبل خدها فقط، ولا تسمح لي قط أن أقبل فمها.. وكانت تغضب حينما أسألها عن السبب، وكانت تصلي أيضًا يا جريس.. وتمنعني من مسها في بعض الأحيان، وتبكي كثيرًا حينما أقول لها أن عمري عشرون سنة..

ونظر سليمان إلى العيون المعلقة به وتابع حالمًا:

- لقد كنت محبوبًا.. إنه لشيء عظيم أن يكون الإنسان محبوبًا.. ومرة جثت على قدمي وأخذت تقبلها فصرخت جزعـــا قائلاً:

لماذا يا ست زينب؟ وكانت تمنعني أن أناديها بيا حبيبتي، فقالت وبكاؤها يشتد: أنا خاطئة يا رب، أنا خاطئة يا سليمان.. لتدق عظامي، لتنطفئ عيناي، لتقطع يداي ورجلاي.. لتزهق روحي، أنا خاطئة يا رب، أنا جيفه، أنا كلبة أنا مومس بغي قذرة. وكانت تضربني بعنف..

وركعت أنا عليها بشقاء قاتل، وتأكدوا أنني كنت في تلك اللحظة مستعدًا لأن أهبها حياتي، أن أفعل أي شيء لأفهم سرَّ عذابها، وقلت ودموعي تتساقط بطفولة: يا إلهي.. يا معبودتي يا حياتي.. ما هي المشكلة؟ سأقتل نفسي إذا لم تقولي لي ماذا يبكيك، لا تضربي صدرك هكذا.. إنك تدفعينني إلى الجنون. دعيني أقبل قدميك، لا تبكي هكذا، بحق السماء لا تفعلي ذلك.

ووقفتْ لحظة تنظر إلي طويلاً من خلال دموعها، ثم هجمت عليّ، وأغرقتني بسيل من القبل المحرقة وهي تصرخ:

أنت لا تفهم يا سليمان.. أنت لا تفهم مطلقًا.. أنت صغير، عمرك عشرون سنة فقط.. عشرون سنة يا إلهي.. ودفعتني نحو الباب. ولم تفد كل استرحاماتي ودموعي، ووقفتُ على الباب حتى الصباح أستجدي عطفها دون أن أسمع صوتًا واحدًا يرد علي.

وصمت سليمان وتطلع في ست عيون مفتونة مغرورقة بالدمع والدهشة، ثم قال بصوت آلي:

- وفي اليوم الثاني لم أستطع أن أمشي في جنازتها إلا من بعيد.

وساد سكون مرهق طويل قطعته وصفية بنظرة إلى الساعة، فوقف جريس ومفيد وتقدما نحو الباب ونهض سليمان يدس يده في جيبه ويضع في يد جريس خمسًا وعشرين ليرة وقال بغصة وهو يربت على كتفه وشعره:

- أنت ولد طيب يا جريس، أليس كذلك؟

وتقدم باستسلام بليد نحو السرير.

* * *

في غبش الصبح مشى الثلاثة صامتين. نظر إليهم كنّاس عجوز وأرسل من شفتيه همهمة مبهمة، وقال جريس بعد تنهد وهو يهز رأسه:

- إنها لتجربة غريبة.. أسطورية.

وصحا سليمان من صمته:

- أية تجربة؟

- تجربة حبك التي قصصتها علينا.

- آه.

وشعر سليمان بحاجة إلى أن يغضب، إلى أن يفعل شيئًا قاسيًا ما.. إنه يعرف نفسه تمامًا، وما من مرة ضاع في دهاليزها المعقدة. ولقد قال له الآخرون، جميعهم، إنه طيب، وإنه بسيط وهو من جهته لم يشك بهذه الحقيقة. اقتنع بها في كل فرصة أتيحت له ليعمل عملاً نبيلاً، لكنه كان دومًا مسحوقًا تحت شعور كالح. لقد أتيح له حقًا أن ينفض الرماد عن نفس كابية بيضاء، ولكنه لم يخلق أبدًا فرصته. إنه يريد أن يخلق هذه الفرصة، أن تكون المبادرة منه هو بالذات، ويشعر أن ما يميزه كإنسان يجب أن يكون شيئًا من هذا. لا يكفي أن يكون طيبًا وفاهمًا للكون، مؤمنًا به، محترمًا لكرامة البشر. كان يحس أنه يجب أن يعمل لكل ذلك: لهذا المستقبل المشرق في نظره. العرق، النساء، الأصدقاء الذين يمارس سيطرته عليهم، القصص الكثيرة التي عاشها والتي لم يعشها في أتون تجاربه الحياتية والذهنية، كلها هروب، كلها هباء، كلها باطل وقبض الريح. ونظر إلى جريس. إنه ولد طيب، أما الآخر المتأنق... وفكر بأن صحبتهما مبررة تمامًا، ككل الصداقات التي مرت عليه. إنه يشعر أنه بحاجة إلى أن يكون محاطًا بالناس.. الناس الذين هم من نوع واحد، بالمعجبين الذين يستمعون إلى حديثه وتجاربه سواء تلك التي عاشها حقًا أو التي اخترعها حقًا. يريد أن يحس أن في أعماقه شيئًا يرسل إلى الآخرين شعورًا بالسعادة، والثقة، والحب، وبأهميته هو، ككائن لا يزال ذا كيان عظيم.

وكان مفيد وجريس يتناقشان في قضية ويتراشقان التهم:

- أنت لا تفهم شيئًا، تلك تجربة شعورية صحيحة، أنا لا أشك مطلقًا أنك لا تعرف سوى ربط أنشوطة حذائك اللامع، ورباط عنقك الغالي، وتصفيف شعرك المدهش.

- وقاحة معروفة منك. الحياة على كل حال ستعلمك أشياء كثيرة.

- الحياة؟ لا تتحدث عن الحياة. إنك لم تفهمها يومًا على وجهها الصحيح. وأردف جريس يقول حالمًا:

- إني أحبها.. هذه الجمالات الرائعة! لي ثقة بكل شيء.

- طفل!

- أنا طفل؟ تعال.. كلانا يثق بسليمان، أنا أقبله حكمًا وأخضع لرأيه.

ونظر سليمان إلى الوجه الطفولي المتّقد بالثقة والأمل، وأحس بحرقة في حلقه وبشيء يقبض على عنقه. لا، لن يفسد كل هذا العالم الشامخ، مطلقًا مطلقًا. وابتعد قليلاً عنهما وهما لا يزالان يتهارشان. كانت نجمة الصبح تطل من بعيد، قوية مؤتلقة صاحية. وعلى الطريق، كان فريق من العمال ينتظرون السيارة ليذهبوا إلى أماكن عملهم، بعضهم يتثاءب ويطرد بقية النوم من عينيه، والبعض الآخر يجلس على الأرض محدقًا بصمت في الطريق.. وفكر سليمان.. سيذهب الآن لينام، ليشبع نومًا حتى الثانية، أو الثالثة، ثم يقوم بحلاقة ذقنه، ويغسل شعره، ويقرأ الصحف حتى الليل، حيث يخرج من جديد كالخفاش ليستأنف حياة الليل القذرة،وليحدّث ضحايا جددًا عن الحياة، والتجارب، وعن الغنى في الأحاسيس. ونظر إليه أحد العمال وخيل إليه أن في عينيه نظرة متهمة.

- كم الساعة يا أفندي؟

- الرابعة والنصف!!

- أف.. نمنا كثيرًا، قد تكون السيارة ذهبت. الليل قصير.

وتقدم منه رفيقاه وهما ما يزالان يتراشقان التهم:

- أنا لا أشك مطلقًا أنك حمار.

- وقح !

وكاد سليمان يبكي وهو ينظر إليهما يتناقشان بكل هذه الحماسة وهذا الجد. أيمكن أن ينطفئ كل هذا بعد قليل؟

- جريس..

- نعم سليمان.

وأحس بشعور من يقفز في الهاوية. وجمَّع نفسه ولهث:

- لقد كذبت عليكم. لم يكن هناك حب في العشرين، ولم تكن هناك زينب. لقد كذبت عليكم في مئة قصة مثلها!

وساد صمت عميق مقلق، وأطرق سليمان برأسه وأحس أن عيني الأخرَيْن تأكلانه بدهشة.

- إنني.. إنني أكذب دومًا، أكذب بسرعة. أنا إنسان حقير.. يجب أن نفترق.ابدأ طريقك بنظافة وبساطة يا جريس.

يجب أن نفترق يا جريس. أنا خفاش أعمى، لا نفع يرجى مني، مطلقًا.. مطلقًا.

وترك الاثنين بدون وداع يقفان شاخصين إليه، وعلى وجنتيه الجافتين كانت دمعتان محرقتان حقودان تنحدران ببطء. إنه يحس ببعض الارتياح، فقد كانت المرة الأولى التي يعترف فيها لإنسان، بأن كل ما يقوله هو استجلاب لتصفيق تافه، يقوي في نفسه الثقة بها. ومع ذلك أحس بالرضى، وشعر بشيء مظلم أسود ينفصل عن نفسه، وبموجات طفولية رائعة تملأ كيانه. وأدهشته هذه الراحة. وسمع وقع خطوات وراءه فلم يلتفت بل تابع سيره مطرقًا، واقتربت الخطوات مترددة، ولمح ظل جريس يحاذيه، ومشى الاثنان عدة دقائق صامتين:

- جريس. لماذا جئت؟

- لن أتركك.

- لكني شخص كذاب، مزوّر، لا أريد مطلقًا أن أوثر عليك.

- لم تكن في أية لحظة مزورًا أو كذابـــــًا. لقد كنت تقول أشياء عظيمة. أنا لا أشك مطلقًا أنك شخص رائع.

- ولكني مع ذلك كنت أكذب يا جريس.

- أعرف ذلك تمامًا.

- ولكني مع ذلك طيب يا جريس.

- أعرف ذلك أيضًا.

واندفعا فجأة في عناق حار، وكان سليمان يشعر بيد جريس المرتجفة وهي تحيط ظهره وتمسح على كتفه.

- أتظن أنني لا أزال نافعًا يا جريس؟

- أنا لا أشك في ذلك مطلقًا يا سليمان.

- وتحبني يا جريس؟

- يجب أن لا تشك في ذلك مطلقًا يا سليمان.

* * *

شِتَاءِ قَاسٍ آخَر

اليك يا حنا مينة

يا من فهمت ماهية الضعف البشري

والقوة الانسانية . . .

اليك يا صديقي . . .

اقدم هذه القصص

أخي القارئ

هذه القصص جزء من عمري ، ومن عمر وطني سوريا ، كنت أحب لها أن تصل إلى يديك .. منذ زمن طويل إلا ولكن الظروف البائسة التي عاشها الوطن ، سنوات عجافاً ظالمة ، والتي طحنتنا رحاها ، فلم تزدنا التجربة إلا إيماناً بشعبنا العظيم ، لم تتح لها أن تظهر .

وبعد .. كم أكره المقدمات !! وكم أعدها نافلة !! إنها لعبة ساذجة من الكاتب لخداع القارئ ، أما وجدان الكاتب الحي ، بدون قناع الساذج .. فهو في نتاجه .

والآن .. لنبدأ القراءة .

(ح . ص)

... وأنقذنا هيبة الحكومة

«قد تكون مصلحتكم في أن تكونوا أسيادنا..
ولكن كيف يمكن أن تكون مصلحتنا في أن
نكون عبيدكم؟...».

(توكيد يدس)

(الكتاب الخامس)



- مين هو ؟

- واللّه ما عرف حظرة الريّس.. آخ .. وحياة الأنبياء ما أعرف!!

- اسمه؟

- ما أعرف!!

- شد البارودة يا شقير على رجليه، وهات غير هذه الخيزرانة.

وأحكم شقير سير البارودة على القدمين الوسختين المشققتين كأخفاف الجمل، حتى سمعنا صوت الجلد، وهو يزقزق علي الكاحلين المسلوخين.

- سألعن والدك.. سوف أقطعك تقطيعًا.. قل..

- ما أعرف!

- اسمه أقول لك !

- ما أعرف .. وحياة كل الأولياء!!

- شمَّري؟

- ... آخ..

- جبوري؟

- ....

- من طي؟

- بقّاري؟

- ... آخ ها ها ويا ويلم.. ها ها و ..

- شرابي؟

- ....

- عدواني؟

- عدواني!!

- ماذا؟

- يقولون عدواني حظرة الريس.

ووقفت الخيزرانة قليلاً في شك، ومسح الرئيس العرق المتصبب على جبينه، وحدق فينا.. كان الجنود ينظرون إلى المشهد بدون اكتراث.. إما نحن الضباط الجدد، فقد كان على وجوهنا تعبير لا يمكن وصفه..

كان الجو خانقًا محبلاً بالأمطار والصمت.. ليس من شيء يتحرك، سوى البدوي الذي كان يقوم ويقعد معتمدًا على يديه ورجلاه معلقتان بالبارودة.. لم يحاول حتى التأوه.. كنا جميعًا نقف وكأننا أمام حدث جليل.. شخص يموت مثلاً.. انتظار وقوع كارثة يصعب تصور نتائجها.. أطرقت إلى الأرض وأنا لا أدري أي نوع من الخجل يزحف على صدري ويرهقني.. أنا لم أر في حياتي رجلاً ذا لحية وهيبة وعباءة، يضرب أمامي كالصبيان.

وعندما كنت طفلاً في المدرسة كنت أتساءل: هل يستطيع المعلم أن يضرب أبي؟ وأتساءل أيضًا: لو أن أحدًا ضرب أبي فماذا يحصل؟ ولكن عقلي كان دومًا يقف عند هذا الحد متصورًا استحالة ذلك.. لعلها تقوم ثورة في الحارة لأن شيخًا مسنًا مثل أبي يجب أن لا يضرب، وإلا اختل نظام الكون، ولم يدر أحد بعد ذلك إلام يسوق نظام الدنيا.

نظر الرئيس إلى عيوننا وخيل إلي أنه ارتبك، قليلاً، وابتسم لي بسمة لم تتعد بعض وجهه، ثم عبس سائلاً البدوي وهو يرمش بعينيه في هدوء...

- من أي عشيرة أنت؟

ورد البدوي دون أن يكتسب وجهه أي تعبير:

- بقاري!!

وهززنا رؤوسنا جميعًا.. فنحن نعرف عداوة العشيرتين.. لا شك أن الرجل يكذب.

وانفجر الرئيس في دهشة وغضب.

- لعنة اللّه على هذا الجنس، هل رأيتم في حياتكم مثل هذا؟

واندفع يضربه في عنف.

- تقول عدواني ياول؟ المنطقة ليست منطقة عدوان ايه؟..

طيب قل اسمه!!

- ما أعرف!

- شد يا شقير .. قل اسمه.

- ما أعرف.

وأدركنا تمامًا أنه لا فائدة من ضربه كمن سبقه.

- القحة بالسجن.. وهات غيره.. أيوه هاالشايب شيبة التيس.. تعال لنرى.. مين هو ؟ قل قبل أن تضرب كغيرك.. احفظ شرفك.

- ما أعرف.

- شمَّري؟

- شمَّري!

- من أي عشيرة إنت؟

- شرابي!!

- يا لك من كلب .. أنت تراوغ كثعلب.. شد يا شقير..

أخذ الرئيس التعب، فسلم الخيزرانة إلى بعض الجنود، بينما قعد يستريح من عناء المهمة الشاقة.. سارية العلم الخشبية طقطقت وارتجف

الحرير المتهدل لدى أول نسمة.. وجوه كثيرة تتالت على الأرض، سمراء كالتراب، قاسية عيونها السود البراقة.. ولكنها لم تتأوه ولم تدمع عيونها.. كم شعرت في تلك اللحظة بالتبلد، فهذا البدوي الذي يتلوى كدودة تحت ضربات حقيرة.. هو نفسه ملك الصحراء.. هو نفسه الذي يقف على فرسه أو جمله شامخاً أبيًا كسنديانة عتيقة.. بارودته على كتفه كأنها جزء منه،، هو نفسه الذي تنتقي كلماتك وأنت تحدثه، فرصاصه أسرع من غضبه.

وجوه كثيرة تتالت، منها وجوه نساء تتدلى جدائلهن في بؤس لتلم غبار الأرض.. ولكن أيًا منها لم يفتح فاه بالسر. السر الذي بدا لنا على تفاهته أبعد من نصر عسكري صعب التحقيق... ووقعت الخيزرانة في ذلة جبان مستأسد،ثم ارتخت وأقعت بعد أن شبعت من الدم.. كما تشبع الضباع من بقايا فريسة سبع.. وخرجنا جميعًا من الثكنة مقهورين.

كان يجب أن ننقذ هيبة الحكومة بأي ثمن!! فالحادثة انتشرت في الحسكة وضواحيها. وتحدثت بها عربان من القامشلي، وتهامس بها الشركس على الأسطحة. ونقل مسافر من دير الزور أن الدرك يتندرون بها انتقامًا للقصص المضحكة، عن رشواتهم وجبنهم في الصحراء، تلك القصص التي يتداولها الضباط والمدنيون على السواء.

بل إن أحد موظفي البريد، المشهود لهم بالكفاءة والنشاط والاطلاع على أسرار البلدة من خلال مكاتيبها، نقل لنا أن رسائل عديدة – فتحها بطريق الصدفة البحتة– أشارت إلى هذه الحادثة، وستسمع دمشق كلها بها فيما إذا وصلت الرسائل. وقد يسمع بها رئيس الجمهورية الشيشكلي نفسه، وهو لن يرضى كعسكري سابق أن يهان هذا السلك.. وموظف البريد، لدواع وطنية صرفة، يخبرنا بهذه الحقيقة، ويخبرنا أيضًا، أنه أجاز لنفسه في غفلة من مدير البريد الذي كان يحتفل بعيد ميلاده بسيانس بوكر مع رفاقه في غرفة الادارة، أن يشطب السطور التي تعرضت للقضية من قريب أو بعيد،

بل إنه – لدواع أشد وطنية من سابقتها – كتب بخطه، سواء في الرسائل التي تعرضت أو التي لم تتعرض للقضية، ما ينفي صحة هذه الحادثة.

نعم لقد كان الموقف سيئًا جدًا على ما يبدو.

قال لي الرئيس بلهجة تجمع بين المزاح والضيق:

– من الخير لك بدل أن تتبلد على هذا الشكل، أن تشعر بأهمية الحادثة، وأن تبادر إلى فهم عقلية المنطقة (وأشار إلى البارودة) عليك بهذه، فإنها الدواء لكل رأس يرتفع هنا.

ولكن ما هي هذه الحادثة التي استدعت كل هذه الطنة والرنة.؟

كنا قبل يومين في جولة توزيع الرواتب العائدة للسرية.. ومعنى ذلك أن نقطع حوالي ألف كيلو متر من مخفر إلى مخفر فحدود سريتنا متسعة جدًا.. فتنتني الرحلة فقد كان الشروق والغروب ساحرين للغاية، وكانت عصائب الغزلان تنفر من هدير سياراتنا قافزة في الهواء كالسمك الطائر مثيرة الغبار ورفوف القطا وجموع الزرازير. كان العريف شقير يقود سيارة البيك آب الحربي الرمادي الذي كان يلهث بعناء في الطريق المغبرة المخددة حيث تأخذ السيارة حريتها يمينًا وشمالاً، وحيث لا طريق محدد سوى رأي الدليل الصامت الغارق رأسه في عقاله المخطط الأحمر، وكان في السيارة الرئيس وضابط خرج من الصف، لا يكاد يصدق أن نجمة قد تسلقت كتفه، فهو لا يني من التطلع إلى كتافتيه الصفراوين في سعادة فائقة. أما أنا وأربعة جنود، فقد كنا نتبعهم متلاصقين تقريبًا في (جيب) حربي مخلع قاسي الأهوال خلال عمره المديد، فآلاته تصر كأنها الجنادب المتراقصة على ضوء الغروب الجليل الذي يطالعنا.

كان جنودي يتحدثون، دون أن يعيروني التفاتًا كبيرًا، فقد كنت أهوم من التعب.

قال إسماعيل، وهو جندي قديم أسمر الوجه مجرب يلثغ في كلامه:

- أتعرف يا أبو الدرزي؟؟! يا له من خروف فخم.

فرد أبو الدرزي، وهو زنجي شديد البأس يسكر دومًا ويقضي أكثر لياليه في سجن الثكنة:

- مدبرين نفسهم.. مخفر الزيدي مليء بذوات القرون.

- أتعرف؟ أتمنى أن أكون في المخافر.. قدمت طلبًا ولكنه رفض.

فرد الجندي الثالث، وهو متطوع حديث يتكام دائمًا بحماسة ويبدأ حديثه أحيانًا بجملة (وشرف النبي).

- وشرف النبي، أصبح كل رقباء وعرفاء المخافر من تجار الأغنام!!

أما الجندي الرابع فقد كان يراقب الطريق في سهوم دون أن يشترك في الحديث.

- المخافر عيني.. عز وجاه.. لا شغلة ولا عملة .. جرت حادثة؟. تنظم ضبطًا. وفي المساء يأتي بعض الزوار، ومعهم ذوات القرون. وأشياء أُخرى، وعندما عينت في مخفر غونة كنت لا أستطيع النوم من الثغاء.

- إنهم يبعدونني دومًا عن المخافر، يا أبو الدرزي لا تسكر !! يا أبو الدرزي لا تهين الدرك!! آه على أيام المخافر يا إسماعيل..

كنت أرفض أن أفطر إلا بديك مقلي؛ والغدا كبش، والعشا خصاوي وكبد وقلب وخلافه.. وكانت سوداية العرق دومًا بجانبي. وأم الدرزي تزورني كل أسبوع.. فطقطق الجندي الثالث بلسانه.

- وشرف النبي سمعت أنك خبصت مع النسوان.

- بعض الشرابيات.

- وشرف النبي وسخات.

- بهيم.. تيس.. الشرابيات يغتسلن كل يوم في الشتاء أما في الصيف فسامحنا شوي بالنظافة.. على كل حال الشغل مش هنا.. البر ما فيه صيد نسوان. العربيات صعبات وتدخل الجندي الرابع فجأة:

- سيدي الملازم مش هذا طريق الحسكة.!

- تظن؟

- متأكد!!

ونظر أبو الدرزي بعد أن مسح الزجاج القذر.

- العمى .. أظن أنه طريق رأس العين..

وفي نفس اللحظة وقفت سيارة الرئيس وترجل منها الرئيس والملازم وشقير والدليل..

قال الرئيس باقتضاب:

- أظن أننا ضللنا الطريق!! فأجاب الدليل - لقد تركتموني أنام قليلاً.. (تثاءب) اسمع عواء كلب..تقدمنا كلنا نحو الصوت الذي ينبعث من وراء هضبة ممرعة، فرأينا كلبًا أسود ينبحنا بعصبية، وعلى بعد مئة متر كان راع مع عدد وافر من الغنم ينظر إلينا بثبات، وجفته على كتفه.

وصرخ شقير وهو يلوح بيديه.

- يا ولد.. يا ولد... تعال هنا..

ولكن الراعي لم يتحرك خطوة واحدة بل تابع النظر إلينا في ثباته السابق.- لك يا ول يا رذيل يا مذ بن يا شرشي.. أقول لك تعال هنا .

ومشى شقير خمس خطوات في اتجاهه.

ولكن الراعي اكفهر وجهه، وأنزل جفته بسرعة من على كتفه وأمسكه بين يده.

قال الرئيس باستغراب:

- هل هو مجنون؟ ثم صاح: نريد أن نسألك عن الطريق.

وورد إلينا صوته ضعيفًا نحيفًا ولكنه غاضب:

- ما أعرف!!

- ليك الكلب ليك.. قالها شقير وهو يبصق ويتقدم نحوه مهددًا، ولكن رد الفعل كان سريعًا إذ أن طلقة ضخمة انطلقت من عين الجفت نحونا، وتناثر خردقها الكبير نمرة صفر الغزلاني وأصاب زجاج السيارة، فكسره ويد شقير فجرحها.

وجرينا جميعًا نحو السيارة، وأمسكنا ببنادقنا أما الرئيس فقد وضع مشط رشيشه (الساموبال) فيه، بينما كان شقير يصرخ.

- يلعن سنسفيل جده، والله لأعمل جسمه مصفاة.. ليك.. العمى.. (ومسح يده الدامية) واللّه لألعن..

جمع الكلب الأسود الغنم في سرعة البرق حول الراعي وغاب بينها وانبطح الراعي بين رعايـــاه ثم وافانا بالطلقة الثانية، فاضطررنا إلى الاحتراس، فالخردق كبير كالرصاص، ثم وقف بعـــد أن عبأ فشكتين أخريين ينتظر رد الفعل في احتقار عجيب.

ورفع شقير الهداف الممتاز بارودته مستهدفًا صدره ضمن شعيرته الدقيقة.

ولكن الرئيس ضرب بيده:

- اتركه.. يجب أن نفهم لماذا يضربنا بالجفت!!

وصدرت من جهة الراعي طلقة أخرى فتحمس الرئيس ورفع الساموبال واستهدف الراعي طويلاً ولكنه لم يطلق. وصرخ أبو الدرزي غاضبًا.

- نسل زنا، يا سيدي عوّرنا دعنا نضرب!!

وكان المساء يهبط ثقيلاً، والراعي الأسود يكاد لا يظهر من خلال الغنم المتفرق الذي أرعبه صوت الطلقات فملأ الجو بالثغاء الفاجع.

ورفع الرئيس رشيشه مرة أخرى، وانتظرنا حوالي دقيقة، ولكنه لم يطلق ودوت طلقة أخرى من الراعي، وتناثرت خرادقها بين أقدامنا، ثم رفع رأسه قليلاً كانت عيناه تشتعلان في الظلام بحقد أخرس ثقيل أحسسنا جميعًا بنظراته في قلوبنا.. كان رهيبًا أسود غامضًا، هز رأسه في اتجاهنا مهددًا،ثم حرك فمه بنداء خاص- فتراكضت الغنم واجتمعت عليه فاختفى بين هذا البحر الصوفي.

وعند ذلك أطلق الرئيس رشيشه بين الغنم في المكان نفسه الذي اختفى فيه الراعي، وسمع ثغاء الحيوانات المذبوحة الأليم وتناثرت الطلقات تصفر في الجو.

ولم يرد الراعي!!

قال الرئيس بارتياح ينافي موقفه المتردد السابق وبصوت مرتجف:

- فطس!!

قال أبو الدرزي غاضبًا..

- نفذ.. ما أصابه شيء.

- وشرف النبي ضحك علينا..

وهجم شقير وأبو الدرزي والضابط نحو الغنم التي تفرقت في كل الاتجاهات يبتلعها الظلام، وكانت المفاجأة.

اختفى الراعي كما لو أنه شيطان ولم تنجح كل التحريات المرفقة بأضواء السيارتين الكاشفة، والتي جرت على مساحة كيلو مترين، باقتناصه.

رجعنا منهكين، مطرقين برؤوسنا في خجل ووجوم.. وعندما أشعل إسماعيل سيجارته، بدت الوجوه صفراء وفي ثناياها غضب كظيم، وفي تلك اللحظة حول الجميع وجوههم ناحية الرئيس. كان شيئًا لا لون له بارد منعدم القيمة كصفر على الشمال. وانطفأت العواصف بانطفاء عود الكبريت.

قال الرئيس بصوت خافت:

- هاتوا عشر غنمات .. سنعرف أصحابها.

قال أبو الدرزي وفي صوته ما ينذر بعاصفة.

- تريدون الصدق ولا أخوه؟

قال الرئيس بقوة:

- اخرس!!

لم أستطيع النوم في تلك الليلة في الحسكة، ولا أظن أن رفاقي ناموا أيضًا.. كنا نفكر في الحملة التي سنعدها في اليوم الثاني بعد التحقيقات الأولى للبحث عن الراعي..

وفي الصباح.. كانت الحسكة كلها تتحدث عن البدوي الذي كاد يقتل آمر سرية وضابطين وعددًا من الجنود ولم يستطع العساكر أن يقبضوا عليه لعوامل إنسانية أو غير إنسانية كانت في قلب الرئيس....

* * *

صاح أبو الدرزي:

- بطقنا..

- ومعنى بطقنا ببساطة، أن السيارة غرزت في الوحل، إلى نصفها، وأنه لن نستطيع التحرك في هذا المحيط من الطين الذي حولنا، ما لم يجرها تراكتور حديدي.

نزلنا جميعًا مشمرين.. وأخذ الرئيس يسب ويشتم، وقدماه تغوصان في الأرض حتى الكاحلين. قال شقير:

- ادفعوا دفعة مضبوطة هاه.

وركض إسماعيل وأبو الدرزي إلى الوراء؛ وأمسك الرئيس بابًا وأمسكت أنا الباب الآخر بينما أخذ الجنديان عصمان ولطوف يضعان

الأحجار تحت الدواليب وانطلقت الشتائم من الجبهة الخلفية واضعة كل الرتب العسكرية في الحضيض، فالتفتنا مدهوشين لنجد الجنديين النشيطين وقد كللتهما طبقة من الوحل في ثقل وزنهما، تفضلت السيارة فطرزتهما بها في هندسة بديعة من القدمين حتى آخر ارتفاع الرأس.

قال أبو الدرزي:

– أنا قلت من الأول .. لا يطلع إلى البر في مثل هذا النهار إلا المجانين. لعنة اللّه على الراعي وأجداد الراعي.

كان يمكن أن ننتظر يومين.. فبصق الرئيس بحدة:

– اخرس .. شاطر تقعد بالثكنة تشرب العرق، أكل ومرعى وقلة صنعة.

قال عصمان:

– وشرف النبي ما في فائدة سننام في السيارة.

لقد حدث ما توقعت فمنذ تركنا الحسكة ظهرًا، كانت غيمة سوداء حاقدة تلاحقنا حتى سبقتنا، ثم انفجر المطر انفجارًا مخيفًا، وبعد ساعة وجدنا أنفسنا في بحر من الوحل في هذه الأراضي التي لا طرق فيها.

كان مخفر غونة الذي نقصده كمحطة أولى بعيدًا بعض الشيء، تفصل بيننا وبينه ثلاثون كيلو مترًا من الطين ولا أمل في أن يعرف وكيل المخفر أننا هنا.. فلم يخطر لأحد أن يبرق إليه بمجيئنا حتى ولا الرئيس الذي كان يدعي أنه لا ينسى شيئًا.. فضلاً عن أن من المستحيل أن تمر سيارة تنقذنا أو تراكتور يساعدنا فبالرغم من انقطاع المطر، فقد ظل الطريق خطرًا رجراجًا لا علامة فيه ولا إشارة.

قال شقير:

– بسيطة نمنا مرة بالسيارة (ونظر بتهيب إلينا) كنا قلة أما الآن فنومة لعينة فضلاً عن أن ثياب أبو الدرزي وإسماعيل.. وسكت وأخذ يضحك بتشف. قال أبو الدرزي:

– إذا خلعنا المعاطف متنا من البرد.

فأجاب شقير متابعًا ضحكه:

– لجهنم.

ولمعت في ذهن إسماعيل فكرة:

– هذه أراضي الشرابيين.. أظن أننا سنجد حولنا بعض الخيام..

قال الرئيس باختصار.

– فتش.

قلت: سنذهب للتفتيش ثلاثتنا .. السيارة تتسع للباقين

فهز الرئيس كتفيه ولم يجب بل ارتشف جرعة ماء من المطرة ثم دخل السيارة وتمدد بهدوء.

قال أبو الدرزي آمرًا وهو يرانا نسير تجاه المشرق:

– غربوا غربوا سيدي الملازم، شرق ما في بيوت!!

كان الظلام قد أطبق تمامًا وليس في السماء سوى فرجة تلقي ضوءًا كامدًا عكرًا كعين عوراء، ونحن ننتزع أرجلنا من الوحل لنضعها فيه.. واسماعيل يكفر بنزق، وهو يحاول إشعال عقب سيجارة مطفأة دون أن يدع له الهواء فرصة إلا لحرق شاربيه المتهدلين.

قلت قاطعًا الصمت لأجل ألا أنسى أني ملازم.

– انتبهوا للبواريد.. فإنه إذا وصل الماء لعلبة المغلاق..

فقاطعني أبو الدرزي ساخطًا.

– مفهوم مفهوم..

ثم تابع..

– لو كان معنا بطحة عرق!! وكفر بصورة لا أجرؤ على ذكر تفاصيلها..

تعثرنا عدة مرات وتلوثت البواريد بالوحل، فأدخلت يدي في جيب معطفي حتى لا تتجمد!.

ومن بعيد لاح ضوء، فقلنا جميعًا بصوت واحد:

- خيام الشرابيين..

كان كل منا يمني نفسه بالدفء والخروف المذبوح.. أو على الأقل دجاجة.. هذا إذا لم يقيض اللّــه لبعض الدرك المرور من هنا منظفين الخيام من كل حيوان يوحد اللّه.

كان الضوء ينبعث من خيمتين فقط.. سوداويين مقرمدتين تحت المطر وفي المدى بعيدًا كانت أضواء أخرى تبدو خافقة في الظلام كقلب يدق دقاته الأخيرة.. ونبحتنا الكلاب طويلاً ثم سكتت وصاح صوت نسائي خشن:

- من هناك؟

قال أبو الدرزي:

- ضيوف.

- يا حيا اللّه .. تفضلوا.

وتفضلنا.. وبعد نظرة واحدة طارت كل أحلامنا من شقوق سقف الخيمة، وقال إسماعيل باشمئزاز:

- أنتم عرب ولا قرباط.

- احنا شرابيين.

- وميت لعنة.. أين الأكل.. ما في ذبيحة؟

- الحلال بالشول.. سرح فيهم الولد من الصبح.. يمكن فطسوا من المطر.

كانت تحدثنا امرأة لا يمكن تقدير عمرها حتى عند الطبيب، سوداء شوهاء، تلبس مرقعة مُتْحفيّة تخفي كل تقاطيع جسدها.

سرحت بصري في الخيمة.. كان طاسة كبيرة يتصاعد منها البخار مدفونة في الرماد وحولها بعض الأخشاب المشتعلة.. جلست حدّها عجوز تكاد تبلغ التسعين قبع في حجرها طفل قذر جدًا وهو يبكي وينظر إلينا بذعر والعجوز تهدهده:

- يا زي يا حبيبي.. يا زي يا صليفج.

وتبينت أن صليفج هذه هي اسم الغلام الظريف..

وعلى الفرش التي تحيط دوائر الخيمة كانت بضع مخدات من القش قد برزت أحشاؤها كأنما فتتها الكلاب.. جلست على إحداها بنتان مجدلتا الشعر، واحدة تبلغ من العمر اثنى عشر عامًا منهمكة في تمرير قطعة من الحبل بين أصابع قدميها اللتين يغطيهما الرماد. والثانية هي أصغر منها قليلاً، تهرش رأسها بشكل آلي وبلطف كثير، كأنما تربت على ظهر القمل الذي حل مشكلة الجوع بين ثنايا شعرها الأسود.

وتبينت آخر السهرة أن هذه العجوز واسمها مزنة هي أم المرأة التي كلمتنا واسمها فنشة، أذكره تمامًا لأني غلطت فيه مرات، وأما اسم البنتين فكان زومة وهوزة وهم مع صلفيج يشكلون ذرية فنشة التي سرح زوجها مع الحلال منذ الصبح.

قلت للعجوز متلطفًا:

- الخيمة الثانية فاضية؟

- فاضية.

- سننام فيها.

- أهلاً وسهلاً.. بطّقتم؟

- بطّقنا!!

- الصبح يمر طراقتور علي العبد الشندوف ويجر السيارة..

قال أبو الدرزي متعجلاً..

- شوفيه على النار ؟

- مرق لحم للصغار تفضلوا..

ونظر أبو الدرزي إلى الطاسة السوداء وتفحصها ثم بصق فجأة:

- تفيه.. أموت الجوع ولا آكل هالوسخ..

ونظرت بدوري في قعر الطاسة.. لم تكن هناك سوى عظمة يتيمة تكاد تتفتت من كثرة الغليان، وبعض قشات من التبن تغور وتفور ومياه حمراء كأنما جمعت من بحيرات الأمطار..

قلت وأنا أشعر حقًا بالتعاسة:

- ننتظر للصبح.. نحسب حالنا صايمين.

وقال إسماعيل مخاطبًا العجوز.

- يعني ما في هكذا.. شي دجاجة.. شي ضلع شي يملأ البطن؟

قالت زومة بجرأة وهي تتابع تمرير الحبل:

- كان عندنا ديك ودجاجة وبعدين..

وهززنا رؤوسنا جميعًا فاهمين .. الجراد.. الدرك.

ونط أبو الدرزي بعد أن ألقى عنه معطفه المغطى بالوحل:

- سأذهب للتسوق،، اسمح لي سيدي الملازم.. هذا جنس رذيل أنا أعرفهم، طبختهم وعجنتهم.. إذا لم يكن هنا .. فهناك عند الأنوار الأخرى..

وذهب دون أن ينتظر الأمر.

قلت وأنا أنظر في عيون فنشة:

- سمعت قصة الذي ضربنا بالجفت؟

فساد سكون تام حتى زومة وهوزه أقلعتا عما كان يشغلهما فعرفت أن البر كله علم بالقضية.

- تعرفي الرجل يا مزنه؟

فتنحنحت العجوز وفتحت عن فم بلا أسنان مغمغمة:

- وايش يعرفني بيه؟

وبادر اسماعيل.

- تكذب ملعونة الوالدين.

- تعرفي الرجل يا فنشة؟

قالت فنشة وهي تنهض:

- الحساء كاد يبرد قوموا ياولاد؟

وفي تلك اللحظة صاح صلفيج حفيد العجوز وأخذ ينهنه ويبكي يريد أن.. أن أن، يقضي حاجة، فأخذته أمه إلى الخارج.. ولحقتهما العجوز للسبب نفسه، لأجل أن تقدم على الطعام بحالة جسدية جيدة، ولم تكلف العجوز مزنة نفسها الابتعاد عن الخيمة كثيرًا، فاقعت قليلاً على مرمى من بصرنا، ثم قامت تاركة تحتها ساقية صغيرة، وعادت وهي تتنهد بارتياح..

أخذوا يأكلون بلذة عظيمة، كانت سرة العجوز تلوح من ثوبها الممزق لكثرة اجتهادها في الحركة وهي تأكل، أما الأطفال فقد كان المرق ينساب كالمزراب من أكواعهم، وأخذ صدر صليفج نصيبه من الوليمة.

وعندما ظهرت قطعة العظم الباقية، صار حولها جدال حام وتقاسموها أخيرًا بطريقة المص واحدًا بعد الآخر... وعندما تجردت العظمة حتى عن عظمها، أعطوها لصليفج الذي اصطحبها معه إلى فراشه تواً، ورد اللحاف على رأسه وهو يزمجر فوقها كهر صغير..

جالت الأيدي في الصدور.. وفتحت الأفواه تتثاءب.. وصاحت الجدة بحفيدتها زومة آمرة أن تنهض لتحك لها ظهرها. أي هنا.. أي هنا.. آه آي. ها ها أي هنا. وهنا سال لعاب الجدة من فرط اللذة فشرقته بعد أن حمل شيئًا من دسم شفتيها. ثم رفعت أصابعها تنتف بعض الشعر العالق بشاربيها.. كانت أصابعها شيئًا عجيبًا.. مشققتين تصلحان فرشاة للخيل.

قلت لزومة: - تريدين تشترين حصان؟

فنظرت إليّ بتحفظ وحذر ثم قالت:

- لا .. أريد حمار.

فأخرجت عشر ليرات وقلت لها وأنا ابتسم:

- قولي لي مين هو الرجل اللي ضربنا.. أعطيك العشر ليرات..

قالت الجدة وهي تسعل:

- تريد فضحنا عند العرب .. ما نعرفه!!

قال إسماعيل غاضبًا:

- اخرسي أنت.. فأخذت الصغيرة تبكي.

وتكلمت فنشة الصامتة:

- ما نعرف الرجل واللّه. لا تتعبوا نفسكم.. اسألوا المخافر.

- عشر ليرات يا زومة خذي.. شو اسمه؟

- ما أعرف اسمه!!

- إذن تعرفين العشيرة .. سأشتري لك حمارًا كبيرًا يحمل الحطب من جبل عبد العزيز دون أن يتعب.. هاه؟. قولي.

فنظرت الصغيرة بذعر إلى جدتها وأمها..

كانتا خائفتين من أن تتدخلا في الحديث تحت نظرات إسماعيل المضطرمة..

- سيكون الحمار عريضًا وله ذيل طويل.. من أي عشيرة يا زومة؟

وسرحت زومة قليلاً تفكر بالحمار .. وتنظر إلى الليرات العشر الملقاة أمامها:

- سأضع لك في أذني الحمار خرزة زرقاء وشبّة وليرة عصملية، من أية عشيرة يا زومة؟

- الرجل.. من.. جبور!!

- أي جبور؟

- جبور .. جبور الفاضل.

وصرخت أمها وهي تصفعها:

- آه يا خاينة..

وقالت الجدة بغضب وهي ترمق النقود وتزجر البنت الباكية:

- فضحتينا.. ستقتلنا الجبور..

تنفسنا بارتياح، وأشعل اسماعيل سيجارته الأخيرة ناظرًا إلى الباكيت بأسى وهو يعصره ويلقيه في النار. ودخل أبو الدرزي أسود كالليل.. موحلاً قذرًا وعيونه تلمع كالجمر . وألقى بين يدينا دجاجتين وباكيت تاطلي:

- ألم أقل لك سيدي الملازم. عاجنهم وطابخهم.. جنس رذيل.

* * *

كان الوكيل أبو حاتم الجرو رئيس مخفر غونة، رجلاً همامًا بكل معنى الكلمة، فإلى جانب نشاطه الهائل في اقتناص الغنم الشاردة، وتقديمها طعامًا للجنود توفيرًا على الدولة. كان يؤمن لجنوده مصروفاتهم البيتية، فمن شوالين من الحنطة، إلى سبع تنكات سمن، ومن كروزات اللاكي سترايك والفيليب موريس إلى بنزين السيارات، ومن أحجار القداحة إلى ربطات الثوم.. كان مخفره مخزنًا عظيمًا ممتازًا يكفي فرقة محاصرة شهرًا كاملاً؟.

ولقد استطاع هذا الوكيل الصلب طوال عشرين عامًا قضاها في الجيش.. أن يكسب ثقة رؤسائه التامة رغم تغير العهود، حتى لقد زعم لي أن الفرنسيين قد رشحوه ليكون ضابطًا، ولكنه فضّل حياة البداوة والتقشف على نعمة المدن وريحتها الزنخة، ويمكن أن تعرف إلى أي حد استطاع أن يفرض الهيبة على البدو من شمال الجزيرة حتى لجنوبي البوكمال، من أقوال البدو عن جهنم التي ابتلى بها اللّه أهل الجزيرة وهم على قيد الحياة.. كانت كل طبخة يضع أبو حاتم الجرو يده فيها، مصيرها الحل بسرعة تدهش دمشق، ولذلك كان معروفًا في دوائر قيادة حرس البادية من أقدم عقيد حتى آخر مجند.

حتى أن الشيشكلي نفسه بعث إليه بكتاب تهنئة يحفظه في عبه ويتحدث الجميع– بهمس طبعًا – عن القتلى الذين شاء سوء حظهم أن يتصادموا مع الوكيل النشيط.

فليس يوازي سرعة غضب أبي حاتم، سوى سرعة انتقامه.. فيرفع البندقية بهدوء، وعندئذ يتمدد إنسان قتيل بكل بساطة دون أن يطالب أحد بدمه، ودون أن يعنى أحد بإرواء عطش الهامة التي تصيح على قبره، في مدى هذه الصحراء المتسعة.

وكالعادة حميت الحديدة، عندما علم أن الشخص الذي تجرأ وتعدى على هيبة الحكومة هو من جبور الفاضل التي كان يكرهها لسبب غير معروف، وكانت نظراتـــه للرئيس فيها عتاب شديد على هذه الإنسانية التي جعلت أصابع الرئيس لا تشد على الزناد في الوقت المناسب، لتخرج الروح النجسة إلى ملكوت السموات، بدون أن يرتفع رأس بعقال للمطالبة بدمه، وكان في نظرته أيضًا شيء من عدم التصديق بدوافع هذه الإنسانية، لم يبرزها بشكل واضح يخرج ضابطه، وهذا هو السر الذي جعل كل الرؤساء يرضون عنه.

لفّني بنظرة من القدم إلى الرأس، ونظر إلي النجمة المتهدلة على كتفي وهو يتنهد، ثم شد على يدي بقوة مؤلمة:

- تشرفنا سيدي الملازم.

وابتدأ الشغل، فالوكيل أبو حاتم ليس عنده وقت يضيعه، فبالرغم من انعدام الحوادث والمشاكل في كل منطقته، فإن باستطاعتك أن تراه دومًا مشغولاً في دوريات لا يعلم سرها حسبما يقول، سوى القيادة العامة، والرئاسة في الحسكة تعرف نشاطه من فواتير البنزين التي تصرفها سيارتاه اللتان تستهلكان على ما يبدو حمولة صهريج كامل في الشهر!.

التحقيق الذي قام به أبو حاتم بدا للجميع طبيعيًا جدًا، حتى أن جنودي كانوا يتثاءبون وهم يرون الضرب الوجيع والجر بالحبال والتمريغ في الوحل وإشعال النار في الشعر، ولم يمنعني من التقيؤ والإغماء سوى نظرات أبو حاتم الصارمة التي كان يتفضل بها علي في فترات استجمام فمه من تعب الشتائم والبصاق على الذقون.. نظرات مشجعة مضخمة بالاحترام الكاذب، المشحون بمعان أخرى لضابط جديد يحتاج كثيرًا إلى فت الخبز كي يتعلم.

وبين العويل والبكاء واللطم والأيمان الكاذبة.. نطق شيخ عجوز جدًا ذو جسم كرتوني يخيل إليك أنك لو عصرته لما خرج منه نقطة دم.. نطق ورأسه يتدحرج على الأرض، وذقنه تجرف الوحل، ورجله معلقة بذيل البغلة التي كانت تجره تحت سياط الوكيل.

- أنا ما أعرف اسمه، لكن أعرف كلبه، هو عندنا.

وجمجم الرئيس بغيظ:

- أهؤلاء بشر أم حجر؟ تصوروا هذا العذاب الذي لا يتحمله حيوان؛ ومع ذلك يقول إنه يعرف كلبه.. ماذا نريد من الكلب يا كلب الكلاب؟

قفز شقير باهتمام وأوقف البغلة:

- أين كلبه؟

وأشار الشيخ بيده المرتجفة الدامية وعيونه لا تكاد تبصر من الدموع.

- الأسود.. بين الغنم.. مشرّق.

ورفع شقير بارودته وأحكم هدفه على الكلب الذي عرفناه تمامًا وأطلق رصاصة.

وارتفع عواء مجنون وركض الكلب يجر رجله المحطمة نحو الشرق هاربًـــا لا يلوي على شيء.

وصاح شقير وأبو حاتم معًا.

- عرفناه.. عرفناه..

والتفت إلينا أبو حاتم بوقار كمن فقس الفولة:

- كلب العرب عندما تجرحه يذهب إلى أصحابه ولو كانوا في أبعد الأرض..

وركبنا السيارات وأخذنا نطارد الكلب الذي أقعى قليلاً يستريح، ثم تابع سيره وعواءه هذه المرة بدون رجله التي تركها مرتعشة على الأرض . ولاحت على البعد بعض البيوت فضحك أبو حاتم بتشف:

- يومك أسود يا صالح السلمان.. عرفت الولد سيدي الرئيس.. وهز رأسه وقد لمعت عيناه.

- السنة الماضية أخذت أضربه حتى كاد أن يموت.. جاءنا أمر من محكمة الحسكة بتخلية الأرض التي يزرعها لصالح الشيخ دعيبس ولكن المنكود رفض. وقال: الحكومة مع الشيوخ، مع النهابين!!

وصمت قليلاً ثم تابع:

- يومك أسود يا صالح السلمان.. تطلق على الرئيس إذن منتقمًا.. (وهز رأسه) طلع طلعة من الأرض ما تسر صديقًا.. نسوانه كن يولولن عليه.. وأصبح راعيًا للشيخ بعد تسليم الأرض.

قال الرئيس وهو ينظر من النافذة:

- إذن هذه هي القضية!! كان يجب قتله ولكن طيبة القلب!!

ولم يجب أحد بل ساد سكون تام.

عرفنا عندما تقدمنا من البيوت أن كل سيء قد انتهى.. كان أبوا صالح السلمان يقفان أمام باب الخيمة وهما يضربان وجهيهما ويصيحان:

- ها ها و، خربت بيوتنا.. ها ها وتقتلت وُلدنا.. ها ها ويا ويلم ها ها و ..بينما كانت كل الخيام المجاورة تردد الصدى وتجيب على الصيحات المجروحة..

وركضت صبية جميلة وحثت التراب على رأسها وارتمت على قدم الوكيل مستنجدة.

اذبحوني أنا واتركوه!! خذ اللي تريده واترك أخوي.. خذ اللي تريده يا بو حاتم.. اللي تريده...

- اللي أريده ها؟ اللي أريده يا ربعة هاه؟ أمّا من أسبوع روح يا بو حاتم عيب!! عندك مره وولاد. اللي أريده هاه؟

قال الجملة الأخيرة بهمس ثم تركها جانبًا واندفع يسلم على الأب بلكمة ألقته أرضًا، وعلي الأم برفسة على بطنها الحامل. وأخذ يزعق كالمجنون عندما أخبره الأب أن ابنه صالح السلمان قد هرب عندما سمع بقدومهم منذ الصباح.

ودخل أبو حاتم الخيم.. كنا جميعًا من الرئيس حتى أصغر جندي مدهوشين مرتبكين واقفين بتبلد كأبي سعد على ساقيه..

وخرج وهو يجر نسوان صالح السلمان على الأرض من شعورهن، فأخذن يستنجدن ويصرخن.. ثم خيم الصمت مرة واحدة على الجميع!!

ولمعت نفس العينين الحاقدتين كالسيف تغوصان في قلوبنا وتقدم شاب أسمر طويل حليق الرأس يحمل جفته بين يديه؛ ظهر كأنما انشقت عنه

الأرض.. ومشى أمامنا ثابتًا ووراء هدوئه نفس تحترق، حتى وقف أمام أبي حاتم الذاهل ثم قال بصوت عميق:

- اترك النسوان يا بو حاتم .. اترك النسوان يا نذل.. أنا أسلم نفسي.

* * *

كنا صامتين كالأصنام داخل السيارة نسترجع ذكريات هذين اليومين الحافلين..

وكان ظاهرًا من طريقة جلسة الرئيس أنه مرتاح جدًا..

وقطع الصمت إسماعيل هامسًا لزميله:

- تعرف يا لطوف.. جنس عجيب.. عجوز يموت ويتعذب ويتقطع دون أن يفتح فمه؟ .. هالولاد !

وسكت قليلاً وتابع بصوت أكثر همسًا:

- أنا واللّه لو ضربوني خمس خيزرانات.. لقلت كل ما أعرفه.. هيه وأنت؟

- وشرف النبي يا إسماعيل.. وشرف النبي.. رجال أقوى من دولة!!

صالح السلمان صامت لا يجيب على كلمة، بل أخذ ينظر من زجاج النافذة بدون أن يتحرك..

ثم انتفض فجأة وهو يرى قطعة أرض حمراء مخددة تمر من جانبه مبتعدة.. ونظر إلى الرئيس طويلاً ثم قال باحتقار وهو يصر على أسنانه منتقيًا كلماته:

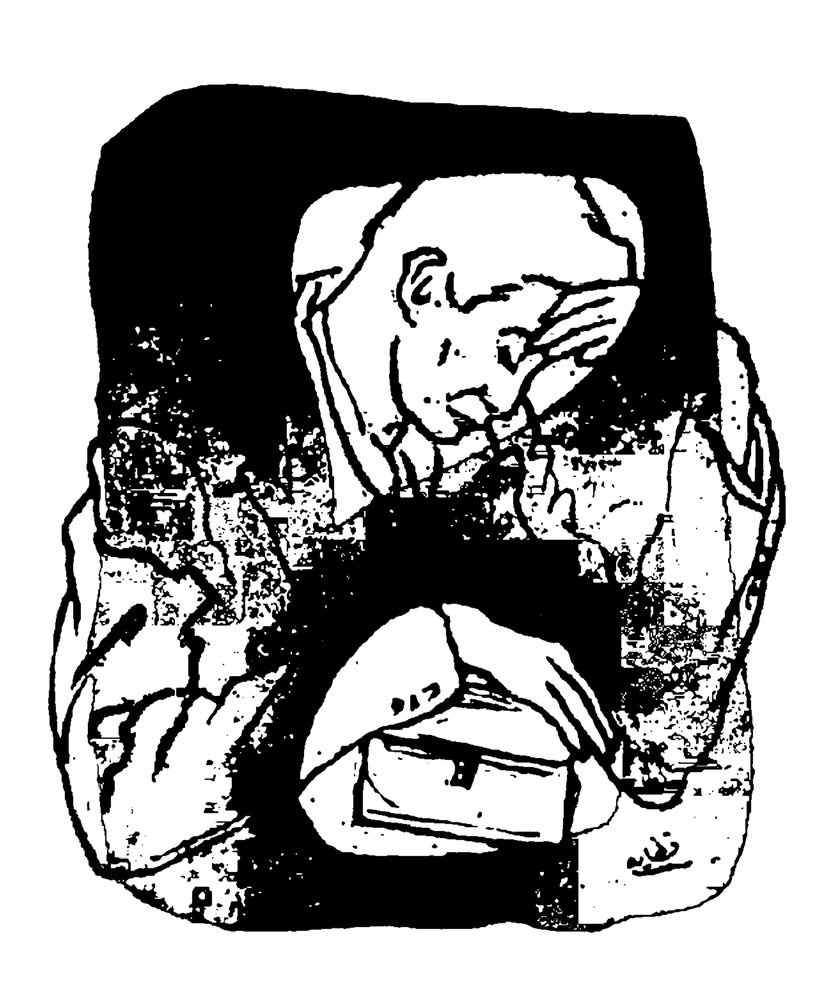
- تعرف يا حظرة الرّيس.. حكومتكم كلها مت هي زَّينة.. تعرف يا حظرة الريس.. حكومتكم حكومة نذال.. حكومة خُوَّان.

١٩٥٦

الصندوق النحاسي

«لقد ماتت وأنا في الثانية من عمري
ولكني أتذكرها تمامًا .. لقد كان شعرها
أزرق وعيناها حمراوين».

(جيمس الابن)



(نالت هذه القصة الجائزة الأولى الممتازة في مسابقة مجلة النقاد التي أجريت في عام ١٩٥١)

ها أنا أعود بعد أن نفضت يدي من تراب أمي.

كنت أسير وئيدًا وأتلفت حوالي بحذر، ثم رفعت طرف سروالي لأمسح حذائي بجوربي لأخلص من تراب المقبرة.. كيف هربت هكذا بعد الجنازة؟ ماذا يقول الناس.؟ إلى الجحيم بأقاويلهم.. أخذت أنظر إلى بريق الحذاء بارتياح، وتذكرت أنه يجب أن أضع له ميالتين من الحديد حتى لا يبلى سريعًا؛ بينما حاولت أن أشعل سيجارة التاطلي سرت غليظة من الولاعة التي كان ينقصها الحجر، ولما ذهبت محاولاتي أدراج الرياح، أشعلتها من أحد المارة ونسيت أن أشكره، ثم بصقت بشدة.

لا أدري ما هية الأحاسيس التي تكتنفني في هذه اللحظة، وحاولت جاهدًا بحكم طبعي كطبيب أن أنفذ إلى شعوري فأحلله . كل ما شعرت به كان إحساسات متناقضة، كنت خفيف الحركة تملأ نفسي كآبة غامضة فيها ارتياح لا أدري سببه، ولكن الشيء الوحيد الذي تأكدت منه هو أنني لا أشعر بشيء من الحزن.

«ماتت أمك» هذه هي الجملة التي طالعتني بها الخادمة مساء البارحة، وهي تنظر إليّ من خلال أهدابها، وأعترف أنني لم أفكر في معنى قولها تفكيري في منظر عينيها تملأهما الدموع.

والآن، مات الشخص الوحيد الذي يربطني بذكرياتي وحياتي الماضية وذكرى تلك الأيام التاعسة، البطيئة، القاتلة. أيام كنت صغيرًا ذليلاً أقف أمام البيوت أطرقها بيد شققها البرد لأسأل عن أمي.

ووجدتني أردد من أسناني «إلى المقبرة تلك الأيام».

لقد كانت أمي بكل بساطة، غسالة! غسالة! حقيرة في بؤرة من بؤر حي الميدان.

ولقد كنت أتمثلها وهي عائدة من عملها منفوشة الشعر، لاهثة الأنفاس، تبدو يداها بيضاوين بشعتين من تأثير الماء والصابون، فتضع في يدي القرش الذي أتلقفه في لهفة مقرونة بالخجل. وحينما أحس بيديها تحتضنانني وتضمانني إلى صدرها، وأرى في عينيها دموعًا لم أستطع في يوم ما أن أجد لها تفسيرًا، كنت أتمنى أبقى في حضنها إلى الأبد.

ونشأت بين رائحة الصابون ودخان المطابخ وقذر الثياب، أرى كل يوم بخار الماد الغالي والثياب المكدسة الوسخة، وأرى أمي منحنية انحناءتها الخالدة فوق الطبق، وقد لهثت ككلب، ونبضت عروق رقبتها، وجبينها تندى بالعرق، بينما أخذت يداها تعملان جاهدتين في فرك الثياب.

وعندما كنت أعود من المدرسة إلى بيتنا الفقير الخاوي من كل ما يملأ البطن، كنت أدور عليها في بيوت الحارة حتى يستوقفني صوت:

- ابن الغسالة.. ابن الغسالة.. أمك عندنا.

وأدخل بيتًا غريبًا فيه أحياء يتحركون بدون عيون، لأنني لم أشعر ذات يوم أنهم نظروا إلي أو أحسّوا بي.. وأحمل فضلات الطعام التي يطعمونها لأمي وأخرج وأنا مختنق، متعب، مشمئز كأنما أحمل علي ظهري أكداسًا من القاذورات.

ومن هذا العمل الدؤوب.. كنت أحمل محفظتي صباحًا وأذهب إلى المدرسة.. مفكرًا بالمستقبل .. بانيًا الخطط وأنا أرى نفسي معزولاً وحيدًا أمام قوى العالم.. وكانت أمي تقول لي:

- ما دام في هذا الجسم ذرة من روح فستتعلم .. أريد أن تصبح دكتورًا . لقد ماتت أختك لأن الدكتور رفض أن يطببها بدون أجرة.. أريدك دكتورًا يرفع الرأس.

سألتها مرة عن والدي، فاتسعت حدقتاها بذعر وأطرقت واجمة، وقالت بعد تردد إنه مات منذ ولادتي، فدفنت رأسي بحضنها ولا زلت أذكر نبضات قلبها السريعة، ونشيجها الواهن.وشعرت بدفء حنانها الملتهب وهي تضمني ضمة كادت تحطم أضلاعي الطرية.

كنت دومًا متعبًا مرهقًا أكره العالم والأطفال واللعب وكانت معاملتي لأمي شاذة، فلقد كنت قاسيًا عليها أنتظر أقلّ حافز لأنفجر، ولا أعلم بعد ذلك سبب ثورتي، وأذكر ذلك اليوم الذي انفجرت في وجهها ونعتّها بالغسالة خادمة البيوت.. التي لا تطبخ إلا إذا مرضت.. ثم.. ولا أدري كيف حصل ذلك.. ضربتها بحذائي!!

وكانت تقابل ثوراتي المتكررة بصمت ثقيل كنت أحس به حجابًا صفيقًا يقوم بين قلبينا إلى الأبد.

لقد كنت غريبًا بين العمالقة من أبناء الأسر الأخرى؛ وكان قصر قامتي يولّد فيّ احتقارًا مريرًا لنفسي؛ فكنت أطأطىء رأسي أمام كل مناقشة أعرف تمامًا أنني بها مصيب.. ألست قصيرًا ؟ ألست سخيفًا فقيرًا ابن غسالة؟ ففيم التبجح بالمنطق والمرافعة والسفسطة؟ يكفي أن يقف محدثي أمامي قليلاً، فأقيس قامتي بقامته، حتى أشعر أن قنفذًا التف حول رقبتي، إنني حقير حقير.. ولكني كنت واثقًا من ذكائي.. لقد كانت كل الأشياء تقنعني به يومًا بعد يوم.. أمي.. وأساتذتي.. ودرجاتي المدرسية.. وكانت أمي تقول لي دائمًا:

- أتمنى أن يكون قلبك كبيرًا.. كعقلك.

ولقد كان قصري يولّد في نفسي غضبًا على أمي!! أليست هي أصل البلاء، أليست سبب حياتي الذليلة؟ ماذا لو ولدتني غنيًا أحمل تلك المحفظة التي يحملها عصام مثلاً وأركب مثل سيارته؟ ألست أذكى منه؟.ألم نتعلم أن المال ليس كل شيء في الحياة؟ إنـــه لا يمتـــاز عـــني بشيء.. ولكـــنه.. آه.. إنـــه أطـــول مـــني، دائمًا الطول.. الطول اللعين. لقد كنت إذا ما مررت بجدار أحاول أن أقيس طولي على تموجات الدهان فيه، وكنت أنظر إلى ظلي في شمس الغروب، وتنطلق مني تنهدة، ما أشد لهفتي إلى أن يصير طولي كظلي!! وكنت أسمع عن ليلة القدر، وأسهر ليلتها وأنا أهيء الدعاء..ليس ثمة شيء كثير سوى جبل من ذهب، وعشر نساء بيضاوات كالثلج، وفتر من طول.

وكنت أرتاح لشيء واحد، وأشعر فيه بسيطرتي، وهو أنني كنت أحس بالزهو والعظمة حينما أقف أمام أمي.. لقد كانت قامتي أطول من قامتها قليلاً .. يا للفرحة العارمة..

هل كنت أبغضها ؟ لا أعلم تمامً.. ولكنها كانت تخافني.. وكنت أردد أمامها دائمًا أنها ولدتني للعذاب والشقاء.. وهي السبب في كل مساوئي.

ومشيت في طريق الحياة، مسلحًا بالغرور واحتقار الناس.. ألست ذكيًا؟. ألست عبقريًا؟. إن درجاتي تنبيء بذلك.. ماذا يضر إذا كانت لي أم جاهلة غبية كهذه الأم .. ألم أسمع عن الزهرات التي تنبت في الوحل وتمتص منه غذائها؟.

ووصلت الهوة التي تفصلنا إلى قعرها.. عندما أخذت أخيرًا، وبعد كدّ سنوات، إجازة الطب.. لقد صرت دكتورًا.. من يصدق أن أمًا كهذه لها ابن دكتور.. إني أحس بالهوان في أعماقي.. أذكر تمامًا نظراتها الفرحة إذ ذاك.. وبكاءها وصياحها اللاهث.. مبروك يا ابني .. مبروك يا حبيبي.. وتنهدت كأنها أدّت مهمتها.. ونظرت إلى يديها بفخر، ثم أخفتهما عني بعد أن شعرتُ

بالامتعاض لبشاعتهما، ومرضت ثلاثة أيام من الفرح.. لقد كانت سعيدة جدًا لأنها كانت أول زبائني.

كنت أحتاج إلى المال لأجل أن أجهز عيادة، وإلى االدعاية والشهرة والعمل بدون أجر، والرضاء بالقليل لأبدأ الطريق.. فإلى العمل أيتها الغسالة.. إلى العمل أيتها العجوز الفانية.. عليك أن تؤدي ضريبة أن ابنك قد أصبح دكتورًا رغم عامّيتك وحقارتك.

ودارت الآلة الصدئة بجهد وصعوبة، ما أعجب البشر..من يصدق أن هذه الكتلة المتعبة من اللحم والدم تستطيع أن تعمل خمس عشرة ساعة ليلاً ونهارًا.. تدور على البيوت وتحمل رزم الغسيل مرددة في كل مكان :

- أعندكم مريض.. ابني دكتور.. دكتور عظيم ويفهم.

وتأسست العيادة، وأمرتها أن تتوارى حتى لا تلوث سمعتي.. ماذا يقول الناس عن دكتور لا تزال أمه تعمل غسالة؟!يتوجب عليّ أن أعولها بعد الآن.. لابأس.، سأعيلها، ماذا يقول الناس؟

قد أنسى أشياء أستطيع أن أتناساها بالإرادة، يكفي أن أفكر بشيء آخر، عندما تقفز إلى ذهني ذكرى أليمة، أفكر بسهرة هانئة مثلاً، أو بواجب ملقى علي، أو أتذكر مشاكل عيادتي ومرضاي، أو أحاول أن أحصي عدد ألوان السقف المدهون، أو أبادر إلى اصطناع مشاجرة حامية مع الخادمة.، ولكن تلك الذكرى لم أستطع أن أمحوها.. كانت دائمًا تحز في رأسي كمقراض ضخم، يذكرني بها الجو.. والصباح.. والشارع.. ليست هي ذكرى غريبة، ولكن بعض الذكريات البسيطة أو التي تبدو بسيطة، تبقى دائمًا إحدى خلايا ذاكرتك، فلا تفكر إلا وتتحرك الخلية لتندمج مع الخلايا الأخريات.

عندما جئت أعلمها بخطوبتي كان الحر خانقًا، والنوافذ المطلة على الشارع مفتّحة؛ وبدأت كلامي وأنا أسمع جلبة العربات وصوت الحوذي وهو ينهر جواده، الترام الذي يرسل رنينه الواهن المنتظم، بينما ملأت الجو

هتافات باعة الصحف، وهم ينادون عن جريمة مشهورة، ودق ناقوس الكنيسة يعلن الثانية عشرة، وكانت تنبعث إلى أنفي رائحة المازوت الكريهة من شركة الكهرباء، وبدا أمام عيني في الرصيف المقابل عنوان ضخم عن راقصة مشهورة برخصها وعهرها.. وشكلت هذه الأشياء جميعها جوًا زاد في حدة أعصابي.

بدأت أقول بغير اكتراث، أنه قد آن لي أن أتزوج وأخذت أعد الحوائج التي سأشتريها فقاطعتني بهدوء تسألني عن زوجتي المستقبلة.. يا اللّه، كيف سهوتِ عنها يا أمي؟ إنها رمزية..

ورأيت وجهها الهرم يتجعد ويمتقع، ولا أدري لماذا تذكرت دهان مطعم سقراط في ذلك الوقت!! كان وجهها مسرحًا لإحساسات متناقضة، فأنا أعرف مقتها الشديد لرمزية، جارتنا التي كانت تتجاهل أمي كلما زارتنا تجاهلاً تامًا. ولكنها مدت يدها المرتجفة وهي تقول: مبروك يا ابني.. مبروك، فوجهت إليها الطعنة القاضية: أمي إني أرى أن صحتك لا تساعدك على الضجة، وإني قد استأجرت لك مسكنًا في سوق ساروجة، وبذلك تتخلصين من عناء البيت والأولاد..

وخيل إلى أن وجهها قـــد ابيضّ وشحُب، وبذلت جهودًا جبارة كي تبتسم من خلال دموعها التي حبستها، وكان منظرها مضحكًا وهي تغالب عينيها الكابيتين ثم تجيب بصوتها الهادىء: مثل ما تريد.. مثل ما تريد.. وفي اللحظة التالية هوت على الكرسي وهي تسعل سعالاً متصلاً هز جسدها الشيخ هزًا عنيفًا، وقبض على قلبي خيط واه من الحنان، ولعنت رمزية التي اشترطت عليَّ إبعادها، ولكنني، مع ذلك، لم أتراجع، فانفصلت عنها حتى جاءها السل، فأتيت بها أمرّضها في بيتي.

ومرة أخرى استعنت بأحد المارة على إشعال سيجارة هي آخر ما تبقى في العلبة، ومرة أخرى نسيت أن أشكره.

وقفز إلى ذهني خاطر رهيب . ألست أنا القاتل؟ نعم أنا الذي قتلتها، لقد أصابها الاجهاد بالسل في بيتها العفن، وهي صابرة لا تتكلم، وكنت حينما أزورها تجاهد نفسها حتى لا تشعرني بمرضها، وكنت لا أطيل زيارتي، مرة كل شهر، والزيارة خمس دقائق، كأنها أحد المرضى الفقراء الذين خصص لهم يومًا مجانيًا على سبيل الدعاية لأعطيهم وصفات لا تنفع شيئًا. ولكنني كنت ألاحظ امتقاعها، والبقعتين الحمراوين على وجهها من أعراض السل الرئوي، هل كنت أتعامى عنها لأتخلص منها ومن كل الماضي المخجل الذي تمثله؟ أخيرًا نقلتها إلى بيتي وأخذت أمرضها بفتور. كانت تلحّ علي ألا أتفرغ لها هي العجوز التي شارفت نهاية حياتها، وأن أترك أوقاتي للعيادة، وكنت أطيعها وأحس بشيء من الارتياح الخبيث وأنا أغادرها، حتى كان مساء البارحة..اتصلت بي الخادمة تقول إن نوبة حادة أصابت أمي، وكنت أعالج رجلاً ذا مكانة فعزّ عليَّ تركه، ولكنه عندما علم أن أمي هي المعنيّة، ألح علي بالذهاب فغادرت عيادتي غاضبًا.

لست أنسى النظرة الوجلة المستكينة التي قابلتني بها.. وأحسست بعينيها تنهبني وتجردني من ثيابي، فأدرت وجهها بعنف فتأوهت وصبرت على قسوتي وأنا أضعها في الفراش دونما لطف.. كانت عيناها تلاحقانني .. آه لو تنطفيء هذه النظرة الفظيعة من العينين.. أنا لم أرها في حياتي تنظر إلي على هذا الشكل.. أكرهتها إكراهًا على شرب المسكِّن فهمدت ولكن عينيها ظلتا مفتوحتين مسمرتين عليّ.. ضربت الباب خلفي بعنف وقوة وهربت إلى الفضاء.

وحينما عدت في المساء كانت أمي قد ماتت.. ودفنت اليوم كأنها متشردة لم يسمع بها سوى قلة.. ذلك لأنني لم أقل لأحد عن موتها.

* * *

كان أناس أعرفهم يدخلون ويخرجون من البيت حينما عدت إليه، ولمحت زوجتي تصف الكراسي بهمة أصحاب الرسميات، قطبت وجهها وبادرتني بسرعة:

- لماذا تأخرت .. نسيت الصبحية؟

- أية صَّبحيَّة؟

- أف... بعد دقائق يأتي الناس للعزاء، هل أوصيت على القهوجي؟

- ومن أين آتي به؟

- من أية قهوة.. أسرع يا رجل.. ماذا يقول عنا الناس إذ أهملنا.

- لا يهمني أحد.. ياليتنا لا نجلس في الصبحية!!

- لا .. لا تقل مثل هذا القول الأحمق، وإلا استاءت الحارة كلها غدًا، وقل عدد مرضاك، إن الناس ينتظرون سيرة يعلكون بها، إن هي إلا ثلاثة أيام وننتهي من هذه المصيبة.

ولأول مرة لاحظت أن حبَّة وسخة صفراء تحتل خدّ زوجتي، وأنها مملة، فاستدرت بهدوء أنفذ الأوامر، وشعرت طوال العشيّة أنني غريب، وإن المقرئ المزعج الذي أتى به مختار الحارة، لا يصل صوته إلى أذني، وكنت أقوم وأقعد وأرد التحيات، بحركات أوتوماتيكية... أوه ما أتفه الحياة.

وتقدمت زوجتي مني تدعوني للنوم بحجة أني منهك بعد أن خلت الدار من المعزّين، ولكني قابلتها بصمت ووجوم، فهزت كتفيها وذهبت وتركتني وحيدًا جالسًا على الكرسي أحدق في الأضواء المنيرة الكثيرة دون أن يطرف لي جفن.

وعندما أَطفأَتُ الأنوار؛ كانت تنتابني كآبة حائرة، وخيل إلي أني أشعر بالبرد رغم دفء الجو، وبأن شيئًا ما ينقصني كأن أحد أعضائي قد انفصل عني، فأدرت وجهي وأخذت أتمشى وأنا أدخن.. خيل لي أنني ضائع، وأن

زوجتي قبيحة، وأن البيت الذي أعيش فيه قبو معتم، وصرت أدخل غرف البيت وأخرج منها كأنما أفتش عن شيء يخلصني من حيرتي.. شد ما أنا حائر شد ما أشعر أنني فارغ.

وهززت رأسي وأنا أحدق في سرير أمي، وأقلب الحوائج الموجودة على المخدّة بملل.. عدة خياطة.. ومجموعة متباينة من الابر.. وعدة أوراق منها وصفة طبيب عرفت فيها خطي وورقة عليها حجاب يبدأ هكذا «بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا حجاب يمنع جميع الأمراض ويداوي كل العلل بقدرة الواحد الأحد الفرد..» وهذه ورقة أخرى.. ما هذا؟ كانت ورقة كأنها لطالبة صغيرة تتعلم حروف الهجاء وتبدو فيها محاولات لكتابة جملة صغيرة. وابتسمت، هل كانت أمي تتعلم الكتابة قبل أن تموت؟ يا للأمر المضحك!! الآن فهمت سر تلك الأوراق التي كانت تخبئها هي والخادمة التي تعرف القراءة والكتابة حينما آتي، والتي كنت لا ألقي إليها بالاً ككل شيء يصدر عن أمي.. لعلها أرادت أن تفاجئني !! أوه كم كانت طيبة ونقيّة هذه العجوز الفانية. وخيل إلي أنني أتمنى أن أراها وأن أضمها إلى صدري فرحًا بتعلمها الكتابة، وأن أقبلها على خدها الأجعد وألمح السرور في عينيها.. وغمغمت:

– مسكينة لقد ماتت ولن ترجع إلى الأبد.

وشعرت بمغص حاد فجلست على حافة السرير، وخيل إلي أن رأسي أكبر من الغرفة وعرتني رعشة حزينة.. كم كانت تحبني.. أليس رائعًا أن يجد الانسان في هذا العالم البارد مَنْ يدَفّئُهُ بحبه؟

وقلبت الورقة، فرأيت عليها جملاً مفككة رديئة الخط لدرجة تجعل من الصعب قراءتها.

وطويتها ببطء، وأحسست بثقل يبهظني كأنني ألبس رداءً من الرصاص. وحاولت أن أفعل أيّ شيء، أن أبكي.. أن أضحك، فلم أستطيع.

وحدقت في الضوء طويلاً دون أن أشعر بأي ألم.. يا لها من حياة عاشتها هذه العجوز.. وشعرت بخدر كالشلل يتسرب إلى أعصابي فأخذت أقضم أظافري. وكانت يدي ترتجف إذ لم أستطيع أن أكبت شعوري، كما كنت أفعل من قبل فأسرعت ودسست رأسي في الماء.

شعرت أن دموعي المختلطة بالماء طاهرة، وأن وجودي قد أصبح مليئًا أكثر من ذي قبل.

عدت إلى الغرفة ودموعي تتساقط في صمت، وجلست على السرير مطرقًا، ولمع شيء تحت مقعد في آخر الغرفة فاسترعى انتباهي، ولما أخرجته وجدته صندوقًا صغيرًا تذكرت أن أمي كانت تضع فيه حوائجها الخاصة، وكان ضوء الغرفة يقع على معدنه الرخيص الصدىء فيبدو كامدًا عتيقًا كأنه قبر نحاسي، واعتراني شيء من الوجل وأنا أفتحه.

ووقفت أحدّق في دهشة وذهول في محتويات الصندوق، بينما حاولت الابتسام من خلال دموعي ووجدتني أشهق من أعماقي.

لم يكن في الصندوق سوى صورة لشاب يشبهني، وأظن أنه أبي... وشيء آخر، وغصصت بريقي.. حذاء صغير وسخ. هو نفس الحذاء القديم الذي كنت ضربتها به يومًا في إحدى ثورات غضبي.

١٩٤٩

حمد ذياب

شجعان .. أباة .. وحشيون في الدفاع عن الحرية .

وهذه الجبال المتلفعة بالعواصف .. منازلهم .

(بورتر)



كانت الأكواخ البائسة حولي مخنوقة الصوت، ولا شيء سوى هسيس الثلج على الثلج. ثمة أضواء باهتة تنبثق فجأة من قلب الليل، تلمتع كيراعة ثم تخمد.. وتتحرك وراء النوافذ هياكل ضخّمها نور قناديل الكاز فبدت كأشباح مهولة. لا أدري لماذا يشبه ساكنو هذه الكهوف الجبلية في قساوتهم وغضبهم السريع كائنات أسطورية.

أي طقس لعين هذا؟ العاصفة الثلجية لا تحتمل.. والسماء تبدو قرصًا عظيمًا مدلهما لا منفذ ولا حد له وأنا أنزع رجلي من الثلج السميك لأضعها فيه.. وفكرت بشيء من الراحة أنني، بعد يومين، سأبتعد عن الجبل وربما إلى الأبد، ألف كيلو متر !! إلى حيث يعتبر الثلج اسطورة وحلمًا ،منظرًا ساحرًا دافئًا في فيلم سينما .. وحيث الأرض سهلة لينة موحلة ثقيلة الظل.

أمامي كيلو متر آخر حتى أصل إلى بيت حمد ذياب..أنا أحب هذا الآذن الأعرج الصامت.. كأن في عينيه وشاربيه ومجموع وجهه شيء فطري قاس ووحشي، ووراء القناع المجعد السندياني على وجهه الهرم.. كنت أشعر بأعماق رهيبة مظلمة مليئة بالأسرار.

كنت أقول له.

- هل تعرف بورتر؟

- ومن بورتر هذا؟

- لقد وصفك..

- هل هو درزي؟ . أنا لم أسمع بمثل هذا الاسم في حياتي.

- إنه شاعر انجليزي!!

وأروح أدندن بمقطع من القصيدة: شجعان.. أباة.. وحشيون في الدفاع عن الحرية.

وهذه الجبال المتلفعة بالعواصف .. منازلهم ...

فيهز رأسه وينظر إلى بإشفاق جامد .. ويقلب شفتيه بطريقة بعيد قليلاً عما يتوجب على آذن بسيط مثله، أن يفعله أمام أساتذة مدرستة.

- قلبك فاضي.. ويبتعد.

أحسست بالدفء وأنا أتقدم من الكوخ ومددت يدي وأنا أمسك باليدين الخشنتين.

- مرحبًا أبو صابر.

قال دهشاً وهو ينظر إلى السماء حوله:

- يا ميت مرحبًا .. شرفتم .. وحدك

- وحدي .

- تفضل.

ودخلت الغرفة الوحيدة.. تركت زوجته وأمه ما بيديهما من عمل.. ونهضتا لا ستقبالي بترحيب شديد.، ورفع ابنه صابر رأسه من تحت اللحاف وابتسم لي، ثم تابع أحلامه وغاص في بحيرة النوم.

وزفر ابريق الشاي على النار المطقطقة المزغردة في المدفئة العتيقة، وحدقت في عيني حمد الصريحتين.

- لقد جاء أمر نقلي!!

- أين ؟

- إلى الحسكة

- بسيطة!!

وتنهد بهدوء ثم غمغم:

- أنذال...

كان تقبُّله الأمر على هذا الشكل، قد أحرجني قليلاً وأشعرني بشيء من خيبة الأمل و.. لعلي كنت أحب أن ينفخ هذا الآذن البسيط في بطولتي، ويقول عني أشياء ترضي غروري.. أن يقول لي: لقد استطعت أن تهز الحكومة.. أو أن المحافظ يحسب حسابًا لك.. أو أن الشيشكلي نفسه تدخل في أمر نقلك.. ولعل هذين الكيلومترين اللذين قطعتهما في الثلج، لم يكونا لعيادة الآذن الذي غاب يومين عن المدرسة ولا لتوديعه، إنما كانا طلبا لاحترام شخصي من الآخرين وحمد منهم على وجه الخصوص.

وردد حمد:

- بسيطة... الحسكة... هه قريبة جدًا.

- قريبة ؟ ألف كيلو متر يا رجل.. تحت المطر والثلج والـــ...

- أقول لك بسيطة.. قريبة جدًا

وقدم إلي قدح الشاي وهو يهز رأسه.

- هذا طريق صعب.. يجب أن تتعود عليه.

آلمتني لهجة المعلم الذي يقولها...

ولكنني نظرت إلى عينيه... كانتا تلمعان كجمرتين:

- ذقنا قبلك مثل هذا وألعن.

- أنت يا حمد.. احك لي.. في قلبك سر سمعت عنه

- ما قالوا لك عنه؟

- من فمك أحسن.

ورفعت المرأتان رأسيهما ونظرتا إلى حمد في حنان عميق..

كانت الريح تعوي وتدفع بعض الدخان للخروج من المدفأة، وشعلة الكاز تتراقص ملقية على الجدران ظلالاً شاحبة، والصمت يعمق ويعمق حتى ليسمع المرء دقات قلبه.

ظل حمد صامتًا مدة طويلة جدًا ولم يفكر أحد بأن يجرح صمته.

«قصتي بسيطة.. ميت واحد تعذب مثل ما تعذبت... ولكن لا بأس من الكلام فقد تسليك..

كان عمري خمسة عشر عامًا.. شاب يقدح زناد الأرض، عندما جاء مفزّع من الشام إلى جبل الدروز، دار بين المضافات يصرخ، يا أهل النشاما الفرنساوي بميسلون، وهبّ الجبل، وتقاطرت البيارق على قرية السجن، وفزعنا.. الوالد وأخي حمود وأنا، كان عندي بارودة فلنطا تسوى ذهب، وكنت أصيب بها الإبرة وبيّتنا في قرية السجن منتظرين القطار ليأخذنا، ونمنا على سلاحنا نحلم بذبح الفرنسويين... أصبح الصباح تصبحون بخير، وإذا بمخبر يصيح يا دروز الفرنساوي طب بالشام، انكمش قلبي ودمعت عيوني، كنت أحلم بالمعركة.. نكست البيارق، ورجع كل بيرق لربعه.

أهلاً وسهلاً بالاستاذ.. العجوز هذه أمي، من عائلة عريقة من بيت أبوصالح كنت أحبها للموت، وذات يوم شتمت أخي حمود لأنه تكلم مع أمه كلامًا قاسيا،فصفعني وضربني بقطعة حديد فجرحني. أخذت أختي تبكي وتضع رماد الأحجار على جرحي..طلبت منها أن تعمل لي زوادة، وهربت من البيت غاضبًا قاصدًا أزرع فالشام.

كان معي كام مصرية، استأجرت عربة وذهبت إلى الربوة، فرأيت عسكر خيالة سوريين، فارتعشت لهذا المنظر!! كنت صغيرًا وولدًا أحلم بأن يكون لي حصان. ذهبت إلى المزة وتطــوعت وصرت عسكريًا بحصان وملابس براقة بزرار صفر.

طلب الفرنسيون عشرين جنديًا إلى لبنان، وأخذوني بالتنقية إلى مار الياس، عسكر بيادق بدون خيل، وصرنا نزق مؤنة للجيش كالعتالين، ووطار الحلم الذي كنت أحبه: خيل.. سيوف.. بواريد. وذهبت مرة لأنقل المؤونة إلى السجن فشربت قليلاً من النبيذ، فأمرني اليوتنان أن أنقل برميلا من الزبالة فرفضت.. قلت له: أنا عسكري، وما يسواش أكون عتال، فصفعني على وجهي، وكان معي خنجر مجدلي، فطعنته به في صدره. صرخ ووقع إلى الوراء، قذفت بالخنجر وهربت، ولكنني لم أعرف أين أذهب، فرجعت إلى ربعي من الصواري، كانو من المتاولة والدروز والشركس، ضربت اثنين من ربعي غضبا، فلم يتكلم أحد لأني كنت شديد المراس بينهم.

دخل خمسة فرنساويين فأخرجوني وبدأوا يعذبوني.. أجبروني على جر العربات في الرمل،وحرقوا رجلي وأطراف أذني، ثم أخذوني إلى سجن ضيق في فرن الشباك كله مغاربة يتقاتلون طوال النهار، ثم نقلوني إلى سجن الرمل .. جاءني كابورال وقال اليوتنان صحّ وأنا محاميك. وحكموني ستة أشهر سجن في فرنسا، فأخذوني إلى «غرينوبل» فاشتغلت هناك بالأشغال الشاقة وكنت أضرب وأعذب كل يوم.. تمنيت أن يسرحوني بعد السجن، لعن اللّه ها العلقة.. ظننت على ولدنتي العسكرية خيلا وبواريد وبخترة ونسوان.. لكن كلها ذل عند النذال..

دنياك ما اهل صـــديق وقرابـــي ومن خلقة الأيام الـــدهر دولاب

ودنياك ناعورة وفيهـــا علابـــي تملا وبتفرغ على فـــرد قـــلاب

وبيها سهول وبعد بيها روابي وعرة عسيرة السير عا كلّ طلاَّب

خلصت محكوميتي، رجعنا إلى مرسيليا.. ثم ذهبنا إلى تونس، مجموعة من العساكر ما لها جنس ولا لون.. ثم وصلنا إلى بيروت.. حنِّيت إلى أهلي وقررت أبت القطيعة، كتبت لهم مكاتيب أجابوني عليها. أرجعوني إلى

قطعتي.. وصرت أنتقل من هنا إلى هناك.. كرهت العسكرية والفرنسويين للموت.. حاولت الهروب أنا وواحد صاحبي فقبض علينا، وحكمناسنة على الفرار، قضيناها مُرة كبذر الخلة في سجن الحميدية بالثكنة.

أهلاً وسهلاً بالوجوه الحلوة.. أعلنت الثورة يا سيدنا وأنا برتبة عريف. كنا بالقريتين، وإذا بأمر انتقالنا إلى دمشق. عزمت على الفرار والالتحاق بالثوار في الجبل.. كانت أخبار معركة الكفر ملأت الجيش.. وصار تذبيح الفرنساويين هم كل سوري.. طلعت صداقتهم كلها كذب ونهب وسلب.

من خبرةٍ بين الملا والتجاريب ما النا صديقاً يارفاقي سوى السيف

نقينا الخيل وأن اوكام واحد من ربعي، ولكن جاسوسًا اسمه (...) وشى بنا، وجاء محمود بنيان وكان رقيبًا فنبهني إلى الوشاية. وأخذ الفرنسويون براقبوننا، وصلنا إلى القنيطرة، ثم أرجعونا إلى دمشق. كانو يبعدونا عن الخطر.. ولما اشتعلت حرب الغوطة أمرنا بضرب الثوار فتمارضنا وسمعنا أخيراً أخبار الذبحة الكبيرة في المزرعة وعملنا حفلة سرية في المعسكر، مش قليل خمسة آلاف فرنساوي ماتوا على حجار المزرعة مع الدبابات والمصفحات والسيارات.. مش قليل أبدا.

وثارت بني معروف واعوت عوى ذيب جوعان واستطيب لحوم المعاليف

وتلاطموا الجمعين واضحوا محاطيب وبالمزرعة خلوا الجحافل متاليف

راحوا جميعًا بالسيوف المحاديب ذياب حلت في شلايا الخواريف

كنت عازمًا على الفرار.. وكان معي بزناري ثلاث بمبات صغيره، زرت مرة صديقًا لي في الميدان، فرأيت عنده دروز من جرمانا، فأخذوا يشيرون علي ويضربون كفا بكف. فقلت لصديقي وايدي على البمبات شو الخبر؟ فبكي صديقي وأخبرني أن خي حمود كان مع الثوار في مهاجمة قلعة راشيا.. كان

أول فارس وصل للباب وقتل عليه.. فاحترق قلبي.. خي حمود.. كان شب مثل الحديد.. مثل الزهرة.. أدرت وجهي كي لا أبكي .. فكرت أن أضرب بمبة على رأسي وأخلص من الحياة.. لكن رغبتي بالانتقام ردتني إلى الصواب.

نقلونا إلى درعا ذات يوم بالقطار، وتعاهدت أنا وخمسة أشخاص على الهرب، منهم أسد أبو فخر ومحمود أبو فخر وحمود نعيم.. أخذنا البواريد وهربنا من صوب الجبل.. وسمعنا من بعيد صوت البوق يعلن فرارنا. أصبح الصباح علينا بخربا، ووجدنا عصابة أبو موسى القطامي، جئنا إلى السويداء وقربنا من بيت أبو نايف علي عبيد، وكان عنده سلطان الأطرش، فصار يسألنا عن درعا وقواتها، وجاء أبي، ودب الصوت برجعتي، كان الناس يقدمون للعزاء بأخي وللتهنئة برجوعي..

تحقق حلمي أخيرًا، وانضممت إلى الثوار . اشتركت في معارك سور ومجدل في اللجاة، وعندما دخل الجيش محيد، رجعنا إلى السويداء، ثم صارت العصابات غربي لاهثة أمام الخالدية. كنا نأكل الطحين، نخلطة بالماء ونشويه على تنك وكانت الطائرات تهاجمنا.

ويوما نحن في قرية الهوية، ندبنا عادل النكدي إلى الغوطة، فنزلنا إليها وكنا نحو اثنين وأربعين شخصًا، وقعدنا بالقرب من دوما واتصلنا مع عصابات دمشق، وكان فوزي القاوقجي وسعيد العاص وغيرهم هناك. ثم تشتت شملنا مثل رف القطا عندما يضيع رئيسه وقت قتل عادل النكدي في قرية البويضة، صرنا نتشاور أين نذهب، كوّنا عصابة برئاسة مصطفى وصفي ثم طلع مصطفى على الجبل برفقة حسن الخراط وبعث لنا الأمير عز الدين الجزائري.. وأخيرًا انتقلت العصابة إلى الجبل، وتحصنا في منطقة اللجاة، وكان الثوار في الأزرق بشرق الأردن تلاحقهم الطيارات بالبمبات، وهجم علينا بشريحة ثلاثمية وخمسون عسكري وكنا خمسة عشر شخصًا، وخاف علينا أهل شريحه وقالوا لنا اخرجوا.. لا تستطيعون قتال كل هاالخلق:

وإن اجا العسكر يا صاحب وشـــي   يا نار قلبي عالوحدة واش علينـــا

كم وكم من مدافع وشـــت علينـــا   واسكرنا والــدما كــان الــشراب

ثم قالوا لنا، هناك بعض العسكر طالعين من السويداء على شهبا، رحنا نهاجم.. كنا اثني عشر شخصًا.. ترسنا وراء رجوم الأحجار كل واحد وحده واستحكمنا مليح، وقلنا نقاتل بالحاله هذي اسكدرون كامل .. لكن بقينا حتى الليل والعسكر ما جاءت، نمنا على سلاحنا حتى الصباح، استيقظنا وصرنا نأكل، وفجأة سمعنا صوت الخيل، ورأينا العسكر تداهمنا، وانقلب الموقف فقد دوهمنا، واشتغل فينا القواس مثل زخ المطر..

يا وليفي تـــرى العمـــر غـــالي   نرخصه يـــوم ســـوق المنايـــا

أخذوا يصرخون فينا: سلموا تسلموا، سلموا تسلموا.. كل ربعي هربوا وبقيت وحدي وراء الرجم في الخلاء.. كنت أريد الموت ومحروق قلبي على خي حمود ،أخذت أضرب بالأم كركر .. حميت البارودة بين صوابيعي مثل سيخ النار، وكان العسكر منتشرين يلاحقون الهاربين ويطلبون مني التسليم وأنا أرفض:

واللّه ما أرضي عشيةً بالندالـــه   لو أن تقطع بالسيوف المشاطير

وأحسست بشيء ساخن في صدري فنظرت، كان صدري سابحًا بالدم، ضربت رصاصة فطارت البارودة من يدي، وشممت ريحة الموت، وزاغ بصري، ولم أسمع جيدًا الأصوات حولي، ورأيت أولاد الدروز فوق رأسي مختلفين بعضهم معي وبعضهم علي، تمنيت الراحة في الموت، قلت لواحد (يا فلان) كمل عليّ .. اضربني رصاصة بدماغي.. فقال: آه يا حمد لا أصخى فيك.. استطعت أن أمد يدي إلى خنجري، وقطعت الجنادات به، فنهبوني نهبا وتركوني بالسروال فقط.

جاء يوتنان فرنساوي ودعس كل صدري ببسطاره وسحب فرد طاحونة وأراد تقويسي فأوقفه أحد الدروز وقال له: حمد عسكري لا تقتله، جاءوا بثلج ووضعوه في حلقي، وركبوني إلى قرية المشنف ثم إلى العجيلات، وكان محمود أبو يحيى يداهمها مع عصابته.. كان فارسًا همامًا مات في فلسطين في ثورة الست وثلاثين.. تمنيت أن ينقذني ولكنه تراجع أمام القوة، وتلفتُّ حولي فرأيت ربعي الذين كانوا معي وهم مكتفون أسرى، فضربت رأسي بالحيط حتى أغمي عليّ.

سفَّروني إلى شهبا فأدخلوني إلى مهجع المغاربة.. احترموني لما سمعوا قصتي، ثم وضعوني بالحبس جريحًا في ازرع، وبعدها نقلوني إلى المستشفى بالشام. ولما شفيت بعد أشهر، أخذوني إلى الحميدية حيث المحاكمة.

اللّه يمسيك بالخير .. حكموني يا سيدي عشرين سنة أشغال شاقة وعشرين سنة نفي في الغويانا الفرنسية.

دهري غدرني أصبحت أنا وحيد　　　ياحيف على عمر مضى وأصبحت بالسجن

اطلب إله العرش الواحد الوحيد　　　نعود للديار ويكون عدنا أكبر عيد

اصطف الجنود، وتقدم اليوتنان والكولونيل فقطعوا أزراري.. همس في أذني اليوتنان: اطلب السماح من الكولونيل بدبرك، فرفضت.. رفع الكرباج وضربني على وجهي.. ثم سفروني إلي بيروت وكان معي محمود نعيم وأربعون شخص غيره..تذكرت أهلي ووطني وأمي وبكيت.. وضعت يدي على حائط السجن وخططت بالسكين:

«أنا حمد ذياب من السويداء جبل الدروز، أرجو كل قارئ أن يدعو لي حتى أرجع إلى أرض الوطن».

يا حسرتي ناحت علينـــا النايحـــة والعين تبكي والمـــدامع ســـايحة

من بعد طيب العيش والماء الزلال صرنا بنشرب من البحور المالحة

قيدونا وأخذونا إلى المركب.. صرت أنظر إلى الشط.. لم يكن مخِّبر من ربعنا أبدا.. أمسكت المحرمة ولوحت يها وتخيلت أمي واقفة.. كانت المسكينة تدفن أخي الثاني الذي مات، وتبكي أبي الذي مات أثناء الثورة أيضًا ولم يبقَ لها غير البنات ورضيع وأنا. كان معي صورة خي محمود، بوستها وبللتها بدموعي وحملتها على قلبي عشرين سنة في المنفى.

نزلنـــــا بالمراكـــــب واعتلينـــــا وبحور مظلمـــة وحاطـــت علينـــا

وكنـــا بـــسور ومـــسيَّج علينـــا انهـــد الـــسياج وداســـونا العـــدا

وصلنا إلى مرسيليا يا سيدنا ومنها إلى سجن بحري فظيع.. جعلونا نعمل بشباك البحر مع عصايتين.. وكان الجلد والضرب هما لغة التفاهم بيننا.. قعدنا تسعة أشهر بالسيلول، وكل منا بغرفة متر بمتر .. وكانت أبوابها تغلق كلها بقيد واحد.

نقلونا إلى بلد ثانية «سان مارتان دوبري» وأعطونا لباسًا مثل القرود . كنا من كل الأجناس: سوريين ومراكشيين وتونسيين وطليان وألمان وإسبانيول وصينيين وبلجيك وفرنسيين محكومين.. لقد كانت وجبتنا تعد ألف وسبعمية جاؤوا من كل الدنيا إلى جزيرة اللعنة الأبدية جزيرة الشيطان.»

سكت حمد ذياب وغامت عيناه.. كانت ملامحه تتهدل وشارباه اهتزا في بؤس كمن يبعد عن ذهنه أشباحًا راعبة تطارده.. وسمعت في تلك اللحظة شهقات عميقة.. لقد كانت أمه تحاول كبت دموعها.

«هل سمعت بالغويانا يا سيدنا؟ أنت تلاحظ أنني أرتجف.. إنها بلد ملعون مطعون لا يمكن أن يعيش فيها انسان.. كانت الأمطار تنزل عشرين

يومًا كاملة كالسيول مع أن درجة الحرارة (٤٠) شتاء وخمس وخمسون صيفًا. كان السجناء يموتون تحت ضربة الشمس مثل الذباب.. الأحراش والأخشاب والحشائش السامة في كل مكان.. فيها قهوة وموز ومطاط وكاوتشوك، وسكانها سود عراة تمامًا يخافون من البيض خوفًا شديدًا، وكان الفرنسيون يتسلون باصطيادهم بالبنادق.. كان عندنا ضابط يسجل في مفكرته بفخر عدد السود الذين يقتلهم يوميًا. عندما تركت الجزيرة كان الرقم ٤٣٠ رجلاً.. أما الحشرات.. فقد كانت كثيرة وكان هناك .. حيايا.. حناش، نمور، أسود، بعوض!!. أعوذ باللّه.. جهنم على وش الأرض.

وصلنا بـــلاد جـــدي لـــم وصـــلها وشفنا وجوه لم نعــرف أصـــلها

وبـــلاد العـــرب لازم نوصـــلها ونـــشوف العـــدا يـــوم اللقـــا

عندما وصلت كان وباء فظيع في الجزيرة.. مات منا العشرات.. وفرقنا وبدأنا العمل.. أتعرف ما هو الشغل؟ هناك ثيران قوية جدًا يسمونها «الباكور» تجر الأخشاب.. استغنوا عنها ووضعونا مكانها بالفدان.كنا نقص الأشجار ونحملها على أكتافنا عشرين وثلاثين كيلو مترا إلى النهر.. ألبسونا القشط والحياصة.. وكنا نمشي الواحد إثر الآخر بحملنا الثقيل.. واحد اثنين.. واحد اثنين ونجر الخشب نحو النهر والأحراش كلها هضاب ومنحدرات.

وذات مرة ونحن ننزل هضبة وقعنا. كنا اثني عشر شخصًا نحمل شجرة كبيرة.. وجرتنا نحو الوادي.. وقتل منا أربعة وسحقت رجلي وهذا هو سبب العرج الخفيف الذي تراه.

ولكن هذا الشغل سهل بالنسبة لجر عربات الحديد.. هناك عربة تمشي على خط حديدي وفوقها كرسي، وكان لها عصا تسع اثنين من الذين يجرّون، فكانا يدفعانها مئة كيلو متر تقريبًا.. وإذا ماتا يبدلان.. لقد كانوا يوفرون المازوت بهذه الطريقة.

ويومًا بعد يوم.. وشهر بعد شهر .. وسنة بعد سنة.. أخذنا نشتغل، كنت أعمل بكل همة حتى لا أضرب.. إن ضربة واحدة كانت بالنسبة لي إهانة دونها الموت.

والدهر منا ممـــسكا بالتلابيـــب   واللّه رحمنا بالنفوس الكبيـــرة

وكان الحاكم العام يتبدل كل سبعة أشهر، وعندما جاء الحاكم شانيل بزوجته إلى الجزيرة رأتنا واقفين ذات يوم نستريح.. قالت له وهي تبكي«أنظر إلى هؤلاء البؤساء يا شنيل» فأسرع بفك حياصات الثيران وارتحنا من وقتها من «شغل البقر».

وكان معي من الجبل حسين العاقل، جاء بعدي إلى هنا وهو الآن يعمل عتالاً على بور بيروت، وكان معي يونس جربوع.. مات المسكين هناك، وشكيب عبد الصمد من بعقلين من لبنان، وكنا نلتقي كل خمس سنوات مرة. كنت أعيش على أمل واحد.أمل أن أعود للوطن، وأرى أمي وإخوتي.. كيف أخي الرضيع الآن؟ هل هو حي؟ سأرجع وأقضم حجرات الجبل كالحشيش.. لقد انزويت محاولاً ألا أغضب هؤلاء الوحوش .. فالغضب معناه أن يؤتى بالمغضوب عليه،، فيأخذ مجرفة ومعولا ويقال له احفر هنا.. حتى يحفر قبرًا على قده، فيقتل ويدفن فيه، ويكتب عنه أنه مفقود.

كنت أعمل، كما قلت، بهمة ونشاط كالآلة.. وفي ١٩ نيسان ١٩٤٠ أخرجوني من السجن وحلمه الرهيب وبدأت سنوات النفي.. ولكن عفي عني بعد الحرب الكبيرة.. استطعت أن أوفر كام مصرية من شغلي هناك وساعدني صاحب اسمه حسين محفوظ من جبل الزاوية من قرم الجوز.. فقد عمل بعد انتهاء محكوميته بتجارة القماش، وتزوج من امرأة يابانية مسلمة من الجزيرة، فأعطاه أهلها المال وأكرموه.. فأعطاني ٤٠٠ ليرة لأستطيع الرجوع إلى الوطن .. هل أرى الوطن من جديد ؟ وبدأ قلبي يخفق.

وقلبي يرفرف مثل جنح الحمـــامي وجسمي نحل وغديت جلدا على

كنت أخاف أن أموت هناك في الأرض الملعونة، وأبحرت وأنا غير مصدق، أتلفت إلى الوراء وأقيء دما، متمنيًا أن يسكت عني الدهر لحظة واحدة.

علامك يـــا دهـــر حليـــت برمـــة دواليبـــــك عالمـــــسكين برمـــــت

يا ويلي من الحبل لو حـــل برمـــة ياويلي من الدهر لـــو انطـــا قفـــا

وصلت إلى مرسيليا.. كان على الرصيف باخرة ذاهبة إلى الغويانا وكلها جزائريون ومراكشيون وتونسيون.. صرت أبكي لهم.. صاروا يسألونني عن الغويانا ويطعموني ويسقوني.. سألتهم عن بلادي فقالوا أنها صارت مستقلة فأخذت أضرب رأسي بالجدران وأقبلهم وأدعوا لهم بالخلاص.

وعندما وصلت إلى باريس، ذهبت إلى القنصل اللبناني واسمه عدنان الداعوق أعطاني مالاً وتعرفت هناك على مراكشيين فنزلت عندهم.. كانوا يكرمونني ويتأثرون لقصتي.. قالوا لي أن هناك شحنات كبيرة من أبناء وطنهم ستنفى إلى الغويانا لأنهم مجرمون سياسيون.. وسألني واحد منهم عن أخيه المنفي فلم أعرفه.. ثم ركبت البحر.. وداعًا أيتها الديار اللعينة.. وداعًا يا مستعمرين.. وداعًا يا مصاصين الدم واتجهت الباخرة إلى بيروت، إلى بلاد العرب التي صارت حرة..

عندما وصلت إلى بيروت.. لم أستطيع النوم طوال الليل.. لم يقبل صاحب الأوتيل أن يأخذ شيئًا.. جاءني محمد عبد الكريم، صديقي في المنفى، وقال وهو يبكي.. تصدق يا حمد أنّا في الوطن؟ ما جاوبته بغير الدموع... لا واللّه ما صدقت رغم أني سمعان اللغة العربية.

ومنذ الصباح ركبت إلى الشام.. رأيتها متغيرة كأني لم أعرفها.. لم يكن أحد في كل الجبل يعلم بخبر عودتي.. ما قدرت آكل لقمة واحدة.. درت

ودرت حتى سمعت لغة درزية.. وإذا بثلاثة من المقرن القبلي.. وإذا بشخص يسمى مرشد بن إبراهيم المرشد قلت له .. منين أنت ؟ قال من السويداء.. فخفق قلبي وهجمت عليه بوسه.. وقت عرفني تلمسني من دون ما يصدق.. قلت له منين عرفتني يا صاحب؟ قال حكا لي بيي عنك. بكيت.. هذا جزائي إذن.. بكيت من الفرح.. الناس هنا ما نسيوني في وطني ويحبوني.. ويذكروني.

دلني على أوتيل حسن سنيح.. وإذا بجماعة كثيرين جالسين.. عانقوني.. ورأيت بو نايف علي عبيد يمسك بكفي ويرص عليها.

رجع كل الماضي إلى ذاكرتي.. قلت لهم يا صحاب فيه مين يخبرني عن خي سلمان ذياب؟. سلمان الذي تركته رضيعًا يوم نفيت؟ قالوا لي هو جندي في فوج المدرعات.. فلم أصدق.

سهرت إلى الصبح.. وشربت ثلاثة باكيتات تاطلي غليظة، وكنت أقول: هل أنت طيب يا خي سلمان.. هل أرى وجهك؟ ذهبت في الصباح إلى سوق الحميدية.. ثم إلى القابون.. وكانت الأخبار قد وصلت، فخبروا أختي في حمص، وكان زوجها عريفًا هناك.. وعندما رجعت إلى الأوتيل، إذا بحرمة ترمي بنفسها علي.. وإذا هي مرت عمي.. قالت أخوك سلمان ينتظرك، والتفوا حولي مثل القرندس.. وإذا باثنين من العسكر.. عرفت أخي على الفور من لاحته.. ضممته بشدة وبست شواربه ولمست على جسمه، كان شب يملا العين.. حبست دموعي حتى لا يشعر بضعفي.. صرت أرجف مثل تبنه بالمهبوب.. نمت وإياه.. وكنت كلما أفقت أرى أخي ساهرا.. يتأملني ويدخن.. شوبك يا خي سلمان؟ قال مش مصدق انك خي حمد!! قلت بكرة بتعرفني يا خي أمك.. وصرت أقول له العلامات التي أعرفها.. واسألوا عن أحوال الجبل وسورية وبلاد العرب.

وصلنا إلى السويداء.. كنت لا أستطيع الجلوس على مقعد السيارة، وإذا بالأولاد يلتفون حولي ويهزجون:

وصلت إلى الدار وارتميت على أمي ربع ساعة.. عرفني الكبار والصغار أنكروني.. والتمَّت العباد عليّ.

كان هم أمي مسألة الضنا والولاد فرادت تزويجي.. قالت بدي أفرح بولد منك قبل ما أموت.. قلت لها أني لا أنفع يا أمي.. صار لي خمس وعشرون سنة ما قربت فيها على امرأة.. ولكن كما ترى مشي الحال وجاء مخدومك صابر.

بعد عشرة أيام بعث لي خبر سلطان الأطرش..أعطاني مكتوب توصية، ثم عينوني آذنا بميت واســطــة.. آذن بثمانين ليرة سورية.. نعم يا سيدي كما ترى... وجهي انصفر .. آذن؟. كان لازم ارتاح لكن البيت يحتاج للعمل.. قبلت.. وما شاورت أحد .. ولم أتظلم ومثل ما قال المثل: شو علمَّك عالمر؟ قال هلّلي أمرّ منه..».

* * *

الريح لا تزال تعصف بالخارج.. وهسيس الثلج مكتوم أصم، والخشب يطقطق ويطقطق، وينشر دخانه رائحة حبيبة فطرية.. ما أقرب الأبعاد.. ثمة أشخاص يتقدمون، وصوتهم يطعن قلب الليل كسكين مرهفة.. كان صوتهم ينفذ قويًا عميقًا خلال المصاريع الخشبية المتخلعة التي كنا وراءها.. كانوا يتحدثون بمرارة شديدة، ولكن كم كان هذا الصوت حقودًا وقاسيًا ومليئًا بالعزم!!.

١٩٥٧

شتاء قاسٍ آخر

يا إلهي ما أطول ليل الظلم،
وما أقسى شتاءه .

(هايني)



أنا شخصيًا أحب شجرة الليمون اللطيفة التي تعيش في بيتنا، ولا أظن أنني عقدت صداقة مع شي ء في الدنيا، على مثل المتانة التي عقدتها معها. كانت تشبه أميرة رقيقة من الأميرات اللواتي كنت أقرأ عنهن في القصص، أميرة حقيقية شامية، تجلس على أريكتها وقد تدثرت بحرير أخضر.. النوافذ مفتوحة على جبال خضر، والكتاب الذي بين أصابعها النحيله، موشح بضفائر من الديباج الأخضر تنوس ثم تتكىء، في دعة ورخاوة على أطراف معاصمها التي تبرق باللآلىء.

كانت أرق من أن تتفلسف، بل كانت تعيش ببهجة فقط، والجواري من حولها يدخلن ويخرجن في خفة الطيف حتى لا تؤذيها الضجة، ويدثرنها حائرات من العطر الزنبقي الأريح الذي يغلف الغرفة بسحابة شفافة قوس قزحية، وحينما كن يغلقن النوافذ في الليل الندي، حيث لا تزال أغاني الصنوبر الحزينة تنوح في مملكة الظلام، يتركن السجف مرفوعات.. لنتابع تحديقها وتأملها في النجوم بحكمة..

يا لها من أميرة حقيقية!!

كانت أميرتي ضعيفة تترنح تحت ضربات الريح القارسة، يا لهذه الغول اللعينة التي تجلد أوراقها فتنتزعها في وحشية، تاركة دمها الأخضر يتجمد على أطرافها دموعًا بلورية.

وتروح بقسوة عاشق همجي يعري حبيبته بأن يمزق ثيابها قطعة قطعة..تدس أصابعها المثلجة المدببة الأظافر تخمشها ووتتغلغل في ثناياهافي نهم وغلمة فترتجف وتقاوم ببسالة . ألم أقل لكم أنها أميرة حقيقية؟

أخذت أرقبها بلهفة وهي تبرعم براعمها الأولى، يا للأم الصغيرة العزيزة!! صحيح أنها صارت تبدو متثاقلة تحت تأثير الحمل، ولكن دلالها

كان ينتفض في الورق استعلاء وبريقًا وخضرة.. لكم أعبد اللون الأخضر.. هل كان ربي يتعب كثيرًا لو خلق لي السماء خضراء؟. وأصبح صباح وإذا بالبراعم تنعقد على حبيبات صغيرة، والأرض تحت الأم الجميلة، مفروشة بأشلاء الزهر الذي مات ليعطي الحياة.

في ذلك الصباح ابتسم أبي ابتسامة صغيرة، ونظر إلى عيوننا بهدوء ثم هز رأسه، كنت في أعماقي أهزج انتصارًا فقد كان أبي يحتقر الليمونة وينعتها بالطفلة المدللة، وكان يراقب نموها وصراعها لاعتناق الشمس بلا مبالاة تحز في النفس.. لم أفهم أبي.. لماذا لا يحب أميرتي الحلوة؟ هل يمكن أن يشاهد إنسان غدائرها المرسلة، وأوراقها المشتعلة خضرة، وزهورها التي تقطر بالعسل ولا يعشقها حتى الموت؟

كان أبي يقول:

- إن الليمون ضعيف رخو لا يقاوم العاصفة. ويكفي سوط ريح خفيف ليجعل شجرته ترتجف ذعرًا، إنها مسلولة مريضة في حاجة دومًا إلى من يساعدها ويسندها، وإذا جرحت سوقها جرحًا صغيرًا؛ نزفت منها الحياة قطرة قطرة، دون أن تفكر يومًا أن تكظم ألمها وتداوي الجرح وتنتصر. إنها تقف دومًا وكأن صاعقة مرعبة توشك أن تنقض عليها، فترخي أوراقها المرتعشة كأذني حمار ذليل.. وإذا ولدت الليمون لم تعرف كيف تمسك به، إن أطفالها أنفسهم لا يحبونها، وحطبها حينما تموت سريع الاشتعال سريع الخمود كعاهرة محترفة.. لأقل لكم الحق يا أولادي أنا لا أثق مطلقًا بالليمون ولكن انظروا إلى السنديانة.. أية قوة وأي مضاء!!.

كانت الدموع تترقرق في عيني، وأنا أسمع أبي وهو يلوك سمعة أميرتي ويمرغها بالتراب. فأدركت عما يتوجب على طفل مثلي من قوانين الاحترام للأبوة وأنفجر:

- السنديانة؟ حبَّ هذه العجوز الهرمة المتسلطة على الحديقة الخارجية ما تشاء. هذه العاقر المتوحشة القاسية الدردبيس.. ليأخذني الإله العظيم إذا كنت سقيتها بعد اليوم نقطة واحدة من الماء . لقد كانت طول عمرها لئيمة إلى درجة لعينة، كانت تملأ جسدنا بالأشواك، وتضربنا أغصانها بدون لطف على وجوهنا.. إنها من البلاهة وانعدام الإحساس لدرجة أنني حفرت بالسكين اسمي عليها مرات كثيرة، دون أن تصدر منها آهة واحدة!!

إنه من السهل على الإنسان أن يلوك سمعة الأميرات دون أن يترك لهن مجال الدفاع عن أنفسهن. لقد جلدتها بقسوة وأنت تعرف أنها لا تستطيع الانتقام.. يا للعار..

وانفلتُّ باكيًا من أمامه دون أن أدع له وقتًا للجواب، بعد الدهشة الكبيرة التي أصابته، وأغلقت عليّ باب غرفتي دون أن أجيب على خفق الباب مرات عديدة.

وأخذت أفكر في وحدتي:

- كم يشبه أبي هذه السنديانة!! وجهه المجعد وعيناه العميقتان المتأملتان في برود وتدّبر حوادث العالم، وصبره العجيب على تقلبات الدهر ووخزات الأيام، دون أن يرى الإنسان على وجهه أي تعبير عن الأشياء التي تفور في أعماقه، وكرهه للضعف والبكاء، ومبادرته إلى إصلاح ما أفسدته المصائب باحتمال ودأب. كل هذا بدا لي وكأنه قد انشق من ضلع السنديانة، ولم لا يكون كذلك؟ ألم تقل لي أمي أنها وجدتني بين ثنيّات الكرمة المعرشة على سطح بيتنا، والتي لا تنقطع زنابيرها عن قرص العناقيد وإسالة دمها؟ من المؤسف أنني لم أسأل جدتي قبل أن تموت عن المكان الذي وجد فيه أبي وهو صغير، لا بد أنه كان في ضلع السنديانة وما كرهه لأميرتي إلا لرقتها وليونتها وخصبها.

في تلك اللحظة نطّت قطتي من مكانها على الفراش ووقفت أمامي تهز ذيلها وهي تقوس ظهرها وتتثاءب، وتكومت في حجري تاركة العنان ليدي تغوص في شعرها وهي تهرّ في لذة مغمضة عينيها.

– لماذا لا يداعبنا أبي؟ صحيح أنه يحبنا ويحنو علينا، ولكنه لم يلامس شعري أبدًا ويربّت على كتفي كما أفعل أنا مع هذه القطة.. الشيء الوحيد الذي يصنعه، هو أن يعبس في صرامة كلما تندت عين أيٍ منا بالدموع، لقد كان يكره الدموع بقوة، كأن الأطفال هم رجال كبار.. وكان يقول:

– يجب أن لا تبكوا..سيأتي وقت يُعتبر فيه بكاء الأطفال عاديًا.. أما الآن فهو عيب كبير.. يجب أن تتعودوا على الصبر.

وعندما ماتت والدتي.. وملأنا البيت عويلاً وندبًا.. كان جالسًا في حجرته صامتًا، وعيناه عكرتان غامضتان تحدقان في الفراغ، لم تنزل منه دمعة واحدة، هل كان لا يحب أمي حقًا؟ صحيح أنه لم يتزوج بعدها وظل يقدس ذكراها، ولكنني لم أغفر له جموده، وفي الأسبوع الماضي بالذات.. نهر أخي عادل نهرًا شديدًا لأن قطعة من الخشب ثقيلة وقعت فوق رأسه فصرخ متأوهًا، فقال له أبي بقسوة:

– لقد أصبحت رجلاً.. والرجل الحقيقي لا يتأوه. وظل يومين لا يكلمه كلمة واحدة حتى كاد أن يمرض.. مسكين..يا رب كم أكره هذه السنديانه!!

* * *

وعندما اقترب الشتاء تدلّت ليمونات أميرتي القليلة صفراوات شفافات مليئات بالروعة.. كنت أقضي الأصيل دائمًا في تأملها وهي ترقص بفرح مع النسمات الرطبة.. كانت الأميرات الصغيرات يتبادلن غزلاً رقيقًا وعفويًا مع الشمس الغاربة.. وكانت الأم تبتسم في سعادة وجذل، حتى إذا وجدت أن الشمس قد أضرمت في القلوب الصغيرة المتفتحة للنور سعيرًا محرقًا، امتدت

أوراق لامعة ندية ومسحت على الخدود الناعمة بلطف ثم غطتها من عيني الشمس اللتين تبدوان في بعض الأحيان أبعد ما تكونان عن البراءة.

وتقدم أبي من الأميرة يهزها بلطف وينظر إلى السحب في السماء .. ثم قال غامزًا وكأنه يكلم نفسه:

- الشتاء قاس هذه السنة كما أعتقد.. أرجو أن تحتمل الليمونة الصقيع أثناء حملها الأول.. إنها تبدو ،كأنها توشك أن تقع.

وأحسست بكلماته تغوص كالسكين في صدري، ودمعت عيناي فحاولت أن أخفيهما عن والدي الذي كان يتظاهر بأنه ينظر إلى ناحية ثانية، وقلت وأنا أحاول أن أسيطر على أعصابي:

- إنها قوية يا أبي، انظر إلى أوراقها كم هي غضة وفتية وفاتنة.. انظر إلى جذورها الشابة كيف تغوص في أعماق التراب.. انظر إليها كيف تطول قامتها يومًا بعد يوم.. إنها أميرة حقيقية يا أبي والأميرات لا يسلمن بسهولة.

فقال أبي جازمًا:

- إني لا أثق بها..

- ولكنها ستصمد يا أبي.. ستصمد ولن تدع شيئًا يهزمها، إنها جميلة وحصينة، أنظر كيف ترمش عيونها في عتاب وتحتج على كلماتك!!.

فابتعد أبي وهو يقول:

- ساعدها يا بني إن استطعت.. اربط جذعها بحبل وخصرها بحبل آخر ناحية الجدار، وكف عن سقيها كل يوم فإن التربة تصبح هشة سريعة التفتت أمام قرع المطر.

ثم ردد:

- إني لا أثق بها. إني لا أثق بالمدللين الذين لا يعرفون كيف يحتفظون بأطفالهم.

وعندما ذهب أبي ركضت إلى الليمونة احتضنها وأقول:

– ستقاومين.. أليس كذلك يا أميرة؟ أثبتي أن الأميرات ينتصرن على العواصف.. لا تأخذي فكرة حمقاء عن أبي يا صديقة، إنه حنون رغم جفافه، وإذا صمدت هذه السنة، فسيحبك أكثر من السنديانة، وسآتيك بطير من الذهب أتوجك به واجعله يغني لك كل يوم.

وهزت الأميرة أطرافها تحتضنني وتداعب أوراقها وجهي وابتعدت ابتهل:

– يا رب احفظ لي أميرتي.. أنت لا ترضى أن يموت هذا البهاء وأن تحتضر هذه النضارة.. لقد قالت لي أمي أنك جميل تحب الجمال، فاحفظ لي هذه الجميلة!!

وأجابني اللّه بقطرة من المطر .. لقد ابتدأ الشتاء.

* * *

أخذت الريح المجنونة تلطم نوافذ غرفة سهرتنا بقوة عظيمة وتعول أعوالاً مرعبًا. أزحت الستائر وأخذت أحدق في قلب الليل كانت أضواء الغرفة تقع ضعيفة على أميرتي.. ودق قلبي بعنف.. لكأن ماردًا قويًا جبارًا أحاط عنقها بيديه القاسيتين وراح يهزها حتى ينتزع منها الحياة نقطة نقطة. وكانت تترنح وتميل بدون نظام، وليموناتها تتمسك بالأغصان بيأس، أما أوراقها فقد أخذت تتطاير وتغيب في الظلام ريشًا أسود فارغًا. وفي الجذع الطري كانت أصابعها اللطيفة تقبض على التراب باستماته.. وانهمرت دموعي وأضناني العشق والخوف.

قال أبي وهو يمسك بالملقط ويخرج جمر الزيتون من المدفأة ويرصفه في المنقل وتجاعيد وجهه تزداد عمقًا:

– إني لا أكره الشتاء، لأنه رغم ظواهره ضعيف مع من أقوى منه.

قال أخي وهو يتدثر بعباءة أبي في عناية:

- أما أنا فلا أطيقه.. ليخيل لي أن الأشباح تخرج من أوكارها وتروح تلتقط الأنس وترعبهم، بل إنها تجرهم معها إلى جحورها القذرة.. فلا يستطيع الأنسي أن يخرج إلى النور مرة أخرى إلا وقد أصبح شيطانًا مشبوهًا حقيرًا.

فأجاب أبي بتأمل:

- إن الأشباح مخلوقات تستحق الرثاء، وهي لا تستطيع التأثير إلا على ضعفاء الناس ممن لا يملكون أية قوة سوى الادعاء والغرور .. الشبح مثل الضبع يعرف رَجُله، فإذا آنس منه الجرأة والعزم، انفلت منه هاربًا، أما إذا وجده مخلوع القلب قليل الإيمان بنفسه وقوته، سحره وبال عليه.

قلت وأنا أغالب حزني:

- إنه لشتاء قاس!! ترى هل تستطيع ليمونتي أن تهزم الأشباح؟

قال أبي وكأنه لا يعير كلماتي التفاتًا:

- أنتم لم تعرفوا بعد شيئًا من الثلج والمطر والتجمد والرياح. لقد عشتم طوال الأيام الباردة التي سبقت ضمن هذه الحجرة، أمامكم مدفأة عامرة بحطب الزيتون، وتحتكم طنافس من الصوف ومتكآت من جلود الغزلان.. أنا خائف جدًا يا أولادي من أن يداهمكم الشتاء ذات يوم، وأنتم خارج هذه الحجرة فتقفوا عارين مقرورين أمام العاصفة كما تفعل السنديانة في الحديقة الخارجية، وعند ذلك لا يعلم إلا الله ماذا ستفعلون.

قلت مذكرًا:

- وماذا عن الأميرة يا أبي؟

سكت أبي قليلاً وغامت عيناه كأنما ينظر إلى شيء وراء الابعاد وتابع دون أن يرد على سؤالي:

- عندما ينزل الثلج كبيرًا بحجم راحة اليد...

رفعت الستائر مرة ثانية فرأيت بقعًا بيضاء تنداح في الهواء وتتراقص في العتمة.. كانت أميرتي قد اختفت تمامًا تحت رداء سابغ البياض القاتم فصرخت مقاطعًا:

- إنه الثلج يا أبي.. قطع كبيرة بحجم راحة اليد إنه غطى.. وخنقتني العبرات!!

فهمهم أبي في عبوس وهو يسعل:

- ليرحمنا اللّه.. هو ذا شتاء قاس آخر.

نظرت إليه طويلاً.. ياله من عجوز غريب.. لكأن قوىً سحرية تنفجر في أعماقه.. كنت أرتجف ذعرًا وأنا أتصور الثلج يغمر أميرتي ويقتل فيها حرارة الحياة، ولكن أبي بدا وكأن أي شيء في العالم غير قادر على ازعاجه.. كان جالسًا وراء مدفأته والملقط يتحرك في يده على المنقل في مهارة ملاح يدير الدفة.. ولكنه اليوم كان يفعل ذلك ببعض الاضطراب. سألني:

- هل تقول أنه ثلج بحجم راحة اليد؟

كانت النار تنزلق وراء الخشب الميت وتلفه في تحلُّقٍ وقد احمرت عيناها شهوة ودماء وقضقض الخشب وانفتح قلبه.. وفجأة تعثر الملقط في يد أبي بطرف المنقل فانقلب الجمر على السجادة الثمينة، وهرول أخي ليأتي بالرفش الصغير فلم يجده، وحلول أبي رفعه بالملقط فتفتت، وانتشرت رائحة حريق خانقة، فمد أبي يده ورفع الجمر بين أصابعه فصرخنا بفزع:

- حاذر يدك يا أبي..

ولكن أبي تابع العملية بسرعة وصبر، فاركًا يديه بعد كل جمرة وأخذت أصيح مروَّعًا:

- إن يديك تحترقان يا أبي لقد تفجر الدم منهما.

فلم يردّ.. لمّ الجمر كله دون أن تتقلص حتى عضلات وجهه حتى إذا انتهى، رفع وجهه إلينا وغالب ابتسامة مصطنعة ولهث:

- لا تراعوا.. من يلعب بالنار يتوجب عليه أن يحتمل حرق أصابعه..

وأخرج منديله وفتح كفيه ليربط مكان الحروق، كانتا مسلوختين بشعتين ملطختين بالدم..

لم أحتمل المنظر .. فأغمي علي.

* * *

يا رب ما أشقاني.. ماتت أميرتي الجميلة ودفنت دون احتفال أو كفن من حرير. أخذتُ تحتَضر أيامًا طويلات دون أن تساعدها توسُّلاتي على الحياة.

تساقطت أوراقها الخضر بعد أن اصفرت وجفت وظهرت عروقها.. والليمونات الصفراوات تهاوت مشوهة مشقوقة البطن وقد سال دمها على الأرض، منثورة مشوهة كجنين مجهض.. وبقيت أميرتي عارية كما خلقها اللّه بشكل مخجل، مقرورة كعصفور فاجأته حياة فأصبح هيكلاً مجمدًا من الرعب..طلل بال أخذ العنكبوت ينسج عليه خيوطه.. ولم تعد العصافير الغادرة تمن عليها بنظرة واحدة.

وذات يوم هوى أبي بفأسه عليها، فانقصفت بيسر شديد كقطعة يابسة من الشوك.. أخذت أراقبه وأنا أشعر بفأسه يحتزُّ شراييني والدموع تنقط في قلبي دامية ملتهبة.. وعندما انتهى من المذبحة ترك أوصالها المقطعة الميتة ومال إلي معزيًا:

- لا تحزن يا ولدي.. إنها ضحية مسكينة من ضحايا الشتاء لقد قلت لك من قبل إنها عاطفية شديدة النعومة.. إني لا أثق بالليمون.

فأجبته في حقد وتشفٍّ:

- وسنديانتك العظيمة أيضًا فطست!! ألم تر كيف جفت وتساقطت أوراقها.. سأقطعها غدًا كما قطعت أميرتي.

قال أبي بضيق:

- لا تؤذ نفسك يا بني.. إن حطب السنديان صعب القطع.. وقد تجرح نفسك.

- لقد ماتت وأخذ الشيطان روحها.

قال أبي وهو يبتعد مختصرًا النقاش وقد بدت في صوته رنة قلق حاول أن يخفيها:

- إنها معتادة على مقاومة الشتاء والعاصفة. وأظن أنها ستعيش، إنها سنديانة طيبة.

أخذت أرقبها كل يوم .. لم يكن في جذعها الأبرش وأغصانها الجرداء الجريحة أية بادرة من الحياة!! ولكنها كانت توحي لي دومًا بالكبرياء.. وفي الربيع استيقظت باكرًا وركضت إليها.. فرأيت أبي واقفًا وكأنه قطعة منها.. ورفعت نظري إلى الأغصان فصعقت!! يا للعجوز المتصابية اللعينة. . إنها كالقطط بسبعة أرواح. ففوق كل غصن كان عود طري أخضر مليء بالزغب والورق الصغير ينتفض ويشرب من ضوء الشمس.

لم يلحظني أبي.. أخذ يربّت بحنو ووجد جذعها ثم استدار نحوي.. وخيل لي أن دمعتين غبراوين كلون السنديانة تدحرجتا من عينيه الصارمتين فامتصتهما سريعًا تجاعيد وجهه كما تمتص الأراضي العطشى صيِّب السحاب.

أواخر ١٩٥٨

سريري الذي لا يئنّ

(١)

يا له من عصفور عنيد لقد فضل الحرية والتعب على الراحة والذهب

(بوالو)



ها أنذا وحدي من جديد..

مددت يدي وانتزعت السيجارة الأخيرة، وأخذت أدخن باستغراق وأتأمل الغرفة حولي.. هذا الضوء الخفيف الكئيب الذي لم أتعوده، يجعلني أفكر جديًا بأن أغمض عيني وأحاول أن أنام.. ولكني شعرت بأنه يجب أن أفكر، وأن أفكر تفكيرًا عميقًا فيما انتهيت إليه، يا للّه!! ما جدوى كل ما فعلته إذا كنت لم أتعود، أن أغضي بصري عن هذا السقف الملون العجيب، وأن لا أشعر أنني أنام على سرير يئن تحتي كلما قمت بأقل حركة ممكنة؟

كانت موسيقى راقصة بعيدة تتناثر إلى سمعي من نادي الشرق الذي قالوا لي أن عينه لا تنام قبل صياح الديك.. ولكني مع ذلك كنت أحس بأنني حزين .. بل بائس..

هذه الكلمة التي فقدت مدلولها تذكرني دائمًا بنفسي. بائس؟.. وماذا بعد؟هل أطلب لنفسي رثاء أحد؟ ها هنا في الغرف حولي، أنفاس تتردد بانتظام ورتابة،.. رئات تتمدد وتتكمش وتحيا، وأدمغة ترى الآن، مئات الأشياء الملونة المجنحة التي تنطفىء في الصباح مع لذعة الشمس.

لقد نظروا إلي بريبة بادئ الأمر، وتفحصني الأولاد في قلق، وانتحى الأب بي ناحية، وأخبرني وهو يسعل ويحاول أن لا يحمر وجهه، بأن بيته شريف وأنه يريد أن يبقى شريفًا.. ثم أفسح لي الطريق ليدلني على الغرفة.

لا بأس.. فأنا أعبد الأطفال لدرجة الجنون.. وأنا أعلم تمامًا، بأن أيامًا قليلة، ستجعل من هذه الوجوه الهزيلة الساذجة، تتهلل عندما يظهر شبحي على الباب، وسأعقد تلك الصداقة التي أعرف يقينًا أنها لن تتعدى ذلك اليوم، الذي أحمل فيه حقائبي وألوِّح بيدي مودعًا، وأنا أحاول أن أبدو رومانتيكيًا حقًا.

أخذت أتأمل الغرفة من حولي والموسيقى البعيدة لا تزال تتصاعد مع أغنية بلدية من مذياع مجاور.. هل سأبقى في هذه الغرفة حقًا؟هل سأنام وأستيقظ، وأغسل وجهي ويدي، وأمشط شعري، وآكل، وأكتب.. مع هذه الجدران التي شهدت قبلي ألف وجه غريب وهي ساكنة محدقة بعينيها البلهاوين..

قلت لهم إني سأشاهد غرفتي قبل أن أرحل، فسكتوا جميعًا، وقالت أختي مديحة: إنه ليس فيها أحد، فاندفعت أرتقي السلم إليها.. آه، يا غرفتي العزيزة.. يا للموجة الباردة الرطبة التي أحسستها على وجهي وأنا أراك فارغة!! تحتضنين بضع أوراق متناثرة هنا وهناك، في فوضى وإهمال، وجدرانك التي كانت ناصلة، أصبحت أشد ميلاً إلى القتامة..

هنا كانت الطاولة.. وهناك السرير الخشبي الذي كان لا يئن تحتي أبدًا،. وفي الزاوية، كنت أمد الكتب، وهناك.. كنت أضع وجهي على بلاطك الأملس في أماسي الصيف، وأحلم بألف حياة حرة عادلة..

أبدًا يا غرفتي العزيزة.. أبدًا لن تقوم صداقة بعد، بيني وبين أية غرفة أخرى في العالم، ولسوف أذكر إلى الأبد تلك الجدران التي كانت تقف صامدة في وجه الشتاء،،تردها عني بصلابة ووقار.

ليست غرفتي فقط هي التي ودعتني !! لقد شعرت بالبيت الفسيح كله يعتريه وجوم وصمت... الأرض.. والياسمينة.. والفلة التي وضعت لها السماد منذ يومين.. وحتى القطتان الصغيرتان اللتان كانتا لا تفتران تتصارعان وتنطان.. بدتا هادئتين.. وأعينهما المدورة الجميلة مثبتة على شيء مجهول.

كم من الأشياء التي تبدو بسيطة سريعة.. لا تنفك تصبح معقدة متشابكة.. لقد كنت أريد أن ينتهي الأمر بهدوء.. ولقد هيئت لذلك كل شيء ولكنهما .. مع ذلك، أخذتا تبكيان كثيرًا .

أقسم أنني حاولت أن ألم كتبي دون اكتراث، وأن أقسر نفسي على الثبات، ولكن هذه الدموع.. كيف أستطيع أن أقاوم الدموع؟. ما أشد ابتذال هذه الكلمة!!. ولكنها، مع ذلك، تلخص الحياة الشقية.

أدرت وجهي حتى لا أرى.. ولكن علام المقاومة؟ أخي.. أخي الصامت دائمًا، أخذ يبكي أيضًا.

خيل إلي أن التحدث عن أشياء كثيرة تافهة، قد يجعل من العبث التفكير في الحزن.. فأخذت أثرثر، وإن كان التأثر يعلو وجهي.. فتحدثت عن التفاني في سبيل المبدأ، وأن من الواجب أن نضحي بأشياء عظيمة كي نصل إلى غايتنا.. وقلت أن من الطبيعي أن انفصل مادام هذا الاختلاف الهائل يسمم حياتنا، ويجعلها عشرين حياة في سجن مظلم رطب. ولكنهم، مع ذلك، أخذوا يبكون كثيرًا.

انقطعت الموسيقى الآن، وخيل إلي أن الضوء اشتذ قليلاً.. ولا تزال الأنفاس المختلطة مع سعلة ضعيفة وبكاء طفل صغير تصل إلى سمعي.. لابأس، ليئن هذا السرير تحتي ما شاء، فإن كنت لا أستطيع أن أدخن سيجارة أخرى فلا أقل من أن أغسل وجهي الملتهب بالماء البارد.

قلت لهم:

- لا تنسوا فرشاة الأسنان!!.

فقالت مديحة بصوت خافت:

- لقد وضعناها!!.

وقالت سعاد، أختي الصغيرة، وأنفها اللطيف يلمع في النور:

- لقد كوينا لك ثيابك.. وأصلحنا لك الجوارب.. أما القمصان، ثم سكتت فجأة واستأنفت بكاءها..

بدت الأمور معقدة حقًا.. وكانت تختلط في كثير من السرعة وكنت أحس بألم شديد في معدتي.

- لا تنسوا شيئًا .. أرجوكم.. لا أريد أن أرجع مرة أخرى!

قالت مديحة:

- عندما تتسخ ثيابك.. ابعثها إلي.. أرجوك يا أخي.

وقالت سعاد:

- من أين ستأكل يا مسكين؟

من أين آكل؟ هل فكرت بهذا حقًا.. الأكل.. الكي.. الثياب.. القمصان القذرة.. هذه الأشياء التافهة لك أفكر فيها مطلقًا.. ولكن لماذا التفكير؟ . لا يمكن التراجع الآن.

- لماذا .. لماذا فعلت ذلك؟!

قالتها مديحة في شبه صرخة.. لقد وجدت في النهار مئة سبب لتبرير ما فعلت..أما الآن فقد شعرت بأن أي شيء في العالم لا يوحي بالحماسة.. نعم.. لماذا فعلت ذلك؟

ولم أستطع أن أتصوره إلا وهو يبكي.. لا أعرف كيف حدث ذلك.. لم أر أبي سوى مرات معدودات وهو يبكي، وقت ان ماتت أمي، ووقت أن كنا نقرأ له المعراج وسورة يوسف، وأخذت تطاردني صورته، وقد تدحرجت من عينيه العميقتين، الصغيرتين، دمعتان كبيرتان.. ورغم حاجبيه الكثيفين اللذين يغطيان عينيه، خيل إلي أنه ينظر إلي في حنان وحب، اواه يا أبي لماذا خلقنا هكذا؟

قلت بهدوء:

- كيف .. هو ؟

فلم يجبني أحد وتوقف خشيش الأغراض بين يدي أخي وهو يحشر الكتب في الحقيبة، وأعدت بصوت واضح..

- هل نام؟

فأومأت مديحة وهي تمسح أنفها وفمها بمنديل ثم قالت بلهفة:

- هلا حاولت. مرة أخرى؟

- لا يمكن يا حبيبتي .. لقد انتهينا ألا ترين كيف طردني؟.. أرجو أن يعيش مستريحًا!.

ثم قلت بصوت جاف:

- ليحم روح أولاده ما شاء من كل الأفكار الجديدة فقد ذهب الغول.

قال أخي بصوت عاتب:

- أنت تطرفت كثيرًا يا حامد..

وقالت مديحة:

- لقد كان يجب أن تدعه يعيش في هدوء.

يا إخوتي.. صحيح أنكم بكيتم كثيرًا ولكن ما فائدة ذلك إذا كنتم لا تريدون أن تفهموا؟

لقد وقفتم - كالعادة- جبهة واحدة حتى في ساعة الوداع، عندما لمستم نغمتي القديمة التي تمس معتقداتكم.. هذه الحزمة القديمة البالية من الجنون.. تمامًا مثلما كنتم تقفون متحدين أمام الابن الكافر الخطر، الذي كنتم تدعون له في صلاتكم مبتهلين، ليندمج في هذه المجموعة التافهة من النفوس المستسلمة للخمول، والتي تعلق كل شيء بإرادة اللّه ومشيئته.. إني أعرفكم! أعرف تمامًا وجوهكم الخائفة المترددة حينما أتحدث إليكم، وأنتم تديرونها حولكم في قلق لئلا تُضبطوا وأنتم تتحدثون معي.. ليس سهلاً أن تُفك أدمغتكم ويُعاد تركيبها من جديد.. أن هذا يحتاج إلى وقت طويل، كنت أريد أن أقول لكم أشياء كثيرة مؤثّرة.. وأن أقنعكم أن في العالم أناسًا طيبين، بسطاء . مظلومين.. يجب أن نفنى في سبيلهم، صحيح أنكم كنتم في بعض الأحيان تقفون في صفي، عندما اصطدم مع أبيكم، ولكني كنت دائمًا في نظركم ذلك الضال، العاق، المطارد.. الذي يحتاج إلى عفو اللّه ورحمته.

قلت لهم وأنا أغالب آلام معدتي وأشعر بحزن مغلق:

- هل .. انتهيتم؟

فلم يرد أحد، وشعرت بالجو مشحوناً بأشياء غامضة حولي توشك أن تنفجر، فأدرت وجهي للحائط واستعددت للحظة الحاسمة.

- هل تريدون شيئاً؟.

فهزوا رؤوسهم بالنفي وتشاغل أخي بقضم أظافره.

- لن أراكم كثيرًا، ولكنني سأزوركم حتمًا،، عسى أن يكون ذلك.. في السنة القادمة.

كلمة بسيطة، عادية. تجارية، ولكن الجو تحول فجأة فأخذنا نبكي كلنا معًا.. وأخذت أنشج بعنف كأنما أعوض عن كل ما في قلبي من أسى، ثم رفعت الحقيبة، وسرت نحو الباب.. لقد كان من العبث أن أقطع هذا الشيء الحار الذي يحرق وجنتي ويذوب ملحًا في فمي، وشعرت بيد أختي الصغرى سعاد تجذب كمي فأفلت الحقيبة ثم أخذت أعانقهم وأقبلهم..

- سامحوني يا أخواتي سامحوني.

ثم هربت نحو الباب وأنا أسمع أختي تشهق.

- ليغفر لك اللّه!!..

ليغفر لي اللّه؟ لو قالتها في مناسبة أخرى لغضبت.. ولكني في تلك اللحظة، أحسست أنني في حاجة إلى أي شيء، ولو وهم مساعدة..

وعندما اندفعت العربة، وسياطها تفرقع على ظهري الحيوانين الأخوين، كانت ذاكرتي تختزن كل الصور المؤثرة التي تجاهلتها في الداخل.. وجه مديحة الشاحب، وتقاطيع أخي المعروفة الحزينة.. وعينا سعاد اللتان تغطيهما الدموع.. وحاجبا أبي الشائكين.. لقد كانت كل صورة، تدفعني دفعًا لأن أبكي طويلاً.. وماذا بعد، هل البكاء من الضعف بالدرجة التي يتصورها الكثيرون؟

والتفت الحوذي بوجهه الغامض يمعن في النظر، وأخذ يلتفت بحيرة مرة بعد مرة، فلا يجد منفذاً لحيرته سوى أن يسعل وأن يفرقع بسوطه في الفضاء.

يا أخي الحوذي، ترى بماذا كنت تفكر في هذا الشاب الذي كان يساومك قبل لحظات بعناد يريد أن يمتص آخر قطرة من ربحك الهزيل، حتى إذا ما وصل، اعترتك حيرة، وترددت طويلاً قبل أن تمد يدك المعروقة، لتأخذ الأجرة؟!

ها أنذا وحدي الآن في غرفة راقبت جدرانها البلهاء، ألف وجه غريب..انظر إلى حوائجي المبعثرة، الساكنة تحت الضوء الكامد.. وأتلمس للمرة العشرين علبة السجاير.. ناسيًا أنني أحرقت آخرها قبل ساعة. وحولي رئات تتمدد وتنكمش وتحيا، تقص معجزة الإنسان.. وأصداء الموسيقى البعيدة، لا تزال تشق طريقها القصير إلى سمعي، والليل يجثم خارج غرفتي ويحاور الضوء الكامد في تشبث.

في جيبي عشرون ليرة وجدتها فجأة.. لا شك أن أخي وضعها في جيبي خلسة بعد أن جمعها من عمله القاسي.. سأخرج من غرفتي هذه كالوطواط، وأبدأ صراعي المنتظر مع الجوع.

لا أريد أن أفكر بالمستقبل، فلدّي الآن ما أفكر فيه، أشعر بأنني قوي رغم كل شيء. وأنني وجدت ذاتي التي أضعتها منذ وقت طويل.. وأحس أن عيوناً كثيرة تحدق فيّ بنظرات حنون مشجعة.. وأنني وجدت طريقي المختفي بين الأشواك.

ترى هل نمتم الآن يا أخواتي، بعد أن أتعبكم البكاء؟ . أم ما زلتم تفكرون في ذلك الراحل الذي ينام في غرفة غريبة بين أناس غرباء على سرير يئن تحته كلما قام بأية حركة؟

* * *

الرّيح الشمَالّيَة

(٢)

هبي هبي يا ريح الشمال

وأدفئي القلوب الوحيدة

(شللي)



أبدًا تظل تومض تحت الرماد، لا تحتاج إلا لهبّة خفيفة من ريح شمالية ناعمة، تلك الصلات ذات الخيوط الحريرية الناعمة التي تربط بعضنا ببعض. تتكاثف عليها ذرات سود كثيرة حتى لتخفي معالمها، وفجأة تتّقد، كأنها ماسة نادرة، تنشر الدفء والحرارة في الحياة.

الآن أفهم لماذا وقفوا جميعًا يودعونني، الأم بوجهها الذي يتكلف الصرامة، فيطالب وعيناه قاسيتان بأجرة الغرفة، وكان الأولاد أقل تحفّظًا، فكانت أعينهم تدمع يبتسمون لي، ويدورون حولي، ويتمسحون بي.

أما الأب فقد وقف ينظر إلي في صمت وأنا أبتعد في غبش الصباح الوليد، وحسوني الذي تركته، ذلك الطائر الخافق الأثير، المتعشق دومًا للحب، يصفق بجناحيه للفجر ويهزج بأغنية الصباح.

ولما ابتعدت، لم أستطع أن أقاوم، لقد تركت قلبي هناك. هذا البيت المعتم قد ضم قطعة من حياتي . التفتّ لألقي نظرة أخيرة: كانوا واقفين أمام الباب، ورفعت الأم يدها في ضعف كأنها تحمل شيًا ثقيلاً، وخيّل إلي أن عينيها دموعًا حقيقية.

يا أصدقاء الثلاثة الأشهر.

سيفنى كل شيء، عما قريب، سيحتل سريري وغرفتي شخص جديد يبدأ صراعه معكم. ويبقى حيا في ضلوعنا جميعًا، خيط من العبير.. سلك من الحنان، يدفع الدم الحار في عروقنا في ساعات الشتاء الطويلة، حينما نستسلم للخمول، وتسرح عيوننا إلى ما وراء الجدران الصماء، ويقول الواحد منا وهو يتنهد:

- ترى ماذا يصنعون الآن؟

لن أنقم عليك يا أم ذلك الصباح، عندما أفقت فوجدت الغرفة شبه عارية!! لقد مضى من الشهر أكثره، ولم تمتد إليك يدي بأوراق تحمل نسرًا يحدّق في بلاهة.. أوراق كانت كافية ليشيع في عينيك البريئتين، ذلك البريق الذي أعرفه جيدًا، البريق الذي لا يقاوم، وعندما رأيتك في أعلى السلم، أشحت بوجهك.. لعلك قد خجلت يا أم ؟ لا بأس.. لقد كنت دائمًا تحتجّين بالصغار.

أنك تريدين إطعام الحلوى الفارغة، وكنت تقولين : الأب قد وقف عمله منذ شهرين، والشتاء قد أقبل، جورج يحتاج إلى ألبسة شتوية، وأولغا قد اهترأ ثوبها اليتيم، والخبز قد ارتفع سعره، والمدارس قد افتتحت، ومعنى هذا أن يوسف يحتاج إلى كتب.. الدهر لا يرحم، ثم تتنهدين وتلتفتين إلى الأولاد صائحة:

- الناقوس يرن.. تهيأوا جميعًا للصلاة الثانية.

وعندما عدت في المساء، وجدت الغرفة وقد أعيدت إلى سابق عهدها، وأنّ الدرج العتيق تحت وقع خطواتك، ثم انتصبتِ واقفة على الباب وأنت تحاولين الابتسام، وعلى يدك كأس من الشاي يتصاعد منه البخار، ثم قدمته إلي في خجل:

- لقد أجرنا الغرفة الأخرى!!.

شخص آخر إذن، مدّ يده إليك بالأوراق ذات النسر البليد.

شخص آخر إذن سيدفع، لقاء حيطان أربعة تقيه هبات الشتاء؟

ولم أدر ماذا أقول، وإنما أشحتُ بوجهي وأنا أرشف جرعات الشاي بصوت مسموع.

وعندما ذهبت يا أم .. وتلاشى وقع خطواتك، شعرت برغبة قوية بأن أجري وراءك وأضمك إلى صدري، وأبكي على كتفك طويلاً.

على أني بكيت في الليل.

وتتالى نزع الأثاث، وتتالى ارجاعه، وكنت في بعض الأحيان أحس أن الغطاء الوحيد الذي تركته لي، لا يستطيع رد لسعات البرد القارس عني، وكنت أصمت، وأعرف أنك هناك، في الغرفة الأخرى، تتقلبين ولا تستطيعين النوم كأن شيئًا يجثم على صدرك،ثم أسمع وقع خطواتك المترقبة المتلصصة على الدرج، فأتظاهر بالرقاد، ثم أشعر بشيء ناعم يلقى على السرير ويتمدد بعناية على جسدي المرتعد، سادًا الثغرات التي يستطيع البرد الخائن أن ينفذ منها إليّ.. لقد ردّ الغطاء الآخر الذي نزع في الصباح، وكنت أكتم أنفاسي الثائرة، حتى أسمع صوت زر الكهرباء وهو يطق فيسود الغرفة الظلام. على أن لم تقولي لي يومًا بصورة مباشرة «اخرج من الغرفة!!».

إلا في ذلك اليوم الذي اتفقت فيه مع أولغا على أن نذهب معًا في نزهة جميلة. كنت قد دفعت أجر الغرفة سلفًا عن شهر كامل، وخيل إلي أ ن لي الحق في أن أستأجر البيت كله، وكانت نزهة جميلة.. ضحكنا ولعبنا كالأطفال، وركضنا كأننا مجنونان يظنان أن خطرًا مجهولاً يلاحقهما، وسمحَت لي، أخيرًا، أن أقبلها.

ورجعت إلى البيت وحدي، بعد رجوع أولغا بزمن طويل حتى أوهمك يا أم أني كنت في الجامعة.. ولكنك كنت مقطّبة، فأحسست بذعر خفي وصعدت إلى غرفتي سريعًا وأخذت أتشاغل برؤية المارة من الشرفة، وعرفت أنك ستصعدين . ولكنك ترددت طويلاً ومر وقت قبل أن أسمع الباب وهو ينقر بتقطع:

- لقد رأوكم !!

وخاطبتني في جفاء، وأنت تشيحين بوجهك. كالعادة، ناحية الجدار، وخيل إلي أنك تتألمين كثيرًا.

- لقد كان من الواجب عليكما أن تقولا لي.

وتكلمتِ طويلاً يا أم، وكان في كلماتك ما يؤلم، وكنت تقولين بارتباك:- أنا واثقة منك، ولكن ماذا يقول الناس؟

وكان يعنيك أكثر ما يعنيك أمر زواجها، وكنت تلحّين على السمعة، وتتحدثين عن متاعب الأم بالبنات، وتتمنين لو أنك لم تنجبي أطفالاً.

- عندما يسمع الناس، أنها تخرج مع الشباب فلن يتزوجوها.. أبدًا لن يتزوجوها. وكنت ترددين:

- أنا واثقة منك. ولكن ماذا يقول الناس؟

يا أمي .. يا صديقتي.. لقد كان من الطبيعي أن تتطلعي إلى بعيد، ،إلى الأشياء التي لا تخطر على بالنا نحن الشباب مطلقًا. ثم تحدثت بحياء عن اختلاف الدين، وعدت من جديد إلى أسطورة الناس.

وعندما ذهبتِ، تركت على الطاولة أجرة الغرفة المدفوعة!! ولكنني كنت أعرفك جيدًا يا أم.

ففي الصباح، كانت يداك تقدمان إلي القهوة في حنان، وفي عيونك ما يدل على أنك قضيت ليلة قاسية مع ضميرك، وقبل أن تخرجي، لفتُّ نظرك إلى أنك قد نسيت شيئًا على الطاولة.وترددت قليلاً، ولكنك مددت يدك وأخذتها.

وأخيرًا.. نجحتُ في الجامعة، وكان النجاح معناه تغير كل هذه الحياة الفقيرة البائسة التي أحياها، ولمّحت لك أنني قد أعيّن خارج دمشق، ورأيت الأسى الحزين في عينيك المتعبتين، وكنت تسألينني في أمل:

- هل يمكن أن يضعوك في دمشق؟

وكنت أترك لك بعض الأمل، وأجد لذة في أن أرى في عينيك دائمًا تلك اللهفة التي تحاولين اخفائها، وصرتم تدعونني إلى قضاء السهرة في الغرفة الخاصة .. معكم.

لقد أصبحت واحدًا منكم، كما كنت تقولين، وكنت تعلمين يقينًا: أن أي واحد غيري، سيدفع في الغرفة أكثر مما أدفع، ولكنك كنت تسألينني دومًا بنفس اللهفة:

- هل يمكن.. هل يمكن أن يعينوك في دمشق؟

وكان من الممكن يا أم، أن تهملوني، بعد أن عرفتم أنني سأذهب بعد يومين، ولكنكم استطعتم أن تبعثوا في قلبي ذبحة الألم، وأنا أراكم تأسون أسى حقيقيًا على هذا الجار الذي لا يمكن أن يقال عنه يومًا أنه زبون طيب.

سمحت لي أن أخرج مع أولغا يومًا كاملاً، وقضينا الليلة البارحة ونحن نتحدث، وكنت تقطعين الحديث وتسألينني:

- هل هناك جوارب لم ترتق؟

أو تقولين وأنت تتنهدين، وقد فارقك ذلك الحذر أمام زوجك الصامت:

- هل ستذكرنا؟ هل ستكتب إلينا؟

* * *

ها هي ذي أشباحكم تنأى عن بصري، وأنا أتهيأ لأغوص في المنعطف الذي سيغيبكم.، اختفى شبح الأب ثم الأولاد، ولم أعد أرى من بعيد سوى وجهك العطوف، ووجه أولغا الطفلي الحبيب، ورفعت يدك للمرة الأخيرة ولوحت بها، ثم اختفيت بسرعة!! لماذا لم تستطيعي المقاومة؟

الآن سأنطفئ من حياتكم، وسيدخل إلى قلوبكم المفتوحة للعطاء كثيرون غيري. وأنا الآخر، وسأنسى، في خلال الأحداث المتراكمة التي يدعونها زمنًا وعمرًا وهمومًا، تلك الأشهر الثلاثة التي عشت فيها قسمًا من هذه الحياة التي لا نعطاها مرتين. وسنكبر، وتشيخ، وسنصبح آباء، وقد يصبح لنا أحفاد، ولكن.. ذات يوم، والرصيف ممتلىء بالناس وبعشرات الوجوه، يبرز لي وجه من وراء الضباب، وأبتسمُ له دون أن أعرفه، وأحاول أن أتنسَّم، من خلال

أكداس الذكريات، تلك الملامح المألوفة. وأرى بالمقابل الوجه ترتسم في عيونه نظرة مستفهمة، وسنمضي قليلاً في السير ثم نلتفت معًا.

لقد تذكرنا.

وينبعث حنين دافئ يلون أهدابنا.

وأحس بيد ابني وحفيدي تهزني بفروغ صبر، وصوت ألثغ يسألني:

- من هذه يا بابا؟

وأتنهد وأهز رأسي:

وتزيحُ سُتر خفيفة من ريح شمالية ناعمة، الغبار عن الماسة..

ونحس بجمرها يتقد في عمق أعماقنا ونهز رؤوسنا ونشعر أن الحياة جميلة وتستحق أن تعاش.

* * *

حفرة في الجبين

حيث يوجد المضطهدون . .

هناك عائلتي .

(لنكولن)



-١-

عندما أُدخلت أخيرًا إلى الغرفة، فتحت عيني حتى آخر مداهما لأرى جيدًا في الضوء الخفيف الذي ينبعث من بلورة صغيرة لم أعهدها.. وكان يتمدد هناك، في السرير الذي كنت أنام فيه، ضئيلاً يلفه اللحاف حتى رأسه..وتقدمت ببطء وقلبي يكاد يتوقف عن الخفقان، وأشعر كما لو أن شيئًا يخزني في ظهري. (لاشك أنهم يراقبونني بفضول)... وكنت أريد أن أرفع اللحاف لأراه، ولكني سمعت فجأة صوت أخي الأكبر يقول بصوت خيل إلي أن فيه نهرة قاسية:

- اتركه نائمًا.

فرفعت يدي بحيرة وقلت:

- ألا أستطيع أن أراه؟..

ولكن أحدًا لم يجب.. وسمعت صدى شهقات خفيفة، كانت من أختي دون ريب . لم أدر ماذا أفعل.. فجلست. وسمعت صوت آهة مكتومة، فسادت الحركة في الغرفة.. وقفت أنا. وتقدم أخي الأكبر.. أما أختي فقد تنفست بصوت مسموع.. ولكنَّ الكومة سكنت فساد السكون من جديد . أخذت أتأمل الغرفة.. لم أشعر أن فيها شيئًا جديدًا سوى الفراغ الذي كنت أضع فيه الكتب.. ومكان الطاولة الذي امتلأ الآن بصحف عتيقة وقد وضع عليها بصورة مشوشة بعض العقاقير والضمادات.. وتنحنح أخي كأنه يقطع حبل الصمت، فقلت بهدوء:

- كيف؟... كيف سقطت قطعة الحديد؟

فساد الصمت هنيهة ثم قال أخي بصوت لا لون له:

- أنه قدر اللّه.

وقالت أختي متنهدة:

- يا لطيف.. اللّه يجيرنا من ساعة الغفلة.

- ولكن كيف حدثت؟..

قالت أختي مندفعة، وأنا أنظر إليها بطرف عيني:

- كان واقفًا ومعه سليم العتال، أمام رزمة من الحديد.. وحاول أن يرفع..

قال أخي مقاطعًا:

- رجعنا للحكاية؟.. يجب أن نتركه نائمًا فالراحة تفيده. نفس الصوت الذي سمعته من سنتين عدائيًا حاقدًا.. عندما حملت متاعي وغادرت البيت.. كان صوته يلاحقني كرصاص طائش.. وكنت أذكره تمامًا وهو يقنعني بصوت جاف أن أظل في البيت.. وكنت أعرف تمامًا أنه يتعجلني للرحيل.. وأبي وراء شجرة الياسمين يجلس صامتًا يداعب قطته المفضلة ولا يرفع وجهه أبدًا..

ندت آهة أخرى من السرير ثم نزل اللحاف ببطء ورأيت وجهه الملفوف بالضمادات.. ولم يظهر منها سوى عينيه المعكرتين.. وأدار رأسه فوقع نظره علي.. ومد يده يبحث عن يدي، وتشابكت أصابعنا وأنا أهمس بابتهال:

- يا أخي...

وسمعت أختي تنشج بصمت، ورأيت في عينيه دمعة جلية...

- قل لي.. هل أنت أحسن حالا؟

فهز رأسه ثم قال بنبرة غريبة:

- لقد شوّهوني.. وسكت قليلاً ثم قال: لو رأيت وجهي..

وتعالى نشيج أختي وهي تتمتم:

- يا ربي .. ماذا فعلنا لك حتى تعاملنا هكذا؟

فقال أخي الكبير بقسوة:

- بدون كفر..

قلت وأنا أقبل عليه:

- كل شيء هين أمام سلامتك.. أمام حياتك.. قل لي هل تتألم؟ .. ولم يجب بشيء.. وإنما أخذ يحدق في سقف الغرفة.. ثم قال في وهن:

- يجب أن ترى أباك..

فوقف نشيج أختي، وأحسست بالجو صامتًا صمتًا عميقًا.. وأجبت مطمئنًا:

- طبعًا.. بالطبع سأراه..

تنفست بارتياح.. وأحسست أن شخصًا قد غادر الغرفة.. واقتربت مني أختي وهي تنظر إلي بإمعان.. ونظرت في عينيها ثم وقفت ومددت ذراعي بلهفة وأخذت أقبلها وهي تضمني بعنف:

- لقد غبت .. طويلاً..

ولاحظت أن الدموع تتجمع في عيني أخي، فأخذت يده وقلت:

- سأذهب الآن.. لقد زال الخطر والحمد للّه وسآتي من وقت لآخر لأطمئن عليكِ..

وقالت أختي:

- لن تذهب قبل أن تشرب القهوة.. لا يمكن..

واندفعت مسرعة مغادرة الغرفة، قال أخي وقد اعتراه وهن شديد:

- يجب أن ترى أباك.. عدني.

- إني أعدك..

فتنفس بارتياح وأغمض عينيه.

خرجت من الغرفة ساعيًا إلي المطبخ وأنا أشعر بالجو العائلي القديم.. وسمعت وأنا أمر من أمام غرفة أخي، الأكبر صوته الحاد:

- ثمانمئة ليرة.. هذا غير تعطل المحل..

وساد صمت قصير كأنه يستمع فيه إلى من يكلمه، ثم قال بحدّة:

- ولكن الحق عليه!!

عندما شربت القهوة في المطبخ أخذت أتحدث مع أختي عن العملية والدكتور فريشو ثم سألتها:

- هل أبوك موجود؟

- نعم.

وعندما خرجنا من المطبخ، وجدت أخي الأكبر في الصالون.. فنظرت إلى أنيسه وقلت لها بصوت واضح:

- أين أبوك؟

- في غرفته.

قال أخي بصوت حازم:

- إنه ليس هنا.

ولما نظرت إلى أنيسة تابع:

- لقد خرج منذ دقائق..

صافحت أنيسة واتجهت صوب الباب.. ولاحظت أن صورتي التي كانت معلقة في الصالون قد انتزعت من مكانها.

قلت:

- بخاطركم.

قال أخي ببطء:

- شرفتم.. مع السلامة.

وأغلقت الباب بهدوء، ولما واجهني هواء الشارع.. تنفست بملء رئتيّ..

-٢-

- إني لا أعيلكم عبثا.. الأشغال واقفة.. وكل شيء في ركود.. لي زوجة وأولاد.. وجيش من العمال.. لست أستطيع أن أسمح لأي إنسان أن يشيع التذمر.. إني لا أعيلكم عبثًا.

ورفع أبي رأسه، وخيل إلي أن شيئًا من الاعتزاز القديم بالنفس يشيع من عينيه التعبتين، وتحرك شارباه بقلق وتعلقت أنفاسي بشفتيه، ولكنه تنحنح أخيرًا ثم تنهد وساد صمت عميق..

- طول عمري وأنا أدير الشغل.. طول عمري لم، أسمع شكاية عامل.. يا ضيعة الأكل والشرب.

- ولكني لم أقل شيئًا.. لم أفعل سوى أن ..

قال أبي بصوت حانق:

- لم تفعل سوى تعطيل العمل.. هاه؟ ما هي هذه الأفكار التي تدور في رأسك النجس ؟ لقد فعلت كما قال المثل.. وكالعادة لم يقل ما هو المثل.

قال أخي الأصغر:

- أنت تعلم يا بابا أن..

قال أخي الأكبر زاجرًا:

- اخرس أنت!!

فاصفر وجهه.. وحبس دمعة في عينيه.. ثم نظر إلية نظرة منكسرة وأطرق برأسه.

قال أبي:

- الحمد للّه .. اللّه بلانا بالأصحاب.. انظر ابن عمك محمد، دومًا الصبح في الجامع.. عندما أراه أقول يا رب لماذا ابتليتني بهؤلاء الأولاد؟ ..من أصحابه؟ الشيخ عبد الرحمن.. وابن عبد الوهاب ما اسمه؟

قال أخي:

- فؤاد!!

- نعم فؤاد.. وأنت من أصحابك؟ كلهم لا يعرفون وجه اللّه.. كلهم متكفون (وأشار بيده إشاره هازئة مرة) لقد حشوا رأسك بالأفكار الكافرة، لو كان فيك خير كنت الآن متزوجًا وعندك أولاد.. وكما قال المثل..

قال أخي الأكبر، وقد قرب كرسيه مني بحركة سريعة:

- قل لي؟ هل أعطي العمال أقل من الآخرين؟

- ولكنهم يموتون من الجوع.. والمرض؟

قال ثائرًا بغضب يزداد حدة:

- طول عمرنا ما سمعنا أن أحدا مات من الجوع.. إنها ثروة ويجب أن نتدبر كيف ننمّيها.. فوق ما نشغلهم ونلقطهم من الشارع.. يريدون بعد ذلك أن يركبوك.. واللّه يا بابا، صرت أخاف أن أسير بينهم.. إن نظراتهم والعياذ باللّه.. نظرات كافرة.. حقودة.. ولقد صدق المثل: اتق شر من أحسنت إليه.

قال أخي الصغير مندفعًا:

- ولكن الدين يأمرك بأن نحسن إلى العمال.. كما قال الشيخ صلاح..

فرمقه أخي الأكبر بنظرة محتقرة وقال بازدراء:

– لا تهرف بما لا تعرف يا بهيم.. ليس في الأثر كله غير حديث واحد عن العمال..أعط العامل أجره قبل أن يجف عرقه..ولم يقل افتحوا لهم مستشفى.. وشغلوهم ثماني ساعات، واخضعوا لأمر نقابتهم.. وأعطوهم كساء ودواء وطعامًا.. كما يحاول أخونا باللّه (وأشار إليّ) أن يزرع في نفوسهم.. ثم التفت إلى أنيسة وقال بصوت آمر:

– هاتي إبريق الماء... بسرعة..

فنهضت أختي متثاقلة وهي تنظر إلى زوجة أخي التي انزوت ترقبنا بدون مبالاة. قلت بهدوء:

– ليس الأمر بمثل هذه السهولة، إنك لم تخالطهم يا أخي.. إني أعمل معهم ولذلك أفهمهم كل الفهم.. زوجة «أبي زكي» تضع طفلاً سابعًا له وهي مريضة بين الموت والحياة.. لقد رفضت أن تسمح له بيوم يقضيه في بيته، لأنه يعرف أنك ستقطع عليه الأجرة التي هو لا يستطيع العيش بدونها.. ليتك رأيته وهو ينظر بقلق إلى الساعة.. ونظرته إليك.. إنه لعمل وحشي..

– وحشي يا كلب؟. يا ضيعة الأكل والشرب فيك.. حرام علي النوم إذا لم طردت هذا الخنزير غدا.. نظرته إلي؟. أنا الذي التقطته من الشارع.. بشرفي لا أكون محسن بن محمود إذا تركته ساعة واحدة غدا.. على كل حال ليس له تعويض لأنه لم يتعدَّ السنة..

قلت بازدراء:

– مصاص دماء.

أحسست بصفعة أليمة من يد أبي تهوي على وجهي:

– يا قليل الحياء.. لم تعد تستحي..

بينما وقف أخي ثائرًا:

- واللّه حرام أكلك وشربك.. لو ربيت كلبًا كان فيه أمل أكثر منك. يالئيم.. تأكل من مالي وتسبني؟.

ولكن الزمام كان قد أفلت مني:

- أنت يا سارق العائلة..أنت الذي استوليت على مال أمك تغمز إلينا بالإعالة؟..ألسنا نشتغل عندك.. ألسنا نأكل بمعاشنا؟ يا سارق.. لقد سرقتنا، وأنت الآن تسرق العمال..

قال أخي بصوت هائل:

- علي الحرام تستحق الذبح.. لن تشتغل عندي بعد الآن.. واللّه بكسر الهاء لن تشتغل.- عندك عندك. واللّه لقد تمنيتها من زمان أن تخرج من فمك.. لن تراني بعد الآن.. بل لن أعيش هنا.. اللّه يبارك لكم في البيت، إني سأعيش وحدي..

- لجهنم وبئس المصير..

قال أبي قاطعًا الصراخ:

- الجيران يسمعون .. العمى .. طولوا بالكم.

قلت بصوت مجلجل:

- كل يوم يمنُّ علينا بالأكل والشرب، ويعيرنا أمام امرأته وأولاده.. ولو!. ما بقى عنده حس؟. واللّه لن أعيش هنا ولا ثانية!!

واندفعت إلى غرفتي كالمجنون وأنا ألملم أغراضي بسرعة مرتجفة.. وكانت أنيسة تشهق وتبكي بهدوء.. بينما أخذ أبي يتسلى بالربت على ظهر قطته المفضلة.. وعندما خرجت صرخت بقوة:

- بخاطركم.

وبكت أنيسة، وسكت أبي.. أما أخي الأصغر فقال بانتحاب:

- إلى أين.. الآن؟ وفي مثل هذه الساعة؟. يا جماعة اخزوا الشيطان.

وانطلقت إلى الباب، وأحسست بيد أخي الصغير تدس في جيبي قليلاً من المال.. وصوت أخي الأكبر:

- ارجع ولك يا مجنون.

وصوت أنيسة يصرخ:

- أخي .. مصطفى..

ولكني تابعت، وقبل أن أصفق الباب ورائي سمعت صوته يقول:

- اتركوه.. غدًا يرجع كالكلب!!

* * *

-٣-

من بعيد كان يلوح لي بقامته الفارعة.. ومشيته الخاصة التي يتمايل يمينًا وشمالاً.. وقد وضع على رأسه طاقية صوف.. وكان ينظر إلى الشرفات والأبواب متفحصًا ورأى يدي من بعيد تلوح له فأسرع إلي.. ووقفت الجارة مدهوشة تنظر إلينا ونحن نتعانق بشدة والدموع تسيل من عيوننا..

- الحمد لله على العافية يا سليم.

- الله يعافيك..

وأمسكت بيده وأدخلته الغرفة المتواضعة.. وكان يحاول أن لا ينظر إلى عيني بل أخذ يتشاغل بتقليب بعض الكتب على الطاولة، ويتفحص أثاث الغرفة بنظرة مشفقة. وكان القلق يأكل قلبي أكلاً.. ولم أعرف كيف أطلب منه أن يزيح الطاقية قليلاً لأرى جبينه.. وكأنه أحس برغبتي فأمعن في التشاغل بتقليب الكتب. وساد بيننا فترة صمت طويلة.. قطعتها وأنا أبتسم والتفت إليه:

- هل تعودت التدخين؟

فابتسم وقال في تبلد.

- هذه الأيام تجبر المرء على التدخين.

وبعد أن تناول سيجارة قلت فجأة:

- قالوا لي أن العملية كانت خطرة!!.

- لقد وهبتُ حياة جديدة.. تصور.. تسعون في المئة خطر ومع ذلك قد نجحت.. يخيّل إليّ أني وهبت حياة جديدة. ولكن.. كان أثرها مخيفًا، انظر.

- كل شيء بسيط مع السلامة .. يا إلهي!!

لم أستطع أن أمتنع عن الشهقة التي ندت من أعماق صدري.. ولا شك أن نظرتي كانت غريبة حتى لقد ذعر أخي وظهر اليأس على وجهه.. فمكان جبينه الناصع العريض كانت إلى جانب عينه اليسرى وفوق الحاجب مباشرة حفرة عميقة.. جعلت شكل وجهه غريبًا يدعو إلى الاشمئزاز..

كان قلبي يدق بعنف وأنا أردد بصوت ميت:

- بسيطة.. بسيطة كل شيء هين مع الحياة.

اتقد نظر أخي وقال بحقد:

- إنه يشغلني كالعتالين، كان يمكن أن لا يحدث شيء لو أنه ساعدني على حملها بعض العمال.

- لا تقل هذا يا سليم .. إنه قدر..

استدار أخي إلى الحائط ويده ترتجف بالسيجارة ثم قال بصوت مرير:

- إنها بشعة.. فظيعة .. إني أخجل من أن أظهر هكذا بين الناس.. وتزايدت دقات قلبي وقلت وأنا أنظر إلى السقف:

- ولو يا سليم.. متى كانت الرجال يهمها مثل هذه الأمور؟. المهم..

- لا ترفه عني.. لقد سمعت كثيرًا من مثل هذا الكلام.

أخذ سليم يبكي بحرقة وألم. ثم لبس من جديد طاقية الصوف حتى غطت جبينه، وانتحى جانبًا وهو يتابع بكائه.. أحسست أن أية كلمة لا تستطيع أن ترفه عن نفسه المحطمة.. فأخذت أذرع الغرفة وأشعلت سيجارة جديدة ناسيًا أن سيجارتي لم تنته بعد..

رفع رأسه بعد هنية.. وقد خجل من دموعه.. ثم ساد صمت عميق قطعه سليم قائلاً.

- لقد صار يهرب مني حتى الأطفال:رياض وصلاح وفوزية.. وارتد فكري إلى أولاد أخي.. وتذكرت كيف كانوا ينتظرونه على الباب.. وهم يقفزون من الفرح ويزقزقون..

- عمو سليم.. عمو سليم..

وكان أخي يهجم عليهم فيحملهم على ساعديه ويغمرهم بالقبلات.. وهو يتلمظ وراء كل قبلة.. ثم بعد محاولات طويلة ينفض لهم جيوبه.. لقد كانت كل خيالاتهم الطفلية منصبة على ما في جيبه التي لم تكن يومًا فارغة.

- وخديجة.. تصور خديجه أصبحت تهرب من البيت عندما أزورهم.

- خديجة؟ العمى.. على رجليك كلهم. على ظفرك. كلهم خسيسون!!.. وبصقت بشدة..

- أن أهلها يحاولون الآن فسخ الخطبة..

- للصرماية.. لجهنم.. ألف بنت تتمنى عليك..

وتصورت خديجة التي كانت تتعلل بالحجج والأسباب لتزورنا، والرسائل المضحكة التي كانت تكتبها لأخي.. وتصورت أباها يحلف بالإيمان المغلظة على أخي أن يدخل وأن يبات عنده كلما مررنا أمام بيته..

قلت بتردد:

- ألا يمكن عمل شيء؟

رفع أخي وجهه.. وقد أضاءت عيناه ببريق باهت:

- لقد ذهبت البارحة إلى الدكتور الذي على الجادة.. وأريتُه وجهي.. فبعد أن فحصني وسألني طويلاً عن العملية، قال لي: في الإمكان تصليح ذلك.. ثم أفهمني أنه يستطيع عندما يخثر مكان الجرح أن يشقه من جديد ويركب فيه نوعًا من العظام.. على نحو ما يعمل لطقم الأسنان وتعود جبهتي إلى حالتها الطبيعية..

فقلت وقد قفز قلبي من الفرح:

- إذن لماذا كل هذا الابتئاس؟.. قل هكذا من الأول.. إذن بسيطة.. هل العملية مضمونة؟..

- نوعًا ما ولكنه طلب ألف ليرة.

- ألف ليرة؟ .. العمى.. لماذا؟

- إنه يحسبها عملية تجميل..

- على كل حال سيدفعها طبعًا أخوك. إنها من حقوقك.

- وهل تظن .. هل تظن أنه سيدفعها؟.

- طبعًا إنه مسؤول عن العطل.. إذا رفعت عليه دعوى تستطيع أن تقبض ضعفَيْ هذا المبلغ عطلاً وضررًا.

- رجعنا لحكايتك القديمة.. أخ يرفع على أخيه دعوى؟

- على كل إنه يعرف القانون جيدًا.. وسيدفع عن طيب خاطر. استخفني الفرح وأخذت أدور في الغرفة.. أعرض عليه محتوياتها المتواضعة،، غير أن سليم زهد في ذلك، ثم أخذ في وجهي وقال بصوت متردد:

- ألن ترجع إلى البيت؟

وصمت .. فقلت وأنا أحاول أن أبدي عدم المبالاة:

- كيف .. أبوك؟

- ممتاز .. إنه يسألني عنك فأجيبه بأن رسائلك انقطعت عني.. فعندما كنت في حلب.. كان دومًا يتساءل عن أخبارك ثم وقف متهيئًا للانصراف.. وأشعل سيجارة جديدة.. قلت:

- زرني دائمًا.

- ولو .. عرفنا المقر.. ستجدني هنا بين يوم وآخر. وشد على يدي بعنف كثير، ثم استدار وخرج دون أن ينظر إلى وجهي..و وقفت أنظر إلى قامته الفارعة وهو يبتعد، ولما بلغ المنعطف استدار ونظر إلي.. ثم لوح بيده واختفى بسرعة.

* * *

- ٤ -

هدر أحد العمال بصوت مبحوح وقد احتقن وجهه المتطاول :

- يعيش اتحاد العمال في سبيل حرياتهم النقابية. وجاوبه الحشد الزاحف كالسيل في اتجاه البرلمان.. وسمع من بعيد صوت إغلاق الدكاكين العاصف.. وصرخ أحدهم وهو يلوح بيديه:

- نظام يا إخوان نظام. وضحك بعض الناس، وصرخ طالب متحمس:

- ليعش اتحاد العمال.. وبصق أحد المارة من الجانب، ثم وقف وقد حجب عينيه بيديه عن الشمس وصرخ ملوحًا بقبضته:

- يا لكم من خنازير.. ثم التفت إلى رفيق له يحدجه بنظرة عابسة:

- يظنون أنه ليس في العالم سواهم. وتسلق بعض الأطفال الجدران وهم يصفقون ويغنون ويصفرون، بينما كانت عجوز واقفة تحمل طفلاً مذعورًا.. وهي تبكي وتهمس:

- ليكن سيدنا الباز معكم.. وتساءل أحدهم:

- ما الخبر .. العمى .. كل يوم إضراب؟.، فأجاب عجوز:

- بدهم استقلال.

- يا لك من خرفان نحن مستقلون من مئة سنة.

وكان الحشد يدفعني دفعًا.. وأنا أحس أن ألف روح تتملكني.. لا يمكن أبدًا أن تفسر هذه الروح النارية التي تتملك إنسانًا وهو يلتصق بالآخرين الذين يشعرون بنفس شعوره.. ليخيل إلي أنني أستطيع بقبضتي تحطيم الأشياء السيئة في العالم بضربة واحدة.. وكان بعض الأطفال الذين تسلقوا الأشجار يغنون بمرح:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما

كانت الهتافات المتناثرة هنا وهناك تتتابع مختلطة متشابكة غير مفهومة، ورأيت أحدهم يهوي بيده على رأس آخر ويصيح به آه يا خائن.. بينما يحاول الآخر أن يتوارى بين الجماهير . وصاح أحدهم:

- الشرطة..

وساد بعض السكون، ورفعت رأسي لأرى إلى أول الموكب الذي أحسست أنه توقف.. وصرخ شاب معروق الوجه:

- سليمان.. لنهرب..

بينما رفع شيخ قوي البنية قبضته وهو يزمجر:

- ليكن.. الشرطة..ناس مثلنا.. سنرد الضربة ضربتين. وتردد صوت:

- ليسقط أعوان المستبدين.

وصرخ عجوز:

- آه رجلي.. محبة بمحمد افسحوا لي طريقًا .. أنا ليست لي علاقة. وجاءت موجة شديدة دفعتنا إلى الوراء، ولمحت بين الوجوه القريبة وجه (أبي زكي).. فابتسم لي ثم جاهد حتى وصل إليّ:

- مصطفى.. مصطفى أخوك معنا..

- من ؟ .. سليم!!

- بشرفك؟..

- إنه بالمقدمة.

وتعالى صراخ يائس:

- أولاد الكلب، إنهم يضربون إخواننا.. ونزل الأطفال من على الشجر والحيطان واندسوا بين الهاربين، ودفعتني قوة ساحقة إلي الأمام كموجة كبيرة، واختفى وجه أبي زكي.. وفي اللحظة التالية رأيت الخوذ الفولاذية. كان يقفون سدًا متراصًا وقد ركبوا أسنتهم في رأس البنادق وبدت وجوههم بيضاء كالثلج، وصرخ صوت من ورائي:

- ليسقط المستغلون.. ليسقط أعداء.. وضاع صوته بين الجماهير ..

وسمعت أصوات الآلات الحديدية وهي تخرطش، وأطلقت بعض الطلقات إرهابًا في الفضاء، فتفرق الحشد يمينًا وشمالاً.. ووجدت نفسي أندفع إلى الأمام وأنا أصرخ وأهتف.. وسمعت صفارات تدوي ثم جاءت خمس شاحنات من الجهة الأخرى ونزل منها الجنود.. ورأيت ضابطًا أسود يمد يده نحونا وقد تقبض وجهه.. ثم هجم الجنود بعصيهم وسلاحهم وأخذوا يقبضون على العمال ويضعونهم في السيارات، وصرخ أحدهم وهو يلوح بيديه وقد ضربه جندي على وجهه:

- أنا ما دخلت أنا بريء.. وسمعت صرخات سباب وشتائم وأصوات ضرب، واشتبكت في معركة صغيرة، وهجم عليّ جندي بدين وفي اللحظة التالية أحسست بفكي يترنح ثم أمسكني اثنان من ورائي ودفعاني دفعًا داخل السيارة التي سارت بنا نحو النظارة.. كان أحد العمال ينزف وهو يسد أنفه بمنديله الذي اصطبغ بالاحمرار بينما كان آخر يزمجر وهو يتحسس مفاصله بعناية ويهمس من بين شفتيه:

- أولاد الزنا .. لكأنهم يضربون حجرًا..

وصرخ ثالث بصوت مبحوح:

- كنت أتفرج.. أنا أعرف هذه النهاية.. كل يوم اضراب.. واللّه لو جاء عمر بن الخطاب لما أعجبكم.. غير أن لكزة من رفيقه اسكتته.. وساد بعض الصمت.. ثم أخذ أحد الطلاب يغني بصوت قوي:

يا ظلام السجن خيم   إننا نهوى الظلامـــا

وردد معه بعضهم.. ثم قوي الصوت واتحدت أصوات الجميع وتعالى النشيد يهز السيارة هزًا.. ووقفت السيارة فجأة فانكفأنا على وجوهنا ثم صاح صوت غليظ:

- الآن سترون يا أولاد الكلب.. انزلوا..

وقادونا إلى غرفة طويلة لا تنيرها سوى نوافذ صغيرة في أعلاها قد شبكت بالحديد..ورأيت هناك من سبقونا.. بعضهم متكئ على الحائط.. والبعض قد قعد على الأرض من الإعياء وهو يئن بصوت خافت..، وأمسكت يدٌ بي وسمعت صوتًا مألوفًا:

- مصطفى..

فالتفت بسرعة وأنا أصرخ بدهشة:

- سليم .. يا أخي.

وغرقنا في عناق صامت شديد.. وأنا أردد:

- دعني أتطلع إليك..

كان رأسه عاريًا والحفرة في جبينه تطل كجرح غائر .. وأحسست بالاعتزاز يشرق من عينيه..

- أنت ماذا جاء بك إلى هنا؟.. قال متفاخرًا:

- لقد ضربت أحدهم.. ولم يأخذني إلا بعد عراك شديد.. صرخ واحد من ورائي بخوف:

- ماذا سيفعلون بنا؟

فضحك آخر وقال بصوت قاس:

- إنهم سيطبخوننا ويأكلوننا..

ونظر إلى أخي بقلق وقلت وأنا أبتسم:

- بضع لطمات.. قتلة محترمة، وحبس جمعة، ثم يطلقون سبيلنا. ففتح عينيه وخيل إلي أن فيهما شيئًا من الذعر.

- لا بأس .. ستتعود وسترى الأمر هينًا.

فقال أخي وهو يظهر كأن الأمر لا يهمه:

- بسيطة..

ولكنه اتكأ على الحائط وأخذ يتفحص المكان بقلق وصرخ أحدهم:

- يعيش اتحاد العمال وليسقط الخونة المستغلون. فرددت صوته حناجر قوية.. فتح الباب بعنف، فساد السكون، وظهر الملازم الأسود وفتح فمه مراراً فظهرت أسنانه البيض ثم عوى:

- أريد أن أعرف من هو ابن العاهرة الذي هتف؟..

ولكن أحدًا لم يجب فتابع نباحه:

- اهتفوا ما شئتم .. سنسلخ جلودكم.. وأغلق الباب بعنف تم فتحه لدفعة جديدة.. قلت محاولاً أن أصرف أخي عن أفكاره:

- كيف حال عمليتك الجراحية؟..

قال وقد اتقدت عيناه بالحقد:

- الوحش.. تصور أنه طرد البارحة.. أيوب وأبا علي لأنهما اشتركا في مظاهرة الخميس..

فقلت وأنا أبتسم بمرارة:

- كما طرد أبا زكي .. والجمهور.. والحبل على الجرار.

قال سليم وقد أدنى فمه من أذني:

- لقد تحدثت عني بأشياء فظيعة.

- عنك أنت..

- نعم.. عندما أخبرته عن العملية والمبلغ لم يرد بكلمة واحدة بل هز رأسه وقال: طيب.. طيب.. ثم بعد أيام.، وأنا أقترب من الإدارة، سمعته.. كان يحادث شريكه الجديد.. تصور!!

كان الشريك يحاول أن يقنعه بأحقية طلبي ضمن القانون وكان وهو يصرخ:

- لولا قول الناس.. أخوه.. لكنت رميته للكلاب .. ألف ليرة لتجميل وجهه النحس؟ . لن يراها في حياته..

قلت وأنا أرتجف:

- ارفع عليه دعوى .. في الحال.

- ونصير مهزلة.. آخ يرفع على أخيه دعوى؟.

- يا حبيبي أنت قلبك طيب.. لكن هو.

- لا أريد أن أعمل العملية على حسابه.. بل على حسابي.. ثم تساءل أخي بعد تفكير:

- يا مصطفى لماذا يفعل المال هكذا ؟..

قلت بمرارة:

- ستفهم.. ستفهم كل شيء.. فيما بعد.

ومضت ساعات ساد فيها الظلام (وغفا بعض الجالسين). ثم فتح الباب أخيرًا وظهر ضابط شاب أخذ ينظر إلينا بحقد:

- اسمعوا .. فساد صمت عميق..

- وصلتنا الأوامر بمناسبة الانتخابات أن نطلق سراحكم. ولكن إذا عاد أحدكم إلى مثل هذا..

وساد الهمس وارتفعت بعض الأصوات:

- يعيش العدل.

- إنهم يرشوننا.

- ليسقط المستغلون.

- سنضحك على ذقونهم.

وصاح الضابط بانفعال:

- اخرسوا..

فساد الصمت من جديد..

- ولكننا سنقيد أسماءكم.. لتُعرَفوا فيما إذا اشتركتم في مظاهرة من جديد.. وعندها ستعلمون ما هو الموت الأزرق.

فسمع صوت من آخر الغرفة:

- طز..

ولكن الضابط تجاهل ذلك.. وتقدم جندي وبدأ يخلي القاعة اثنين اثنين ويأخذهما إلى غرفة ثانية. وهمس أخي بقلق:

- لنذهب معًا.

- طبعًا.. تعال..

أدخلونا إلى غرفة ثانية ضيقة في صدرها طاولة فخمة مليئة بالأوراق.. وقد جلس وراءها ضابط أشيب:

- اسمك؟

- مصطفى بن محمود ميداني.

- آه..

ورفع إليّ عينيه الزرقاوين:

- إذن أنت .. كنت أتمنى أن أراك هنا من زمان.. لقد أتاني اسمك من حلب.. متى جئت من هناك؟.

- من شهرين.

- هم.. (وصرخ إلى حاجبه): هات الإضبارة رقم ١٥٦. وأنت ما اسمك؟.

- سليم محمود الميداني.

فرفع رأسه بدهشة وقال موجهًا كلامه إليّ:

- أخوك؟

- نعم؟

- أفسدته إذن.. إننا نرحب بالضيف الجديد.

ثم قال وقد ألان لهجته مخاطبًا أخي:

- أنا لا أفهم.. إني أعرف أخاك الأكبر .. إنه شخص ممتاز.. يتبرع دومًا للحفلات الخيرية.. ما الذي دفعك أنت إلى هذا العمل؟.

فنظر إليّ سليم بقلق ولم يجب.

- هذا رجل مفسود (وأشار إليّ).. اضبارته ملأى.. آه هات الإضبارة..

وفتح الإضبارة وتفحصها مليًا:

- مصطفى مصطفى مصطفى محمود الميداني.. عامل بشركة النسيج.. الاشتراك بخمس مظاهرات.. حادثان توزيع مناشير.. اصطدام مع الشرطة.. سنضيف اليوم اشتراكًا سادسًا.. أين تشتغل اليوم؟

- بالقابون...

- لتفسد العمال؟. آه.. سنتولى أمرك مع صاحب المعمل.. سنلتقي قريبًا.. اخرجا..

كانت الأنسام تتراقص هادئة في ساحة المرجة ونحن نمشي صامتين.. مستغرقين في أفكارنا.ثم نظرت إلى الساعة وقلت:

- يجب أن تذهب، قد يفوتك آخر ترام..

- سأذهب معك أريد أن أوصلك. ومشينا دون أن نتكلم، ببطء وهدوء، وأيدينا متشابكة.. ثم قطع سليم حبل الصمت قائلاً:

- يا أخي!!..- نعم.

وسكت قليلاً ثم تنهد:

- لا شيء.

وأحسست بيده تتصلب في يدي ثم ترتخي.

ومن بعيد لاح ضوء بيتي..

- عجيبة.. جارتنا سهرانه اليوم..

لا بد أن عندها زائرين .

ولما فتحت الباب استدرت إلى سليم قائلاً وأنا مطرق :

- والآن استودعك اللّه.. وإلى اللقاء.

ورفعت رأسي، والتقت عيوننا وأيدينا متشابكة، ثم استدرنا معًا ودخلنا البيت وهتفت بالجارة التي خرجت لاستقبالنا:

- من فضلك يا مدام.. اجلبي إلى غرفتي سريرًا ثانيًا للساكن الجديد.

١٩٥٣

إميليـــو

أتعرفون كيف أتصور جهنم؟

إنها جنة وارفة ، يعيش فيها إنسان

فرد وحيدًا دون أليف .

(فيتزجرالد)



- اعزف لنا لحنًا آخر.

- نعم لحنًا آخر.. لحنًا آخر.

ويحني إميليو قامته النحيلة، ويبتسم ابتسامة صغيرة يظهر منها سناه المذهبان، ثم يستدير إلى أفراد الفرقة، ويبدأ في لحن جديد.

كانت ثيابه تتهدل عليه، وإذا ما حرك رجله ويده على إيقاع اللحن، كان يخيل إلينا أن الهواء يتخلل بذلته ويجري فيها بقوة..

ورغم أناقته البادية التي تتوجها عقدة فراشة ملونة على عنقه العظمي الهزيل، فقد كانت أنظارنا معلقة بعينيه الكئيبتين الزرقاوين اللتين تؤلفان مع وجهه الأسمر الغامض سحنة غريبة.

- اعزف لنا لحنًا آخر.

ويحني قامته أيضًا، ويسحب برفق منديلاً أبيض صغيرًا، يمسح به عينيه، ويتنفس مرارًا بعمق، كأنما تعترض حلقه دائمًا كرة من الإسفنج، ثم يستدير، وفي عينيه الزرقاوين نظرتهما الكئيبة ويشير إلى أفراد فرقته، ثم يتابع حركة الراقصين، محنيًا رأسه لتحية عابرة، ومبتسمًا أخرى لوجه صبوح أثبت أنظاره عليه.

كانت حركة الراقصين على أشدها وهم يتمايلون على إيقاع الرومبا الهادئة عندما قال صديقي وهو يعصر يدي.

- هل استهواك؟

- من؟

- اميليو طبعًا، إني أراك تحدّق فيه كثيرًا

- الواقع.. أنه بارع.

وقال صديقي وهو يدني رأسه مني ويقول بصوت حاول أن يجعله خطيرًا:

- هل تعلم.. أنه بلا رئتين؟

- ماذا؟

- إنه يتنفس بجهاز خاص صنعه له طبيب ألماني.

- بدون تخريف، يجب أن يكون طرف الجهاز في أنفه حتى يستطيع التنفس.

- .. أنا مثلك لم أصدق في بادئ الأمر، حتى سألته.

- سألت من .. اميليو؟

- نعم، وقد قال لي وهو يحاول الضحك. أنا أعيش على كل حال.

- هذا غير ممكن.. هل شق الطبيب بطنه ووضع فيه الحديد؟

- ألم تقرأ في المجلات.. أخبار الرئة الحديدية الجديدة؟.

- قرأت يا سيدي، ولكن من يستعملونها يبقون ممددين طوال العمر، ثم رأيت صورة أحدهم، فإذا برئته الحديدية أكبر من بطنه مرتين.

- لا أعرف.. المهم أنه يتنفس بصعوبة كبيرة، ولا يستطيع أن يتحمل أي مجهود.

ترك اميليو العزف فجأة وسار مسرعًا إلى إحدى النوافذ المغلقة التي تطل على مطار المزة الفسيح، ولما فتحها أخرج رأسه، وأخذ يعب الهواء بنهم، ووجهه يبرق في ضوء القمر الكامد.

- هل رأيت؟

- مسكين.. حياة فظيعة.

ولما رجع.. أخرج منديله ومسح عينيه من جديد، ثم جلس يستريح، وينظر إلى الموائد نظرة كابية، ثم شردت عيناه، وظهر على فكه ارتخاء بانت منه أسنانه المذهبة.

قال صديقي:

- أدفع نصف ليرة فقط لأعرف ماذا يدور في دماغه!!.

أترى تلك الأرتيست الشقراء؟ سأطلبها للرقص في الرقصة القادمة.. لقد رفضت البارحة، بحجة أنها تعبة.. أما اليوم (وضرب بيده على جبينه) فهنا يكمن دواء التعب.. سأتركك طويلاً لأن الفرقة ستعزف رقصتين معًا.

- خذ مجدك ولا تقصر.. آه لو أعرف الرقص!!.

ولم يسمع صديقي جملتي الأخيرة فقد بدأت رقصة الفوكس تروت ورأيته ينهض بسرعة ويتقدم من الشقراء، ثم تدور بينهما عدة كلمات، تنهض بعدها بتثاقل، فيخاصرها بقوة وهو ينظر إلي نظرة منتصرة ويغمز بعينيه.

أخذت أتشاغل بشرب ثمالة كأس البيرة وأتلفت حولي إلى الموائد الفارغة التي هجرها أصحابها إلى الحلبة، يدورون كالفراشات، وخيل إلي أني أنا وحدي الذي يجلس هكذا يحدّق ببلاهة في الأرجل المتحركة، والأرواب التي تشهق على الأجساد الفتية.. ولكني لاحظت هناك في أقصى القاعة سيدة شابة تجلس وحدها وتدخن.

كانت جميلة ذات أنف ترتفع أرنبته في استعلاء، وعينين عميقتين مغمضتين بعض الشيء، تتابعان الراقصين في فتور، وكان على طاولتها كأس واحد فقط أخذت ترفعه، مرة بعد مرة، في تثاقل كأنها تنوء بحمله، وتعبّ منه جرعة صغيرة، ثم تضعه على الطاولة تاركة أصابعها الناحلة البيضاء تحوطه.

أرتيست؟ لا . فليست ملابسها البسيطة المتواضعة، ولا وجهها الخالي من المساحيق، ولا يداها اللتان تبرق أظافرهما من بعيد بدون مانكور.. بالتي

توحي بأنها أرتيست.. ثم، وحدتها، وكأسها المفرد، ونظراتها الزائغة.. إنها وحيدة، أجنبية..

ولاحظت تدحرج أفكاري نحو الرومانتيكية، فابتسمت، سأبني، كالعادة، ألف حكاية وأسطورة، حول هذه الغريبة، كانت كلها تذوب كعوالم الأطفال عند ظهور الصباح..

وانتهت الرقصة، وتابعت الفرقة عزفها، فارتفع صوت الآلات في إيقاع قوي، واتسعت الحلبة حتى كادت تبتلع الموائد .. إنها رقصة الفالس.

والتفتُّ إلى الغريبة، فرأيت وجهها يمتقع، ويدها تشدد القبض على الكأس، وخيل إلي من بعيد أنها ترتجف، ثم أشعلت سيجارة، فلاحظت أن يديها ترتعشان.. يا صديقتي في الليل.. أية فكرة تعشعش في تلافيف هذا الدماغ الجميل؟.

نهضَتْ بقوة، وألقت سيجارتها جانبًا، ثم أخذت تدنو من الحلبة في هدوء ولما وصلت وقفت قليلاً ثم اندفعت تدور في تيار الراقصين ترقص وحدها ويداها ترفان كجناحي نعامة.

كان هذا شيئًا غريبًا، خارقًا.. ولكن الرقص استمر، وإن كان الراقصون قد أخذوا يتابعونها بأعينهم في دهشة، حتى لقد أخطأ بعضهم في الإيقاع.. وأخذت أتلفت هنا وهناك وأنا غير مصدق.. آه لو أعرف الرقص آه لو أجد لهذه الحزينة فارسها الجميل الذي يضمها إلى صدره، ويدور معها في الهواء المعطر..

نهض اميليو واقفًا، وعيناه الكئيبتان تلفانها بنظرة غامضة بائسة، أخذ يتلفت، هنا، وهناك.. كأنما يبحث عن رجل يشاركها الرقص، ووقع بصره عليّ فخفضت رأسي في خجل .. ولكنه ترك آلته، ونزل بسرعة إلى الحلبة ثم أمسك بيديها وأخذ يدور معها.

كم تمنيت، في تلك اللحظة، أن أقفز إلى هذا المارد البائس، وأقبله ألف قبلة على وجهه الأسمر النحيل، وأن أضمه إلى صدري بعنف حتى يصبح من الألم..

ولكن المارد أخذ يترنح فجأة، وذهبت مقاومته عبثًا فهوى إلى الأرض.. وهو يأخذ أنفاسًا تصفر صفيرًا مرعبًا، فتوقفت الفرقة عن العزف، وأحاط الراقصون به فزعين، ولكن أحد الخدم شق طريقه إليه ثم حمله إلى النافذة بسرعة، فأخذ يستنشق الهواء ويفرك صدره بقوة حتى استراح.

* * *

عندما خرجنا كان على طاولة الغريبة كأسان مترعان.. وكانت تتحدث طويلاً، وهو يصغي إليها واضعًا يديه على صدره.. وفي عينيه الحزينتين كانت هناك دمعة جلية.

* * *



الـولـدُ الثـالـث

أنني خالد . . مستمر . . من الأزل إلى
الأبد . . ألا ترون ذلك أيها الأغبياء؟
انظروا إذن إلى الحياة في عيون طفلي .

(فابتزاروف أمام المشنقة)



– سنتان يا بنتي .. سنتان فقط، وبعدها تعودين!!.. لم تستطع أن تتذكر الملامح المبهمة الغليظة فهي ما اعتادت النظر إلى وجهه بإمعان، وهي بالتالي لا تعرف، في أنحاء هذا القلب الميت الجامد الذي يحتويه جنباها الضامران، شيئاً واضحًا من عاطفة أو تعلق بهذا الذي كان يضربها، يضربها كلما ماتت دجاجة أو باضت بيضة صغيرة، يضربها كلما شحت السماء بالمطر، أو ذهبت الريح بالزهر، ،يضربها كلما جاء الريجي واشتروا تبغه الذي يموت في جمعه وتبخيره، ثم يعطيه إلى القادمين بأيد مرتجفة. وهي لا تتذكر من كل أنحاء جسمه إلا يديه الخشنتين المليئتين بالعقد، وهما ترتفعان وتهويان وتتناغمان مع رفسات رجليه.

ومددت رجليها وقد شعرت بقليل من الدفء إلى آخر الفراش، ولوت اللحاف ولفته حول جسدها جيدًا، وحبست أنفاسها وتسمعت إلى حركة متسللة حذرة. مروان، عصام، خالد؟.. لا فرق، وأحست برعشة تهز جسمها كله، وعادت إلى تكوير رجليها، كصغار الأرانب..

لقد تأخر الوقت اليوم.. عصام سهران في الخارج، وهي لا تستطيع أن تنام باطمئنان حتى تسمع خفقان الباب عندما يخرج الشبح متسللاً بدون حذر، فتقف على قدميها وتدفع الرتاج وتمسح وجهها باشمئزاز، كأنها تزيل آخر لمسات الشفاه المحروقة المعروقة.. لقد كانت تعذبها آلية العمل.

ولمست بطنها المنتفخ الأصم، وتنهدت في شبه بكاء.. إنها تريد أن تحتفظ بهذا الثالث الذي يتحرك في أحشائها بوداعة طائشة.. إن شيئًا في أعماقها يدفعها لأن تتعب رأسها بالتفكير الجدّي، بعد أن اعتادت ألا تفكر منذ زمن بعيد.. وهي تتململ الآن حائرة، بعد أن سمعت سيدتها تصدر إليها أمرها الثالث المعهود، وهي تدير رأسها محمرة الخدين:

- لا تخرجي إلى الحارة يا فاطمة بعد الآن.. قد يراك الجيران.

وقد كانت تفكر بشيء هائل.. يجب ألا تلد هنا في الغرفة الرطبة المظلمة التي اعتادت كتم الأصوات. ولم يعد يقنعها أبدًا وجه سيدتها الخشبي وهي تقول:

- بحياتك البركة يا فاطمة المولود فطس.

وحينما تسكت متألمة تروح في دوامة وغيبوبة متقطعة، تملؤها تصورات تنبض بصوت بكاء حيواني سمعته حينما شعرت بفراغ بطنها.. ثم سكت الصوت فجأة ووضعت على عينيها ملاءة غليظة كغلظ الصوت الاذي لا تعرق مصدره:

- الضوء يؤذي عينيك يا فاطمة.. حاولي أن تنامي.

وتريد أن تتكلم، وترفع يديها ثم ترخيهما بيأس، وتصل إليها أصوات غير مألوفة مضخمة كمكبر صوت الجامع المجاور.. الطفل يشبه خالد.. الشاي يا فاطمة بسرعة.. الأنف أنف مروان.. سرحة جبين عصام.. لا تخرجي إلى الحارة.. ثم ضحكات مدوية، ثم صمت يشعرها بالراحة.

* * *

- سنتان يا بنتي.. سنتان فقط، وبعدها تعودين!!..

الجبل العَلوَي جنة، وإن كان من تراب، وهي تحس بقساوة الرخام الذي تدوس عليه رغم خفها الطري، وما كانت شجيرات الليمون والنارنج هذه التي تنثر في أرجاء البيت العتيق لتملأ العينين الخضراوين المليئتين بظلال شوامخ البطم والسنديان والدلب ومتكاثف الخضرة التي ينفذ منها الغيم البارد.. واعتيادها اليومي القديم على اللطم والركل، لم يؤثر في نفسها تأثير الكلمة القاسية الباردة تخرج من شفة ناعمة فتترك في وجهها لون العدم.

لقد كانت تتحدث مع شباب الضيعة، يتابعون ردفيها وينهشون صدرها بعيون رمادية، ومع ذلك لم تكن تشعر بالحرج.. وآخر قبلة على شفتيها كانت حارّة عابقة في محراب نفسها المضاعة، وآخر ضغطة على أصابعها كانت

من يد خشنة سمراء، ألفت إمساك المعول وضرب الفأس.. إنها لا تذكر الوجه وقد أخذ يغيب في تلافيف الأيام، ولكنها فهمت هذه القبلة وعشقت هذه الأصابع المكهربة.. إنه شيء واضح لا يبعث على الحيرة. ولكنها لم تفهم.. لم تفهم أبدًا، كيف تهيئ الشاي لطفل يذهب إلى المدرسة يكلمها بصوته المراهق الذي أخذ يخشن ويغلظ، وهو ينظر إليها بسذاجة حين تعقد صديريته وتنظف محفظته.. ثم يدلف بعد سنوات، ويغلق الباب وراءه بيد مرتجفة، وينظر إليها نظرة مختلفة.. مغايرة، وينضو عنه ثيابه بهدوء من يقوم بعمل عادي مشروع، ويندس إلى جانبها في الفراش ويداه تمتدان إليها كأخطبوط جبان .

يجب أن تحتفظ بالثالث بأي ثمن، وخيل إليها أنها تسمع بكاءه الحيواني الذي ينقطع فجأة كأن يدا وحشية قد أطبقت عليه، وشعرت أن شيئًا ما يتقطع في جسمها وهي تسمع صوتًا بغيضًا يحشرج:

– الولد مات يا فاطمة، بطنك لا يمسك أطفالاً.. بحياتك البركة.

وسمعت صوت الباب الكبير وهو يغلق، ففتحت عينيها المسهدتين بذعر وعرتها رعشة.. لقد رجع عصام من عند خطيبته البضة البيضاء كالغيم.. تلك الخطيبة التي تنظر إليها وتكلفها بأشق الأعمال، كأن بينهما ثأرًا ناغرًا.. إنه يسهر كل يوم عند خطيبته، فيخرجان ويتنزهان، ومع ذلك يأتي في آخر الليل نحوها كدب جائع، وهي مسهدة خائفة مشمئزة، تحسب الوقت القليل الذي بقي لتنادي سيدتها بصوتها التي اعتادت قسوته:

– اسم اللّه يا فاطمة.. شمسك عالية يا خانم.. قومي اشعلي النار.

وسمعت خطواته تدلف نحو المطبخ كعادته.. إنه لم يعتد مرة واحدة أن يتعشى في الخارج، أو عند خطيبته الحاقدة.

إنها لا تذكر سمة مميزة لوجه أبيها المبهم القسمات، سوى ذلك اللمعان الغريب في عينيه المسماريتين الصقريتين حينما مد يده وأرجعها بكمية ضخمة من الأوراق لم تر مثلها في حياتها.. لقد نظر إليها وأدار وجهه

بسرعة يستطلع الأفق، وكانت تحس أنه يشعر بشيء إنساني لم يشأ أن تقرأه في ملامحه الإبنة الواقفة كشجرة صغيرة مرتجفة.. ومد السيد يده وشد على أصابعها بحنو، ثم تكلم مع أبيها كلمات كثيرة سريعة، وكانت هي تتلفت باحثة عن أمها، ولكن ثنيات الدرب بقيت جافة ضاحية، لم يرتسم عليها ظل، وساد بعض السكون، ثم شعرت باليد الناعمة تشد يدها من جديد، وبقوة خفيفة تدفعها إلى المشي.. ومشت باستسلام نحو السيارة المغبرة القاتمة، ورغم أنها شعرت بالفضول لدى غرقها في المقعد الوثير، ومشاهدتها الآلات اللامعة المعقدة، فقد التفتت إلى الوراء والسيارة ترقص بدون تدريب على الطريق الذي لم ينس ترابه ضم الشجر بعد، واستجمعت في ذاكرتها كل الصور المزروعة في حناياها والتي نمت نمو زيتونة أصيلة، ودفنتها في الأعماق. وهي تتذكر أن سيدها حدثها حديثًا طويلاً جميلاً، وربت على كتفيها بحنان، وإن كانت نظراته تشبه نظرات شباب الضيعة، متفحصة منقبة.

لا تزال خطوات عصام تنقر في دماغها خطوة خطوة، وتصورت المنظر المعاد، والصوت الحاد الألثغ، وفكرت: عندما ينتهي من العشاء، سيرسل سعلة مصطنعة كانت كالإشارة المنبهة لقرب المعركة الفاشلة المعروفة النتيجة.

الزمن بالنسبة إليها صوت سيدتها مع ضوء الشمس، ولمسات رجل مع دكنة الليل الأصم.. رجل يختلف يومًا عن يوم.. لم تكن تعرف كيف لا يزدحم الأخوة الثلاثة نحو غرفتها في يوم واحد، وتصورت الموقف الساخر المرير، ولكن ذلك لم يحصل أبدًا، كأن هناك اتفاقًا ضمنيًا بينهم.. لقد ذهب زمن المشاحنات. وتواضعوا أخيرًا على نصيب كل منهم من لحم الفريسة.. بعد أن أباحها لهم.. ذات يوم محفور في دماغها.. ذلك الذي يضم جسدًا ذا فم يصرخ بالأوامر الباردة القاسية. لقد جاء سيدها، ولم يكن لها في البيت سوى أسابيع، وأذناه منتصبتان كذئب مداور، ولما خرج كانت مذهولة حائرة مضاعة.. لم

تقو على الصراخ والبكاء، وطار من ذهنها كل حلم عن حياتها الجديدة التي تبعث على الفضول، وفي يوم آخر مد يده المرتجفة الحارة نحو بطنها ثم قفز قائلاً بذعر أذهلها:

- العمى .. ولد؟

ودارت وراء الجدران الأحاديث ثم أخذ عصام يدلف نحو غرفتها بهدوء من يدخل حرمًا آمنًا تعود عليه وأعلنت سيدتها بحقد وغيظ:

- لا تخرجي إلى الحارة يا فاطمة.. الجيران..

وحتى مروان، أملها الذي بناه بأحاديثه اللطيفة ومعاملته الرقيقة لها، أضاعته ودفنت ذكراه في أعماقها، لقد ثار حينما نظر إلى بطنها المنتفخ، وشهد البيت خصومة شديدة بين الأخوين وتدخل الأب، وكانت الأم تقف حائرة في المعركة الدائرة:

- يا ملعونة، يا مطعونة أفسدت الأولاد.. البيت كان بخير قبل وجهك المشؤوم.

ولكن الأمور انحلت أخيرًا ببساطة حينما، أخذ مروان نصيبه من الغنيمة وتلاشت شيئًا فشيئًا شجرات البطم والسنديان والدلب من ذاكرتها المشوشة، وقلت نظراتها اللاهفة نحو السيارات الممتلئة، وأخذت تتعلم أن تنظر إلى الأرض ونسيت عادة الضحك، وانحصر همها في الانهماك في عملها المضني المتواصل.

لو أنها بقيت في الجبل، فكرت فاطمة وهي تسمع السعلة المتوقعة، وتزوجت وأنجبت أطفالاً تعتني بهم اعتناءها بخالد حينما كان لا يزال ناعم الصوت، بريء النظرة وطفرت من عينيها المهمومتين دمعة كبيرة.

- أنت تتعلم إيش يا خالد بالمدرسة؟

فينظر إليها ببراءة ويروح يقص عليها أشياء كثيرة جميلة، وقد أذكت حماسته عيناها المبهورتان وفرحها الطفولي بما تسمع:

- اليوم حفظنا قصيدة جديدة.. اسمعي..

- هذا شعر صعب ما أفهمه.. أنا أحفظ مواويل وأغاني جبلية..

وتروح تبحث الآن عن ذلك الوجه البريء الساذج في هذه السمات القاسية اللامبالية التي يطالعها بها وجه خالد وهو يعصرها بين ذراعيه في عنف مراهقٍ يعبر عن خجله المستسر.. ألا ما أطول الحياة..

سنتان يا ابنتي.. سنتان فقط، وبعدها تعودين!!..

وفتح الباب، وانتصب شبح أسود أخذ يخلع ثيابه في هدوء.

* * *

انفصلت عن جبل الليل منتفخة تعبة حذرة، سوداء حتى قدميها، وأخذت تتطلع إلى الخلف، تستشف من خلل الضوء البخيل الذي ينقط من مصابيح الزقاق الطويل شبحًا وراءها،وأحكمت وضع الملاءة حول خصرها، ثم وضعت يديها فوق بطنها المنتفخ، وأخذت تضغط بدون وعي، كأنما هي خائفة أن يفلت من بين أصابعها.. لقد صدر الأمر الثالث:

- لا تخرجي إلى الحارة يا فاطمة بعد الآن.. قد يراك الجيران!!

الليل بارد معتم، والزقاق يوشك على الانتهاء، وسمعت من بعيد صوت الترام يهدر ويرسل برنينه الباهت، وفكرت:

عندما يدخل مروان اليوم ويرى الفراش فارغًا!!. وضحكت بحقد، وتصورته يقفز مسرعًا إلى غرفة أبيه التي كان يعرف أنه وحيد فيها منذ ذهبت أمه في المساء إلى بيت أهلها وأعلنت أنها ستنام هناك الليلة، فإذا ما وجد أن أباه لم يغتنم الفرصة، شد قبضته بعنف واندفع إلى غرفتي عصام وخالد. إنه يريد أن ينتقم لحقه المغتصب. استوقفت الترام وهي تشعر بشيء من الزهو، وعندما أرادت أن تدفع، أخرجت صرة صغيرة معقودة عقدًا محكمًا، وأخذت تحاول أن تحل عقدتها، والجابي ينتظر أمامها بلا مبالاة من

تعود هذا الأمر من زبوناته من النساء، ولما أفلحت أخيرًا، وضعت كفها على الأوراق المالية القليلة التي كانت فيها، كأنما لتحجبها عن أعين الجابي الذي قد يظن بها الظنون لتملكها مثل هذا المبلغ، ولكن الجابي مد يده بتبرم وأخذ قطعة القروش العشرة وأرجع إليها قرشين ونصف، ثم سار وهو يهز جيبه الذي يوسوس بالقطع الفضية والنحاسية.

واستندت إلى المقعد، وأعادت الاسم ثلاث مرات: جميلة، جميلة، جميلة وتصورت الاستقبال الذي سوف تستقبلها به فيما إذ رأت وجهها.

وفكرت وقد ضاقت عيناها، كأنما تدفع عن ذهنها كابوسًا مزعجًا، بالغرفة الرطبة، وبالمناديل التي تعصب بها العيون بحجة كتم الألم، والصوت الحيواني لطفل صغير ينبعث مرتين أو ثلاثًا مستهجنًا العالم الذي جاء إليه، ثم تطبق عليه اليد الناعمة المألوفة فيصمت فجأة ويحشرج ويخمد تنفسه الأرعن.. ويتعالى صوت غليظ لا تعرف مصدره:

– بحياتك البركة يا فاطمة، الولد فطس. بطنك لا يمسك الأولاد!!..

وشدت يديها على بطنها بعنف، وتمنت أن يضعف هذا الضوء القوي الذي يكاد يؤذي عينيها، وشعرت بالارتباك.. كيف ستذهب، ماذا يقول من يعرفها، ولكنها ابتسمت، هذه هي الطريقة الوحيدة التي تفضحهم بها. سيحمر الوجه الخشبي من أقوال الناس وسترفض أية خادمة أن تدوس عتبة البيت، وستعرف خطيبة عصام لماذا كان حبيبها يتركها في وقت معين، كأنما هو ذاهب لموعد مضروب.

ونبتَ أمام عينيها الوجه القديم القاسي الملامح، واليدان ذواتا العقد..

سنتان يا ابنتي.. سنتان فقط، وبعدها تعودين!!..

وأحست باستحالة العودة، بدون أي سبب ظاهر، ماذا لو إنها انتظرت حتى الصباح، ثم ركبت السيارة نحو اللاذقية؟ ولكنها نظرت إلى بطنها

المنتفخ.. وخيل إليها أن دهرًا طويلاً جدًا كصحراء ممتدة، يفصل بينها وبين الماضي. لقد أخذت تستثير الرماد في القلب الكامد، الحافل بغرائب الذكريات وأعنفها، ولكن غبار الرماد أعمى عينيها وسد أنفها، دون أن تحس بذلك اللفح الحبيب الذي يدفيء الجوانح.

وفكرت بامتنان عميق:

- لو لم ألقها.. لكنت ضعت.

وتمثلتها جالسة على الكرسي العريض وحدها، ترمق بعيون رمادية تنبض حنانًا وتسيل فرحًا، طفلاً صغيرًا يركض على العشب ويتعارك مع الصبيان الصغار. كان ذلك يوم الجمعة الماضي، والأصيل يلملم أشعته الدافئة من على الأرض. وكان ذلك اليوم يوم نزهة أولاد سيدتها، ولم تأخذ في ذلك اليوم سوى حسان، لأن غادة كانت متوعكة، وكانت سيدتها قد سمحت لها بالخروج بعد أن تأكدت أنها ستسلك طريقًا لا يعرفها فيه أحد.

- خديجة.. إياك والجيران، سأنتف شعرك، سأقطعك إذا رآك أحد .. دعي الملاءة فضفاضة حتى لا يرى أحد شيئًا.. انحني في مشيتك إلى الأمام. اسمعي حسان موسيقى الدرك .. إياك أن يضربه أحد في الجنينة.

وعندما خرجت تنفست بارتياح، فقد كان هذا اليوم هو اليوم الذي ترتاح فيه من هذا البئر اللزج الذي تسميه بيتها، وعندما وصلت إلى حديقة البرلمان شاهدت الدرك، كالعادة، وقد جلسوا يستريحون وحولهم جيش من الأطفال.

لقد كانت تراها، في كرسيها العريض وحيدة كأنما قد حجزت الكرسي لحسابها، وكانت خديجة تستغرب هذه الأكداس من الأحمر والأبيض التي طرشت بها وجهها، فلا يظهر منه ما هو إنساني سوى عينيها النديتين المبللتين بالعطف، وهما تتبعان طفلها الذي ينط ويلعب عبر مسارب الحديقة.

ورغم أن لفاطمة بعض الصديقات من الخدم وغيرهن ممن ألفن أن يأتين كل جمعة إلى الحديقة، فقد كانت تلاحظ أن هذه المتوحدة المنفردة على كرسيها المعهود، تختلف عن غيرها، وسمعت الهمس يدور حولها، والعيون تتطلع إليها في فضول. وزجرت إحدى الأمهات ابنتها عندما شاهدتها قد جلست معها وهي تحادثها في اهتمام.

- اصح يا حسان.. اصح حتى لا تقع.

ولكن صرختها كانت متأخرة، فقد وقع حسان وطفل آخر على الحصى، واندفعت من فيها الصرخات، وأسرعت إليه ورفعته عن الأرض، ورأت يدين سمراوين مليئتين بالحلي والأساور ترفعان الصبي الآخر.

وتلاقت العينان وابتسمتا بود، ثم سارتا معًا إلى الكرسي المتوحد.

سألتها فاطمة وهي تتنهد:

- ابنك؟

- نعم؟

- هل لك غيره؟

- لا.

- لماذا؟

ونظر إليها الوجه المليء بالأحمر والأبيض بحذر ودهش:

- يكفي هذا..

- وأبوه هل يرضى أن..

وللمرة الثانية رفع إليها الوجه المليء بالأحمر والأبيض نظرات بدأت غاضبة ثم لانت شيئًا فشيئًا وهي ترمق البطن المنتفخ.

- لا أعرف من هو أبوه!

ونظرت خديجة حواليها وهي ترتعد، ولاحظت الوجوه ترمقهما بريبة وشك، وفجأة شعرت فاطمة بجرأة غريبة وسألت:

- هل أنت شـــ...؟

قالت المرأة بازدراء: نعم!!

- هل تستطيعين.. هل تستطيعين أن تحتفظي بأولادك .. أعني هل أنت حرة في.. ونظرت إليها العينان الحنونان النديتان بدهش، وكأنما فهمت صاحبتهما شيئًا في هذا الوجه المنكمش المبتهل، فربتت على يدها في عطف، ثم قالت بصوت يفيض رقة:

- تكلمي يا أختي.. احكي لي كل شيء.. اسمي جميلة.. ولكن..

وعندما رجعت فاطمة إلى البيت كان في عينيها بقايا دموع ونظرة غريبة حالمة.

نزلت من الترام في المرجة وقد أدركها الخوف والبرد معًا، وخيل إليها أن أضواء السيارات التي تمر إلى جانبها كالسهم تكاد تعميها.. وحارت في الطريق الذي ستتجه إليه، ولكنها تذكرت كلمات جميلة، فسارت محاذية لشاطئ بردى، حتى إذا رأت أمامها العملاق الأصفر، ذا الطوابق التي لم تحاول عدها، أدهشتها دمشق في الليل، وأضواء النيون المختلف الذي ينبض من كل الأنحاء، ورنت إلى السيارات الواقفة بعضها إلى بعض ساكنة كحيوانات كبيرة نائمة، وتقدمت من إحداها واجفة.

وفي تلك اللحظة فاجأها أكثر من بوق يعوي، وأصوات كثيرة مختلفة:

- تفضلي يا ست..

- هون أرخص..

- لوين يا حرمة؟

واقتربت من السائق الشاب وقالت في استحياء:

- عالمزة.

- لوين؟

- عالمزة!..

فصعّد السائق نظره فيها وقاسها، ثم قال بخبث:

- عالمزه، أم على طريق المزة؟

فقالت بقلب واجف وهي مطرقة:

- عالطريق.

ففتح لها الباب وهو يبتسم، ثم سار بها بسرعة أذهلتها..

ونظر إليها السائق في المرآة ثم قال:

- زبونة جديدة؟

فأطرقت ولم ترد بكلمة، وساد بعض الصمت قطعته بصوت مرتبك سائلة السائق:

- هل تعرف.. جميلة؟

فزفر السائق بارتياح وصفر، ثم قال:

- كيف لا ؟ ومن لا يعرفها في هذا البلد؟ ثم همس:

- أما أنا فرأيي أنها أحسن بنت في كل المحل.. مسايرة وأمينة ولطيفة.. ونظر إليها مليًا ثم قال:

- على كل حال البركة فيك أنت.

ودق قلبها، وأحست بمفاصلها تطقطق، ثم استندت على المقعد، كأنما هي سفينة مستسلمة للريح.

قال السائق وهو يبتسم:

- ما شاء الله.. هل أنت حبلى أيضًا.. هل تعرفين المثل..

وارتسمت على فمها ابتسامة، ووضعت يدها على بطنها في حنو، وعيناها نديتان مفعمتان بالأمل، ثم قالت بصوت حالم فيه نبرة زهو وخيلاء، حتى لقد التفت إليها السائق مستغربًا؟

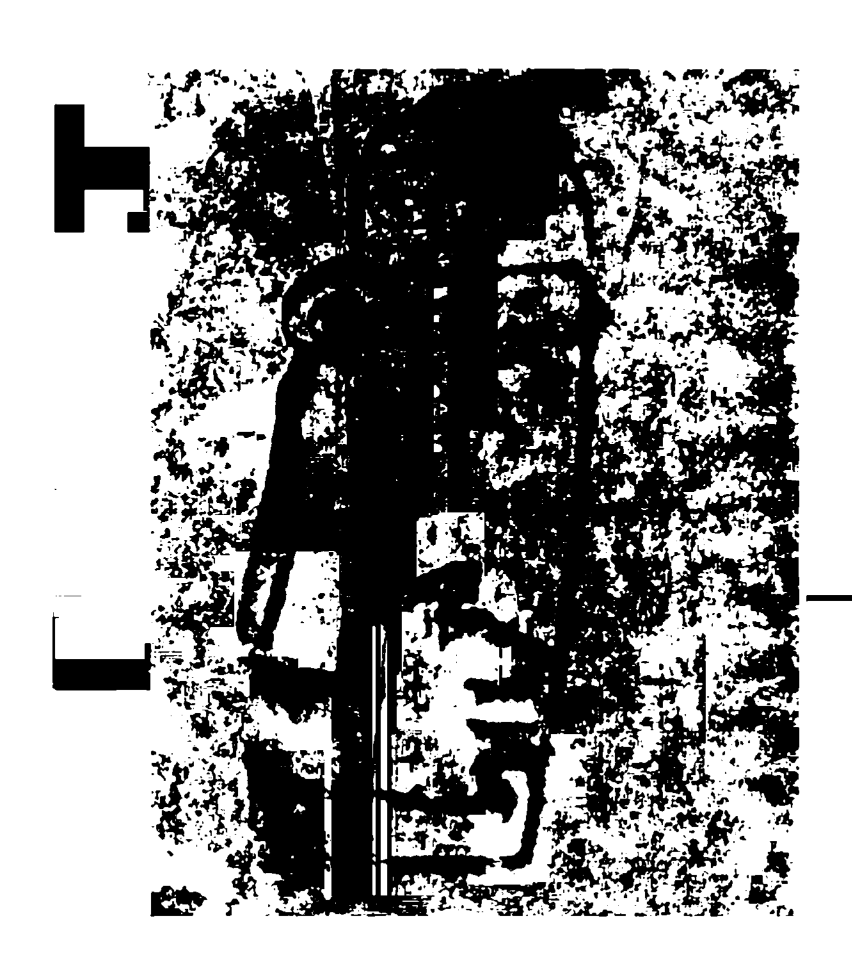
- نعم أنا حبلى.. إنه ولدي الثالث!

* * *

عَريظة استْرحام

الحـق؟ أنـه ضـائـع بـين الأقويـاء
والجهلاء!!.

(ديموستين)



إلى جناب حظرة الحكومة الموقرة في الشام، أدام اللّه بقاها ونفعنا ببركاتها أجمعين آمين.

سيسلمكم حاملها محمد بن إسماعيل عبد الساتر هذه العريظة معتمدًا منا جميعًا، وهو سيقول باسمنا كل شيء لسعادتكم، وكل قول أو حديث يصل إليكم من غير محمد بن إسماعيل المذكور، هو كذب علينا جميعًا.. ونحلف باللّه العظيم ونبيه الكريم على ذلك. والهمام محمد بن إسماعيل عبد الساتر شاب طويل أسمراني له خال على خده الأيسر ووشم أسد على ساعده الأيمن، وهو يقرط بالراء في كلامه فانتبهوا للعلامات جيدًا.

نحن أهالي قرية أم الربع التابعة لقضاء الميادين من محافظة دير الزور الموقرة، مجتمعون في بيت محمد علي، وقد كلفنا ابنَنا المحروس «سويلم النصر اللّه» بكتابة هذه العريظة إليكم، وكل كلمة فيها نقّلناه إياها جميعًا، فهي من كلامنا جملة، وتمثلنا كل التمثيل، وكل ما فيها مظبوط تؤيده عموم الوقائع الصحيحة التي لا مجال فيها للشك أو الابتعاد عن الحقيقة.

ولا نكتمكم أسيادنا، أن بعض المتهورين عندنا أرادوا أن يعملوا بعض الأعمال العنيفة بعائلة فايز الديراني لكثرة ما انزل فينا من مصائب وويلات لا يصبر عليها أحد، ولكن ذوي العقل هنا وخاصة المختار الشيخ سليمان المحمود، قرروا أن نقتصر الشر وأن نبعث إلى جناب سعادتكم بهذه العريظة، عسى أن تدبروا الأمر بحكمتكم، وما عرف عنكم من خدمة المظلومين آناء الليل وأطراف النهار.

ولقد قال لنا بعض الشباب المتهورين أيضًا، أن هذه العريضة ما تساوي حبة قمح وأنكم لن تردوا عليها أبدًا .. لأن فايز الديراني متنفذ عندكم

في الشام، وهو قريب للوزير أسعد الشامي، والمذكور يساعده علينا، ولكننا نعلم وتعلمون أنه ليس لنا بعد اللّه سبحانه إلا أنتم، وأن عدالتكم التي تشبه عدالة عمر بن الخطاب، الذي اقتص من أمير هشم أنف أحد الرعية عندما داس هذا على ذيله.. إلى نهاية السالفة الأنفة الذكر التي تعرفونها أكثر منا، والتي لاشك أنكم درستموها في الكتب القيمة.. نقول أن عدالتكم تأبى أن تتأثر بمثل هذه المشاكل الكذابة التي يشيعها عنكم أعداء لهم فيها مآرب ومصالح.

أسيادنا أعظاء الحكومة الموقرة في الشام.

من قلوب منفطرة، وأعين دامعة نبعث إليكم بهذا الاسترحام .. أنتم تعلمون حظرتكم أساس الخلاف بين أهالي قرية أم الربع، وفايز الديراني، فنحن قد ولدنا في القرية المذكورة وكذلك آباؤنا وآباء أبائنا، بل أن محمد العبد اللّه يملك ورقة قديمة في بيته تمثل شجرة عائلته ترجع على حد قوله إلى أبينا آدم عليه السلام. وكل هؤلاء الأجداد كانوا فلاحين في قرية أم الربع.

وفي زمن الترك الأسود، جاء من دير الزور، قبل حرب السفر برلك أبو فايز الديراني المعروف بمحمد الديراني، واشترى قطعة أرض على الفرات في الناحية الشرقية تبلغ مئتي دونم فقط، من أسرة جاد اللّه الفرحان التي بقيت في الأرض إياها تشتغل له بالأجرة. وحاول محمد الديراني أن يشتري قطعا أخرى من أهالي قريتنا ولكن بدون فائدة، فاقتطع بواسطة المتصرف التركي، مدحت محمود أبو الكرباج ما ينوف على ثلاثة آلاف دونم من أحسن ما في الأرض الشرقية من مساكب القمح، مع بساتين من الأرض الغربية، وشرد أهالي هذه الأراضي نحو الصحراء العراقية بعد أن قتل منهم خمسة وجرهم في طريق القرية بواسطة الجنود الترك السكارى أمام أعين الفلاحين.. وأنتم تعلمون يا أسيادنا أعضاء الحكومة العلية في الشام، أن الزمن التركي والعياذ باللّه كان زمنًا أرذل من فيضان الفرات، وكان خاليًا من الرحمة وخوف اللّه، فقد كنا نخبئ يوميًا الدجاج والخرفان في الأراضي

البعيدة، خوفًا من غزوات العساكر الأتراك المتتالية، ونتحمل الضرب الشديد بالكرابيج والعصي، أما بناتنا فقد كنا نبعث بهن منذ ظهور الفجر نحو البساتين حتى في عز الشتاء، حتى لا تقع أحداهن فريسة للعساكر السكارى الذين كانوا برتكبون فواحش ومنكرات لا نستطيع تأدبًا أن نذكرها لأسماعكم الشريفة.

ولما ذهب زمن الترك المشؤوم أتى زمن ألعن وأدق رقبة. زمن الفرنسيين أعداء الوطن والدين، كان محمد الديراني قد مات وقام مكانه، ابنه فايز الديراني المعروف لدى جنابكم تمامًا. وقلنا عسى أن يكون الابن أحسن من الأب، ولكن يا للأسف وكما يقول المثل (طب القدرة على تمها لا تطلع لغير أمها) والعرق دساس ونستغفر اللّه، فإن فايز السالف الذكر كان أنحس من أبيه الذي يستقبل الآن الملك الجبار يحاسبه على كل شروره وذنوبه التي فعلها معنا، وصار يمشي على خطواته ورحم الله أهل الأمثال ما تركوا شيئًا لم يقولوه: الثلم الأعوج من الثور الكبير.

وأنتم يا جناب الحكومة قد جاهدتم الفرنسيين في سبيل اللّه بأموالكم وأنفسكم تحقيقًا لقوله جل وعلا: وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم. صدق اللّه العظيم.. وتعلمون جيدًا أساليبهم الظالمة في معاملة عباد اللّه !!.. وفي يوم شؤم من أيام الشتاء، جاءنا خمسة من الدرك ومعهم أمر سلموه إلى المختار، بنزع كل ملكية أراضينا منا بحجة عدم حملنا لسندات تمليك رسمية أولا، ولأننا لم نكن نحلب صافيًا مع حكومة الفرنسيين ثانيًا. وطارت عقولنا لأننا سمعنا الشيء الكثير عن أولئك المشردين الذين هجروا إلى بر العراق، فقتلهم البدو وأخذوا بناتهم لأمر لا يريده اللّه، وأخذنا نبكي ونسترحم بدون فائدة، كأننا نكلم نقرة أحجار . ولم نستطع أن نقاوم لقلة السلاح الذي أخذه الفرنسيون في حملة تفتيش واسعة قبل سنتين، فالعين بصيرة واليد قصيرة والعين لا تقاوم المخرز كما يقولون.

وجاءنا في اليوم الثاني فايز الديراني فجأة كالجنّي، وأخذ يضحك في وجوهنا، وعزَ منا إلى مضافة المختار، وهدّأ عواطفنا، وأقنعنا أنه ذو مكانة كبيرة عند الفرنسيين هو وقريبه وزير الزراعة الحالي أسعد الشامي. ولأجل أن لا نشرد من بيوتنا، ويصيبنا ما أصاب غيرنا ممن ذهبوا إلى بر العراق ولم يرجعوا حتى الآن، قال لنا: لينزل رؤساء العائلات معي إلى جناب الحاكم الفرنساوي، ولتقولوا له : إن هذه الأراضي ملك فايز الديراني حتى لا يأخذها، وعندما تنكشف الغيمة، ويتغير الحال، يعيد فايز المذكور الأراضي إلينا.

وخضعنا يا سادتنا أعضاء الحكومة الموقرة للأمر الواقع، وسلمنا أمرنا إلى واحد أحد، فرد صمد، قائلين لن يصيبنا إلا ما كتب اللّه لنا هو مولانا إلى آخر الآية... وظللنا في أراضينا نتقاسمها مع فايز الديراني الذي كان يأخذ النصف بدون أي حق، وكان كلما نقّصنا عليه مدًا واحدًا من القمح، يهددنا بفسخ الاتفاق، وهكذا كنا نصبر ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم .

وبدون طول سيرة عليكم، وحفظًا لوقتكم الثمين لأننا نعلم أنكم تنظرون يوميًا. مئات من العرائض المشابهة لعريضتنا هذه.. صبرنا على هذا الوضع الظالم حتى عهد الاستقلال.

وفي عهد الاستقلال يا سادتنا قمنا بحمل على قدر الحال في ضرب الفرنسويين أعداء الوطن والدين. وهاجمنا الثكنة في (الميادين) بالاشتراك مع أهالي البلد المذكور. وقتلنا جماعة غفيرة منهم وغنمنا من السلاح مقدارًا كبيرًا.

وعند مجيء فايز الديراني إلى أم الربع، طالبناه بفسخ الاتفاق، ولكنه يا للعجب ضرب الطمع في رأسه وسبنا وشتمنا وقال أنه ليس لأحد منا حق في الأرض بتاتًا، وأنه تفضلا منه يبقينا في أراضيه التي يعلم اللّه ورسوله والناس أجمعون قصته معها ومعنا.

عند ذلك غضبنا غضبًا شديدًا ما عليه من مزيد، وضربه المختار وكسر شوكته في نصف المضافة فخرج يهدر كالجاموس، وفي اليوم التالي، وفي عهد الاستقلال يا سادتنا، جاءنا عشرة من الدرك، فضربونا وأهانونا أمام حريمنا، وشتمونا بألفاظ فاحشة مخجلة، وشدوا الشيخ عثمان من شيبته نحو الأرض وأشعلوا بلحيته النار حتى اضطر لإلقاء نفسه في الساقية لإطفائها، وأخذوا خمسة وعشرين رجلاً منا إلى السجن مع أربع نساء إحداهن فاطمة العليوي زوجة المختار نفسها.

وماذا نقول لحضرة جنابكم بعد ذلك؟ وماذا نذكر من الحوادث التي يشيب لهولها الأطفال الرضع في السنوات السبع التالية؟ كنا دومًا في أخذ ورد، وكر وفر مع فايز الديراني المذكور، واسمحوا لنا هنا، ولا مؤاخذة، أن نؤكد على تحيز حكام عهد الاستقلال له. كأن الحكومة لم توجد - وحاشاكم- إلا لتعين علينا أعداءنا، وتضربنا، وتسجننا، وتناصر علينا هذا الرجل الذي هبط علينا بلاء من السماء. فوق بلاد القحط وفيضان الفرات.

تحملنا كل شيء كما هو معلوم لدى سعادتكم و ولكن قبل شهرين طفح الكيل وطرأ شيء جديد مخوف على أرضنا، فقد سمعنا زعيقًا ذكرنا بأيام طيارات الفرنسويين، ثم رأينا ما لم نكن نصدقه منذ أيام، رأينا خمسة من الآلات الحديدية الكبيرة التي يسمونها الطراقتورات، والتي نعرف أنها تحصد في يوم واحد ما يعجز عنه عشرون فلاحًا في دورة قمر كاملة، ومزقت هذه الشياطين المرعبة أراضينا كالحيتان الكبيرة.

عند ذلك، وأنتم تعذروننا تمامًا يا سادتنا أعضاء الحكومة، فقدنا صبرنا وعقولنا، وعرفنا من السوالف والقصص التي جرت في القرى القبلية، حيث تشرد الفلاحون من هذه الآلات.. أننا سنهلك نحن أيضًا!! فهجمنا عليها بالبواريد والكرابينات واحرقنا اثنين منها، وهرب الباقون نحو الميادين.

وبعد ساعتين فقط، جاءنا جيش كامل من الشرطة والدرك وخلافه، يركبون المصفحات مما ذكرنا بعهد الفرنسويين، وانهالوا علينا بالرصاص. ثم قلّعونا نحو الشرق، وقتلوا منا سالم عبد ربه والطفل حميدان الراعي والمرأة صالحة بنت عبد الحق وجرح منا أربعة.

وبتنا تلك الليلة في العراء تحت المطر والبرد الشديد.

ونحن معذورون، والبادئ أظلم، في أن نرجع في اليوم الثاني إلى القرية، وكل منا واضع الموت أمام عينيه، وحامل روحه على كفه. فاحتللناها بالقوة، حيث معلومكم، كل ما لنا من طعام ومؤن موجود في القرية، ولا نستطيع أن نموت كالكلاب الجرباء بعيدين عن أراضينا وبيوتنا.

والآن يا أصحاب المعالي، نحن لا نستطيع أن نخرج كل يوم من أراضينا كلما جاءتنا قوة، لنعود إليها عندما تغادرها، وقد مات منا الكثيرون ومرض الأطفال والنسوان. وظننا، وبعض الظن إثم: إنكم أنتم تتعدون علينا لا فايز الديراني، واعذرونا يا سادتنا الكرام على هذا التطاول، فقد وصلت أرواحنا إلى حلوقنا وبلغ السيل أعلى الجبل.

أفيدونا أفادكم اللّه، انقذونا بحق المصطفى أعانكم اللّه، ارفعوا الظلم عنا فقد كدنا نفطس ونموت كالخيل المصابة. اسمعوا استرحامنا واقبلوا عريضتنا بحق جميع الأنبياء والرسل والأولياء الصالحين، أنتم لكم أولاد وبنات فاحموا أبناءنا وبناتنا من هذا الرجل الذي لا يخاف اللّه والذي يناكدنا ويعتدي علينا. واللّه العظيم وحقِّ نبيه الكريم وحق الخلفاء الأربعة الراشدين لم نجن ذنبًا واحدًا وكلنا مخلصون للاستقلال وقدمنا البراهين على ذلك. أتريدون أن نموت جميعًا من الجوع والبرد؟ حاشاكم !! ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، لاقوا لنا بعقلكم الحصيف الراجح مخرجًا يخرجنا من هذه البلوى ربنا يستركم ويفتح عليكم وينصركم على عداكم ويدخلكم جنان رحمته إنه سميع مجيب.

(حاشية) نسينا أن نذكر لكم أن فايز الديراني قد اعتدى على خديجة الأزرق بنت الشيخ محمد علي، وجعل البنيّة خاسرة بائرة، وقد رمت المسكينة نفسها في الفرات ولاقت وجه ربها الذي لا يضيع عنده الحق.

(حاشية ثانية) سنموت جميعًا قبل أن نخرج من الأرض.. امنعوا الطوشة والمذبحة نحن واثقون بعدالتكم أن لا تتركونا نموت بحق المصطفى المختار.

(حاشية ثالثة من المختار) لم يبق عندنا بذار، والدرك يمنعونه عنا أراضينا ساكنة مستريحة انجدونا قبل أن يفوت الوقت.

(حاشية من الجميع) الرجاء من سعادتكم أن لا تُطلعوا الوزير أسعد الشامي على العريضة وإلا بدل الحق بالباطل.

(حاشية خاصة من كاتب العريضة سويلم النصر اللّه) كل ما جاء في هذه العريظة لست مسؤولاً عنه وحق النبي، إنه تنقيل من كل أهالي القرية.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

في ٢٨ رجب ١٢٧٤ هجرية

ويلي ذلك مئة وتسعون بصمًا بالإبهام مع خاتم المختار وإمضاء سويلم النصر اللّه.

عَـادَ المدمـن

«أما إذا كنتم يا أهالي ميلوس تنتظرون الخلاص من «السبارطين» فإننا نطمئنكم أنهم أكثر من أي شعب آخر يعتبرون مصلحتهم وحدها مقياس العدالة!! وإذا كان اعتقادكم غير ذلك، فإننا نهنئكم على براءة قلوبكم، ولكننا لا نحسدكم على جنونكم..»

[توكيد يدس]
[الكتاب الخامس]



هناك نوع من الحساسين، صغير بحجم قلب طفل، لا تعرف أشجارنا وجبالنا أروع منه حلة ولا أبهى رونقًا، كان حلمًا من أحلام الغصون المثقلات بالجنى والعطاء. كان يكفي أن يفتح منقاره المذهب، حتى تصغي البساتين والغابات بغبطة لتسمع إلى أول مناغاة من طفلها، وتصفق الأوراق بخفة وترقص رقصها للواكف المنهمر وتهتف:

– إنه السكير .. لقد عاد المدن.

وتمد الأذرع الخضراء داعية في ابتهال، ولكن حسون الدنان – وهذا اسمه – يحط على صديقته الأثيرة، شجرة الرمان الصغيرة، ثم يدور حولها رائزًا متفحصًا حتى يختار إحدى أكبر رماناتها، فيمسك بغصنها ويقصه بلطف وخفة، فتسقط الرمانة الناضجة على الأرض اللينة، فيدحرجها بشغف إلى طرف وهدة تخفى على الأعين، ويروح ينقرها حتى يسيل دمها، فينصرف مزغردًا لحظات يعود بعدها إلى كنزه فيمص من جديد السائل الحلو اللذيذ، ويظل يتابع طيرانه ورشفه حتى يفرغ رمانته من لبها تمامًا، فيتركها في الشمس حتى تيبس.

وعند ذلك تبدأ عملية هذا الخمار المدهشة، ينسى شدوه وشعره وينصرف إلى العمل بهمة.. إن عليه الآن أن يملأ هذه الخابية الصغيرة بالعنب والتين، وها هو ذا ينقل إليها ناصح الحب وذائب الشهد.. ويظل يجوب البساتين باحثًا منقبًا حتى بملأ دنه، وعند ذلك ينقل إلى باب الخابية الصغير القش والطين حتى يختمه ويرصده، ويحفر حفرة تتسع للرمانة الملآى ويدحرجها حتى تستقر فيها ثم يغطيها بالتراب ويعود من جديد ليملأ خابية أخرى.

فإذا تمت مؤونته مع قدوم الشتاء ضرب بجناحيه الأجواء مغنيًا أغنية الوداع ويختفي في الأفق سهمًا صغيرًا ملونًا لا يعرف أحد أين يذهب، وتظل خوابيه مدفونة تخمر بهدوء نبيذه الرائع.. وتمر أربعة أشهر حتى تطيّب المدى أولُ ريح دافئة مزهرة ومن حيث لا يدري أحد.. تدنو من الأفق عصائب أسهم ملونة قوس قزحية. تنزل بثقة لا حد لها، وتنبش التراب وتفتح الختم المرصود وتمد مناقيرها بوجل وتذوق نبيذها مرة ومرتين، ثم تعب منه بفرح.. فيتعتعها السكر وتقفز نحو الأشجار مترنحة مرتجفة الأجنحة، وتفتح مناقيرها المحمرة.. وتسمع الطبيعة شعراءها من جديد يرسلون صلواتهم لأمهم حارسةِ الدنان . ونقول الأوراق لأمها الشجرة بجذل:

– لقد عاد السكير .. لقد عاد المدمن.

* * *

تحت السنديانة العجوز، تعالت أصوات حاقدة هادرة، كان هناك جماعة من أصحاب البساتين يرتجفون من الغضب وهم يستمعون إلى حسون الدنان يصلي في محراب الكون ناشرا الفرح والحب حيثما حل، ودنوا من شيخ هادىء مذعور وهم يهزون قبضاتهم:

– لقد خرقت ولم تعد الناطور المثالي، أن يديك واهنتان، وقدميك قد دب فيهما الكلال.

ونبر في وجهه ناصب أفخاخ شاب:

– إن تلطيخ الأشجار بالدبق، ونصب الفخاخ في الحقول طريقة عميقة وقديمة، لقد أفسد هذا الطائر اللعين البساتين وها هي الأرض تمسك عنا خيرها، إن ما يضعه هذا السكير في التراب يجعل للثمار طعمًا مرًا، ويميت بذورنا بالتعفن.

كانت الأرض تحدجهم بألف عين رمادية.. وكان اعتكارها يجعلهم قلقين.. لا لم تعد أرضهم التي عهدوها.. إن وقع أقدامهم عليها يابس، وكان

يسمع من تحتهم تقصف غاضب.. ومن الشقوق المنتشرة إلى ما لا نهاية، كان تنفس حار يترك العرق يتصبب من أجسامهم، هي ذي رئة الأرض التي لم تبق صديقة.. وهذا القرع العدو خفقات قلب لا يعرف السلام.. لقد لبسوا نعالاً سميكة.. ولكن التراب يلهبها. وشعروا بأنهم غرباء، ولمعت في عيونهم بحيرة دم.

وانبرى ملاّك آخر:

- القتل .. الإفناء، هذا هو الحل الوحيد.

وارتجفت السنديانة العجوز من فوقهم وهدَّلت أوراقها في بؤس وتقدم شاب طويل القامة وقال بهدوء:

- كفى مهاترات.. لنتحد جميعًا ضد هذا السكّير الوقح إن طريقتنا القديمة في مكافحته منفردين أصبحت غير مجدية وها هو دومًا يتكاثر حتى يكاد يسد الأفق، والأصح أن نعمل بسرعة، وأرى أن يقودنا دم جديد، شاب لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلاً.

- من تقترح؟ من تقترح؟

ورفع الناطور العجوز رأسه وقال بخبث:

- لقد عبرت عن رأيك بقوة، قدنا أنت، أما أنا فقد تعبت.. تعبت حقًا.

وصاح الجميع بقوة:

- نعم قدنا أنت.. أنت وحدك القادر على افنائهم!!

قال الشاب بنفس الصوت الهادئ:

- لا معارضة؟ أريد أن آمر فأطاع.

- لا معارضة لا معارضة.

- اذهبوا إلى البيوت وأحضروا بنادقكم، وأتوا أيضًا بصفائح البنزين، سنحرق قصلات القمح وسيفسد الهشيم المشتعل كل الخوابي، وسنفتش

الأرض شبرا شبرا بحثًا عن هذه الدنان المسمومة، ولن يجد هذا النبَّاح شيئًا يغني من أجله.

وصاح الجمع وقد هاجته الحماسة:

- لن يجد شيئًا يغني من أجله، لن يجد شيئًا يغني من أجله.

- سنضع الحرس على كل أشجار الرمان والتين والعنب، وسيجدنا بانتظاره.وعلا صياح الجمع المترنح:

- سيجدنا بانتظاره، سيجدنا بانتظاره.

وانبعثت من فم القائد تكشيرة ماضية، ولمعت عيناه بنظرة رمادية قاسية وصاح:

- لقد أفسدت الحقول والبساتين وهي تسمع مديحها كل يوم من فم هذا العدو التافه،. يجب أن تأتي بمن يمدحنا نحن، من يغني أمجادنا.

ورفع العجوز رأسه قائلاً بنفس خبثه السابق.

- ومن تختار؟ من يقبل أن يترك الطبيعة والأرض ويغنى بمديحنا.

فقال القائد الجديد بحزم:

- ليس هناك سوى البوم والغربان.

وساد وجوم قطعه القائد.

-أنا أعلن أنها لن تعقد صداقة سريعة مع الأرض ولكن العادة تمهد كل شيء، وعندما لا يسمعون سوى النعيق والنعيب سيظنون أنه لا يوجد في الدنيا غيرهما. والآن هيا إلى العمل.

ورددت بعض الأصوات بحماسة:

- إلى العمل.. إلى العمل..

ولكن آخرين انفصلوا عن الجمع.. وأخذوا وهم مطرقون، ينصرفون الواحد بعد الآخر .. إنهم من أعماقهم وقد رأوا عين القائد الدامية، يكرهون

القتلة والغوغائية والانقياد، ويحنون إلى حد ما صوت حسون الدنان ولو على حساب بعض أرزاقهم، وكانت عين القائد تخترق ظهورهم محتقرة.

- خياليون .. جبناء.. ما بقي يكفي.. إن معنا السلاح، فلنسرع إلى العمل.

وذهبوا يتراكضون نحو البيوت ولم يبق تحت السنديانة الحزينة الصامتة، سوى الناطور المخلوع الذي نظر إلى الجمع المبتعد وهز رأسه بأسى وهمس.

- شباب!!

وفي تلك اللحظة سمع صوت حسون الدنان وهو ينشد إحدى أحلى أناشيده فتأمله الشيخ لحظة بنوع من الكره.

وهمس مرة أخرى:

- لن يفلحوا !!

* * *

وبدأ الرعب الأكبر .. واجتاح الحقول والبساتين طاعون أصفر، خفّت الأصوات المرحة الشادية، وامتلأت الأجواء الساكنة الحالمة بأصوات الرصاص وصيحات الحقد، ونكست الأزهار تيجانها بذل تاركة لرائحة الحرائق الخانقة تلويث المدى .. وفي الظلام، كنت ترى بريق العيون الحمر الذئبية وهي تتفحص المصائد وتنبش التربة، حتى إذا وقع حسون دنان مسكين ضحية شراكها الغادرة بادرت أيد خبيرة، فنتف ريشهُ وكسر منقاره، وفقأت عيناه، ورمي تحت الأقدام تدوسه في قسوة وجنون. ثم تحفر له حفرة صغير بلقى فيها ما تبقى منه وتنطلق العيون الحمر الذئبية إلى مصيدة أخرى وقد أسكرها النصر.

وسمعت الغربان وعصائب البوم بدعوة أصحاب البساتين وبمأساة الحسون الخمار، فتواردت بأعداد كبيرة، وأخذت تنعق وتنعب ممجدة المذبحة.

وأصبحت تواكب الباحثين مبحوحة الحناجر، ممدودة الألسنة، غدافية الأجنحة. وكان أصحاب الأرض يصرخون:

- هذا هو الغناء الشجي، هذه هي الأصوات الحقيقية.

وترفع رمانة قديمة رأسها بجهد وقد أثقلها الغم.

- يا له من زمن يقف على رأسه.. إنه لأسوأ من غزو الجراد.. لقد عشت لأرى الغربان والبوم ترفع أصواتها فوق غصوني.

وانتفضت نفضة فتناثرت نصف أوراقها على الأرض.

وكانت عصائب البوم والغربان تكثر وتكثر، وكانت تحط دائمًا على السنديانة الضخمة وتملأ الأفق بنذرها المشؤومة. وكانت السنديانة من تحتها تحس بنفسها دبيب الفناء، وهو شعور بدأ يلف الغابات والبساتين جميعها.. إن شيئًا عزيزًا كالنسغ قد اختفى منها.. كان ضميرها معه غائبًا، بينما يقبع على أغصانها حثالة الطيور.. وإلى السنديانة توجه المالكون أيضًا، كانوا متعبين حتى الإنهاك، وقورين.. في عيونهم شماتة غير مبررة، وفرح ينطفئ لافتعاله.. وكانوا يعزون أنفسهم بأن الأصوات المعروفة للحساسين قد خفتت، وكانوا يقولون: من الصحيح إن غناءه لم ينقطع رغم طلقات الرصاص وأصوات الجوفة المنكرة، ومن الصحيح أن البساتين كانت تنتعش وتتفتح زهورها لسماع شاعرها المحبوب، ولكن طلقة بندقية وغاقا واحدة، كافيتين لإسكات الصوت الجميل ولو إلى حين.. ولو إلى حين؟ وكانت هذه المدة الزمنية تجعلهم يغصّون، فمن مكان ما في الأفق، كان يبرز سهم ملون، وكان يندفع إلى الأرض حيث يبدأ بالحفر، وكانت رمانة، حفظها له قلب الأرض البني تتوهج مختومة الأرصاد، وكان يعبّ منه وينطلق منشدًا أعذب قصيدة يمكن أن يقولها شاعر، وعند ذلك كان كل شيء ينصت حتى الغربان والبوم، وكان المالكون يسدون آذانهم وهم يرون السهم في أعالي الفضاء، لا تطاله

بنادقهم ولا تؤثر فيه شتائمهم فيوقظ الغابة المريضة والأشجار المسلولة والأزهار الهاجعة، ويذكي فيها جميعًا حبها القديم المعتق كخمره المعتق.

وكانت الجماعة التي تكره القتلة والغوغائية والانقياد يختبئون في بيوتهم، لقد قتل أحدهم منذ زمن لأنه ضبط مستمعًا لحسون ينشد، وكانوا يعرفون أن المذبحة ستمتد جذورها إليهم، وأن القائد وأتباعه أصبح القتل لديهم غاية، وأنهم إذا لم يجدوا من يقتلونه فقد ترخى البنادق نحو الصدور وتضغط الزناد أيد عصبية لم تغفر لهم ترددهم السابق.. وكانت الأرض ترتجف.. وكانت الجبال ترتجف.. وكان الرجال يرتجفون. وكان الصمت يمتد ويزحف أعلى من هدير بحر، وكان القتلة قد أخذوا يخشون هذا الصمت أكثر من أي شيء آخر، وكانوا يضربون الرصاص في الهواء علَّهم يسلّون أنفسهم.. ولكن الأرض ما تزال ترسل تشققاتها نسيمًا حارًا، ومازالت الضربات تطرق بهدوء وثقة من عمق الأعماق آذانهم.. إن القلب لا يزال يخفق، وكانوا يؤمنون أن سر هذه الأرض لا يمكن أن يكتشف.. إنها ما تزال تخبئ شيئًا.. شيئًا لعيننا لا يمكن النفكير بمدى خطره. وكانوا يقولون لقائدهم بصدق:

– لقد فعلت كل ما تستطيع .. استنفدت كل الحيل.. ارتكبت جميع الجرائم.. ولكن يخيل إلينا أن هذا الوطواط الهزيل عصيٌّ على الفناء.

وكان الناطور العجوز يهز رأسه بأسى:

– لقد فعلتم الكثير مما لم يستطع خيالي الكسير أن يحلم به، بلهَ أن يحققه..وصمت قليلاً ورفع رأسه فرمقهم بشجاعة وصب نظراته على القائد:

– ولكن.. ولكن إذا أتينا إلى النتيجة فماذا نرى؟

خربَت الأرض وجُرِجت وتغيرت معالمها، وعصائب غربان وبوم ينفرون الغابات، وأصوات لا تزال – على قلتها– تبعث في كيانها رعشة الحياة وسحر الوجود.

فرمقه القائد بنظرة ذابلة مستخفة.

- ها .. أنت الآن تندب الأرض المخربة.. رنها أرضنا جميعًا من أقصى الشمال حتى الجنوب من البحر إلى البحر، ولست أنت أكثر غيرة عليها منا.. ارتح قليلاً يا أبتي فقد دب فيك الخرف. ورفع العجوز رأسه وقال قد جمعت فيه الاهانة ما تبقى في صدره من حمية:

- عفوًا سأغادر .. لك الأرض فدبر الأرض .. ولكن اسمح لي أن أقول لك قبل أن أذهب.. لن تفلح.. لن تفلح.. هذا الحسون أصبح جزءًا من الطبيعة ولا يمكن فصله عنها إلا بافساد الجهتين معًا، وأنا أقول رغم كل ادعاء ان إبادته مستحيلة.. كمنع الزهور من نشر الزريج والأشجار من صوغ الثمر.

فأطلق القائد ضحكة مستطيلة مرعبة أرسلت الخوف إلى قلوب انصاره حتى لقد ظنوا به الجنون ونبر :

- إنني أتركك تذهب.. أحمد اللّه أن صدري واسع، ولكن دعنا، نحن الشباب، ندير أمورنا بدون مواويلك الرثة.. لقد تخليت لنا عن المهمة وها أنتذا تشيع روح الضعف والانهزام في صفوفنا.. اذهب الآن .

فابتعد العجوز تواكبه نظرات القائد المحتقرة ونظرات اتباعه القلقة.. لقد كان العجوز جزءًا منهم، ،ولكنه كان الجزء الذي مات ودفن في نفوسهم.

وانبرى شاب ذو نظارتين يقطع الصمت المخيم.

- لقد لاحظت أن الحسون لا ينشد إلا عندما يشرب من الخمرة التي زرعها في الأرض.. إنها الشيء الأساسي الذي يسحر الغابة.. فلنكف عن إطلاق الرصاص، ولننصرف إلى نبش الأرض بعناية فإذا لم يجد حسوننا شيئًا يشربه، فلن يكون صوته إلا كصوت غرباننا وبومنا سواء بسواء.

فاهتزت جماعات الغربان والبوم للإهانة ولكنها رفعت نعيقها ونعيبها بذلة وخنوع.

قال القائد موافقًا :

- لنبدأ الآن.. ليس هناك أي وقت نضيعه.. لنحرث الأرض، ونقلب الشجر، فإذا ما خسرنا بعضه، فلن يوازي ذلك بأي حال من الأحوال الفوائد التي نجنيها.. واقتلوا كل من يقف في طريقكم من المترددين وتذكروا أنها معركة حياة أو موت .. ضعوا مكان قلوبكم أحجارًا. لا أريد أية شفقة، مطلقًا.. مطلقًا!!

وحُمِلت المشاعل في أعماق الظلمة، وطُعن صدر الأرض بالحديد، وجعل عالي التراب سافله، واقتلعت جذور الأشجار.. وحلق العشب بشفرة مسمومة.. ولكن عبثًا!! فما من أحد منهم وفق إلى أن يجد رمانة واحدة، وكانوا ينتفضون جنونا وهم يشمون رائحتها، بين أيديهم وقدامهم، وخلفهم، وكانت الكلاب تتشمم وتنبح ولكن الأرض كانت تخبئ دنانها، وبح النعيق والنعيب، وعادوا منهكين وقد امتدت ألسنتهم شبقًا إلى الدم، وارتجفت أذرعهم بحمى الانتقام، ولكن اليأس أخذ شيئًا فشيئًا بخناقهم، ورفعوا أعنافهم نحو السماء يلتمسون الهواء، ولكن السماء كانت مغلقة كمدفن في هرم، ورمى القائد مشعله على الأرض ساخطًا لاعنًا، فوقع على شجرة يابسة فالتهبت كجثة عتيقة وتعالى الصراخ:

- الحريق.. الحريق.. النجدة.. النجدة..

ولكن الصراخ كان متأخرًا، فقد أعدَت الشجرة المحترقة أختها، وارتفعت أذرع اللهيب المشوقة نحو السماء وعدت بين الأشجار مزغردة مقبلة بشفاه وردية كاوية كل من يقف في طريقها وكان القائد يقول:

- إن بساتيننا تحترق.. لقد ضعنا.. لقد ضاع كل شيء سأمزق السماء والأرض .. سأقتل.. سأذبح..

ولكن أحد لم يستمع إليه فقد كانوا يتراكضون كفئران مذعورة، وحوصروا بالنيران من كل جهة، فأخذوا يهربون من بين الفرج، وسكت

النعيق والنعيب دفعة واحدة وغطى السماء فرار اسود، ولكن اللهيب ظل يستشري مطهرا في طريقه كل شيء، جاعلا البنادق وأصحابها هباء، ومن بعيد كان القائد الهارب ينظر إلى المسرح المتلظي بأسى وهو يعض أصابعه:

- إنها لأرض ملعونة منذ الأبد .. سأذهب إلى أرض أخرى وأسرع مبتعدًا وراء الجبال تاركًا أصحابه بجبن.

حتى إذا طلع النهار.. لم يبق في البساتين سوى جثث سود محترقة، وأشجار تابوتية مرعبة، وأرض مكفهرة مغطاة بالرماد.. وبدا أن كل شيء قد انتهى إلى الفناء، ولكن هسهسة خفية ساحرة، أشبه ما تكون بحركة وليد يرعش للشمس كانت تنبعث من قلب الغابة والحقول والبساتين.. حركة خفيفة ولكنها حازمة ومتوقدة بالحياة، حركة كامنة وراء القشور المحترقة والأوراق المشوهة، والأرض الملطخة.. كان ذلك رئتي الحياة تتنفسان هواء العافية، وكان هناك شيء منتظر، ومن بعيد قدمت البشرى.. دنا سهم يتبعه اخر ثم آخر حتى ملأت الأفق، وحطت حساسين جميلة صغيرة بحجم قلب طفل على الأرض المحروقة.. وسار كل منهم بثقة إلى مكان يعرفه ثم أزاح طبقة خفيفة من التراب بهدوء وثقة، ومن بين الخراب والدمار برزت الخوابي والدنان.. لقد أسود منها الغلاف ولكن نبيذها كان يبدو أنه أصبح ألذَّ منه في أي وقت آخر، وأزالوا الأسداد ومدوا مناقيرهم وهم يرتعشون شوقا وحبا، ثم عبّوا منها وضربوا بأجنحتهم الجواء. وانطلق الغناء الرائع.

ورفعت أوراق متبقية من الحريق رؤوسها غير مصدقة، ثم اهتزت مصفقة هازجة لأمها الشجرة.

- اسمعي يا أماه.. اصغي جيداً.. لقد عاد المدمن.. لقد عاد السكير.

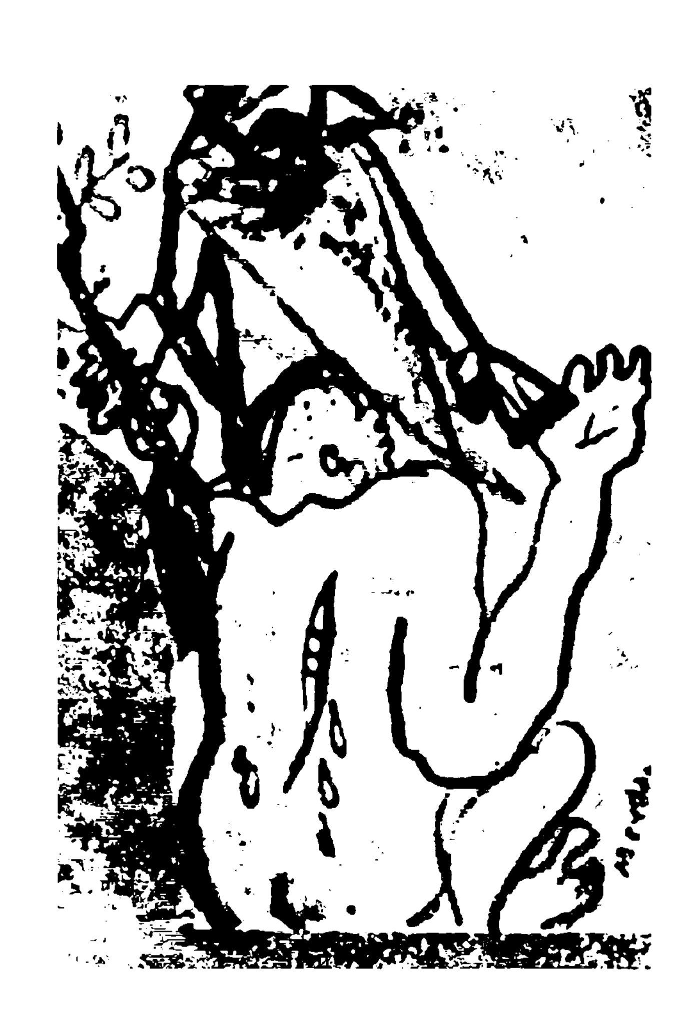
* * *

قيامَـة ألعـازَار

ألیس هذا هو النجـار ابـن مـریم؟ وأخـا یعقوب ویوسی ویهوذا وسمعان؟ أولیست أخواته ههنا عندنا؟ .

فقال لهم یـسوع: «إنـه لا یكـون نـبي بـلا كرامــة إلا في وطنــه، وبــین أقاربــه، وفي بیته» .

[انجیل مرقس]



إلى رئاسة الشرطة والأمن العام في الحسكة:

يرجى الإيعاز لمن يلزم، لإجراء البحث والتحقيق عن الرقيب الاحتياطي محمد بن علي الصغير من أهالي الحسكة، وإبلاغه لزوم حضوره للشعبة فور التبليغ وأخذ وصل بذلك، وعند عدم العثور عليه يقتضي تنظيم ورقة ضبط عن نتيجة الأبحاث عنه والإعادة.

الملازم...

رئيس شعبة تجنيد الحسكة

(ورقة ضبط)

المحقق: الرقيب الأول فريد فخرو رئيس شرطة مخفر الحسكة.

المحرر: الشرطي سليمان سليمان رقم ١٧٣٨.

بالساعة الخامسة من هذا اليوم الاثنين الموافق للثلاثين من شهر نسيان عام ألف وتسعمئة وستة وخمسين. نحن الرقيب الأول فريد فخرو رئيس مخفر الحسكة نثبت ما يلي:

بالوقت والتاريخ المحررين أعلاه، وبناء على كتاب رئيس شعبة تجنيد الحسكة رقم ٥٢٤ تاريخ ١٩٥٦/٤/١٢ المتضمن تبليغ الرقيب الاحتياطي محمد علي الصغير من أهالي الحسكة.. عليه كلفنا الشرطي سليمان سليمان بالبحث عنه، فعاد الشرطي الموما إليه وأفاد بأنه لم يعثر عليه في مدينة الحسكة لذلك استحضرنا مختار طائفة الإسلام رمضان بيرخو وسألناه عما إذا كان يعرف الرقيب محمد المذكور أجاب:

أنا مختار طائفة الإسلام رمضان بيرخو أفيدكم أنني لا أعرفه مطلقًا، ولا يوجد عندنا بالحسكة من يدعى بهذا الاسم ومن المحتمل أن يكون في القامشلي أو بإحدى القرى المجاورة لها، وإذا ظهر خلاف ذلك أكون مسؤولاً عنه وعليه أوقع.

(امضاء)

حرر وختم في مخفر شرطة الحسكة في الوقت والتاريخ المبيّنتين أعلاه وذيلاً.

في ٩٥٦/٤/٣٠

رئيس شرطة مخفر
الحسكة
(توقيع وختم)

* * *

عندما أراد أن يموت حقًا، ارتسم على وجهه طابع بسيط وجليل وهادئ كشمس ضخمة غاربة.. لم تكن البرودة التي أخذت تتمشى في مفاصله، ولا الجهد الذي أخذ يفتح به أجفانه، ولا الالتصاق بالأرض الحارة التي لم يألفها بعد، والتي تشبه إلى حد كبير دفء ليلة تموزية في قريته الضائعة بين الزيتون.. النائية.. النائية بصورة لم يعد يتصورها عقله. لم يكن كل هذا ما أنبأه بطريقة لا تقبل الجدل، بأنه يذوب ويتلاشى كنار تخمد بعد طول اشتعال، بل شعوره الأكيد بأنه انتهى، جسده استمرأ الراحة على التراب المحفور بأسنان التراكتور الذي يبدو له شبحًا ميتًا له ظل أسود لزج كلون المازوت. مدد رجليه باستسلام وحركهما حركة أخيرة كأنه يستحثهما على النهوض.. هاتان القدمان اللتان ذرعتا الأرض ولم تستقرا لحظة واحدة.. الرجلان اللتان تركتا أثرًا في فيافٍ لم يقطعها ابن امرأة تنهد عندما لم تطاوعاه، وأخذ الأسى

يعصر قلبه كذبحة دخان رخيص.. لم يبق قلبه جيدًا كعادته، وأحس بإحساس شجرة عارية اقتطعت جذورها، والنسغ النابض يتسلل ببطء من بين عروقها الجريحة التي تحتضر، والأغصان أخذت تتيبس شيئًا فشيئًا وننسى رائحة التراب وضمة ضلوعه الرطبة الحانية.

كان محمد علي الصغير يموت إذن بجلال.. ككل شيء عميق، وخطر، وإنساني. وكان ينتظر، انتظار محكوم بالاعدام عصبت عيناه، حدوث شيئ غير عادي.. وهو كذلك المحكوم أيضًا،قد فقد القلق تجاه الموت، وبقي له دافع واحد هو الفضول الذي يواجه به شيئًا يحسه لأول مرة. ولذلك، لم يحقد على الموت، فقد تعود أن يحترم أعداءه!!.

درجَت قّبرة حذرة حواليه ووقفت تهزهز رأسها وترقبه بعين خائفة. كان إلى جانبه رغيف نشف وتفتت حوافيه.. تقدمت وقلبها في جناحيها استعداداً للطيران، منذ أول سانحة تبدر من هذا الجسد الممدد، ولكن محمد علي الصغير لم يحرك ساكنًا، وكلفته ابتسامته بعضًا من الألم.. لقد كان طول عمره صديقًا للعصافير.

همس كأنه يرجو أمنيةً أخيرة:

- هل أموت قبل أن يجيء مولود؟

فطارت القبرة مزقزقة بذعر، ودفعت بجناحيها الأغبرين في اتجاه الريح، فسقطت من منقاريها هنة الخبز التي نحجت في التقاطها بعد تجربة عدد من الخطط، وحطت بعيدًا على حبة متكورة لم تعقد صداقتها بعد مع الأعماق.

اتقدت ذاكرة محمد علي الصغير فجأة!! لو كنت حيًا!! لقد أصبحت الحياة بالنسبة إليه ذكرى عتيقة، واختلطت في ذهنة ذكريات كبيرة وصغيرة، ولم يُعنَ مطلقًا بأن يقدم حسابًا لأحد عن حياته وتصرفاته، لا في هذه الدار

ولا في دار أخرى، بل عُنِي بأن يموت كلاً لا يتجزأ: كتلةً من اللحم والدم والذكريات والحيوية والعذاب والغربة والحب، دون أن يبتعد أي منها عن الآخر، لقد كان محمد علي الصغير دومًا ذا كبرياء، وكبرياؤه مستمدّة من كل هذه الأشياء البالغة الأهمية في نظره والتي عايشها طوال خمسة وخمسين عامًا، وهو لن يفقد كبرياءه في أشد لحظاته احتياجًا إليه، أمام عدو بدا له أنه ماكر يعرف كيف يحطم أعداءه، ولذلك بقي ذهنه متيقظًا: لن أموت إلا وأنا محمد علي الصغير .. لن أموت إلا وأنا محمد علي الصغير. لن يموت الجسد وحده، والقلب وحده، والذهن وحده، ولكن الموت لن يأخذ سوى محمد علي الصغير كما عرفه هو نفسه، وكما عرفه مولود عزّوزي الذي أبطأ في قدومه حسب الساعة اليومية التي يأتيه فيها بالطعام، في هذا المنقطع من الأراضي التي تمتد حتي الأفق، والذي يشق قلبها بشفرة جرّارِهِ ذي الظل والرائحة الحادة المزعجة.

تواردت آلاف الصور على مخيلة محمد بن علي الصغير : تتذكر أُمًا تلطم خديها، واختًا ترتجف وراء البيت مختبئة حتى لا يراها الجنود، وتذكر مشيته المتثاقلة المستسلمة المبتعدة.. لقد أسلموه بندقية، وعلموه كيف يضغط على الزناد فيقتل إنسانًا مثله، وعلموه بعض الكلمات التي يعبر فيها عن غضبه، وشرب مثلهم النبيذ.

– يا مولود عزوزي ألا تأتي؟

لقد ركب دبابة ووجه مدافعها، وقاد فئة كاملة بين المغاور، يا اللّه.. لشد ما شاهد وجوها تبدو له الآن متشابهة قاسية، وجوها ضاحكة وباكية، مبتسمة وغاضبة، وأحس بالسوط ينهال على ظهره!! لا بأس .. السَّكْرة تستحق ذلك، ثم شعر بقدميه تؤلمانه.. لقد سار وسار وسار يقطع الأرض العريضة.. ويسعى نحو...

– تشجع يا محمد.. لا تدع الموت يهزمك.

ولكن الموت ضاق ذرعًا بكل هذه المحاولة، ومنعه إعجابة من الإجهاز على خصمه بوحشية. انطفأت قناديل الصور أمام عيني محمد على الصغير اليابستين على ابتسامة منتصرة، ولم يحس بيديه ورجليه تختلجان أو النسغ يهرب منهما دفعة واحدة.

لقد كان محمد علي الصغير، ذا صداقة وطيدة مع العصافير حقًا. رجعت القبرة ومعها أخوات تسع، فنزلن نحو الرغيف دون أن يلقين أية نظرة حذرة على الجسد المفتوح العينين وأخذن ينطنطن حوله مزقزقات، ولم يستطع محمد علي الصغير أن يفرح، وأن يبتسم.. فقد كان جامدًا جمود نُقرةْ أحجار شيخة، وبدا جسده قطعة غبراء من الأرض المحيطة به.. لقد مات بدون مأساة، وكانت القبرات تعرف أنه انتهى، ومع ذلك لم يخفت نشيدها، لقد قابلت موته بذلك الهدوء الذي تقابل به حوادث الطبيعة: كانقطاع شلال، أو تفتت صخرة، أو انهدام عش، لقد كان تفكيرها كتفكير كل البشر في موت محمد علي الصغير.. تفكيرًا أبيض لا لون له ولا ذكريات.

عندما رأى مولود عزوزي القبرات أمام الجسد، أبطأ في مشيته، وخفتت الأغنية على شفتيه، ولكنه لم يشعر مطلقًا بحاجة إلى البكاء، أخذ معولاً من الجرار، وأسلم الجسد الهامد إلى الأرض بعد أن ألقى عليه نظرة أخيرة، وقبل أن يهيل التراب عليه، أمسكه وقلبه نحو قلب الأرض، ثم أهال التراب عليه بسرعة، ولم يُعْنَ مولود عزوزي بأن يضع أية إشارة على القبر، بل مهده بحركة آلية بلهاء ونثر الطعام نحو القبرات، وأشعل سيجارة، ثم تبعه ظلُّه وأخذ يختفي في الأبعاد البيضاء، الخالية من المسرة والحنان والقسوة أيضًا، كبيت لا أطفال فيه.

* * *

إلى رئاسة شرطة وأمن القامشلي.

يرجى الإيعاز لمن يلزم، لإجراء البحث والتحقيق عن الرقيب الاحتياطي محمد بن علي الصغير، وذلك وفقًا لكتابنا المرفق رقم ٥٢٤ تاريخ ١٩٥٦/٤/٢١.

الملازم...

رئيس شعبة تجنيد الحسكة

(ورقة ضبط)

المحقق: العريف داوود أحمد رئيس مخفر شرطة القامشلي بالنيابة.

المحرر: الشرطي علي ممليكو رقم ٦٧٠.

في هذا اليوم الأحد الواقع في التاسع والعشرين من شهر تموز نحن العريف داوود أحمد نثبت ما يلي:

بناء على المذكرة الصادرة من شعبة تجنيد الحسكة والمتضمنة البحث والتحقيق عن الرقيب الاحتياطي محمد علي وعليه كلفنا الشرطي علي ممليكو بالبحث عنه فعاد الشرطي الموما إليه وأفاد بأنه لم يعثر على المذكور، فاستحضرنا المختار عبد الرزاق حمود وسألناه فأجاب:

أقيدكم أن الرقيب الاحتياطي المدعو محمد علي الذي تسألوني عنه لا أعرفه، ورغم البحث الذي قمت به لم تمكنت من معرفة أحد يعرفه أو معرفة محل إقامته فتبين أنه غير مقيم بالقامشلي وعليه واشعارًا بالواقع وقعت هذا الضبط تحريرًا.

المحرر	مختار طائفة الإسلام	رئيس المخفر
(إمضاء)	(ختم)	(إمضاء)

* * *

عندما عاد مولود عزوزي إلى بيته كان الظلام يغمر الأرض، ولم ينس عاداته وهو يدخل ساحة بيته الرحبة: تفقد زهرات الحديقة، وتأكد من حبل البئر إذ شده مرتين ليتبين متانته ودخل حجرة الحبوب ليتيقن من أن دلف الماء لم يصب أكياس القمح الخمسة المسندة إلى الجدار، وسلم على امرأته، وداعب أولاده الأربعة.. ولكن حركاته كانت آلية ومدروسة لدرجة أفقدتها أي طابع إنساني، ورغم أنه أكل كمّيته المقررة في الصحن ذاته، فقد كان أشبه ببقرة تجترّ ما في بطنها بنفس البلادة ونفس الشهية.. ولم يعن مولود عزوزي بأن يأمر الأولاد بإغلاق المذياع رغم أن عدوّه اللدود فريد الأطرش ينوح من خلاله.. كل ما كان مولود عزوزي يفعله هو الصمت، وإنها لعملية صعبة، بل معقدة.

- يا جميلة .. لقد ذهب.. اعني مات..محمد.

ووقفت المرأة دفعة واحدة، وتصلب ظهرها، وسكت الأولاد هنيهة يفكرون بهذا الشيء الجديد الذي طرأ على حياتهم.. من الممكن أنهم كانوا يفكرون في الهدايا التي فقدوها، أو ببندقية الصيد التي بقيت لهم.. أو بكل هذه النفائس التي كان خيالهم الطفل يجسّمها والتي لم يطلعوا على صدقها في صندوق محمد علي الصغير القابع في زاوية الغرفة جامدًا كصاحبه منذ ساعات. أو لعلهم كانوا يفكرون بشيء آخر.. الصمت عملية معقدة جدًا، ولعله أعقد ما عرفت الأرض من أحاسيس، ولعله لا يعنينا هنا البحث عن صندوق النفائس الذي لا يعرف مخبّآته سوى محمد علي الصغير ومولود عزوري. ولعل به بعضًا من الصور والخرق والذكريات مرصوف بعضها فوق بعض بشكل ينقصه الذوق الفني..إن ما يعنينا حقًا هنا هو، أن الأولاد كانوا صامتين !! وإذا صمت الأطفال، فمعنى ذلك أن حادثًا مهما قد وقع في هذا العالم.

قالت المرأة بصوت أبحّ:

– وتركته هناك يا بو كامل؟

– دفنته هناك.

– بدون غسل؟

فهز كتفيه بازدراء ولعلها أول عاطفة واضحة ظهرت على وجهه.

– والصندوق؟

– سأرسله إلى أهله ولو اضطررت إلى أن أسافر إلى هناك وأبحث عنهم!!.نامت عائلة مولود عزوزي بعد ساعتين من موعد نومها بدون أحلام.. الضوء الباهت يرسل نوره على ست جثث ممدودة كأنها الصندوق القابع في الزاوية، الصندوق الذي يبدو الصدأ أهم مميزاته.. لقد مات اذن محمد علي الصغير بدون نقطة دمع أو آهة حزن.. ولكن موته، بكل تأكيد، قد كان مأساة.. قد يشعر بها الصندوق الصدىء الذي استودعه محمد علي الصغير أسراره، وقد تشعر بها هذه الجثث الست النائمة بدون غطيط، وقد نشعر بها نحن.. ولكن هل يعنينا ذلك في شيء؟!

* * *

إلى ضابط الأحوال المدنية بالحسكة.

يرجى الإيعاز لمن يلزم لإخراج قيد سائر أسرة الرقيب الاحتياطي محد علي الصغير رقم المسكن ٢٣٣٦ والاعادة بالسرعة الممكنة.

رئيس شعبة تجنيد الحسكة

الملازم...

إلى رئيس شعبة تجنيد الحسكة:

مسكن ٢٣٣٦: محمد الصغير بن علي . والدته: عائشة مولود في الجزائر عام ١٩٠١ تسعمائة وواحد مسلم سوري أعزب قيدًا.

أخرجنا قيد نفوس المذكور مع العلم أنه مسجل لدينا لوحده وتفضلوا بالاطلاع.

ضابط الأحوال المدنية في الحسكة

(التوقيع)

* * *

عندما حمل البندقية في يده أحس أنها ثقيلة وتذكر بفخر وحزن .

إنه أصبح رجلاً .. وتصور الفتيات العاريات اللواتي ذكرهن له الضابط:

– سنعطيك بندقية وسجاير وطعامًا، وستنام على سرير بأغطية صوفية، وسترى بنفسك البنات العاريات في باريس، وسيكون لك منهن ما تشاء.

والواقع أن أحلامًا شهوانية عنيفة أبعدما تكون عن الحزن، ارتسمت على وجهه وهو يودع أمه وأخته ويضع صرة الطعام تحت ابطه، وينحدر إلى الوادي تاركًا وراءه القرية الأليفة إلى درجة الألم.

لقد كان محمد علي الصغير ذكيًا، وكان صوت الضابط كالقدر .. كالموت.. والابتسامة التي جفت على شفتيه وهي تنهي وظيفتها مع صوته، كانت تعني في ذاكرة محمد علي الصغير جاره رابح وهو يجرّ على وجهه، والدماء التي تتدفق من فمه وأنفه تلوث الأرض المعشوشبه، وكانت تعني الحربة التي غرزها سنغالي فّتي في صدر الأم عندما حاولت أن تتشبث به، ولذلك حرك محمد علي الصغير رأسه إلى الأسفل عندما سمع الصوت:

– ولكنك ستأتي معنا حتمًا.. أليس كذلك يا صغيري؟

من الجميل أن يحمل الإنسان بندقية، وأن لا يكد ولا يتعب في سبيل اللقمة، كما كان يفعل في القرية، ومن الجميل أيضًا أن ينام مع امرأة شقراء عارية.. عارية حقًا .. عارية عريًا مخيفًا.. وإن يأكل حتى الشبع وينام على سرير أبيض، ولا يكلفه ذلك سوى أن يرعب الناس كالسنغال، وأن يحرك أصابعه على الزناد فيفرق المجتمعين كما كان يفعل رجال الدرك في قريته في جبال الأوراس.... وسيرسل إلى أمه وأخته كل شهر الهدايا والمال، وبعد؟ أليس مجبرًا؟ إنها خاتمة المطاف بالنسبة لكل شاب جزائري في الجيش الكبير الموزع في الأرض، إنه سيرى أشياء كثيرة، وسيجرب أشياء كثيرة.. كثيرة لدرجة لا يدركها خياله.

شد محمد علي الصغير يده على البندقية التي أعطاها له قائد الموقع، ونظر إلى رفاقه وهم ساهمون حيارى:

- ما اسمك أيها الشاب؟

- محمد علي الصغير يا سيدي الجندي في الجيش الفرنسي.

- زنت رقم ٢٨١٢٦ يا بني، لا تنس ذلك، علق هذه القطعة من النحاس على معصمك.. هذه هي هويتك!!

* * *

العينان السوداوان المختلط بياضهما بالحمرة تحدّقان فيه باستمرار.. كل ما فهمه محمد علي الصغير من هذا الاتهام الفاضح المتمثل في بريقهما المطفأ: الدهشة والعتاب. وكان من العبث حقًا أن يدير ظهره عنهما مقلِّصًا فكيّيه المرتجفين من الفزع، ومن العبث أيضًا أن يعود إلى الجسد الطويل الممدد وأن يقلب الوجه نحو الأرض بيديه ليتخلص من الكرتين اللزجتين العاتبتين أبدًا!! لأن الظَهر انفتح عن ثقب ضخم من اللحم الأحمر النازف.. المكان الذي غرز محمد علي الصغير حربته فيه بنزق أبعد ما يكون عن

الاحتراف، تمنى لو بصق في العينين ليضيف إلى ضميره المثقل جريمة أخرى، وأخيرًابصق محمد علي الصغير على نفسه.

وجلس إلى جانب شجرة.. العويل يرتفع عبر السُّهب المحترق تحت لهيب الصيف، ورفاقه يصرخون كالهنود الحمر الذين رآهم في أحد الأفلام في باريز، وجماعات من السود: نساء وأطفال ورجال يرفعون أيديهم العزلاء يدفعون بها الحراب والرصاص.. وأجساد تتهاوى مفتّحة العيون مدهوشة عاتبة يملؤها الذعر.

وتذكر محمد علي الصغير جاره أحمد.. وتذكر أمه تتمرغ على الأرض وساقاها يضربان الهواء وهي تنظر إلى ابنها المساق نظرة أخيرة.. هيه.. وبعد؟ لقد فعل الآن الشيء نفسه. نظر إلى يده وبندقيته العتيقة، والدم واللحم متجمدان على رأس الحربة في خليط مقزّز.. ترى أين أمه وأين أخته الآن؟ ما هي المشاعر التي ستدور في نفسيهما عندما يشاهدان ابنهما وهو يدفن حربته في الظهر.. نعم في الظهر!! لقد أرعبتني عيناه.. وكان يبتهل إلي ألا أقتله، ولم يكن بيده شيء يدافع به عن نفسه.. ارتمى على قدميّ يقبلهما.. والشمس والحرارة الإفريقية وصرخات الهنود الحمر.. وخيالات النبيذ الأحمر الدامي كشفاه كرزيّة. يجب أن تفعل شيئًا يا محمد علي الصغير.. يجب أن تفعل شيئًا يا رقم ٢٨١٢٦، في يدك بندقية، وأمامك رجل لا يقاومك، والظهر العريض للرجل الساجد أمامك ذلاً يلمع عاريًا أسود مختلطًا بالتراب. والضيق بلغ منك غايته، وكدت تطلب من ضحيتك سيجارة تدخنها بهدوء تحت ظل النخلة، ولعلعت رصاصة أمام أذنيك فارتفعت اليد!! لعلك كنت ناسيًا زندك تحمل بهذه اليد بندقية فيها خمس رصاصات.. وفي رأسها حربة تبرق تحت أشعة الشمس؟ ونزلت اليد في ذعر إلى الأعماق.. وتقلص الظهر، وانفجر الدم من ثقب كبير، وأحسستَ بأسنان تغرز في حذائك الجلدي السميك، ولعل الألم هو الذي جعلك تسحب البندقية من الثقب الأحمر..

وانقلب الجسد على ظهره أمامك، ونظرتْ إليك العينان بعجب وعتاب، لم تريدا أن تنطفأ أبدًا. بل ظلتا تلاحقانك كأنهما شُــدتــا إليك شدًا بخيط غير منظور. ثم انتهى كل شيء يا محمد علي الصغير، انتهى كل شيء أيها الجندي رقم ٢٧١٢٦، لقد صرت جنديًا حقيقيًا.. لعلك سألت نفسك لماذا قتلت هذا الأسود المخيف الذي تجمد دمه على ظهره؟ ورحت تتساءل هاربًا من أفكارك:

- ولماذا يثورون؟ إنها الأوامر.

وضرب محمد علي الصغير رأسه بالنخلة، وجعله الألم يصرخ، وتفجر الدمع من عينيه كالدم الذي سال منذ لحظات.. أخذ يبكي ويضرب رأسه بالنخلة بصورة آلية، وأخذت صيحات الهنود الحمر تبتعد وتبتعد عنه، والرصاص يئزّ من بعيد فيختنق عبر السهب الواسع، والجسد الأسود ممدد أمامه كصديق لدود. وقف على قدميه وأدخل الحربة قرابها بهدوء لا يفسر. كان الشيء الانساني الوحيد في حركاته هو الدموع.. قال في نفسه:

- يجب أن أدفنه.

نعم يجب أن تدفن الكافر يا محمد علي الصغير!. إنك تشعر أن اللّه راض عن عملك، وأنت تغطي اللحم الأسود بسعف النخل العريضة.. ثم تمشي باتجاه معاكس لاتجاه أصحابك من الجنود.. إلى الصحراء يا محمد علي الصغير.. اهرب إلى الصحراء والعطش والجوع والوحوش وسيوف قبائل الطوارق اللامعة.. وبعد سبعة أيام من الموت البطئ في الهرب، تجد أمامك الوجه الملثم بالمنديل الأزرق، والعينين السوداوين العميقتين الغور.

- مرحبًا يا مُسْلم!!

وتنظر إلى القامة النحيلة الصلبة كنخلة، ولم تدرْ بخيالك المقاومة

- مرحبًا.

وبعد دقيقتين تشعر ببندقيتك تؤخذ منك، وأنك تربط بالحبال، وتُحمل على ناقة غبراء وتظل في الأسر عبدًا تسعين يومًا وتسعين ليلة.

* * *

تسعون يومًا قضاها محمد علي الصغير بين السيوف المنحنية والقامات المتطاولة النحيفة.. لقد بدا شاردًا مهمومًا كأنه يكفر عن ذنب عظيم، لم يشعر مطلقًا بأنه أهين إذ أصبح عبدًا. لقد دفعته الحياة التي عاشها إلى النسيان، خدم في العاصمة (تامانراسيت) حيث تبدو الطرقات كالسراديب، وحيث كان دلاّله يجبره على التنكر حتى لا يراه الفرنسيون، رأى كيف تكون الطعنة في القلب ثمنَ لفظة واحدة، وكيف يباع الحصان الأصيل بعشرة رجال.. وكيف تبدو الجبال هناك قطعة من القمر، وحمل الماء مئة ميل عبر (أنصلاح) أنصلاح القاسية الحيوانية الرائعة.. أنصلاح الذين يغنّون بحنجرة من جمر، ويموتون في الصحراء جوعًا وعطشًا إذا لم تنفرج شفتا الحبيبة عن ابتسامة.. ويبذلون حتى عباءاتهم ثمن حفنة من الشاي يلوكون بقاياه كغذاء مقدس. وقطع الخشب في واحات (الجوليا) حيث ترمق الأفعى الرجال بعيني صديق، وحيث تكفي لسعة ذبابة زرقاء لتقود الإنسان إلى الأحلام الجهنمية التي يثيرها النزع.. وأخيرًا، رأي (امينوكال) ملك الطوارق العجيب.. أمينو كال الجميل القاسي الصامت.. حيث تكفي إشارة من رأسه حتى يزحف الطارقيّ على بطنه العاري ساعتين على الرمال الملتهبة راضيًا .. بل إنه رأى خالدة زوجة الملك الشهيرة، التي لا يعدل جمالها إلا قسوتُها، والتي تكحل عيونها المخيفة بمسك الغزال.

تسعون يومًا وتسعون ليلة قضاها محمد علي الصغير بهذا الحلم مفتوح العينين بدون إدراك.. عبد زادهُ ذراعان قويتان وعضلات مفتولة، وقدرة على التحمل يبعثها القلب المكفِّر .. حتى رآه جاويش فرنسي سكّير..

- هل أنت هارب؟

- لا.. ولكنني أضعت الطريق فأسرت.

- امض معي!!

ويعود الجندي محمد الصغير وفي قلبه أشياء كثيرة.. كان طابع الأسى قد حفر وجهه ومسح عينيه بداكن الظلمة، وبدا مستسلمًا كحمل.. لقد أحس أن شيئًا ما في هذا العالم يلاحقه..شيئًا قاسيًا مخيفًا كعيني أمينو كال الحادتين الغادرتين كحربة في الظهر.. كحربة في الظهر؟ وشعر أنه أضاع فرصته، وأن جسده قد غدا أقسامًا منفصلة بدون رابط.

لو أنه فكر!! ولكن التفكير بدا له عمليةً متعبة مؤلمة، ولم يكن لقدميه جذور في الأرض المالحة الرملية التي يمشي عليها.. لذلك كان محمد علي الصغير ينام جيدًا، ويأكل جيدًا، مستعدًا لأن يستعمل بندقيته وحربته جيدًا.. وفي قطعته، حدقت فيه عينان زرقاوان بشك، ثم ابتسمتا عن أهداب قليلة:

- لقد تعذبت كثيرًا.. أني أرفعك إلى رتبة عريف، وسأطلب الموافقة فيما بعد.. ما هو رقمك؟

ودهش محمد علي الصغير من نفسه، عندما أفرغ كل ما في رأسه من أفكار بقوله:

- أنا ..٦٢١٨٢ سيدي الكابتن!!.

* * *

قال مولود عزوزي يوما لمحمد علي الصغير:

- أتعرف؟ أنت شخص غريب.. غريب جدًا.. لا تشبه أحدًا ولم يردَّ محمد علي الصغير، بل كان يتأمل الطريق المعصفر بالشمس .

- لقد تعلمت كثيرًا من هذه الحياة.. ولعلك رأيت أكثر مما يجب!

وغامت عينا محمد علي الصغير، ثم برقتا بشعاع بارد عدو.

- ولكن أنت لا تتعالى علينا.. هه؟ هل تتعالى؟

قال محمد علي الصغير فجأة:

- يا لك من حمار .. لقد أثرت اشمئزازي اليوم بجلدك هذا السكير المسكين.. حمار آخر من القافلة.

وقفز مولود عزوزي على قدميه، وبلحظة واحدة كان مستعدًا لقتال ضار، فلم يكن مولود عزوزي بالشخص الجبان:

- أنت يا حضرة الرقيب.. أظن أنه من الممكن أن تأكل بدون أسنان. ورقص شاربا محمد علي الصغير وهو يقف بغضب ثم قرفص من جديد وكشر:

- ولكن هذا لا يفيد أحدًا .. هيه؟ تستطيع أن تضرب.. بل أن تجلد.. هاه؟ ولكن هل تستطيع أن تحس بأن ذلك كله هراء في هراء.. أن شيئًا ما يمشي على رأسه ؟ تفه..

وجلس مولود منفعلاً:

- ولكن قل لي .. قل لي.. ما هو الشيء السيء في جلد نذل سكير مثل هذا؟ لقد كسر قضبان السجن.. و..

وكان محمد علي الصغير منفعلاً أكثر :

- إنه يسكر.. ويسكر.. أتعرفه جيدًا ؟ لقد عاش عشرين عامًا وهو يقتل الناس، وعندما أخذ يشعر بأن شيئًا ما لا يزال يتحرك بين جنبيه.. قرر: طز في ذلك كله.. وجعل يسكر لئلا يموت ما اكتشفه.

- أنا لا أفهم .. وحق الجن لا أفهم.

- ولكني أنا أفهم.. أنا أفهم...

كان مولود عزوزي يدرك أن زميله بطل.. بطل؟ إنه يشعر بكثافته أكثر من كل رؤوسائه ملازمي السرية، لقد أحب لغته التي لا تزال لكنتها الجزائرية بارزة، وأحب وجهه المحروق المليء بندوب الحرب.

وصرخ مولود:

- إن كل ما تعلمته جغرافيا.. إنك تمن علينا بأنك تعرف الهند الصينية وأفريقيا.. وتظن أنك تفهم الدنيا وتضعها في رأسك.. إنها في مؤخرتك يا صاحبي.. في مؤخرتك..

وصمت مولود عزوزي فجأة شاعرًا أن كلامه لا معني له.. ونظر إلى بطله نظرة جانبية.. وران سكون طويل عميق.

* * *

قال تعلم محمد علي الصغير الكثير من الجغرافيا.. لقد رأى الأرض من السعة بقدر لا يخطر له على بال.. رأى القمر المدور البارد المتكبر في أعماق افريقيا السوداء، ورآه بين غابات الكاوتشوك، ومزارع البن وكتل الجليد وكرهه كالصقيع، وعقد صداقة خالصة مع الشمس التي تسجد لها الجباه في مكان وتلعنها الألسن في مكان آخر. القرص المحيي المميت.. ملهب الرمال ومدغدغ رؤوس الجبال.

لقد رأى المتناقضات!! غاص قي مستنقعات الهند الصينية حتى ركبتيه، وشرب من مائها المالح المليء بالدود والطين وأوراق الشجر .. حيث تحجب السماءَ القائظة غاباتٌ مظلمة معولة، ترمقه محاجرها بألف عين وعين، وانتظر الموت المنقذ من فهد يختُل وراء أجمة مشرعًا أسنانه المدببة، من ضربة صلٍ غاضب، من لسعة بعوضة منتنة. ولكن لا شيء غير الماء. الماء الرهيب الذي يحمل في قطراته ألف مرض، وألف مجهول أشد من المرض. ألا لُعن الماء ما أكثره.. أيمكن أن يكون هناك أكثر من الماء؟ ولكنه في نفس اللحظة، كان يتذكر أنه قال: (أيمكن أن يكون هناك أقل من الماء؟)

قالها عندما كان يسير عشرات الأميال في الصحراء.. حيث لا نبات إلا الشيح، ولا ماء سوى ما يجود به ماء البحر البعيد، في مطلّ الصباح، وقدوم المساء، على المناديل التي ينشرها التائهون في اتجاه المهبّ.

نعم بإمكان الإنسان أن يتعلم الكثير من علم الجغرافيا..

بإمكانه أن يتوه بين الجليد عدة ليال يضرب بيديه الصخور ليرى الدم الحار وهو ينزف، ليتأكد من أن دمًا أحمر لا يزال يسري في عروقه..لا زاد له سوى ما تبقّى من لحم حصانه الأحمر الذي ترك الثلج فيه بقعًا زرقًا منفرة.. نعم بإمكانه أن يتوه ويتوه حتى يرى البطولة في أن يتمدد ويستسلم للعدو الأليف.. للموت.. وإذا به يرى من رأس الهضبة ما يخيل إليه أنه بريق.. إنه ضوء.. إنه مسكن بشر!! نعم.. إنه الضوء.. الضوء الحار الدافئ.. ويخيل إليه أنه يسمع خوار بقرة، ويرى لسان دخان ينساب من تنور مجهول.. يا بني البشر.. يا بني البشر العزيزين الرائعين.. وبعد ساعات يستنشق حتى الأعماق رائحة الخبز الحار، وتمسح خديه يدان ناعمتان، ويبكي كطفل صغير ويشعر أن قريته في الجزائر بعثت من جديد حتى ليشم رائحة ثوب أمه البيتيّ.

بإمكانه أن يفرط عناقيد بوردو، ويعصر رمان الشرق، ويقطف موز افريقيا، ويعرف ثمرات الغابات المسمومة الجميلة الشهيّة.. بإمكانه أن يشعر بالبهجة لدى رؤية الزهر المتفتح في السهول الواسعة،أو الثلج المكلل رؤوسَ الجبال الشاهقة، وينتشي لجمال قطيع الغزلان يطير وراء فحله مع الريح وآذانه منتصبة في الهواء.

بإمكانه أن يشعر بالقوة وهو يرى الأيدي تضرب بالفؤوس في الصخر لتفجّر نبعًا أو تخرج ذهبًا، وأن يفيض قلبه بالغناء وهو يرى صفوف الفلاحين منحنية على الأرض لتعطيها وتأخذ منها، وأن يخزن لألم الأرض العظيم، حينما ترفع جراحاتها المتشققة إلى السماء مستجدية الصوب المدرار.

نعم لقد أعطت الجغرافيا محمد علي الصغير هذه الفكرة: الحياة رائعة وأروع ما فيها هؤلاء الناس الطيبون.

* * *

قال النقيب الفرنسي بهدوء.

- رقيب محمد..سنذهب إلى وطننا (وغص بريقه) إلى فرنسا.. وستعود إلى الجزائر، لقد انتهينا هنا في سوريا.

وصمت قليلاً ثم تابع بابتسامة.

- أنت ترى أنها لم تكن بالحياة الهيّنة.. أليس كذلك؟ ألم تحن إلى الوطن؟ ودون أن يسمع الاجابة أصدر الأمر:

- خذ تحت إمرتك سيارات الذخيرة الخمس وسلمها إلى الكابتن ستافرو في الرقة، يجب أن تكون هناك في الثالثة، وسنزودك بمصفحة حتى لا ينهبك البدو..

ونظر إلى ساعته:

- غادر دير الزور في الثانية عشرة وخذ معك الرقيب مولود وحضيرة. وسأل محمد علي الصغير

- وعند إتمام المهمة؟

- ضع نفسك تحت تصرف الكابتن ستافرو، وستنقل قريبًا إلى اللاذقية.

- وإذا هاجمتنا قطعات سورية؟

- ليس بين الدير والرقة أية قطعات، الحسكة عاصية سنؤدبها، ويقال أن المناطق الشرقية حتى حدود العراق أنزلت علمنا.. وهكذا ترى أن طريقك الغربي مأمون.. اللهم إلا إذا كان بعض الفارّين من الجنود قد تخفوا بين البدو وسدوا طريق حلبْيا.. على كل حال لست أنا من يعلمك كيف تحافظ على قفاك المهترئ.

وانفجر ضاحكًا بصخب، وفكر (إنني ديموقراطي) وتابع:

– لقد كنت البارحة أقرأ سجلك.. محمد علي الصغير، جندي شجاع وانضباطي، عنده روح المبادرة، قائد دبابة ممتاز، عمل مع الفدائيين.. خدم في المستعمرات الفرنسية كلها.. أوه.. أوه أريد أن أعرف من هو ابن القحبة الذي كتب هذا السجل.. يظن المرء أنه خلط بينك وبين الجنرال ديغول.

– هل هناك شيء آخر سيدي الكابتن؟

– أنت لا تحب المزاح.. هيه؟

(صمت)

– أنت تميل إلى التأمل والتفكير..هذا مقلق يا صديقي، إن مهمتنا متعبة، ولكنها تريحك من القلق، أنصحك بأن تصاحب عاهرة صغيرة، ولكن يا للشيطان لماذا لم تتزوج حتى الان؟

(صمت)

– ليس هناك شيء آخر.. اذهب الآن وخذ أمر المهمة من الملازم جان.

كان المطر يهطل بحزن ووداعة.. إنه يعرف تمامًا العينين الحزينتين لوجه السماء الكامد، فوراءهما العاصفة، ووراءهما غضب وحقد.. وبدا مفتونًا لحظة وهو يوزع حضيرته اثنين لكل سيارة، ركب هو ومولود في المصفحة وترأسا القافلة.

كان يشعر بوجود مولود إلى جانبه شعورًا ثقيلاً شبه عدائي، وكان يحس بنفسه ينفصل ويبتعد، وقد ساعده صمت مولود العميق على التحرر. حاول أن يصل إليه:

– أنت لا تبدو مسرورًا.. هيه؟

والتفت إليه مولود .. كان في عينيه بريق غير مألوف.. حاقد ومضطرب وخائف..ولكنه اعتصم بصمته. وفكر محمد علي الصغير .. إن

الحسكة تعكر روتينيته.. وهو يكره كل شيء الآن.. حتى أنا.. وأحس بالخفة فجأة، وبموجات تصعد من معدته إلى حلقه، لقد اعداه حزن السماء العظيم. ودار رأسه.. وبعد ذلك؟ تفه على كل شيء!! جندي شجاع وانضباطي.. قائد دبابة ممتاز.. عمل في الفدائيين.. أنت تميل إلى التأمل والتفكير.

وكانت المصفحة تنزلق تحت أذرع المطر برخاوة ونعومة.. وكان يُسمع للعجلات هسيس شبه مغتلم، وصوت المحرك يغرقه في دوامة رتيبة.. وشعر بدفء وحنان.. وبدأ شريط منسق من الذكريات يصعد من حلقه كأنه شرب كأس عرق صاف دفعة واحدة.. شريط حزين متأزّم.. عيون السماء حزينة متأزمةً، صوت المحرك حشرجة متأزمة.. مولود عزوزي كتلة حزن حاقدة.. وفتح قلبه.. كان هناك شيء كامد وثقيل ومتنام ككنز بخيل.. جندي شجاع.. انضباطي .. تفه.. وبرزت إليه من حيث لا يدري..من السماء الحزينة.. من حشرجة المحرك.. من معدته المحروقة.. من مولود عزوزي.. من السراب.. من الذكريات: عينان سوداوان يخالط بياضَهما عروقٌ محمرة.. عينان فيهما كل قتامة الخطيئة الأولى وكل انجرارها عبر الدهر.. عينان دهشتان متهمتان.. فتحتهما حتى آخرهما حربة في الظهر، العينان الزنجيتان اللتان خدمتا عذابه، وأحس بهما في خدر لذيذ.. خدر المرأة وهي ترى نفسها تُحمل وتدغدغ وتغتصب وتفتضّ وتنطلق دم عارها يلوث فخذيها.

جندي شجاع وانضباطي.. جندي شجاع وانضباطي.. لقـد قاتل في بقاع الأرض.. وأحس بروح الزمالة مع الجنود، وتقاسم معهم الخبز واللحم والذكريات والخمر والنساء، استغرقته كغيره من البشر الملذات اليومية المحدودة، عرف مأساة أن يكون الطعام والشراب والراحة قيمًا مطلقة.. غاية سامية.. وأحس بنفسه يخرج من تحت تلال من الخبز واللحم والنساء والخمر جنديًا مقاتلاً؟ ذا مراس وشراسة وتجارب.. جنديًا شجاعًا.. لقد قتل كثيرًا.. والعذاب الأول الذي أحسه عندما نظرت إليه العينان المدهوشتان أخذلا يزعجه من بعدُ كهياج عنيف.. جندي يميل إلى التأمل والتفكير.. كان شيء

يتضخم في صدره، شخص آخر ينمو في داخله.. شخص لئيم حقود يحاسبه ويقرصه كدبوس مدبب.. شخص مزعج يتضخم كسرطان، وكان يكبر ويعظم متغذيًا ببؤسه ومخازيه.. جندي انضباطي!! وتذكر وجه الكابتن بغضب.. لقد قتل ثلاثة رجال كان عندهم قبل يومين بمثابة ضيف مكرم، وقبض على أخي فتاة زنجيه أسلمته قلبها وجسدها وقدمه للمشنقة.جندي انضباطي.. لقد أحرق مزرعة كان يتذكر عند رؤيتها قريته.. لقد ولغت في الدم.. لقد ولغت في الدم. جندي انضباطي يطيع الأوامر.. لقد سخر به النذل.. يطيع الأوامر؟ يا له من عزاء جبان.. لقد أخذنا إرادتك.. وجودك.. عقلك.. شرفك.. محاكمتك وحولناها إلى كلمة واحدة: نفّذْ!! وإذا بالآلة تندفع، تحرق، تعذب. يا للدقه المدهشة!! يا للبرودة الرائعة!! جندي شجاع وانضباطي.

المحرك المحشرج الرتيب.. ناعورة على الفرات واقفـــة.. مولود يتطلع أمامه بعناد أعمى.. المطر يبتدىء بالغضب.. عيون السماء الحزينة تخفي عاصفتها بمكر حالم . كم كانت جميلة تلك الناعورة في الجزائر!! أين قرأت قصة ذلك الحصان الهزيل الذي أفقده الدوران بصره؟ لن يحتاج أصحابة بعد الآن إلى أن يضعوا على عينيه العصابة حتى يخفوا عنه حقيقة هذا الدرب المحلزن اللامجدي.. أنني أسير الساعات.. إنه يسير الساعات، جارًا معه أنين الناعورة المتعب، والزمن بالنسبة إليه دقاتها الحزينة. ولكنني لم أدرك.. ولكنه أدرك ذات يوم.. الحيوان المسكين.. أدرك أنـــه لم يتزحزح من مكانه خطوة واحدة، وعرف أن المسير الأبدي لديه هو دائرة وصغيرة من العالم.. الحيوان المسكين.. الذي خلق لينفخ منخريه في الهواء الحار ويقفزَ عير السهب. وثار على مصيره الوضيع فضرب رأسه بوحشية في خشبة الناعورة ففقد عينيه (بدأت السماء تتركَ مكرهًا وترسل شرارات حقد من أطراف الشرق) أين قرأت قصة الحيوان؟ إنه يدور الآن ضمن خياله، فيرى الظلال والأنهار والزرع الأخضر، لم يستطع أن يعيش بدون حقيقة فخلق لنفسه حقيقته الخاصة. الحقيقة؟ ولكن ما هي حقيقتي؟ ما هي حقيقة

مولود عزوزي؟ إنه يكرهني .. لا أعرف لماذا.. ولكن عينيه اللتين كانتا ترسمان مني البطل قد أصيبت نظرتهما بمقتل.

لو ظللت في الجزائر !! ولكنه لم يشعر بالأسف.. أرعبه أن يموت في قريته هكذا كأي إنسان له رجلان ورأس ولحية صغيرة لا تخرج تأملاته عن حيِّز الأرض والزوجة والطعام. لقد عرف أشياء كثيرة، وابتسم بحزن، عرف الحزن العظيم، والألم الأكبر، والحب العارم (أين أنت الآن ياليليان؟) عرف كل ما يميزه عن بهيمة، وشعر بنفسه يتلاشى في نرقانا ألمه.. جندي يميل إلى التفكير.. يا له من شوط مميت خطر !!

وتمثل حصان الناعورة وفكر بأسى: لقد عشت طويلاً في المغطس، وبدون حقيقة. وفكر بمولود عزوزي، وللمرة العشرين قرر: إنه يكرهني.. الحسكة تغتال طمأنينته.. ورأى وجوها سورية أليفة، ومرقت ناعورة أخرى : الجزائر .. سورية.. لبنان. ناعورة أخرى كلها معطلة، متى تجد أحصنة تدور عليها؟ يالي من عجوز، لقد انتهيت.. هل انتهيت؟ وفار حقد السماء دفعة واحدة، وفاز عزم محمد علي الصغير دفعة واحدة، وفار كره مولود عزوزي دفعة واحدة، والتفت إلى محمد علي الصغير وسأل بوحشية:

- لماذا توقفت؟

* * *

إلى شرطي الشعبة:

للبحث والتحقيق عن الرقيب الاحتياطي محمد الصغير بن علي والدته عائشة.. مولود في الجزائر ٩٠١ بعد إخراج قيد نفوسه، وفي حال العثور عليه جلبه موجودًا على نفقته والاعادة بالسرعة الممكنة.

رئيس شعبة تجنيد الحسكة

الملازم...

إلى رئيس شعبة تجنيد الحسكة.

وفقًا لكتابكم المؤرخ في ٥/١٠/٥٦ بحثنا عن الرقيب الاحتياطي المذكور في كل القصبة فلم نجده، ولم نجد أحدًا يعرفه ولذلك توجهنا نحو رئاسة شرطة وأمن القامشلي بكتاب تاريخه ١٥/١٠/٥٦ فأعادوا البحث السابق بشأنه فوجدوا شخصًا باسم علي أحمد صالح ملاك ارض اخبر حسب التصريح المرفق لأن الرقيب المذكور قد توفي، وأنه سمع ذلك من صديقه مولود عزوزي وإليكم التصريح ربطا وتفضلوا بالاطلاع والأمر بما يجب سيدي.

شرطي شعبة الحسكة

التوقيع

(تصريح)

أنا الموقع بذيله أدناه علي أحمد صالح جاسم سليمان أحمد العمر من عشيرة شمر الخرصة فخذ الملحم المقيم بالقامشلي بيت عباس مذيول محلة المحافظة أصرح لكم بما يلي:

أعرف الرقيب الاحتياطي محمد علي الصغير حق المعرفة، وقد كان يعمل سائق تراكتور وقد توفي منذ ثمانية أشهر تقريبًا في ناحية راس العين، وقد دفن هناك، سمعت ذلك من صديقه مولود عزوزي الذي كان يعمل معه، واشعارًا بالواقع أعطيت هذا التصريح ١٥/١١/٩٥٦١

المصرح

علي أحمد الصالح...

امضاء

إلى مدير ناحية رأس العين.

من التحقيق تبين أن الرقيب الاحتياطي محمد بن علي الصغير الجزائري الأصل، والذي كان يشتغل سائق تراكتور في بلدة رأس العين، قد توفي منذ ثمانية أشهر في رأس العين ودفن فيها، لذا يرجى إجراء التحقيق في هذه الناحية وفي إثباتها بحمل أحد مخاتير البلدة الذين أشرفوا على دفنه أن يقدموا صك وفاة للشعبة ليصار إلى ترقين قيد المذكور والإعادة بالسرعة الممكنة.

رئيس الشعبة

الملازم..

* * *

قال الدركي بصوت بدا غاضبًا:

- جنابك المدعو مولود عزوزي؟

ورفع مولود عينين جافتين للشمس المحرقة ولعق شفتيه..أن شيئًا ما من الأفق الرجراج بالسرابات الفضية، على حدود بيته الواقف على حافة البادية، يقترب.. شيئًا غامضًا بلا معنى، وكان يتبخر بفقاعات تافهة نحو وجهه الكنود العابس.

- وإذا كنت مولود عزوزي؟

- وإذا كنت أو لم تكن.. أهذا جواب يا عباد اللّه؟ عوضًا عن كرسي وجرعة ماء أو قنينة بيرة.. اسمع هل أنت مولود عزوزي؟

- نعم أنا المدعو مولود عزوزي.

- أخيرًا .. أخيرًا.. هنا حطنا الجمّال.

وبدأ يبحث عن ورقة في جيبه، ويخرجها بين أصابع بدت أظافرها قطعة من روث البقر.

- هناك قضية لعينة، قضية تهرّأ نصف نعل حذائي وأنا أسعى لأخلُص منها.. لا أدري لماذا يتعب هؤلاء الملازمون ذوو النجمات على أكتافهم.. دعنا نحتم من هذا اللهيب تحت الرواق.. نعم هكذا أحسن، هؤلاء الذين يقبضون يوميًا ما يكفي لأن تسكر شهرا كاملا. لماذا يتعبون أنفسهم بالتفتيش عن شخص لا أعرف من هو، ولا يعرف أحد قرعة أبيه من أين ؟. ما اسمه.. ما اسمه؟ محمد علي الصغير !! كأنه لا هم لي إلا أن أبحث عن شخص ميت، لقد قالوا لي إنه فطس، ولكن ليس هناك من مبرر في العالم، ولا يرضى اللّه ولا عباده ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر ولا ذووا النجمات الذي يريحون أقفيتهم الرجراجة على كراسي الدوائر، ان أفطس معه.. يا لها من قصة لعينة.. لا أحد يعرف لا أمه العاهرة ولا أباه الساقط.. أتعرف؟ أريد أن أبول على رأس...

لا أحد يعرفه .. لاأحد يعرفه!! ولم يشعر مولود عزوزي بالغضب، بل شعر بأن الفقاعات التافهة تنفجر أمام عينيه.. شيء ما ينكسر في أعماقه، وها هو صوت الانكسار ناشزًا ومؤلمًا في أضلاعه..

ضربة سكين غادرة في القلب، جبل ينقسم قسمين بصوت لا مدرك كهسيس تساقط الثلج، ونظر إلى الفكين المبللين اللذين يجتران الكلام أمامه، ولم يفكر في أن يدفع قبضته النزقة القوية ليغتال هذا الثغاء.. كان يسمع صوت الدركي من بعيد كأنه يشكل إطارًا متناقضًا مع كل جليل وعظيم.. كصوت ضباع جبانة تنتظر معركة بين نمرين.. تنتظر بصبر عظيم وتحلم باللحم الميت. لا أحد يعرفه!!؟ وبرقت القسمات القاسية أمام هدبيه حية فتية، وانفتح أمام أذنه صوت آخر:

- كل من يتحرك يموت!! سنذهب إلي الحسكة.. هل من اعتراض؟

وتحرك أحدهم، وها هي رصاصة علي الصغير تتركه يعلك التراب، ويسرع الجميع إلى مقاودهم، وتستدير سيارات الذخيرة الخمس نحو الحسكة،

نحو المقاومة، نحو معنى الحصان العجوز، ويضحك محمد علي الصغير إحدى ضحكاته النادرة:

- في السيارات ما يكفي للمقاومة ثلاثة أشهر، سيتغير الموقف كله في الشمال الشرقي، من يدري.. من يدري؟ فقد تشتد أعصاب الشام وحماه، لا يمكن أن يعلم الانسان أي كنز هو ما نحمل .. أعرف طريقًا مختصرًا.. سنستدير نحو اليمين، راقب السيارات يا مولود.. لا تحزن على القتيل.. إنني أعرفه، لقد كان في المكتب الثاني، وقد أرسل جاسم إلى السجن.. تعال استلم القيادة.. وظلَّ صامتًا أرجوك.. أريد أن أستريح. لقد ذبحني التعب.

فكا الدركي لا يزالان يتحركان، وما زال الغثاء بدون اغتيال، ومن بعيد كان يرى السراب، كانت بحيراته كلها عيونا دامعة فرحة، وكانت أيد كثيرة تعانق محمد علي الصغير ومولود غزوزي، وكانو ينظرون إلى السيارات الخمس الجاثمة تحت الغبار ولا يصدقون.. وكانوا يكشفون الأغطية وهم يفركون عيونهم، وكانوا يجسّون الرشاشات ومدافع الهاون والقنابل بأيد مرتجفة، أما «السبانوسويزا» فكان قمة المفاجأة، وكان القائد السوري يبكي:

- صرت أومن بالمعجزات.. صرت أومن بالمعجزات.. لقد ولد هذا البلد تحت نجم طيب.. بورك البطن الذي حملك يا محمد.. بورك الأب الذي أنشأك يا مولود.. يا ولديّ .. يا بطليّ.. أنتم الوطن لقد أنقذتم الوضع كله.. طاب الموت يا جماعة.. هل أهذي؟ نعم إنني أهذي.. لقد نفذت آخر رصاصة أمس.. يا إلهي.. يا إلهي الرحيم.. اضربوا طلقة هاون نحـــو السماء شكرًا ليعرفوا أننا لا نزال نحيا .. لا نزال نتنفس.

وشبك مولود عزوزي يده بعصبية، ورأى يدي محمد علي الصغير ترتجفان على الرشاش بعصبية، وتتالت الطلقات، وكان الفرنسيون يموتون بدهشة وذعر، وكانت كل رصاصة تئز كصوت محمد علي الخشن.

لا أحد يعرفه.. لا أحد يعرفه..

– أرأيت ما فعلت يا محمد علي الصغير؟ لن ينسى لك الوطن ذلك.. لقد ربحنا.. ربحنا الكثير، وسأبعث لك من الشام وساما، وستستقدمك الأركان.. سترفع إلى ملازم.. ستنال مكافأة كبيرة.. أي شيء لا أفعله من أجلك؟ دعني أعانقك.. دعني أقبلك.

مرّت قبرات مزقزقات، محمد علي الصغير يكافح الجوع بهدير محركات التراكتور، لقد أكله الخبز وهضمه ولم يبق إلا أن يلفظه، وها هو يبدو ناحلاً حالما بجبال خضراء.. بأرض بعيدة.. بعيدة تشتعل بالثورة.. وهو يستمع دومًا إلى آخر الأخبار ويتحرق لأن يجمع ما يمكنه من السفر إلى الجزائر .. وها هي ذي القبرات تهرب من هدير التراكتور. وها هو المحرك يقف، وها هي ذي القبرات تقترب نحو الرجل الممدد لتشاركه العشاء الرباني.. يا له من رجل شهير !! يا له من رجل بطل!! هه.. القبرات لا تطير بل تقفز نحو الرجل الممدد، لقد وقفت خفقات قلب الآلة، وتتهادى واحدة نحو رأسه في وقار، وتفتح منقارها وتبكي للدم المطلول لم يؤخذ بثأره.. إنه شهير .. شهير !! حتى الطيور كانت تعرفه!!

– يا له من حَر!! أعوذ باللّه من حر جهنم، ومع ذلك، حينما يكون عباد اللّه في بيوتهم، يدغدغون سيقان نسائهم، يأتيك أمر قراقرشي: ابحث عن فلان.. اسأل عن علان.. وتدور أربعة أركان البلد، لاهثًا مثل كلب أجرب، تلوب على ابن عاهرة اسمه كذا، فيتبين لك أن الأفندي قد فطس.. ماذا بك يا مولود؟ هل تحس بمرض؟ قل لي أخيرًا: هل مات محمد علي الصغير؟

فتهاوى مولود إلى جانب الدركي نحو الظل، وجلس مكومًا على الأرض.. صغيرًا.. ضائعًا.. خائفًا:

- نعم يا سيدي لقد مات محمد علي الصغير، مات منذ زمن طويل.. بعيد .. هل قيل لك: إنه ليس معروفًا من أحد؟ ومع ذلك فقد اشترك في دفنه أناس كثيرون.. كثيرون جدًا .. هل معك سيجارة يا سيدي؟

* * *

الفهرس

الصفحة

الصفحة

سنتان وتحترق الغابة

شتاء قاس آخر

الطبعة الثانية / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

سعيد حورانية

١٩٢٧-١٩٩٤

يعتبر سعيد حورانية واحدة من أهم المؤسسين المبدعين، السوريين والعرب، لفن القصة القصيرة.

ضمن مشروع نشر الأعمال الكاملة للأدباء السوريين المؤسسين، تقدم وزارة الثقافة الأعمال القصصية الكاملة لسعيد حورانية.




www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٣٩٠ ل.س أو ما يعادلها